المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

كوكب العشوائيات

تأليف
مايك ديڤيز

ترجمة وتقديم
ربيع وهبه

2023



كوكب العشوائيات

المركز القومي للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 2023
- كوكب العشوائيات
- مايك ديفيز
- ربيع وهبه
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:
Planet of Slums
By: Mike Davis

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

كوكب العشوائيات

تأليف : مايك ديفيز
ترجمة وتقديم: ربيع وهبه



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ريفيز، مايك
كوكب العشوائيات/ تأليف:مايك ريفيز، ترجمة وتقـديم:
ربيع وهبه.
ط١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
٣٨٠ ص ، ٢٤ سم
١ - العشوائيات
(أ) وهبه، ربيع (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٧١١,٥٩

رقم الإيداع ١٧٩٧ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 916 - 0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم

الثورة على النظام:

في مصر الثورة، ما زلنا ننادي ونعمل على إسقاط النظام، حيث إن النظام لا يسقط بمجرد سقوط رأسه، مثلما هو الحال في لعبة الشطرنج. فلا يزال النظام قائمًا بكل مساوئه المباشرة وغير المباشرة. خصوصًا أن نظام مبارك قد أسس لجيش جرار من المرتزقين بالفساد، الذين لا يهمهم سوى التربح على حساب أي شيء، حتى ولو كانت عزة الوطن وكرامة المواطنين الشرفاء.

ولا شك أن قضية العشوائيات، تمثل أبرز نتائج النظام القائم، وهي في الوقت نفسه تدل على استسلامه الخانع لسياسات اقتصادية دولية؛ تأتي دائمًا- وفي أرجاء العالم الثالث- على رقبة الفقير. فإذا استطاع الفقراء التغلب على الفقر بعزة النفس والاجتهاد، مثلما تيسّر لهم في الماضي، فإنهم لن يستطيعوا الإفلات من سياسات الإفقار والقتل، المتمثلة في المبيدات المسرطنة، والتلوث، والبطالة، والمحسوبية، والتمييز في تولي الوظائف، وكذلك المياه المخلوطة بالمجاري، وإذا أفلتوا من هذا وذاك، لن يفلتوا من مصير الإخلاء القسري الذي دائمًا ما يتم تحت راية التقدم والتحضر والتطوير العمراني؛ عبر نهج مشاريع استثمارية عالمية وخليجية، لا تضع حاجات الفقراء الضرورية في حسبانها.

خارج الحضر، نحن على علم بالطبع بما حدث منذ ١٩٩٦، بالتزامن مع صدور قانون المالك والمستأجر، ولا يزال يحدث على أثره، من تهجير

الفلاحين من أراضيهم الزراعية من أجل إعطاء الأراضي للمستثمرين الذين يزرعونها بمحاصيل تصدير؛ لدر الأرباح على حساب البنية الأساسية للإنتاج الزراعي. وهو ما تسبب كما رأينا في تقلص الرقعة الزراعية من ناحية، وتدهور ما بقي من أراضٍ زراعية، لم تسلم من التعدي والتجريف والزحف العمراني غير المخطط، وهجرة الأيدي العاملة من صغار الفلاحين من ناحية أخرى، وفي النهاية نجد أنفسنا معتمدين في غذائنا الضروري اعتمادًا كليًا على الاستيراد، ومؤخرًا الذهاب إلى استئجار أرض للزراعة في بلاد الآخرين!! والأخطر من ذلك؛ إفساح الطريق أمام طوفان من الفلاحين المهاجرين بحثًا عن لقمة العيش، ومن ثم التوسع في أساليب التصرف اللارسمية، ومنها بالطبع العشوائيات.

إذن المشكلة في مجتمعاتنا مضاعفة، فنحن لم نحقق نظامًا رأسماليًا، ولا نظامًا اشتركيًا؛ بل حققنا نظامًا خليطًا من الألغاركية والكليبتوقراطية؛ فكل الأمراض التي أصبحنا نعاني منها في مجتمعنا، وعلى رأسها التغني الكاذب غير الواعي بأيام مبارك؛ كانت نتيجة التكالب على موارد الشعب من أجل الثراء السريع الفاسد، حيث يذكر أحد أصحاب المصالح، بعد خلع مبارك، أن "في عصره كانت تدخل للبلد أموال كثيرة، وأن دخول ثلاثين جنيهًا يُسرق منها عشرة؛ أفضل من الانهيار الاقتصادي"!! إن المحلل والمتابع سوف يلاحظ أن التشدق بالانهيار الاقتصادي، خلال الأيام القليلة الماضية؛ أصبح مقرونًا بالحديث الجاد عن ضرورة وقف النهب والفساد. وهو ما يمثل في مجمله خطابًا دفاعيًا أو تبريريًا، من جانب طبقة الأغنياء الجدد، والواقفين خلفهم في صفوف المستفيدين من هيمنة الفساد. ففي مصر، وعلى مدى عقود، لم تتحقق الرأسمالية بأشكالها الموجودة في العالم الغربي، التي تسعى إلى تحقيق التقدم لمواطنيها، بل حققنا نوعية من الرأسمالية

تنطوي على انحطاط مركّب، بحيث لا يمكنهـا العـيش إلا علـى الفـساد، والحرث على جثث أجيال من المفقرين. "ولو كان للرأسمالية العاتيـة وجـه غير مقبول في عمومه، فإن الأسوأ من ذلك الوجه على الدوام، دولةٌ فاسـدة تعمل لصالح الأغنياء فقط. وفي مثل هذه الظروف، لا يمكن التعويل علـى تحقيق الكثير، حتى ولو بمحاولة تحسين النظام"(١).

كثيرة هي الجرائم التي ارتكبها نظام مبارك، وما زال يمارسها أمـام أعيننا، وعلى حساب أمن المواطنين وسعيهم الطامح لعـيش حيـاة كريمـة والنهضة بالبلاد؛ لصالح الاستمرار في النهب والسلب بشتى الطرق. وقد ثار الشعب المصري منذ ٢٥ يناير وحتى الآن؛ من أجل وقف هذا النزيف الذي كان أول أسبابه تحول الدولة إلى سمسار في كل المعاملات؛ لتخلي الـساحة بين الشركات والمؤسسات المالية الدولية، وعلى رأسها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وبين المواطنين المفقـرين والمهمـشين المعرضـين دائمًـا للاستغلال والتعذيب، وسوء المعاملة في العمل وفي الشارع وفي السكن.

وقد شاهدنا كثيرًا قبل ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، كيف أصبحت منظومـة القهر عنقاء تعيد إنتاج نفسها داخل المجتمع، وبشتى الطرق. فالرجل المقهور في عمله، وفي الشارع، وفي قسم البوليس، لا يجد بدًّا من إعادة إنتاج القهر على ذويه من أطفال ونساء، وهكذا.. حتى أصبح المجتمع مليئًا بالعنف ودائم الاستعداد لمزيد من العنف، مجتمعًا يعيش بلا أمل في الكرامة، مفتقدًا- عن عمد- للوجهة الإنسانية الصحيحة والبنّاءة. حتى أنه لم يسلم مـن اسـتغلال تجار الدين؛ هؤلاء الذين يريدون هم أيضًا استغلال ضعفه وهوانه؛ واعدين إياه بعالم آخر أفضل؛ إذا صبر وصار طوعًا لهم. وكل هذا يتم أيـضًا مـن

(1) Alan Gilbert and Peter Ward, *Housing, the State and the Poor: Polity and Practice in Three Latin American* Cities, Cambridge 1985, p. 254.

أجل جني أرباح الدعاية الدينية، سواء بالمنح الآتية من دول الخليج ذات الميل السلفي، أو تلك الآتية من أرباح إعلانات التلفاز الفضائية، وهي دعاية لا تختلف كثيرًا عن دعاية النظام الهادفة إلى إلهاء المواطن، وتكميم الأفواه والانشغال بأية تسلية بعيدًا عن المطالبة بالحقوق والحريات، وتجنيب الوعي العام الالتفات إلى الأسباب الحقيقية للفقر.

وقد حدانا الأمل عندما خرجنا جميعًا تحت شعار "الشعب يريد إسقاط النظام"، وكنا كلما تطور الوضع في صالح الثورة؛ ازداد داخلنا الأمل في أن واقعًا عالميًّا جديدًا سيبدأ من هنا، من مصر، من جميع مدنها الثائرة لخلق واقع جديد أكثر إنسانية وعدالة، يسع الجميع.. الأمل في أن تكون مصر وبقية البلدان العربية شرارة البدء في صياغة عالم جديد، يوقف النزيف الذي تعاني منه الشعوب منذ عقود طويلة، تحت راية العولمة، وإعادة التكيف الهيكلي والخصخصة، وتحرير السوق، وغيرها من سياسات النيوليبرالية المتوحشة، التي لم تترك البلدان الصناعية صناعية ولا الزراعية زراعية.

ولذلك، فإنه من المؤكد أن الشعارات التي رفعها الشعب بمختلف طوائفه وفئاته منذ ٢٥ يناير، "خبز ... حرية ... عدالة اجتماعية"، لن تتحقق هنا بسقوط مبارك، ولا بسقوط النظام المصري القديم، أو التونسي أو السوري أو اليمني، بل لا بد أن تستمر المطالبة بها والتأكيد عليها؛ لتكون شرارة ضد ظلم وبطش سياسات وشركات عالمية، تتسبب كل يوم في انتشار الفساد وانعدام المساواة بين طبقات الشعب الواحد.. هذه هي الحقيقة وراء ثورات الشعوب المندلعة هذه الأيام في المنطقة، وما سوف يليها قريبًا من هبّات أخرى لشعوب؛ أصبحت لا ملاذ لها سوى الثورة على حكومات استبدادية، وشركات عالمية تسلّع وتبيع أي شيء؛ فسارت تتفنن في الثراء على جثث الفقراء والمهمشين والمستضعفين. وما أمقتها من مصطلحات

دخلت قاموس الإنسانية، في ظل سيادة العولمة والاستغلال السيئ لخطاب حقوق الإنسان. حيث لا بد لنا من أن ننفض- عند توصيف المواطنين- مثل هذه المصطلحات التي أصبحت تكرس لدائرة مفرغة في الخطاب السياسي الاجتماعي؛ تبدأ من الإفقار ثم المعونات لدعم المفقرين والمهمشين، وبالتالي تكميم الأفواه بأنشطة شبه خيرية لا تخلو أيضًا من فساد مضاف؛ في سياق عمل بعض المنظمات غير الحكومية الفاسدة، وهو ما سنرى له أمثلة كثيرة في هذا الكتاب، لا في مصر والعالم العربي فحسب، بل في كل مدن وبلدان جنوب العالم؛ باختلاف درجاته وألوانه.

ففي كل بقعة من أرضنا الواسعة، تريد الشعوب أن تتحرر من أسباب حرمانها من حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تريد التمكين فعليًا من الحق في الصحة، والحق في التعليم، والحق في الغذاء، والحق في السكن اللائق.. وأخيرًا نريد التحرر من العوامل التي تفضي بنا إلى العشوائيات؛ ذلك العَرض المزمن لمرض الرأسمالية المتوحشة والعولمة الجائرة المتعسكرة.

كوكب العشوائيات:

في قراءة هذا الكتاب، تتمة لأفكار كثيرة وخلاصات عملية، تتعلق بكافة حقوق الشعوب؛ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبالتالي أوضاع هذه الحقوق على أرض الواقع. وقد كانت الانتهاكات الجائرة التي لحقت بهذه الحقوق في منطقتنا العربية، هي الشرارة التي طال انتظارها لانطلاق ثورات التغيير، والبناء من جديد.

هذا الكتاب يتناول واحدًا من أهم الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهو الحق في السكن، ولكن من منظور يستند إلى الرصد والتوثيق

لأبشع الانتهاكات التي يمكن أن تلحق بحق الإنسان في السكن، بداية من عدم وجود مأوى، وحرمان المواطنين منه بسبب السياسات الدولية والعمالة المحلية؛ أو الفقر، أو بسبب الاثنين معًا؛ مرورًا باللجوء إلى العشوائيات و"العيش في الخراء" كما يقول الكاتب، انتهاءً إلى الإخلاء القسري الذي يعد الانتهاك الأشهر للحق في السكن الملائم والأكثر انتشارًا في العالم، وكذلك الأكثر ارتباطًا برأسمالية الشركات الجائرة بمسميات عدة من ضمنها التحديث والتنمية العمرانية والاستثمار، وكلها كما يظهر واضحًا في الأمثلة الواردة في هذا الكتاب تقوم على ضرورة التخلص من الفقر، بالطريقة الأضمن دائمًا، وهي التخلص من الفقراء أنفسهم، وذلك من خلال نهج حكومي يسلك عدة طرق غريبة حول العالم، منها ترك الفقراء لأنفسهم يصارعون من أجل البقاء، تحت وطأة التلوث، والازدحام والبطالة والمرض، وغيرها من ضروريات التهميش، وإزاحتهم بعيدًا عن المنظر الطبيعي الجميل والعمراني الراقي، الذي لا بد ألا يتكدر صفوه بالحثالة؛ حرصًا على صفوة المجتمع.

كما أن الأمر بالطبع لا يخلو طوال الوقت من استغلال وحشي لأفقر الفقراء، حسب الغاية، فتارة يتعرض الفقراء والمهمشون إلى الاستغلال من الحكومات، خصوصًا أوقات الانتخابات، حين يصبح لهم فائدة في نظر الحكومة، وتارة أخرى تستغلهم بعض منظمات المجتمع المدني الفاسدة؛ بالتسول من أجلهم. حيث غالبًا ما تذهب أموال التمويل إلى غير مواضعها. فهي عادة ما تتسرب عبر قنوات الفساد، إلى جيوب المديرين والأقرباء المقربين، وينتهي الأمر بها عند حدود عقد المؤتمرات وورش العمل والتدريب!

حتى في عالم المجتمع المدني وأنشطته وعلاقتها بأموال المانحين، لا تزال الأولوية للحقوق المدنية والسياسية، وعلى رأسها الديمقراطية بصورتها

المحلية المشوهة، وذلك كوسيلة لحماية مصالح الغرب الإستراتيجية من المد الأصولي الإسلامي، أو أي تحرك يُظَن أنه معادٍ للغرب.

وهنا تصبح قضية الديمقراطية مجرد آفة، تأتي خسائرها كلها على عاتق الفقراء، وساكني العشوائيات، فإذا كان بعض ساكني العشوائيات يرتكبون "جريمة" كونهم حجر عثرة في طريق التقدم العمراني والمدني الحضري، فإن غيرهم يخطئون أحيانًا بالتجرأ على تصديق ممارسة الديمقراطية. وهذا كما ذكرنا، ليس حكرًا على مصر والعالم العربي وحدهما، بل يحدث في الشق الجنوبي من العالم كله.. ومن أمثلة ذلك الكثيرة، أنه في أعقاب الانتخابات الملطخة بالفساد في زيمبابوي ٢٠٠٥، صب الرئيس "روبرت موجابي" جام غضبه على أسواق الشارع وعشوائيات هراري وبولاوايو Bulawayo، حيث كان الفقراء قد صوتوا بأعداد كبيرة لصالح حركة التغيير الديمقراطي Movement for Democratic Change المعارضة. وكانت المرحلة الأولى من العملية التي أخذت عنوانًا شريرًا مشينًا Murambasvina ("التخلص من الزبالة") في أوائل مايو/ أيار تمثلت في هجوم الشرطة على ٣٤ سوقًا من أسواق الشارع التي تتاجر في السلع الرخيصة داخل المدينة. وقد وردت معلومات عن قيام ضابط شرطة، يحث رجاله قائلا: "من يوم غد، أريد تقارير فوق مكتبي تقول إننا أطلقنا النار على أشخاص. لقد أعطانا الرئيس تأييده ودعمه الكامل لهذه العملية؛ ومن ثم لا يوجد شيء نخشاه. لا بد أن تتعاملوا مع هذه العملية تمامًا كأنها حرب"(٢).

إنها فعلاً حرب، ولكنها الحرب ضد الفقراء، وقد بدأت منذ عقود طويلة، ولا تزال تدور رحاها فتحصد كل يوم آلافًا من الفقراء المعدمين. إنها حرب ضروس، تتكالب فيها مؤسسات دولية كثيرة وحكومات خائنة،

---

(2) Munyaradzi G

تشنها ضد المواطنين العزل المحرومين من كل وسائل التمكين والعيش بكرامة. حرب بربرية تمثل النتيجة الطبيعية للثراء الفاحش الذي وصل إليه العالم، والذي لا يمكن أن يتحقق إلا بالظلم والتفاوت الجائر في توزيع الموارد. وهي نتيجة طبيعية أيضًا لسحب الدولة يدها عن إدارة الأمور اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا، والتحول إلى مجرد حكومة تمارس السمسرة، ونهب الثروات الوطنية، والتأكيد على حفظ الأمن بأكثر الأساليب وحشية وانعدامًا للإنسانية.

"الأمن" أصبح ثقافة السخفاء:

في أعقاب الأحداث الأولى من ثورة ٢٥ يناير الشعبية، وتحديدًا يوم ٢٨ يناير الذي خرج فيه المصريون كلهم، حاولت الماكينة الإعلامية الفاشلة للنظام الساقط، والتي كانت بخيبتها المزمنة سببًا من أسباب نجاح ثورتنا، أن تروّج لإشاعات تتعلق بالإنفلات الأمني، والكوارث التي ستحل بالبلاد نتيجة خروج ساكني العشوائيات. ولكن ما حدث فعليًا أن سكان العشوائيات دافعوا عن الممتلكات، وصانوا أمن المواطنين، عبر اللجان الشعبية. وفي حقيقة الأمر، ظل الانفلات الأمني مسئولية عناصر أمن الدولة، والعناصر المنحلة من الشرطة، وجيش البلطجية الذي أسسه النظام السابق الذي كان يسير وفق حكم وديكتاتورية جهاز أمن الدولة.

هذه الحقيقة السابقة، لا تنفي أن التباعد بين الطبقات الاجتماعية عبر وسائل الأمن المحكمة، أصبح ظاهرة عامة تميز الصراع الطبقي في أرجاء العالم، حيث إن الثراء الفاحش يقتضي دائمًا حماية الثروات والممتلكات من غضب الفقراء والمحرومين، الذين حتمًا سوف يظهر بينهم من لا يستطيع

حل مشاكله، إلا بمحاولة التعدي على ممتلكات الآخرين. ومن هنـا ازدادت الاحتياطات الأمنية في المدن الجديدة المبوبة والمسورة إلى أن وصلت إلـى تكلفة عالية، وأصبحت تجارة رائجة في العـالم الثالـث لحمايـة أصـحاب الممتلكات والموسرين حديثًا، من الهجمات المحتملة من جانب المحـرومين والفقراء. وهذا الواقع هو ما يكرس لوجود واستمرار العشوائيات وانتشارها، فالسبب الجذري في وجود العشوائيات الحضرية، لا يبدو كامنًا فـي الفقـر الحضري؛ وإنما في الثراء الحضري"(٣).

وهنا يقول الكاتب: نجد مجتمع المدن المسيجة أو المعزولة عن العـالم الخارجي، ببوابات ومتاريس، أصبح يطلق عليها "التنمية الأكثر دلالـة فـي التخطيط والتصميم الحضري الحديث"(٤). هذه العوالم "المعزولة، أو البعيـدة off-worlds"– باستخدام مصطلح بليد رانر Blade Runner– غالبًا ما تُهندَس على طريقة مناطق جنوب كاليفورنيا Southern Californias. فمنطقة "بيفرلي هيلز"، على سبيل المثال، لا توجد فقط في النطاق البريدي ٩٠٢١٠؛ بل إن هناك ضاحية من ضواحي القاهرة بالمسمى نفسه، ومعها "يوتوبيا" و"دريـم لاند"، مدن خاصة بالأثرياء، "سكانها يمكنهم الحفاظ على المسافة بينهم، وبين منظر وقسوة الفقر، والعنف، والإسلام السياسي، والذي يبـدو أنـه يتخلـل المواقع المحلية"(٥). وبالمثل في الصين، نجد "أورانـج كـاونتي/ المنطقـة البرتقالية Orange County" عبارة عن منطقة مسورة بالبوابات، مكونة مـن البيوت المتمددة على نمط كاليفورنيا، ذات المليون دولار، صـممها مكتـب

---

(3) Gita Verma, *Slumming India*, p. xix.

(4) Pu Miao, "Deserted in Jammed Town: The Gated Community in Chinese Cities and Its Solution," *Journal of Urban Design* 8:1 (2003), p. 45.

(5) Asef Bayat and Eric Denis, "Who is Afraid of *Ashiwaiyat*?," *Environment and Urbanization* 17:2 (October 2000), p. 199.

الهندسة المعمارية "نيوبـورت بيـتش" Newport Beach، وديكـور مارثـا ستيوارت Martha Stewart، على الضواحي الطرفية الشمالية لبكين.

إن الطلب على مسائل الأمن والعزل الاجتمـاعي، أصـبح وسواسًـا عالميًا، كما هو الحال في الأحياء المركزية والضواحي في مانيلا مثلاً، حيث تقوم جمعيات مُلاّك المنازل بعمل متاريس في الشوارع العامـة، ويـشنون حملات من أجل هدم العشوائيات. ويصف "إرهارد برنـر" Erhard Berner مقاطعة "لويولا هايتس" Loyola Heights بقوله:

> نظام متطور من البوابات الحديديـة، والمتـاريس، ونقاط التفتيش، ترسم حدود المنطقة، وتعزلهـا عـن بقيـة المدينة، على الأقل في المساء. تهديدات الحياة، والمتعلقات، والممتلكات، تمثل الهم المشترك الغالب للـسكان الأثريـاء. المنازل تحولت إلى قلاع محصنة، وذلك بإحاطتها بأسـوار عالية، تعلوها شرائح زجاجية، وأسلاك شـائكة، وقـضبان حديدية سميكة على النوافذ(٦).

وهذا النمط من "فن عمارة الخوف"، على حد وصف "تونـد أجبـولا" Tunde Agbola، لأنماط الحياة المحصّنة في لاجوس، نمط شائع في العـالم الثالث، وفي أجزاء من العالم المتقدم، ولكنه يبلغ مداه العالمي في مجتمعـات حضرية كبيرة، تنطوي على مظـاهر مـن انعـدام التكـافؤ الاجتمـاعي الاقتصادي، هي الأكبر من نوعها، كما في جنـوب أفريقيـا، والبرازيـل، وفنزويلا، والولايات المتحدة، ومصر. ففي جوهانسبرج، حتى قبل انتخـاب نيلسون مانديلا، أخلَت الأنشطة التجارية الضخمة، والسكان الأثرياء البيض،

(6) Berner, *Defending a Place*, p. 163.

المركز الحضري متوجهين إلى الضواحي الشمالية (سانديتون Sandton، وراندبرج Randburg، وروزبنك Rosebank، وغيرها)، والتي كانت قد تحولت إلى نُسخ من "المدن الحدودية" الأمريكية شديدة التأمين. وداخل هذه المدن المسورة الممتدة في الضواحي ببواباتها المصمتة، والتجمعات السكنية الصغيرة، والشوارع العامة المتترّسة، يرى عالم الأنثروبولوجي "أندري تشيجليدي" Andre Czegledy أن "الأمن" أصبح ثقافة السُخفاء.

الجدران المرتفعة ذات المقاييس العالية، غالبًا ما تعلوها إبر معدنية، وشفرات حادة، ومؤخرًا زاد السلك الكهربائي الموصل بإنذارات طوارئ، موصلة بدورها إلكترونيًا بـ"رد مسلح" من شركات الأمن. ولا شك في أن الطبيعة السيريالية لذلك العنف الضمني المستتر، برزت في ذهني يومًا ما، عندما كنت أسير مع زميلي في و"يستدين" Westdene، أحد الأحياء الأكثر انتماءً إلى الطبقة الوسطى في الضواحي الشمالية. على جانب الطريق، كانت هناك سيارة صغيرة تابعة لشركة أمن محلية تقف منتظرة، وقد برزت على جانبها حروف كبيرة، تقول: إنها ترد "بأسلحة نارية ومتفجرات".. متفجرات؟(٧).

---

(7) Andre Czegledy, "Villas of Highveld: A Cultural Perspective on Johannesburg and Its Northern Suburbs," in Richard Tomlinson et al. (eds). *Emerging Johannesburg: Perspectives on the Postapartheid City*, New York 2003, p. 36.

القطاع اللارسمي:

إن أول منتجات انسحاب الدولة، وأبرزها، في العصر الحديث، تمثّل في ظهور كل ما هو غير رسمي. والعشوائيات في إحدى تعريفاتها، هي المستوطنات البشرية اللارسمية informal settlements. فمع بداية موجات الخصخصة، والقروض المكبّلة للمواطنين، من صندوق النقد الدولي من أجل التكيف الهيكلي، أصبحنا أمام موجات عاتية ومتواصلة من الأنشطة اللارسمية. وكل هذا يدور بالطبع وفق ما هو مقرر في السياسات النيوليبرالية، حيث إن التنافس الشديد غير العادل يجعل المنخرطين في منافسات القطاع غير الرسمي واقعين تحت ظروف تشهد تزايدًا لا محدودًا في المعروض من العمالة، عادة ما يؤدي في المقابل إلى الصراع وحرب شاملة للجميع ضد الجميع. وكثيرًا ما يتحول إلى عنف عرقي أو ديني، أو عنصري. فالآباء الروحانيون أو أصحاب الأراضي في القطاع اللارسمي (المخفيون في معظم الأدبيات)؛ يستخدمونَ القسر، بل والعنف المزمن في تنظيم التنافس وحماية استثماراتهم بذكاء. وكما يؤكد "فيليب أميس" Philip Amis: "ثمة عوائق للدخول في عالم رأس المال والسياسة، وهو ما يخلق ميلاً نحو الاحتكار في المجالات الناجحة، ضمن القطاع اللارسمي؛ تلك المجالات التي يصعب الدخول فيها"(٨).

وسياسيًا، يعد القطاع اللارسمي، في غياب حقوق العمل الجبري، عالمًا شبه إقطاعي قوامه التخليصات المالية، والرشاوى، والولاءات القبلية، والاستبعاد العرقي. فالمساحة الحضرية لا يمكن أبدًا أن تكون خالية. مكانًا على الرصيف، أو إيجار عربات الجر، أو عمل يوم في موقع بناء، أو

(8) Philip Amis. "making Sense of Urban Poverty," *Environmental and Urbanization* 7:1 (April 1995), p. 151.

توصية منزلية لصاحب عمل جديد، كل هذا يتطلب رعاية أو عضوية في شبكة ما مغلقة، وغالبًا ما تكون ميليشيا عرقية أو عصابة. وكما سنجد في هذا الكتاب، فإن الصناعات الرسمية التقليدية، مثل النسيج في الهند أو النفط في الشرق الأوسط؛ جنحت إلى تقوية التضامن العرقي عبر الاتحادات والأحزاب السياسية الرجعية المتطرفة، وصعود القطاع اللارسمي غير المحمي، الذي سار كثيرًا يدًا بيد مع التفريق العرقي الديني المغالَى فيه، ومع العنف الطائفي أيضًا(٩).

وقد استطاع "مانويل كاستيلز" Manuel Castells وغيره من النقاد الراديكاليين، أن يقدموا نقدًا مقنعًا لـ"أسطورة التهميش" التي ربطت ما بين انتشار السكن العشوائي في العالم، وبين اللارسمية الاقتصادية، بالإشارة إلى الأعداد الضخمة من العمال الصناعيين والموظفين العموميين الذين أُجبروا على العيش في سكن دون المستوى، في مدن مثل كاركاس وسنتياجو(١٠). فضلاً عن ذلك، ففي أمريكا اللاتينية على الأقل، كان تيار سوق العمل الحضري المتسيد خلال العصر السابق من التصنيع البديل للاستيراد، هو التخفيض النسبي في العمالة غير الرسمية- من ٢٩% عام ١٩٤٠ إلى ٢١% عام ١٩٧٠ على مستوى المنطقة ككل(١١).

ولكن، ومنذ عام ١٩٨٠، عادت اللارسمية الاقتصادية بصورة انتقامية، وأصبحت معادلة للتهميش الحضري والمهني، غير قابلة للدحض، وسائدة: فالعمال اللارسميون، بحسب الأمم المتحدة، يشكلون حواليّ خمسي

(٩) راجع الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(10) Castells, *The City and the Grassroots*, pp. 181-83.

(11) Orlandina de Oliveira and Bryan Roberts, "The Many Roles of the Informal Sector in Development: Evidence from Urban Labor Markets Research, 1940-1989," in Cathy Rakowski (de.), *Contrapunto: The Sector Debate in Latin America*, Albany 1994, p. 56.

السكان النشطاء اقتصاديًا في العالم النامي(١٢). وفي هذا السياق، يضيف بنك التنمية للأمريكتين Inter-American Development Bank، أنه في أمريكا اللاتينية وحدها، يشغّل الاقتصاد اللارسمي في الوقت الحالي ٥٧% من قوة العمل، ويوفر أربعا من كل خمس "وظائف" جديدة(١٣). (الواقع أن الوظائف الوحيدة التي خُلقت في المكسيك، فيما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٤، كانت في القطاع اللارسمي). وتزعم مصادر أخرى أن أكثر من نصف الإندونيسيين الحضر، ومن ٦٠ إلى ٧٥% من مواطني أمريكا الوسطى، و٦٥% من سكان دكا والخرطوم، و٧٥% من مواطني كاراتشي، يعيشون على القطاع اللارسمي(١٤).

الحضرنة:

ولا ننسى أن "الثيمة" الرئيسية لهذا الكتاب، هي الحضرنة urbanization، حيث يؤكد الكاتب أن النمو الحضري السريع في سياق التكيف الهيكلي، وتخفيض قيمة العملة، وتقليص معدل إنفاق الدولة؛ أصبح وصفة حتمية لإنتاج العشوائيات والأحياء الفقيرة بصورة ضخمة على مستوى العالم.

ولا بد هنا من إدراك أن السكن اللارسمي والعشوائيات، لا يصلح التعامل معها من باب الذوق والجمال وكونها فقيرة وهكذا، فمعظم المجتمعات المكونة على أراضي وضع يد، تعد نتيجة حتمية لما يسميه عالم الاجتماع

(12) *Challenge*, pp. 40, 46.

(13) Cited in *The Economist*, 21 March 1998, p. 37.

(14) *Challenge*, p. 103; Rondinelli and Kasarda, "Job Creation Needs in Third World Cities." *Third World Cities*, Hasan, "Introduction, in Khan, *Orangi Pilot Project*, p. xl (cities Karachi Master Plan of 1989); Ubaidur Rob, M. Kabir, and M. Mutahara, "Urbanization in Bangladesh," in Gayl Ness and Prem Talwer (eds), *Asian Urbanization in the New Millennium*, Singapore 2005, p. 36.

"آصف بايات" Asef Bayat ، في كتابته حول طهران والقاهرة "زحف هادئ للعامة": تسرب أو تخلل صغير الحجم، غير متحدٍ للأطراف أو المواقع الفارغة، أو ما يمكن تسميته بالمواقع الفجوية interstitial. وعلى خلاف "النمط البرختي"(*) Brechtian للصراع الطبقي و"المقاومة" لفقراء الفلاحين- الذي تشتهر إثارته في دراسات جيمس سكوت James Scott- فإن صراعات فقراء الحضر هذه "ليست مجرد دفاعية"، بل، ووفقًا لـ"آصف بايات"، هي "عدوانية هجومية على نحو خفي" فيما تهدف إليه، وبلا توقف من توسيع مساحة الحياة، وحقوق المحرومين من التصويت(١٥). إن هذه الأنماط من الزحف العمراني، كما سنرى بالتحليل والتفصيل في فصول الكتاب، عادة ما يتكرر تزامنها مع فرصة محبذة لاحتلال الأرض، مثل الانتخابات، والكوارث الطبيعية، والانقلابات، والثورة.

دور المجتمع المدني: أيُّ مجتمع مدني؟

النضال من أجل الحقوق له أشكال كثيرة، منها الدفاع القانوني وأنشطة المناصرة، والتوعية، والتعبئة الاجتماعية لأصحاب الحقوق للمطالبة بها، وتكريس الحريات. كل هذا من الطبيعي أن يتم من خلال تشكيلات وحركات اجتماعية، ولا بد أن نفرق جيدًا بين الحركات الاجتماعية ومنظمات الحركات الاجتماعية، وبالتالي المنظمات غير الحكومية التي جاءت نتيجة طبيعية لانحسار الحركات اليسارية الثورية، وانتشار الخطاب الحقوقي المؤسسي في بلدان العالم الثالث، منذ ثمانينيات القرن المنصرم.

(*) نسبة إلى الكاتب المسرحي الشاعر المخرج الألماني برتولت بريخت/ بريشت.

(15) Asef Bayat, "Un-civil Society: The Politics of the 'Informal People'," *Third World Quarterly* 18:1 (1997), pp. 56-57.

وفي هذا الصدد، **أمامنا نوعان** من العمل والنضال في إطار المجتمع المدني:

النوع الأول: عمل احترافي تحت مسمى "المنظمات غير الحكومية"، غالبًا ما يشوبه بعض الفساد، بداية من مؤسسة "الرجل الواحد" one-man-show، وانتهاءً بتكريس نفس المنظومة الحكومية الفاسدة من السيطرة على صنع القرار، وعدم تداول السلطة، وغياب الشفافية المالية، والبطش أحيانًا بالعاملين في المؤسسات التي تشتهر كثيرًا بالنضوب، وعدم خلق أجيال جديدة سواء من المحترفين أو المناضلين النشطاء، وهذا ما نراه حاصلاً في مصر، يمكنك حصر عدد النشطاء الحقوقيين والتنمويين المعتد بهم على مدى العشرين سنة عمر الحركة الحقوقية؛ فتصاب بالصاعقة من هذا الشح وتلك الندرة.

النوع الثاني: يتمثل في الحركات الاجتماعية، وبعض أنواع المنظمات غير الحكومية التي تستند إلى قاعدة شعبية عريضة، وتحتوي من الناحية الهيكلية على جمعية عمومية، تدير انتخاب من يمثلها، وتمارس بالفعل مفردات عملية ديمقراطية، والأهم شفافية مالية للموارد، وكيفية صرفها ومصادرها. وهذا النوع لا يمكن إغفال دوره في النضال من أجل الحقوق، واستعادتها من سالبيها، سواء حكومات أو شركات خصخصة. ومن النماذج الأمثل على ذلك "شبكة فلاحين بلا أرض" في البرازيل، وشبكة عبر الريف[١٦] via campasina، و"شبكة حقوق الأرض والسكن"، وهي شبكة عالمية تندرج تحت التحالف الدولي للموئل، الذي تأسس للعمل من أجل الحق في السكن الملائم، وذلك عام ١٩٧٦، وهذه الشبكة تتألف من حركات اجتماعية واسعة، ومنظمات غير حكومية على مستوى العالم، ويوجد لها

---

(16) حركة عبر الريف العالمية: www.viacampesina.org

فرع في القاهرة، وتعمل مع شركاء في مصر على الحق في السكن الملائم والأرض. وفي هذا السياق يمكننا الاستعانة بالجانب الإيجابي والبناء الذي تروج له الشبكة من العمل لصالح حقوق الإنسان في سكن ملائم، حيث من ضمن هذه الجوانب ما صاغته الشبكة من عناصر للحق في السكن الملائم، مستندة على المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، والحركات الشعبية والاجتماعية.

ومن هذه العناصر، الحق في الضمان القانوني للحيازة، والحق في السلع والخدمات العامة والبيئية، والحق في المعلومات، والموقع الملائم، والأمن الشخصي، والحصول على السلع والخدمات البيئية مثل الأرض والمياه، يمكن بالطبع الاطلاع على تجارب نضالية إيجابية لهذه الشبكة وغيرها عبر ممثليها في مصر والعالم العربي(١٧).

وفي هذا السياق أيضًا لا يمكن أن نغفل دور منظمات الأمم المتحدة، التي شابها مؤخرًا شبهة العمل مع الحكومات في مشاريع تأخذ في مظهرها التنمية العمرانية، ولكنها تنطوي على كثير من الانتهاكات، وهنا لا نعفي برنامج الأمم المتحدة للموئل UN-HABITAT الذي ثبت تورطه في دعم كثير من الخطط الحكومية مع البرنامج الإنمائي UNDP لبعض المدن، ومن بينها "القاهرة ٢٠٥٠" التي تعود بأهوال كارثية على كثير من ساكني العشوائيات والمناطق المهمشة.

وهنا، سنرى الكاتب أيضًا يركز على هذا الجانب من تخبط منظمات الأمم المتحدة، واصفًا حملة الأمم المتحدة للأهداف الإنمائية للألفية Millennium Development Goals (MDGs)، بوصفها الزفرة الأخيرة في

---

(17) شبكة حقوق الأرض والسكن- التحالف الدولي للموئل: www.hic-mena.org.

رئة المثالية التنموية؛ (الحملة التي عبر عنها كاريكاتوريًا، بشكل ساخر بعض الأفارقة العاملين في الإغاثة؛ بتغيير كلمة "الألفية" إلى "الدنيا"، أو "الحد الأدنى"، فأصبحت "الأهداف الإنمائية الدنيا" Minimalist Development Goals)، وكانت تهدف إلى تخفيض نسبة من يعيشون في فقر مدقع إلى النصف، بحلول عام ٢٠١٥، وكذلك التخفيض الشديد لمعدل الوفيات بين الأطفال حديثي الولادة، والأمهات، في العالم الثالث. وعلى الرغم من التعبيرات الاستعراضية لتضامن الدول الغنية، من قبيل "لنجعل الفقر تاريخًا" Make Poverty History، و"عش أحداث الثمانية" Live 8، التي تم تداولها أثناء قمة مجموعة الثمانية في جلينجيلز/ بأسكتلندا Gleneagles في شهر يوليو/ تموز ٢٠٠٥، ففي الأغلب، لم ولن تتحقق الأهداف الإنمائية للألفية، في المستقبل المنظور. وفي تقريرهم **حول التنمية البشرية ٢٠٠٤** Human Development Report، حذر باحثو الأمم المتحدة من أنه وفق المعدلات الحالية من "التقدم"، فإن أفريقيا جنوب الصحراء، لن تصل إلى الأهداف الإنمائية، حتى دخولها القرن الثاني والعشرين. وقد كرر الشركاء الرئيسيون في إحداث سوء التنمية في أفريقيا، يمثلهم صندوق النقد والبنك الدوليان، كرروا هذا التقدير المتشائم نفسه، في **تقرير الرصد العالمي** Global Monitoring Report الذي أصدراه في شهر أبريل/ نيسان ٢٠٠٥(١٨).

ولكن، ماذا يمكن أن تعمل حملات من هذا النوع، أمام هذه الحرب، وسياسات الفصل العنصري التي تمارسها الدول الغنية تجاه الفقيرة، وطبقات الأثرياء ضد المفقَرين والمهمشين داخل الدول الفقيرة؟ لقد أصبح هناك بالفعل

(18) *Human Development Report 2004*, pp. 132-33; Tanya Nolan, "Urgent Action Needed to Meet Millennium Goals," *ABC Online*, 13 April 205.

"سور عظيم"؛ وبالمعنى الحرفي، من القسر الواسع للتكنولوجيا العالية، التي تحجب الهجرة إلى البلدان الغنية بأعداد كبيرة، ومن ثم تظل العشوائيات وحدها حلاً مرخصًا تمامًا لمشكلة تخزين الفائض البشري للبلد.

حتى على مستوى المرور: نجد هيئات التنمية الدولية تشجع الحكومات المحلية على اتباع سياسات نقل مدمرة؛ بحكم تفضيلها لتمويل طرق أكثر من السكك الحديدية، وأيضًا بتشجيع خصخصة وسائل النقل المحلي. ففي الصين- التي كانت فيما سبق وطنَ الدراجة المتكافئة الحرة- يعطي المخططون الآن أولوية للسيارات غير رشيدة، ولاعقلانية الطابع. لقد دمرت بكين قطاعات واسعة من الأفنية التقليدية التي كانت مأوى للفقراء، وكذلك شبكتها من الدروب الخلفية الجميلة، وذلك من أجل تأسيس طرق للسيارات. وعلى نحو متزامن تمت معاقبة راكبي الدراجات بفرض رسوم للترخيص، وفرض قيود على الطرق الرئيسية، وإنهاء دعم الدراجات التي كانت اتحادات العمل تدفعها سابقًا(١٩).

نحن إذن أمام عملاق من سياسات الإفقار والثراء على حساب جموع المواطنين، مما يضطرهم إلى التنازل في كل شيء، ومن بينها السكن، فيسكنون في أماكن شديدة الخطورة. هذا كله وغيره من تجارب تتعلق بالنمو الحضري والعشوائيات، نجده في هذا الكتاب الذي يقدم تغطية فريدة لأهم ظاهرة في تاريخ البشرية، وهي انتشار العشوائيات كمظهر أساسي من مظاهر الحياة اللارسمية وانسحاب الدولة عن تأدية دورها، والوفاء بالتزاماتها الحقوقية اقتصاديًا واجتماعيًا.

---

(19) Example of Beijing in Sit, *Beijing*, pp. 288-89.

وجدير بالذكر هنا، أن حقبة الاستعمار التقليدي، كانت عـاملاً فارقـا كمنشأ وأساس لكثير من مشكلات ومظاهر الفقر العديدة، حتى الآن. ولعـل الاختلاف بين حملة استعماريةٍ وغيرها من الدولة المـستعمِرة نفـسها، قـد كرست الفروق الموجودة بالفعل بين البلدان الواقعة تحت الاسـتعمار، كـأن يختلف الاحتلال الإنجليزي في مصر مثلاً عنه في غانـا أو نيجيريـا، وأن يختلف برمته وطابعه عن الاحتلال الفرنسي أو الأسباني أو البرتغالي. فيبدو مثلاً أننا كمصريين قد فرضنا طابعنا على الاستعمار، وهذا ما يمكن تحليلـه فيما يتعلق بالصرف الصحي، حيث يرى الكاتب هنا:

"أن الأزمة العالمية للصرف الصحي تفوق الوصف. فأصولها، مثـل أصول كثير من المشكلات الحضرية العمرانية في العالم الثالث، تتجذر فـي الاستعمارية. فالإمبراطوريات الأوروبية، رفضت عمومًا تـوفير الـصرف الصحي الحديث، والبنية التحتية للمياه في الأحياء الأهلية، مفضلة بدلاً مـن ذلك استخدام التحديد النطاقي العنـصري، وكوردونـات الحجـر الـصحي cordons sanitaires، لفصل الثكنات والأحياء البيضاء عن أمـاكن الأوبئـة؛ ومن ثم فقد ورثت الأنظمة ما بعد الاستعمار– من أكرا إلى هانوي– عيوبًـا ضخمة تتعلق بالصرف الصّحي، إلى درجة أنها قليلة تلـك الأنظمـة التـي استعدت للعلاج بطريقة عدوانية. (فمدن أمريكـا اللاتينيـة تحتـوي علـى مشكلات خطيرة في الصرف الصحي، ولكن شيئًا منها لا يُقارَن مع حجـم وضخامة تلك المشكلات في أفريقيا أو في جنوب آسيا).

وأولويات الاستعمار في العالم بالطبع، تتمثل في تسليح الجيوش وبيع الأسلحة، حيث إن برامج التكيف الهيكلي– تلك البروتوكولات التي بواسطتها سلمت البلدانُ المَدِينةُ اقتصادَها إلى الدائنين؛ صندوق النقد والبنك الـدوليين–

"عادة ما تتطلب استقطاعات ضخمة من الإنفاقات العامة، تـشمل الـصحة (وليس الجيش مثلاً)"[٢٠]. وفي أمريكا اللاتينية والكـاريبي، قللـت سياسـة التقشف التي فرضتها برامج إعادة الهيكلة، خلال ثمانينيات القرن الماضـي من الاستثمار العامّ في الصحة ومياه الشرب، وهو ما أطـاح بمزايـا بقـاء الرضِع على قيد الحياة، والتي كان الفقراء من سكان الحضر يتمتعون بهـا سابقًا. وفي المكسيك، وبعد تبني جولة ثانية من برامج التكيف الهيكلي عـام ١٩٨٦، انخفضت نسبة المواليد التي تتم في حضور هيئة طبية، مـن ٩٤% عام ١٩٨٣ إلى ٤٥% عام ١٩٨٨، بينما ارتفعت حصيلة الموت المـرتبط بحمّى النفاس من ٨٢ امرأة وسط كل ١٠٠,٠٠٠ عـام ١٩٨٠ إلـى ١٥٠ امرأة عام ١٩٨٨[٢١].

الاستدانة.. مرة أخرى أحد الحلول؟!

أما وقد أصبحنا في مصر الآن واقعين بين فكّي الـشوفينية الدينيـة، ومشاريع ومطامع الحكم الديني المتعنّت من جانب، وبين التدهور والانهيار الاقتصادي، وتوجه حكومة الدكتور شرف إلى صندوق النقد الـدولي مـن جانب آخر؛ "فيجب العلم بأن الدَّين– مثلما يذكّرنا "وليام تاب" William Tabb في تأريخه الحديث لحكم الاقتصاد العالمي– أصبح هو النقطة الفارقة التـي تتحول عندها سلطة الأمم في العالم الثالث، إلى مؤسـسات بريتـون وودز Bretton Woods التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، وغيرها من البلـدان الرأسمالية الأساسية. ووفقًا لوليام تاب أيضًا، فإن فريق العاملين المحتـرفين

(20) Women's Global Network for Reproductive Rights, *A Decade After Cairo: Women's Health in a Free Market Economy*, Corner House Briefing 30, Sturminister Newton 2004, p. 8.

(21) Shi, "How Access to Urban Portable Water and Sewerage Connections Affects Child Mortality, " pp. 4-5.

في البنك الدولي، يمثلون المعادل ما بعد الحداثي للخدمة المدنية الاستعمارية، و"مثل الإداريين الاستعماريين، فهم لا يبدو أبدًا أنهم سـيُبعَدون؛ إلا ليحـل محلهم فريق استشاري جديد، لديه النظرة والسلطات نفسها علـى الاقتـصاد والمجتمع المحليين"[٢٢].

ربما نتذكر جميعًا أن مصر قد شهدت في عقد السبعينيات، عهدًا مـن قمع الدولة الشرسة، موجهًا ضد الأحياء الحضرية "الانقسامية" أو المعاديـة للنظام[٢٣]. والمثال الشهير لذلك، كان في أعقـاب أحـداث الغـضب فـي عام ١٩٧٧ المرتبطة بصندوق النقد الدولي في القاهرة. فسياسات الـسادات النيوليبرالية الفاشلة "الانفتاح"؛ أسفرت عن عجز ضخم جعل جيمي كـارتر وصندوق النقد الدولي يمارسان ضغطًا على الرئيس المصري لتـصحيحها. وهنا يكتب الصحفي "جنيف آبدو Geneive Abdo" أنه لسد هذه الفجوة؛ كان السادات مجبرًا على إلغاء الدعم، أو استنزاف الموسرين عبر فرض ضرائب على الدخل الشخصي. وكانت الطبقة البرجوازية، بوصفها قاعـدة شـعبية رئيسية، مهمة جدًا بالنسبة للسادات؛ لذا اختارت الدولة إلغاء نـصف الـدعم الموجه [لأغذية الفقراء المعيشية الأساسـية]"[٢٤]. ومـن جـانبهم، هـاجم القاهريون الغاضبون تلك الرموز المنتصبة أمامهم لنمط الحيـاة الفـاخرة، المرتبطة بـــ الانفتاح مثل الفنادق خمس نجوم، والكازينوهـات، والنـوادي الليلية، والعمارات السكنية، وأيضًا أقسام البوليس. ثمانون شخصًا قُتلوا أثناء الانتفاضة وحوالي ١٠٠٠ جريح.

---

(22) William Tabb, *Economic Governance in the Age of Globalization*, New York 2004, p. 193.

(23) Harris and Wahba, "The Urban Geography of Low-Income Housing," p. 68.

(24) Geneive Abdo, *No God but God: Egypt and the Triumph of Islam*, Oxford 2000, pp. 129-30.

وبعد ملء السجون باليساريين (القمع الذي جاء بأثر جانبي تفـع فـي صعود الإسلاميين المتطرفين في مصر)، صب السادات جام غـضبه علـى عشوائية "عشش الترجمان" في حي "بولاق أبو العلا" بالقرب مـن وسـط القاهرة، بوصفها مصدر ما وصفه آنذاك بـــ"انتفاضـة الحراميـة بقيـادة الشيوعيين". وقد أخبر الصحافة الأجنبية بأن المنطقة كانت "عشًا" بـالمعنى الحرفي للكلمة للتأليب على نظام الحكم، حيث يختفي الشيوعيون "حيث كان من المستحيل الوصول إليهم، نظرًا لضيق الشوارع التـي اسـتحال معهـا استخدام سيارات الشرطة"[٢٥]. وتقول متخصصة علم الأنثروبولوجي "فـرح غنَام": إن السادات، كان مثالاً لنابليون ذلك العصر، فقد أراد "أن يتم إعـادة تخطيط مركز المدينة؛ لتسمح بمزيد من السيطرة الفعالة والحكم البوليـسي". وقد تم تقسيم سكان "عشش الترجمان" الموصومين، إلى فئتين، وتم طـردهم إلى قسمين مختلفين من أطراف الحضر، بينما أصبح حيهم القـديم سـاحة واسعة لانتظار السيارات. وتدفع "فرح غنام" في حجتها بأن تطهير بـولاق أبو العلا، كان الخطوة الأولى في رؤية طموحة جدًا– لم يكن لدي السادات لا الوقت ولا الموارد لتنفيذها فعليًا– لإعادة بناء القاهرة، "باستلهام مدينتيّ لوس أنجيلوس وهيوستن كنموذجين".

وفي بلدان أخرى كثيرة ظهرت موجة من الاحتجاجـات المناهـضة لصندوق البنك الدولي، وصلت ذروتها بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٥، وذلك كي تتبعها موجة ثانية بعد عام ١٩٨٩. ففي كاركاس، في فبراير/ شباط ١٩٨٩، تسببت الزيادة التي أملاها صندوق النقد الدولي وكانت مستهجنة على نطاق واسع شعبيًا، في أسعار الوقود، وأجرة النقل؛ تسببت في إطلاق شرار الشغب

(25) Farha Ghannam, *Remaking the Modern: Space, Relocation, and the Politics of Identity in a Global Cairo*, Berkeley 2002, p. 38.

على يد راكبي الأتوبيس وطلاب الجامعة الراديكاليين، وسرعان ما حولت هراوات البوليس المواجهة إلى شبه– ثورة. وأثناء هذه الموجة من الاحتجاج التي استمرت أسبوعًا، وسميت كاراكازو Caracazo، نزل عشرات الآلاف من الفقراء من مناطقهم العشوائية على التلال؛ لنهب مراكز التسوق بالمدينة، وبناء المتاريس. وقد قُتل في هذه الأحداث ٤٠٠ شخص على الأقل. وبعد شهر من نهاية تلك الأحداث، اندلعت أحداث في لاجوس بعد احتجاجات طلابية ضد صندوق النقد الدولي: مات على أثرها ٥٠ شخصًا في ثلاثة أيام من النهب المتواصل، وحرب الشوارع، في مدينة تقاسَم فيها معظم الفقراء مشاعر الغضبَ المستشيط من "الملك" سجّلتها رواية "كريس أباني" Chris Abani أرض النعيم Graceland:

> أغلبية شعبنا أمناء، أناس يعملون بجد. ولكنهم واقعون تحت رحمة هؤلاء العسكريين أولاد القحبة، وأولئك اللصوص التابعين لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والولايات المتحدة. ... والآن، نحن، وأنت وأنا كل هؤلاء الفقراء، مدينون للبنك الدولي بعشرة ملايين دولار مقابل لا شيء. إنهم جميعًا لصوص وإني أكرههم– شعبنا وأشخاص البنك الدولي![٢٦]

وعلى الرغم من كل مظاهر الفقر وانعدام العدالة الاجتماعية، فإن ثورتنا المصرية، لم تكن، ولن تكون "كاراكازو" جديدة! حيث إن المصريين من شباب المناطق المفقرة، يدركون بالفعل الطريق الصحيح نحو تحقيق الحرية واسترداد الحقوق، وقد عبروا عن ذلك بصور من التضامن والحماية العامة خلال المواجهات الدامية أيام احتدام الثورة، وأثناء الغياب الأمني، ولا

(26) Abani, *Graceland*, p. 280.

بد لهم من أن يستعيدوا حقوقهم المنهوبة، وحـــريتهم الـــضائعة مـــن أيـــدي اللصوص والعسكريين الظالمين!

المرأة!

كان من أبرز الظواهر التي عاشها المجتمع المصري قبيـــل الثـــورة وحتى الآن، استغلال أصحاب اللحى وتجار الدين للنساء كموضوع لإحداث فتنة طائفية، ومن ثم تشويه دور المرأة المصرية الطبيعي في المجتمع، وعلى نحو عدائي مقيت لصالح أغراض سياسية ذاتية رخيصة، مقارنة بالـــصالح الوطني العام. وهو ما يمثل عبئًا آخر يضاف إلى ما تتحمله المرأة من أعباء الحياة المعيشية الصعبة والقاسية في كثير من الأحيان، خصوصًا إذا كانـــت المرأة عائلة لأسرتها، لسبب موت الزوج أو تخليه عن مسئولياته، وهـــؤلاء يبلغن بضعة ملايين عددًا. وقد أفرد الكاتب هنا مساحة كبيرة، تتخلل جميـــع فصول الكتاب الثمانية، عن دور المرأة ومكانتها ومدى وأشكال اســـتغلالها، وأثر برامج التكيف الهيكلي واللارسمية خصوصًا على زيادة هـــذه الأعبـــاء فوق كاهلها. ففي دراستها المفصلة حول "التكيف من أسفل adjustment from below"، في الإكوادور، تصف عالمة الأنثروبولوجيا الاجتماعية "كـــارولين موزر" Caroline Moser أثرَ برامج التكيف الهيكلي الثمانية المتلاحقة، ما بين عاميّ ١٩٨٢ و١٩٨٨، على منطقة عشوائية سابقة، متحركة لأعلى، مُقامة على الحافة المستنقعية لمنطقة "جواياكيل" Guayaquil؛ فترى أنه على الرغم من أن معدلات البطالة المفتوحة، تضاعفت في الإكوادور، فإن الأثر الرئيسي لأزمة الثمانينيات، بدا واضحًا فيما نتج عنه من انفجار في البطالة المقنّعـــة underemployment، والتي قُدّرت آنذاك بنصف القوة العاملة، في كل مـــن جواياكيل وكيوتو. في عشوائية "إنديو جواياز" Indio Guayas، على ســـبيل

المثال، فالأزواج الذين كانوا– قبل برامج التكيف– يتمتعون بعمل لبعض الوقت، أو كامل الوقت، وجدوا أنفسهم معطلين، لأكثر من نصف عام. وبالتالي اضطرت الأسر للدفع بمزيد من أفرادها إلى سوق العمل، سواء كانوا نساء أو أطفالاً. وقد ازدادت معدلات خروج النساء إلى العمل من ٤٠ إلى ٥٢%، بعد تدشين برامج التكيف الهيكلي. ولكن مع انحدار الطلب على العمالة في المصانع، أُجبرت النساء على التنافس مع بعضهن البعض على اقتناص فرص العمل كشغالات في البيوت، أو بائعات جائلات. وعلى الرغم من هذه التعبئة الكلية لجميع موارد الأسرة البشرية، فإن ظروف العيش، خصوصًا فيما يتعلق منها بتغذية الأطفال، نجدها قد انحدرت انحدارًا شديدًا. كما كشف "موزر" عن أن ما يصل إلى ٨٠% من أطفال المناطق العشوائية– في إنديو جواياز– كانوا يعانون من بعض أعراض سوء التغذية. ذلك لأن الرعاية الصحية، بعد خصخصتها بصورة واسعة، صارت أكثر كلفة، ومن ثم لم تعد في متناول يدِ أسر منطقة إنديو جواياز، التي كانت فيما سبق منطقة متفائلة(٢٧).

ولذلك نرى أن من أولويات الثورة المصرية التي يجب أن نضعها نصب أعيننا، هو توفير برامج حقوقية وتنموية رسمية، أي تحت مسئولية الدولة، وطرح مشاريع من منظمات المجتمع المدني المعهودة بالمصداقية في العمل العام، تهدف إلى تمكين المرأة المصرية، والعمل على استعادتها لمكانتها الطبيعية المحترمة، بعيدًا عن تشيؤها، أو اختصارها في الجسد المثير للفتنة. فالمرأة والرجل كلاهما عنصران اجتماعيان لطاقة خلاقة، ولا يمكن قبول تلك النظرة في التمييز بينهما على أمراض حرمان البعض

(27) Caroline Moser, "Adjustment from Below: Low-Income Women, Time, and the Triple Role in Guayaquil, Ecuador," in Sarah Radcliffe and Sallie Westwood (eds), *"Viva": Women Popular Protest in Latin America*, London 1993, pp. 178-85.

الجنسي، أو قبول وضعها في إطار غير إنساني، يختصرها إلى مجرد شيء مثير للفتنة، سواء السياسية أو الجنسية!

وأخيرًا، من الواجب علينا أن نتصرف بمسئولية وحكمة، فنحن لم نقطع سوى خطوات قليلة في مشوار طويل من أجل بناء مجتمع مصري جديد، يقوم على العدالة الاجتماعية وسيادة الحقوق واحترام الحريات.

ربيع وهبه
القاهرة يوليو ٢٠١١

إلى حبيبني "رويزين" Roisin

أحياء عشوائية، شبع عشوائية، سوبر عشوائية...

هذا ما وصل إليه تطور المدن.

باتريك جدز[1] Patrick Geddes

(١) تم الاستشهاد بهذه العبارة فى كتاب لويس ما مفورد *Lewis Mumford*، المدنية فى التاريخ، أصولها، وتحولاتها، ومنظوراتها المستقبلية، انظر: *The City in History: Its Transformations, and Its Prospects, New York, P.464*

الفصل الأول

المنحنى الخطير في التحول الحضري

"نحن نعيش في عصر المدينة. المدينة هي كل شيء
بالنسبة لنا. إنها تستهلكنا، ولهذا السبب نحن نمجدها".
أونوكومي أوكومي[1] Onookome Okome

في وقت ما من العام أو العامين القادمين، ستضع امرأة ما مولودًا في حي أجيجونل Ajegunle العشوائي في ولاية لاجوس بنيجيريا، أو سيرحل شاب عن قريته في غرب مدينة جاوا؛ من أجل أضواء جاكارتا المتلألئة، أو سيقوم أحد الفلاحين بنقل أسرته المفقَرة إلى إحدى البلدات الجديدة العشوائية التي لا تعد ولا تحصى في "ليما" *pueblos jóvenes*. الحدث نفسه ليس مهمًا في حد ذاته، وسيمر مرور الكرام، بلا أية ملاحظة تذكَر، ولكنه سيشكل نقطة تحول في التاريخ الإنساني، يمكن مقارنتها بالثورة النيوليثية(*) Neolithic، أو الثورة الصناعية. حيث، وللمرة الأولى على كوكب الأرض،

---

(1) Onookome Okome, "Writing the Anxious City: Images of Lagos in Nigerian Home Video Films, "in Okwui Enwezor et al. (eds), *Under Siege: Four African Cities — Freetown Johannesburg, Kinshasa*, Ostfildern- Ruit 2002, p. 316.

(*) الثورة النيوليثية Neolithic Revolution: هي الانتقال من صيد الحيوانات والأسماك وجمع النباتات إلى الزراعة. وبدأت تلك الثورة في آسيا الغربية أثناء العصر الحجري الحديث (نيوليث) في حوالي سنة ٩٠٠٠ قبل الميلاد، وأدت إلى نشأة المنظومة العالمية، وانتقال البشرية من المرحلة ما قبل زراعية إلى مرحلة المجتمعات الزراعية، والازدياد الجذري لنسبة النمو السكاني، وتسارع التطور الاجتماعي بصورة عامة. ويُعتبر الانتقال من مرحلة الالتقاط والصيد إلى مرحلة الزراعة وتدجين الحيوانات؛ ثورة في عالم الحضارة والاقتصاد. (المترجم).

سيتجاوز عدد السكان الحضر عدد السكان الريفيين. وفى الحقيقة، وبناء على افتقار التعداد الإحصائي في العالم الثالث إلى الدقة، فإن هذا التحول التاريخي الجديد، ربما يكون قد حدث بالفعل.

لقد تم التحول الحضري لكوكب الأرض، بسرعة تفوق حتى ما تم التنبؤ به في الأصل من جانب نادي روما(*) Club of Rome في تقريره الشنيع الذي يقوم على وجهة النظر المالتوسية(**) Malthusian والذي صدر عام ١٩٧٢ بعنوان ***حدود النمو Limits of Growth***. ففى عام ١٩٥٠ كان ثمة ٨٦ مدينة حول العالم، يزيد عدد سكان كل منها عن المليون نسمة؛ وقد ازداد عدد هذه المدن في الوقت الحالي؛ ليصل إلى ٤٠٠ مدينة مليونية، وبحلول عام ٢٠١٥ سيكون عدد هذه المدن على أقل تقدير ٥٥٠ مدينة(٢). وفي حقيقة الأمر فقد امتصت المدن ما يقرب من ثلثي الانفجار السكاني العالمي، منذ عام ١٩٥٠. وهي الآن تنمو بمعدل مليون طفل ومهاجر أسبوعيًا(٣). كما أن قوة العمل الحضرية على مستوى العالم، ازدادت إلى ما يربو عن الضعف منذ عام ١٩٨٠، فيما يقدّر عدد سكان الحضر في الوقت

(*) بيت خبرة عالمي يتعامل مع عدة قضايا سياسية دولية. وقد تأسس في أبريل/ نيسان ١٩٦٨، ولفت كثيرًا من الانتباه فى عام ١٩٧٢، عندما أصدر تقريره الذي ذكره الكاتب بعنوان *حدود النمو*. ويذكر النادي أن رسالته هي "العمل كميسر ومساعد محفز على المستوى العالم من أجل التغيير، عبر تحديد وتحليل المشكلات الحرجة والخطيرة التي تواجه البشرية- وتوصيل مثل هذه المشكلات إلى أهم صناع القرار على المستوى العام والخاص، وأيضًا إلى عامة الناس. ومنذ عام ٢٠٠٨ يوجد المقر الرئيسي للمنظمة في سويسرا. (المترجم).

(**) نسبة إلى نظرية مالتوس Malthus التي تقول بأن ازدياد السكان يفوق ازدياد المواد الغذائية، ومن ثم يجب تحديد عدد السكان. (المترجم).

(2) UN Department of Economic and Social Affairs, Population Division, *World Urbanization Prospects*, the 2001 Revison, New York 2002.

(3) Population Information Program, Center for Communication Programs, the Johns Hopkins Bloomburg School of Public Health, *Meeting the Urban Challenge*, Population Reports, vol. 30, no. 4, Baltimore 2002 (Fall), p. 1.

الحالى بـ ٣,٢ بلايين نسمة؛ أى أكبر من إجمالي عدد سكان العالم كله، عند تولي جون كنيدي رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية[٤]. في الوقت نفسه، فإن الريف على مستوى العالم قد وصل إلى حده الأقصى في عدد سكانه، وسوف يبدأ الريف في التقلص بعد عام ٢٠٢٠. ونتيجة لهذا، فإن المدن ستصبح هي المسئولة عن النمو السكاني العالمي، الذي يتوقع له أن يصل إلى ذروته عند ١٠ بلايين نسمة خلال عام ٢٠٥٠[٥].

المدن الكبرى والقرى المدينة/ ديساكوتاس desakotas

إن ٩٥% من هذا البنيان البشري النهائي، سوف يحدث في المناطق الحضرية بالبلدان النامية، التي سيتضاعف عدد سكانها إلى ما يقرب من ٤ بلايين نسمة على مدى الجيل القادم[٦]. والحقيقة أن عدد السكان الحضر في كل من الصين والهند والبرازيل مجتمعة، أصبح بالفعل يقارب عدد سكان الحضر في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية معًا. هذا فضلاً عن أن مقياس وسرعة التحول إلى الحضر في العالم الثالث على نحو عملاق، ينقزم إلى

(4) Dennis Rondinelli and John Kasarda, "Job Creation Needs in Third World Cities," in John D. Kasarda and Allan M. Parnell (eds), *Third World Cities: Problems, Policies and Prospects*, Newbury Park 1993, p. 101.

(5) Wolfgang Lutz, Warren Sanderson, and Sergei Scherbov, "Doubling of World Population Unlikely," *Nature 387* (19 June 1997), pp. 803-04.

عنوان المرجع الإنجليزى "تضاعف" عدد سكان العالم غير محتمل"، ولكن عدد سكان أفريقيا جنوب الصحراء سيزداد إلى ثلاثة أضعاف، وعدد سكان الهند إلى الضعف.

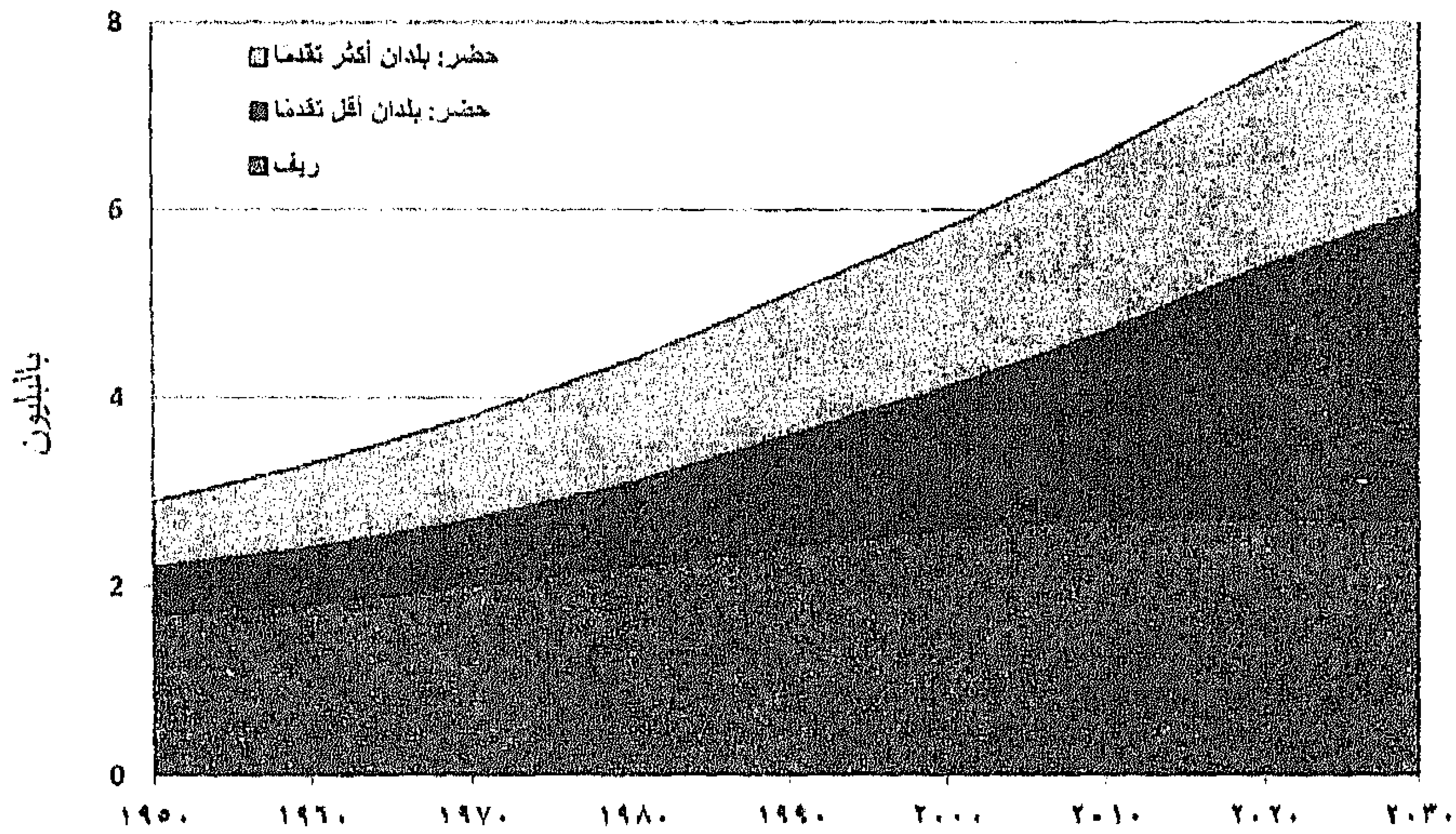
(٦) بالرغم من أن سرعة الحضرنة العالمية أمر غير مشكوك فيه، فإن معدلات نمو مدن بعينها قد تنكسر فجأة بحكم مواجهتها مصادمات نتيجة الحجم والازدحام. والمثال الشهير على مثل هذا "التحول العكسي فى الاستقطاب"، هو مدينة مكسيكو سيتى التى تم التنبؤ، وعلى نحو واسع، بأنها ستحقق عدد سكان ٢٥ مليون نسمة فى خلال عقد التسعينيات من القرن المنصرم (عدد السكان حاليًا يتراوح ما بين ١٩ و٢٢ مليون نسمة). انظر:

"Geography in an Age of Mega-cities." *International Social Sciences Journal* 151 (1997), p. 93.

جانبه مثيله الحاصل في أوروبا في العصر الفيكتوري. فقد كانت لندن عام ١٩١٠ أكبر سبع مرات مما كانت عليه في عام ١٨٠٠، غير أن دكا وكينشاسا ولاجوس اليوم، تمثل كل منها ما يقارب من *أربعة* أضعاف ما كانت عليه في عام ١٩٥٠. في حين أن الصين- التي تتحول حضريًا "بسرعة غير مسبوقة في تاريخ البشرية"- أضافت من سكان المدن في ثمانينيات القرن العشرين ما يفوق كل ما أضافته أوروبا مجتمعة (بما فيها روسيا) في القرن التاسع عشر بأكمله(٧)!

الشكل ١

النمو السكاني حول العالم



المصدر: الأمم المتحدة، *منظورات التحضر في العالم*
World Urbanization Prospects: The 2001 Revision (2000): tables A.3 and A.4.

(7) *Financial Times*, 27 July 2004; David Drakakis-Smith, *Third World Cities*, 2nd ed., London 2000.

الشكل ٢ (٨)

المدن الكبرى في العالم الثالث

(عدد السكان بالمليون)

المدينة	١٩٥٠	٢٠٠٤
مكسيكو سيتي	٢,٩	٢٢,١
سيول–إنجون	١,٠	٢١,٩
نيويورك	١٢,٣	٢١,٩
ساو باولو	٢,٤	١٩,٩
مومباي (بومباي)	٢,٩	١٩,١
دلهي	١,٤	١٨,٦
جاكرتا	١,٥	١٦,٠
دكا	٠,٤	١٥,٩
كالكوتا	٤,٤	١٥,١
القاهرة	٢,٤	١٥,١
مانيلا	١,٥	١٤,٣
كاراتشي	١,٠	١٣,٥
لاجوس	٠,٣	١٣,٤
شنغهاي	٥,٣	١٣,٢
بيونس أيرس	٤,٦	١٢,٦
ري ودي جانيرو	٣,٠	١١,٩
طهران	١,٠	١١,٥
إسطنبول	١,١	١١,١
بكين	٣,٩	١٠,٨
بانكوك	١,٤	٩,١

(٨) تأليف "برنامج الأمم المتحدة للموئل" قاعدة بيانات المؤشرات الحضرية.

UN-HABITAT Urban Indicators Database (2002); Thomas Brinkhoff "The Agglomerations of the World". www.citypopulation.de/World.html (May 2004).

غاوتينج(*)	١,٢	٠,٩
كينشاسا	٠,٢	٨,٩
ليما	٠,٦	٨,٢
بوجوتا	٠,٧	٨,٠

والظاهرة الأكثر ذيوعًا وانتشارًا هنا، هي التبرعم، أو الظهور الناشئ لمدن كبرى جديدة، بقوام سكاني يتجاوز الثمانية ملايين نسمة، بل وأكثر من ذلك، كما هو متوقع، مع المدن الضخمة التي تحتوي أكثر من ٢٠ مليون نسمة– وهذا بالمناسبة تقدير عدد سكان الحضر في العالم أجمع، وقت قيام الثورة الفرنسية. وفي عام ٢٠٠٠، ووفقًا لقسم السكان في الأمم المتحدة، فإن مدينة طوكيو العاصمة، هي فقط التي تجاوزت تلك العتبة دون منافسة (على الرغم من أن مكسيكو سيتي، ونيويورك، وسول– إنشون Seoul-Injon شكلت قوائم أخرى)(٩). هذا فيما تقدر *مجلة المراجعة الاقتصادية للشرق الأدنى Far Eastern Economic Review*، أنه بحلول عام ٢٠٢٥ فإن قارة آسيا بمفردها، ربما تحتوي على عشرة، أو أحد عشر تجمُّعًا من هذه التجمعات السكانية المتصلة، والمتجاوزة للحدود الإدارية conurbations وبمثل هذه الضخامة، بما في ذلك جاكارتا (٢٤,٩ مليون نسمة)، ودكا (٢٥ مليونًا)، وكاراتشي (٢٦,٥ مليونًا). أما شنغهاي التي تجمَّد نموها على مدى عقود بفعل السياسات الماوية Maoist للكبح المتعمد لعمليات التحضر/ العمران، فإنها قد تحتوي في عام ٢٠٢٥ على ما يقرب من ٢٧ مليون نسمة، في منطقتها الحضرية الضخمة التي تعد نبع النمو. وفي الوقت نفسه من المنتظر أن تحتوي مومباي (بومباي) على عدد سكان ٣٣ مليونًا، على الرغم

(*) إحدى محافظات جنوب أفريقيا، حيث تم تشكيلها في عام ١٩٩٤م، وتنقسم إلى ٣ بلديات. (المترجم).

(9) UN-HABITAT Urban Indicators Database (2002).

قاعدة بيانات المؤشرات الحضرية لبرنامج الأمم المتحدة للموئل البشري للعام ٢٠٠٢.

من أن أحدًا لا يعرف ما إذا كانت هذه التركيزات السكانية العملاقة للفقـر، يمكن أن تستديم على المستوى البيولوجي أو الإيكولوجي/ النظام البيئي(١٠).

والمدن المتفجرة في العالم النامي، تنسج أيـضًا شـبكات وممـرات وتراتبيات حضرية جديدة، فوق العادة. ففي الأمريكتين أصبح الجغرافيـون يتحدثون بالفعل عن كيان ضخم، أو لوياثـان leviathan معـروف بمنطقـة العاصـمة الممتـدة بـين ريـو وسـاو بـاولو Rio/Sao Paulo Extended Metropolitan Region (RSPER)، والتي تشمل المدن متوسطة الحجم الممتدة على مساحة ٥٠٠ كيلو متر على محور النقل والمواصلات بين أكبر مدينتين في البرازيل، وكذلك المنطقة الصناعية المهمة التي تهـيمن عليهـا مدينـة كامبيناس Campinas؛ وذلك بعدد سكان يصل في الوقت الحـالي إلـى ٣٧ مليون نسمة. وهذه المدينة الضخمة الجنينية، تعد بالفعل حاليًـا أكبـر مـن طوكيو- يوكوهاما(١١). وبالمثل، فإن الخلية الأولية، أو بمعنـى أدق الأميبـا العملاقة لمكسيكو سيتي التي ابتلعت بالفعل مدينة تلوكا Toluca، فإنها تمـد أذرعها الكاذبة التي سوف تدمج بها في نهاية الأمر كثيرًا من وسط المكسيك، بما في ذلك مـدن كورينفاكـا Cuernavaca، وبيـوبلا Puebla، وكـاويتلا Cuautla، وباكوكا Pachuca، وكوريتارو Queretaro، في مدينة واحدة بعدد سكان سوف يصل في منتصف القرن الحادي والعشرين إلى ما يقرب مـن ٥٠ مليون نسمة- أي حوالي ٤٠% من الإجمالي القومي لعدد السكان(١٢).

---

(10) *Far Eastern Economic Review*, Asia 1998 Yearbook, p. 63

(11) Hamilton Tolosa, "The Rio/Sao Paulo Extended Metropolitan Region: A Quest for Global Integration," *The Annals of Regional Science* 37:2 (September 2003), pp. 480, 485.

(12) Gustavo Garza, "Global Economy, Metropolitan Dynamics and Urban Policies in Mexico," *Cities* 16:3 (1999), p. 154

الأكثر إدهاشاً من ذلك، هو التجمع السكاني المتصل، والمتجاوز للحدود الإدارية في غرب أفريقيا، والذي يتلاحم بسرعة مع لاجوس كنقطة ارتكاز، عبر خليج غينيا Gulf of Guinea (٢٣ مليون نسمة بحلول عام ٢٠١٥ وفق أحد التقديرات). وبحلول عام ٢٠٢٠، وفقًا لدراسة أجرتها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OCED، فإن هذه الشبكة المكونة من ثلاثمائة مدينة، ذات قوام سكاني، يزيد في كل منها عن ١٠٠,٠٠٠ نسمة، سوف "تحتوي على عدد سكان يضاهي الساحل الشرقي من الولايات المتحدة، بخمسة مدن يربو عدد سكانها عن المليون نسمة... [إضافة إلى] إجمالي يزيد عن ٦٠ مليون نسمة عبر القطاع البري الممتد على مساحة ٦٠٠ كيلو متر، والذى يجري من الشرق إلى الغرب ما بين بنين وأكرا"(١٣). والمأساة هنا، تكمن في احتمالية أن تكون هذه الشبكة أيضًا البصمة الكبرى للفقر الحضري على كوكب الأرض.

الشكل ٣(١٤)

حركة التطور الحضري في خليج غينيا

المدن	١٩٦٠	١٩٩٠	٢٠٢٠
أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة	١٧	٩٠	٣٠٠
أكثر من ٥٠٠٠	٦٠٠	٣٥٠٠	٦٠٠٠

(13) Jean-Marie Cour and Serge Snerch (eds), *Preparing for the Future: A Vision of West Africa in the Year 2020*, Paris 1998, p. 94.

(١٤) المرجع السابق، ص ٤٨.

ولكن الهياكل ما بعد الحضرية posturban الأكبر حجمًا، تظهــر فــي شرق آسيا. فدلتا نهــر اللؤلــؤ Pearl River (هــونج كــونج- قوانغتــشو Guangzhou)[15]، ودلتا نهر يانغتسي Yangze River (شنغهاي) جنبًا إلــى جانب ممر بكين- تيانجين Beijing- Tianjin، تمضي بــشكل حثيــث فــي طريقها؛ لتصبح مدنًا كبرى حضرية صناعية، مقارنة بطوكيو- أوســاكا، أو الراين المنخفض، أو نيويورك- فيلادلفيا. والحقيقة أن الصين الفريــدة بــين البلدان النامية، تخطط وبعدائية للتنمية الحضرية على مقياس سوبر- إقليمي؛ متخذة من طوكيو- يوكوهاما، والساحل الشرقي للولايات المتحدة، نماذج لها. فالمنطقة الاقتصادية التي تأســست بــشنغهاي عــام ١٩٨٣، تعــد الكيــان التخطيطي ما دون القومي الأكبر في العالم، وتضم العاصمة وخمسة أقــاليم متاخمة بتكوين سكاني كبير كِبَرَ عدد سكان الولايات المتحدة علــى أغلــب تقدير[16].

ووفقًا لبحثين رائدين، فإن هذه المدن الصينية الكبرى الجديدة، "قــد لا تمثل سوى مجرد المرحلة الأولى في ظهور ممر حضري متواصل، يمتد من اليابان/ وكوريا الشمالية، إلى جافا الغربية"[17]. وفيما يتخذ هذا الطريق لنفسه شكلاً وملمحًا، على مدار القرن الحادي والعشرين، فإن تمدد المــدن بهــذا الشكل الذي يشبه التنين، سوف يشكل السمت الفيزيقي والديموغرافي لآلاف

(15) See Yue-man Yeung, "Viewpoint Integration of the Pearl River Delta," *International Development Planning Review* 25:3 (2003).

(16) Aprodicio Laquian. "آثار الإستراتيجية الوطنية وسياسات التنمية الإقليمية على نماذج النمو الحضري في الصين The Effects of National Strategy and Regional Development Policy on Patterns on Urban Growth in China," in Gavin Jones and Pravin Visaria (eds), *Urbanization in Large Developing Countries: China, Indonesia, Brazil, and India*, Oxford 1997, pp. 62-63.

(17) Yue-man Yeung and Fu-chen Lo, "Global restructuring and emerging urban corridors in Pacific Asia," in Lo and Yeung (eds). *Emerging World Cities in Pacific Asia*, Tokyo 1996, p. 41.

السنين من التطور الحضري. فيما أنه من المؤكد أن تصاعد آسيا الشرقية الساحلية بدورها، سيعزز ثنائية القطب "المدينة العالمية" طوكيو- شنغهاي، بما يتساوى مع محور نيويورك- لندن، في السيطرة على التدفقات العالمية لرأس المال والمعلومات.

وسوف يكون ازدياد التفاوت داخل وبين المدن ذات الأحجام والتخصصات الاقتصادية، هو ثمن هذا النظام الحضري الجديد. والحقيقة أن الخبراء الصينيين يتجادلون في الوقت الحالي، حول ما إذا كانت الهوة القديمة في الدخل والتنمية بين المدينة والريف، قد حلت محلها الآن فجوة مساوية في درجة جوهريتها، بين المدن الصغيرة، خصوصًا الجُزر منها، وبين المدن العملاقة، ومنها العواصم الساحلية على وجه الخصوص(18). ومع ذلك، فإن المدن الأصغر حجمًا، هي بالتحديد الأماكن التي ستعيش معظم شعوب آسيا فيها قريبًا. فإذا كانت المدن الكبرى هي النجوم الأكثر سطوعًا وبريقًا، في الصعود الحضري، فإن ثلاثة أرباع العبء الذي يلقى به النمو السكاني في المستقبل، سوف تتحمله المدن التي تبدو خابية، وفي مصاف المرتبة الثانية، وكذلك المناطق الحضرية الأصغر: أماكن- كما يؤكد باحثو الأمم المتحدة- يكون فيها "قليل من التخطيط أو عدم تخطيط بالمرة، لإعاشة هؤلاء الناس، أو مدّهم بالخدمات"(19). ففي الصين- رسميًا، ٤٣% حضر في عام ١٩٩٣- كان عدد "المدن" الرسمية قد ارتفع ارتفاعًا شديدًا من ١٩٣ إلى ٦٤٠ منذ عام ١٩٧٨، أما مدن العواصم العظمى، فهي على الرغم من نموها الاستثنائي، إلا أن نصيبها النسبي من السكان الحضر قد تقلص. ومن ثم،

(18) Gregory Guldin, *What's a Peasant To Do? Village Becoming Town in Southern China*, Boulder 2001, p. 13.

(19) UN-HABITAT, *The Challenge of Slums: Global Report on Human Settlements 2003*, London 2003, p 3

[سندعو هذا المرجع من الآن فصاعدًا باختصار التحدى *Challenge*].

وبدلاً من ذلك، فإن المدن ما بين الصغيرة إلى المتوسطة، التي لُقّبت مؤخرًا بالبلدان "المتمدينة"، قد استوعبت أغلبية القوة العاملة الريفية التي ولّدتها إصلاحات السوق بغزارة، ما بعد ١٩٧٩[٢٠]. وهذا ما يعد في جزء منه نتيجة للتخطيط الواعي: حيث منذ سبعينيات القرن المنصرم، اعتنقت الدولة الصينية سياسات مصمّمة لتعزيز تراتبية حضرية أكثر توازنًا، تستند إلى الاستثمار الصناعي وطاقة السكان[٢١].

أما في الهند، وعلى وجه النقيض، فنجد المدن الصغيرة والبلدات، قد فقدت المسار الاقتصادي والنصيب الديموغرافي في التحول النيوليبرالي الجديد- ولا يوجد الآن سوى قليل من الأدلة على ذلك النمط الصيني من الحضرنة ذات "المسار المزدوج". ولكن مع تصاعد النسبة الحضرية بهذه الحدة والارتفاع الشديدين خلال تسعينيات القرن العشرين، من ربع إلى ثلث إجمال السكان، فقد تبرعمت المدن ذات الأحجام المتوسطة، مثل سهارانبور Saharanpur في أتر براديش Uttar Pradesh أو "الإقليم الشمالي"، ولودهيانا Ludhiana في البنجاب، والأكثر شهرة بينها فيشاكاباتنام Visakhapatnam في أندرا برديش "الإقليم الجنوبي". ومن المتنبأ لحيدرآباد التي تنمو بمعدل يقارب ٥% سنويًا على مدى ربع القرن الأخير، أن تصبح مدينة كبيرة قوامها ١٠,٥ ملايين نسمة بحلول عام ٢٠١٥. ووفقًا لأحدث تعداد سكاني، فإن ٣٥ مدينة هندية تتجاوز في الوقت الحالي عتبة المليون نسمة، لتكوّن هذه المدن مجتمعة إجمالي عدد سكان يبلغ ١١٠ ملايين نسمة[٢٢].

---

(20) Guldin, *What's a Peasant To Do?*

(21) Sidney Goldstein, "Levels of Urbanization in China," in Mattei Dogon and John Kasarda (eds), *The Metropolis Era: Volume One —A World of Giant Cities*, Newbury Park 1988, pp. 210-21.

(22) *Census 2001*, Office of the Registrar General and Census Commissioner, India; and Alain Durand-Lasserve and Laurent Royston, "International Trends and Lauren Royston (eds), *Holding Their Ground: Secure Land Tenure for the Urban Poor in Developing Countries*, London 2002, p. 20.

وفي أفريقيا، نجد النمو المتفجر الجديد لبضعة مدن، مثل لاجوس (من ٣٠٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٥٠ إلى ١٣,٥ مليون حاليًا [٢٠٠٧]) يتكرر ما تشهده عشرات البلدات الصغيرة والواحات، مثل واغادوغو (بوركينا فاسو)، ونواكشوط، ودوالا (الكاميرون)، وكمبـالا (أوغنـدا)، وطنطـا (مـصر)، وكوناكري (غينيا)، ونجامينا (تشاد)، ولومومباشي Lumumbashi (الكونغـو الديمقراطية)، ومقديشو، وأنتاناناريفو Antananarivo (مدغشقر)، وبامـاكو (مالي)، من تحولها إلى مدن متنامية زاحفـة، تفـوق فـي حجمهـا سـان فرانسيسكو أو مانشستر. (وربما يكون الأمر الأكثر بروزًا في هذا الـصدد، هو تحول مركز تجارة الماس الكونغولي المفتوح مبـوجي– مـايي Mbuji-Mayi من بلدة صغيرة قوامها ٢٥,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٦٠، إلى مدينة من عيار العواصم الكبرى المعاصرة، تضم مليوني نسمة، حيث حـدث معظـم النمو على مدى العقد الأخير[٢٣]). وفي أمريكا اللاتينية، حيث المدن الرئيسة التي احتكرت النمو لزمن طويل، نجد أن المدن الثانوية مثل سـانتا كـروز Santa Cruz، وفالينسيا Valencia، وتيخوانا Tijuana، وكوريتيبـا Curitiba، وتموكـو Temuco، وماراكـاي Maracay، وبوكارامانـا Bucaramanga، وسلفادور Salvador، وبلم Belem، تزداد رواجًا في الوقـت الحـالي، مـع الزيادة الأكثر سرعة في المدن التي يقـل عـدد سـكانها عـن ٥٠٠,٠٠٠ نسمة[٢٤].

---

(23) مبوجي-مايي هو مركز "الولاية المجمعة الكبرى" في منطقة كاساي Kassai تديره Société Minère de Bakwagna. انظر:

Michela Wrong, *In the Footsteps of Mr. Kurtz: Living on the Brink of Disaster in the Congo*, London 2000, pp. 121-23.

(24) Miguel Villa and Jorge Rodriguez, "Demographic Trends in Latin America's Metropolises, 1950-1990," in Alan Gilbert (ed.), *The Mega-City in Latin America*, Tokyo and New York 1996, pp. 33-34.

فضلاً عن ذلك، فقد أكد "جروجري جولدن" Gregory Guldin، بوصفه مختصًا في مجال الأنثروبولوجيا، أن الحضرنة لا بد أن تتم صياغتها كمفهوم بوصفها: تحولاً هيكليًا مصاحبًا، وتفاعلاً مكثفًا بين كل نقطة وأخرى على متصل حضري- ريفي. وفي دراسة الحالة التي قام بها "جولدن" حول جنوب الصين، وجد أن الريف يتحضرن في *مكانه in situ* ويولِّد أيضًا دفعات من الهجرات الكبيرة، "القرى تأخذ في التحول إلى ما يشبه السوق، والبلدات الصينية *xiang*، وبلدات المقاطعات التي تحكمها المجالس البلدية، والمدن الصغيرة تصبح شيئًا فشيئًا مثل المدن الكبيرة". والحقيقة أنه وفي حالات كثيرة، نجد أن الريفيين لم يعودوا في حاجة إلى الهجرة إلى المدينة فالمدينة تهاجر إليهم(٢٥).

وهذا ما ينطبق أيضًا على الحال في ماليزيا، حيث يصف الصحفي "جيرمي سيبروك" Jeremy Seabrook مصير الصيادين في ولاية بينانج Penang:" كونهم محاصرين بالحضرنة، وبدون هجرة، تتحول حياتهم، حتى وهم باقون على نفس البقعة التي ولدوا عليها". وبعد أن تم عزل منازل هؤلاء الصيادين بعيدًا عن البحر، بسبب مد طريق سريع جديد، فإن أماكن الصيد تلوثت بالنفايات الحضرية، في حين تم تعرية الغابات على التلال المجاورة لبناء كتل سكنية. ومن ثم لم يكن لديهم سوى خيارات ضئيلة، من بينها إرسال بناتهم إلى مصانع يابانية قريبة؛ ليعملن بعناء، وفي ظل أحوال عمل سيئة. ويؤكد سيبروك قائلاً: "لقد امتد التدمير، ليطال ليس فقط سبل العيش التي يعتمد عليها الناس الذين طالما عاشوا وتعايشوا مع البحر، بل أيضًا نفسية وروح الصيادين أنفسهم"(٢٦).

(25) Guldin, *What's a Peasant To Do?*, pp. 14-17.

(26) Jeremy Seabrook, *In the Cities of the South: Scenes from a Developing World*, London 1996 pp. 16-17.

هذا التصادم الحاصل بين الريف والحضر في الصين، وفي جزء كبير من جنوب شرق آسيا، والهند، ومصر، وربما غرب أفريقيا، كانت نتيجته وجود واقع، أو مشهد طبيعي، مخنث hermaphroditic، حيث ريف متحضرن جزئيًا؛ يرى جولدن أنه ربما يكون "مسارًا جديدًا ودالاً للمستوطنات البشرية والتنمية... صيغة لا هي بالريفية ولا هي بالحضرية، بل مزيج من الاثنين معًا. حيث تكون ثمة شبكة كثيفة من التعاملات تربط المراكز الحضرية الكبرى بما يحيطها من مناطق"(٢٧). أما المعماري الألماني "توماس سيفيرتس" Thomas Sieverts، المنظّر في مجال الحضر، فيرى أن هذه الحالة الحضرية المنتشرة التي يسميها "المدينة ما بين بين" Zwischenstadt، سرعان ما تصبح المشهد المميز للقرن الحادي والعشرين في البلدان الغنية والفقيرة على حد سواء، بغض النظر عن التاريخ الحضري المبكر. غير أن "سيفيرتس"، وعلى خلاف "جولدن"، يصوغ هذه التجمعات الجديدة conurbations مفاهيميًا بوصفها شبكات متعددة المراكز، أي بلا مراكز تقليدية، ولا أطراف يمكن تمييزها.

> عبر جميع ثقافات العالم كله، نجدهم يتشاركون في صفات محددة مشتركة: بنية من البيئات الحضرية المختلفة تمامًا، تبدو منذ الوهلة الأولى متشعبة، وغير منظمة، وتضم جزرًا فردية من النماذج المهيكلة

---

(27) Guldin, *What's a Peasant To Do?*, pp. 14-17. See also Jing Neng Li, "Structural and Spatial Economiv Changes and Their Effects on Recent Urbanization in China التغيرات الاقتصادية الهيكلية والمكانية وتأثيراتها على الحضرنة الحديثة فى الصين." in Jones and Visaria, *Urbanization in Large Developing Countries*, p. 44. Ian Yebaoh يرى إيان يابوه Ian Yeboah أن نموذج الديساكوتا *desakota* أى "القرية المدينة" ينمو حول أكرا، التى يعزى صيغتها الممتدة (١٨٨% زيادة فى منطقة السطح فى تسعينيات القرن المنصرم) والتحول إلى النقل بالسيارات إلى أثر سياسات التكيف الهيكلى. Yeboah, "Demographic and Housing Aspects of Structural Adjustment and Emerging Urban Form in Accra, Ghana." *Africa Today*, 50:1 (2003), pp. 108, 116- 17

هندسيًا. إنه هيكل ليس له مركز واضح، ولكنه مع ذلك يضم كثيرًا من المناطق المتخصصة وظيفيًا، بشكل أو بآخر، وشبكات، وعُقدًا(٢٨).

ويكتب الجغرافي "دافيد دراكاكيس– سميث" David Drakakis-Smith إن مثل "هذه المناطق المركزية الممتدة"– مشيرًا بشكل خاص إلى "دلهي"– "تمثل مزيجًا من التنمية الحضرية والإقليمية، التي أصبح التمييز فيها ما بين الحضري والريفي غائمًا، فيما تمتد المدن عبر ممرات الاتصال، مارة أو محيطة ببلدان وقرى، تمر هي الأخرى بدورها، بخبرة حدوث تغيرات على المكان *in situ* في الوظيفة والمهنة"(٢٩). ففي إندونيسيا مثلاً، حيث تجري عملية مشابهة من التهجين الحضري/ الريفي، أكثر تقدمًا في جابوتابك Jabotabek (منطقة جاكارتا الكبرى)، نجد أن الباحثين يطلقون على هذه النماذج الجديدة في استخدام الأرض، تعبير "القرى المدينة" *desakotas*، ويتجادلون فيما بينهم حول ما إذا كانت تمثل مشاهد تقليدية، أو نوعًا من الحضرنة؛ جديدًا وصارمًا(٣٠).

وثمة جدل مشابه يدور وسط المتخصصين في مجال العمران في أمريكا اللاتينية، عند مواجهتهم لظهور مثل هذه النظم الحضرية متعددة المراكز، وبلا حدود ريفية/ حضرية واضحة. فالجغرافيون، أمثال "أدريان أجيلار" Adrian Aguilar و"بتر وارد" Peter Ward، يتبنون مفهوم "الحضرنة

(28) Thomas Sieverts, *Cities Without Cities: An Interpretation of the Zwischenstadt*, London 2003, p. 3.

(29) Drakakis-Smith, *Third World Cities*, p.21.

(30) See overview in T G. McGee, "The Emergence of *Desakota* Regions in Asia: Expanding a Hypothesis," in Norton Ginsburg, Bruce Koppel, and T. G. McGee (eds), *The Extended Metropolis: Settlement Transition in Asia*, Honolulu 1991.

ويتفق فيليب كلي Philip Kelly في كتابه حول مانيلا، مع ماكجي McGee حول خصوصية مسار الحضرنة الجنوب شرق آسيوي، ولكنه يدفع بأن مناظر القرى المدينة ليست مستقرة، مع تقلص الزراعة شيئًا فشيئًا.

Kelly, *Everyday Urbanization: The Social Dynamics of Development in Manila's Extended Metropolitan Region*, London 1999, pp 284 -86.

القائمة على المنطقة"؛ ليميزوا به التطوير الحاصل ما بين الحضري والريفي، أو ذلك المنضم حديثًا إلى الحضر peri-urban المعاصر حول مكسيكو سيتي، وساو باولو، وسنتياجو، وبيونس أيريس. "وهناك معدلات من النمو المديني المركزي أقل، يتصادف وجودها مع التداول الأكثر كثافة للسلع، والناس، ورأس المال، بين مركز المدينة وظهيرها، مع واجهات أكثر امتزاجًا ما بين الحضري والريفي، وتلاشي المركزية التصنيعية نحو الأطراف العواصمية، وبشكل خاص فيما وراء المساحات شبه الحضرية، أو المنطقة المظللة التي تحيط بالمدن الكبرى". ويعتقد كل من "أجيلار" و"وارد" أن "فى هذه المساحة شبه الحضرية، يكون تكاثر العمل أكثر احتمالاً، ومتركزًا، وذلك داخل المدن الأكبر حجمًا على مستوى العالم، في القرن الحادي والعشرين"(٣١).

وعلى أية حال، فإن الجديد والقديم لا يمتزجان بسهولة، ففي ضواحي *القرية المدينة desakota* في كولومبو Colombo، نجد "المجتمعات مقسمة، مع عجز مَن هم خارج المنطقة، ومَن هم داخلها، عن بناء علاقات وجماعات متماسكة"(٣٢). ولكن كما تشير عالمة الأنثروبولوجي "ماجدالينا نوك"

(31) Adrian Aguilar and Peter Ward, "Globalization, Regional Development, and Mega-City Expansion in Latin America: Analyzing Mexico City's Peri-Urban Hinterland," *Cities* 20:1 (2003), pp. 4, 18.

المؤلفان يزعمان أن التطوير على نمط *القرية المدينة desakota* لا يحدث في أفريقيا: "وبدلاً من ذلك، فإن نمو المدينة يميل إلى أن يكون نموًا حضريًا صارمًا، ويقوم على المدينة الكبيرة، ويكون محتوى داخل حدود محددة بوضوح. فلا يكون هناك نمط التنمية شبه الحضري أو المنضم حديثًا إلى الحضر والذي يكون مربوطًا بـ، ومدفوعًا بـ، علميات، في المركز الحضري،" انظر ص. ٥ من المرجع المذكور. ولكن بالتأكيد أن منطقة غاوتنج Gauteng في جنوب أفريقيا لا بد من اعتبارها مثالاً على "الحضرنة الإقليمية" والتي تشبه بشكل كامل الأمثلة في أمريكا اللاتينية.

The authors claim that *desakota*-like development does not occur in Africa: "Instead city growth tends to be firmly urban and

(32) Ranjith Dayaratne and Raja Samarawickrama, "Empowering Communities: The Peri-Urban Areas of Colombo," *Environment and Urbanization* 15:1 (April 2003), p. 102. (See also in the same issue, L. van den Berg, M. van Wijk, and Pham Van Hoi, "The Transformation of Agricultural and Rural Life Downsteam of Hannoi.")

Magdalena Nock فيما يتعلق بالمكسيك، فإننا لا يمكننا أن نعكس اتجاه هذه العملية: "فالعولمة قد زادت من معدلات تنقل الناس، والسلع، والخدمات، والمعلومات، والأخبار، والمنتجات، والأموال، ومن ثم زادت من وجود الخواص الحضرية في المناطق الريفية، والسمات الريفية في المراكز الحضرية"(٣٣).

عودة إلى ديكنز:

إن ديناميات حركة التعمير الحضرية في العالم الثالث، تلخص وتشوش في الوقت نفسه سوابق نهايات القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، في أوروبا وأمريكا الشمالية. ففي الصين الثورة الصناعية الأعظم في التاريخ، نجد الرافعة الأرشميدية Archimedan تحوّل سكانًا بحجم عدد سكان أوروبا من القرى الريفية إلى المدن ذات الدخان الخانق، حيث ناطحات السحاب: منذ إصلاحات السوق في أواخر سبعينيات القرن المنصرم، تم تقدير انتقال أكثر من ٢٠٠ مليون صيني من المناطق الريفية إلى المدن. ومن المتوقع أن يتبعهم ٢٥٠ مليونًا آخرون أو ٣٠٠ مليون نسمة– "فيضان الفلاحين" القادم– في العقود التالية(٣٤). ونتيجة لهذا التدفق المذهل، فإن ١٦٦ مدينة صينية في عام ٢٠٠٥ (مقارنة بتسع مدن فقط في الولايات المتحدة)، أصبحت تضم من السكان ما يزيد عن المليون نسمة(٣٥). أما البلدات الناجحة المزدهرة، مثل دونجّوان Dongguan، وشينزن Shenzhen، وفوشان سيتي Fushan City، وشينجتشاو Chengchow، فهي تمثل النماذج المابعد حداثية لمدن شيفلد Sheffield، وبيتسبرغ Pittsburgh.

---

(33) Magdalena Nock, "The Mexican Peasantry and the *Ejido in the* Neo-liberal Period," in Deborah Bryceson, Cristobal Kay, and Jos Mooij (eds), *Disappearing Peasantries? Rural Labour in Africa, Asia and Latin America*, London 2000, p. 173.

(34) *Financial Times*, 16 December 2003, 27 July 2004.

(35) *New York Times*, 28 July 2004.

وكما أشارت جريدة الفاينانشال تايمز Financial Times مؤخرًا، فإنه خلال عقد واحد من الزمن "[سوف] تتوقف الصين عن أن تكون البلد الذي يسوده الطابع الريفي، الذي اشتهرت به الصين على مدى آلاف السنين"(٣٦). والحقيقة أن النافذة الدائرية العظيمة للمركز المالي العالمي في شنغهاي، ربما يصير قريبًا مشرفًا على عالم حضري أوسع قليلاً مما تخيله ماو، أو بالأحرى وفي هذا السياق، "لو كوربوزييه" Le Corbusier(*).

الشكل ٤(٣٧)

النمو الحضري الصناعي في الصين
(النسبة المئوية للحضر)

السنة	السكان	إجمالي الناتج القومي GDP
١٩٤٩	١١	–
١٩٧٨	١٣	–
٢٠٠٣	٣٨	٥٤
٢٠٢٠ (متوقع)	٦٣	٨٥

(36) Wang Mengkui, Director of the Development Research Center of the State Council, quoted in the *Financial Times*, 26 November 2003.

(*) هو شارل إدوار جانيريه (Charles-Edouard Jeanneret)، المعروف أيضا باسم لو كوربوزييه (٦ أكتوبر ١٨٨٧ – ٢٧ أغسطس ١٩٦٥) (Le Corbusier) كان معماريا سويسريا من أصل فرنسي، اشتهر بمساهماته في ما يسمى الآن بعمارة الحداثة، أو الأسلوب الدولي. كان رائدا في الدراسات النظرية للتصميم الحديث، وقد كرّس نفسه لتزويد ظروف معيشية أفضل لسكّان المدن المزدحمة. تواصلت مهنته خمسة عقود، بعدما أنشأت البنايات في أوروبا الوسطى، والهند، وروسيا، بالإضافة إلى بناء واحد في الولايات المتحدة. كان أيضا مخطّطا، ورسّاما، ونحّاتا، وكاتبًا، ومصمما للأثاث. (المترجم).

(37) Goldstein. "Levels of Urbanization in China,' table 7.1 p. 201; 1978 figure from Guilhem, La China." in Thierry Paquot ,*Les Mode des Villes: Panorama Urbian de la Planete*, Brussels 1996 p. 187.

من الأهمية أن نلاحظ هنا أن السلاسل الزمنية للبنك الدولي، تختلف عن نظيرها عند فابر Fabre، بمعدل نمو عمراني حضري عام ١٩٧٨، ١٨%، وليس ١٣%. انظر أيضًا:

(World Bank, *World Development Indicators*. 2001, CD-Rom version.)

وقد كان من غير المحتمل أيضًا أن يتصور أحد قبل خمسين سنة مضت، أن معسكرات شاغلي المساكن الخالية، أو واضعي اليد، ودمار الحرب في مدينة سول الكورية، ستتحول بسرعة خطيرة إلى مدينة ضخمة مزدحمة megalopolis من عيار نيويورك الكبرى (معدل مذهل ١١,٤% سنويًا خلال ستينيات القرن الماضي). ولكن، ومرة أخرى، ما الذي كان يمكن لأحد من العصر الفيكتوري أن يتصوره لمدينة مثل لوس أنجلوس في عشرينيات القرن الماضي؟ ومع ذلك، ومن غير المتنبأ به، وفقًا للتاريخ المحلي الخاص، والمعجزات الحضرية الخاصة بها، فإن حركة العمران الحضرية في شرق آسيا في الوقت الحاضر، والتي يصاحبها تضاعف ثلاثي لإجمالي الناتج القومي للفرد، منذ عام ١٩٦٥، لا تزال تحفظ علاقة شبه كلاسيكية ما بين نمو التصنيع والهجرة الحضرية. فثمانون في المائة من بروليتاريا ماركس الصناعية الآن، يعيشون في الصين، أو في مكان ما خارج أوروبا الغربية والولايات المتحدة[٣٨].

ولكننا، نلاحظ في معظم بلدان العالم النامي، أن نمو المدينة يفتقر إلى الدوافع والمحركات الصناعية التصديرية القوية التي لدى كل من الصين، وكوريا، وتايوان، كما يفتقر أيضًا إلى ما تتمتع به الصين من تدفق لرأس المال الأجنبي (في الوقت الحالي يساوي نصف إجمالي الاستثمار الأجنبي لكل بلدان العالم النامي). فمنذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، عانت المدن الصناعية الكبرى في الجنوب – بومباي، وجوهانسبرغ، وبيونس أيرس، وبيلو هوريزونتي Belo Horizonte[*]، وساو باولو – من الانغلاق

(38) World Bank, *World Development Report 1995: Workers in an Integrating World*, New York 1995, p. 170.

(*) مدينة برازيلية ضخمة، عدد سكانها يزيد حاليًا عن ٢,٥ مليون نسمة، ومعناها الحرفي "الأفق الجميل" Beautiful Horizon. (المترجم).

النباتي الكثيف، والميل إلى مناهضة التصنيع. وفيما عدا ذلك، وفي الأماكن الأخرى، فإن حركة العمران الحضري، انفصلت على نحوٍ أكثر جذرية عن حركة التصنيع؛ بل حتى عن التنمية في حد ذاتها. وفي أفريقيا أسفل الصحراء، انفصل العمران الحضري، أو الحضرنة، عن شرطه اللازم الذي لا بديل له عنه sin qua non، والمتمثل في نمو الإنتاج الزراعي. والنتيجة، أن حجم اقتصاد المدينة غالبًا ما يحمل، وعلى نحو مثير للدهشة، علاقة ضعيفة مع حجم سكانها، والعكس صحيح. والشكل رقم ٥ يصور هذا التفاوت الحاصل بين عدد السكان ومعدلات إجمالي الناتج القومي، في أضخم المناطق الحضرية المدنية.

الشكل ٥(٣٩)

عدد السكان مقابل إجمالي الناتج القومي: أكبر عشر مدن

م	(١) وفق عدد السكان عام ٢٠٠٠	(٢) وفق إجمالي الناتج القومي عام ١٩٩٦ (معدل السكان ٢٠٠٠)
١	طوكيو	طوكيو (١)
٢	مكسيكو سيتي	نيويورك (٣)
٣	نيويورك	لوس أنجلوس (٧)
٤	سول	أوساكا (٨)
٥	ساو باولو	باريس (٢٥)
٦	مومباي	لندن (١٩)

(39) Population rank from Thomas Brinkhoff (www.citypopulation.de): GDP rank from Denise Pumain, "Scaling Laws and Urban Systems." *Santa Fe Institute Working Paper* 04-02-002, Santa Fe 2002, p 4.

٧	دلهي	شيكاغو (٢٦)
٨	لوس أنجلوس	سان فرانسيسكو (٣٥)
٩	أوساكا	دوسلدورف (٤٦)
١	جاكارتا	بوسطن (٤٨)

هنا قد يدفع البعض بأن الحضرنة، أو حركة الإعمار الحضري بدون صناعة، هي تعبير عن تيار لا يلين: ذلك الميل المتأصل لرأسمالية السليكون silicon capitalism؛ لفصل نمو الإنتاج عن نمو العمالة والتشغيل. ولكن في أفريقيا، وأمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط، وكذلك في جزء كبير من جنوب آسيا، فإن الحضرنة بدون النمو- وكما سنرى لاحقًا- تعد وبصورة أكثر وضوحًا، ميراثًا لحالة سياسية عالمية حرجة؛ تمثلت في أزمة الديون العالمية أواخر سبعينيات القرن الماضي، وما تلاها من إعادة الهيكلة التي قادها صندوق النقد الدولي لاقتصاديات العالم الثالث في ثمانينيات القرن نفسه؛ وذلك بما يفوق أي قانون حديدي لتقدم التكنولوجيا.

فضلاً عن ذلك، فإن حضرنة العالم الثالث، واصلت سرعتها الخطيرة (٣,٨% سنويًا من ١٩٦٠ إلى ١٩٩٣) على مدار سنوات البوار، أو السنوات الصعبة locust years في الثمانينيات، وأوائل التسعينيات من القرن المنصرم، بالرغم من تدني الأجور الفعلية، والأسعار الملتهبة، والبطالة المحلقة بمعدلات مرتفعة في الحضر[٤٠]. إن هذا الازدهار الحضري المنحرف، فاجأ معظم الخبراء، وجاء مناقضًا للنماذج الاقتصادية الأرثوذوكسية التي تنبأت بأن العائد السلبي للركود الحضري، سيكون من شأنه إبطاء، بل حتى قلب

(40) Josef Gugler. "Introduction – II Rural=Urban Migration," in Gugler (ed.), *Cities in the Developing World: Issues and Policy*. Oxford 1997, p 43.

أو عكس الهجرة من الريف[٤١]. "يبدو"– كما أبدى الاقتصادي الإنمائي "نيجل هاريس" Nigel harris تعجبه في عام ١٩٩٠– "أنه بالنسبة للبلدان ذات الدخل المنخفض، فإن هبوطًا دالاً في الدخول الحضرية، قد لا يسفر بالضرورة، وعلى مدى زمني قصير، عن انحدار في الهجرة من الريف إلى الحضر"[٤٢].

أما الوضع في أفريقيا، فقد كان يشكل مفارقة على نحو خاص: كيف كان للمدن في ساحل العاج، وتنزانيا، والكونغو كنشاسا، والجابون، وأنجولا، وغيرها– حيث كان الاقتصاد يتقلص بنسب تتراوح ما بين ٢ و٥%– أن تواظب على دعم النمو السكاني السنوي، بنسب تتراوح ما بين ٤ و٨ %[٤٣]؟ كيف يمكن لمدينة مثل لاجوس في الثمانينيات من القرن الماضي، أن تنمو مرتين ضعف نمو عدد سكان نيجيريا بأكملها، بينما كان اقتصادها في ركود وكساد عميقين[٤٤]؟ بل، وفي حقيقة الأمر، كيف لأفريقيا برمتها، التي تعيش الآن في عصر مظلم من التشغيل الحضري الراكد، وتيبُّس الإنتاج الزراعي، أن تكون قادرة على الاستدامة في معدل الحضرنة، أو النمو العمراني الحضري السنوي (من ٣,٥ إلى ٤%)، وهو ما يعد أعلى من معدل متوسط

---

(٤١) تؤكد سالي فندلي Sally Findley أن الجميع في ثمانينيات القرن الماضي، قد أبخسوا تقدير مستويات الهجرة المستمرة من الريف إلى الحضر وما ينتج عنها من معدلات الحضرنة. انظر:

Findley, "The Third World City," in Kasarda and Parnell, *Third World Cities: Problems*, p. 14

(42) Nigel Harris. "Urbanization, Economic Development and Policy in Developing Countries." *Habitat International* 14·4 (1990), pp. 21-22.

(43) David Simon, " Globalization and Economic Crisis in Africa," in Carole Rakodi (ed.), *The Urban Challenge in Africa· Growth and Management in Its Large Cities*, Tokyo 1997, p. 95. For growth rates of English industrial cities 1800-50, see Adna Weber, *The Growth of Cities in the Nineteenth Century: A Study in Statistics*, New York, 1899, pp. 44, 52-53.

(44) A S Oberai, *Population Growth, Employment and Poverty in Third-World Mega-Cities. Analytical Policy*. London 1993. p. 165.

معظم المدن الأوروبية البالغ (٢,١%) أثناء سنوات ذروة النمو في العصر الفيكتوري[٤٥]؟

إن جزءًا من السر في ذلك، بالطبع، كان يكمن في أن سياسات انسحاب الدولة من المجال الزراعي والنظام المالي الذي فرضه كل من صندوق النقد والبنك الدوليين، ذلك الانسحاب الذي واصل توليد نزوح فائض العمالة الريفية إلى الأحياء الفقيرة أو العشوائيات الحضرية، حتى مع توقف المدن عن أن تكون ماكينات للعمل. وكما تؤكد "ديبورا برايسيسون" Deborah Bryceson، الأوروبية الرائدة المتخصصة في الأفريقيات، في ملخصها عن بحث زراعي حديث، فإن ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، كانا عقدين لتوليد اضطراب وزعزعة بدرجة غير مسبوقة في الريف العالمي:

حكومة وطنية تلو الأخرى، تكبلت بالديون، وأصبحت خاضعة لبرامج التكيف الهيكلي وشروط صندوق النقد الدولي. وكانت حزم المدخلات الزراعية المدعومة والمحسنة، وكذلك بناء البنية التحتية، قد تقلصت تقلصًا حادًا. وفيما تم التخلي عن جهود "التحديث" الفلاحي في بلدان أمريكا اللاتينية وأفريقيا، كان الفلاحون خاضعين للإستراتيجية الاقتصادية الخاصة بالمؤسسات المالية الدولية، وهي "تغرق أو تسبح sink-or-swim". كما أن انسحاب الدولة عن دورها في ضبط السوق، دفع المنتجين الزراعيين إلى أسواق السلع العالمية، حيث واجه متوسطو وصغار الفلاحين صعوبة القدرة على المنافسة. وقد مثلت برامج التكيف الهيكلي، وسياسات التحرير

---

(45) United Nations Economic Programme (UNEP). *African Environment Outlook: Past, Present and Future Perspectives*, quoted in *Al Ahram Weekly* (Cairo), 2-8 October 2003; Alain Jacquemin, *Urban Development and New Towns in the Third World: Lessons from the New York Bombay Experience*, Aldershot 1999, p. 28.

الاقتصادي نقطة تلاقي القوى العالمية في عملية مجابهة الزراعة، والسياسات الوطنية التي تعزز مناهضة الفلاحين والفلاحة(٤٦).

ومع اختفاء شبكات الأمان المحلية، أصبح الفلاحون الفقراء- وعلى نحو متزايد- معرضين بسهولة إلى أية صدمة خارجية المنشأ: الجفاف، أو التضخم، أو ارتفاع معدلات الفائدة، أو هبوط أسعار السلع. (أو المرض: ٦٠% حسب التقديرات من صغار الفلاحين في كمبوديا، ممن باعوا أراضيهم، وانتقلوا إلى المدينة، أجبروا على ذلك بسبب ديونهم الطبية(٤٧)).

في الوقت نفسه، فإن أمراء الحرب الضواري، والحروب الأهلية المزمنة، التي غالبًا ما يؤلبها ويثيرها سوء التحديد الاقتصادي للتكيف الهيكلي المفروض بسبب الديون، أو وحوش الاقتصاد الأجنبي (كما في الكونغو وأنجولا)، فقد كانوا يجتثون الريف ككل من جذوره. والمدن- على الرغم من ركودها أو نموها الاقتصادي السلبي، وبدون الاستثمار الضروري في البنية التحتية الجديدة، والمرافق التعليمية أو نظم الصحة العامة- فقد جنت ببساطة نتائج هذه الأزمة الزراعية العالمية. إذ بدلاً من النمط الكلاسيكي للريف ذي الكثافة العمالية، والمدن الصناعية ذات الكثافة الرأسمالية، فإن العالم الثالث الآن يحتوي على أمثلة كثيرة من الريف ذي الكثافة الرأسمالية، والمدن منزوعة الصناعة ذات الكثافة العمالية. "حضرنة فائضة عن الحد"، أو بمعنى آخر، مدفوعة بإنتاج الفقر، وليس بتوفير الأعمال. وهذا واحد من المسارات غير المتوقعة، الذي يتحكم في ظله نظام عالمي نيولبرالي في تحويل المستقبل(٤٨).

---

(46) Deborah Bryceson, "Disappearing Peasantries? Rural Labour Redundancy in the Neo-Liberal Era and Beyond," in Bryceson, Kay, and Mooij, *Disappearing Peasantries?*, pp. 304-05

(47) Sébastien de Dianous, "Les Damnés de la Terre du Cambodge," *Le Monde diplomatique* (September 2004), p. 20

(48) See Josef Gugler, "Overurbanization Reconsidered," in Gugler, *Cities in the Developing World*, pp 114-23

في النظريات الاجتماعية الكلاسيكية، من كارل ماركس إلى ماكس فيبر، ظل الاعتقاد سائدًا في أن المدن الكبرى في المستقبل من شأنها أن تترسم خطى التصنيع، وآثارها في مانشستر، وبرلين، وشيكاغو. والحقيقة أن لوس أنجلوس، وساو باولو، وبوسان Pusan، واليوم، سيوداد خواريز(*) Ciudad Juárez، وبانغالور(**) Bangalore، وقوانغتشو(***) Guangzhou؛ تكاد أن تكون اقتربت من هذا المسار المستقيم المُجاز. ولكن، معظم مدن الجنوب، أكثر شبهًا بـ"دبلن" الفيكتورية، والتي- كما شدد المؤرخ "إيمت لاركن" Emmet Larkin- كانت مدينة فريدة وسط "جميع الأحياء الفقيرة/ العشوائيات، التي نتجت في العالم الغربي خلال القرن التاسع عشر... [لأن] أحياءها الفقيرة/ العشوائية، لم تكن نتاجًا للتطور الصناعي. والحقيقة أن دبلن عانت من مشكلات نزع الصناعة عنها، أكثر مما عانته من حركة الصناعة ما بين عامي ١٨٠٠ و١٨٥٠"(٤٩).

(*) سيوداد خواريز بالإسبانية *Ciudad Juárez* تعرف أيضًا باسم خواريز فقط. عرفت سابقًا باسم باسو ديل نورتي *Paso del Norte*، هي مدينة ومقر لبلدية خواريز في تشيهواهوا بالمكسيك. يقدر عدد سكانها بنحو ١,٥ مليون نسمة. وهي قرب نهر ريو غراندي، وتطل عليها من الجانب الآخر على الحدود مع الولايات المتحدة مدينة إل باسو بتكساس، وأعيدت تسميتها بـ"سيوداد خواريز" (أي مدينة خواريز) نسبة إلى الرئيس المكسيكي الأسبق بينيتو خواريز. (المترجم)

(**) مدينة بنغالور هي عاصمة ولاية كارناتاكا يقدر عدد سكانها بـ ٦،١ ملايين نسمة. تقع جنوب غرب ولاية كارناتاكا. وتعد ثالث أكبر مدينة هندية. يقع في هده المدينة المعهد الهندي للعلوم، أول معهد للعلوم بنته الهند. وتعد المدينة مركزا تكنولوجيا، إذ تضم أكثر من ١٥٠٠ شركة تعمل في مجال التكنولوجيا. (المترجم).

(***) مدينة في جنوبي الصين، تسمى بالعربية أيضًا كوانجو، هي عاصمة مقاطعة "كونغدنغ". تقع على ضفة "نهر اللؤلؤ". كان الغربيون وحتى وقت قريب يطلقون عليها تسمية "كانتون"، وهذا بسبب أن العرب أطلقوا عليها هذا الاسم والذي يعني المناطق المفصولة عن بعض. بلغ عدد السكان فيها ٦,٨٥ مليون نسمة (تقديرات ١٩٩٩ م)، بما فيهم سكان المنطقة الحضرية (٤,٠٥ مليون). (المترجم).

(49) Forward to Jacinta Prunty, *Dublin Slums, 1800-1925: A Study in Urban Geography*, Dublin 1998. p. ix.
ولاركن بالطبع ينسى هنا النظير المتوسطي لمدينة دبلن وهي نابلس.

بالمثل، نجد كلا من كنشاسا، ولواندا، والخرطوم، ودار السلام، وغواياكيل[*] Guayaquil، وليما، تواصل النمو الحضري السكاني على نحو هائل، على الرغم من تلك الصناعات البديلة عن الاستيراد التي تعاني حالة دمار، والقطاعات العامة المتقلصة، والطبقات الوسطى المتآكلة. فالقوة العالمية "تدفع" الناس إلى خارج الريف: ميكنة الزراعة في جافا والهند، وواردات الغذاء في المكسيك، وهاييتي، وكينيا، والحرب الأهلية والجفاف عبر أفريقيا. وفي كل مكان نلاحظ تكثيف الحيازات الصغيرة داخل الحيازات الكبيرة، وتنافس التجارة الزراعية الصناعية كبيرة الحجم.. تبدو جميعًا كأنها تخلق الاستدامة للحضرنة، حتى عندما تكون قوة جذب المدينة قد أُنهِكت إنهاكًا شديدًا بفعل الدَّين والانهيار الاقتصادي. ونتيجة لذلك، فإن النمو الحضري السريع في سياق التكيف الهيكلي، وتخفيض قيمة العملة، وتخفيض إنفاق الدولة، أصبح وصفة حتمية لإنتاج العشوائيات والأحياء الفقيرة بصورة ضخمة.

ولقد قدر أحد الباحثين العاملين في منظمة العمل الدولية ILO، أن أسواق السكن الرسمية في العالم الثالث، نادرًا ما توفر أكثر من ٢٠% من السوق السكنية الجديدة. ومن ثم، فمن وازع الحاجة الضرورية، يتحول الناس إلى العشش التي يبنونها بأنفسهم، والإيجارات غير الرسمية، والمقاسمة بالقرصنة، أو اتخاذ الأرصفة مأوى لهم[٥٠]. إن "أسواق الأرض غير القانونية

(*) غواياكيل (بالإسبانية: Guayaquil) (رسميا: سانتياغو دي غواياكيل Santiago de Guayaquil) هي أكبر مدينة في الإكوادور وأكثرها ازدحاما بالسكان، كما تعد ميناء البلاد الرئيسي. وتعتبر المدينة عاصمة إقليم غواياس غربي البلاد. ومدينة غواياكيل توجد على الضفة الغربية من نهر غواياس والذي يصب في خليج غواياكيل في المحيط الهادي. وبسبب موقعها المهم تعد هذه المدينة مركز الصيد والصناعة الرئيسي في الإكوادور. بلغ عدد سكان المدينة في عام ٢٠٠١ نحو ١،٩٨٥،٣٧٩ نسمة، فيما بلغ عدد سكان غواياكيل الكبرى نحو ٢،١٥٩،٩١١ نسمة. مؤسس المدينة هو مستكشف الأمازون فرانسيسكو دي أوريلانا يوم ٢٥ يوليو ١٥٣٨ وكانت قبلها قرية هندية. (المترجم).

(50) Oberai, *Population Growth, Employment and Poverty in Third-World and Mega-Cities*, p 13

القانونية أو غير الرسمية"، كما تقول الأمم المتحدة: "قد أعطت مواقع الأرض لمعظم الإضافات إلى سوق السكن في أغلب مدن الجنوب، على مدى الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة"(٥١).

ومنذ عام ١٩٧٠، تجاوز سرعة إنتاج العشوائيات في كـل مكـان مـن جنوب العالم، سرعة عملية الحضرنة على أرض الواقع. ذلك أنه وبالنظر خلفـا إلى مدينة مكسيكو سيتي، أواخر القرن العشرين، تلاحظ المخططـة الحـضرية برسيلا كانولي Priscilla Cannoly، أن ما يقرب من ٦٠% من نمو المدينة، جاء نتيجة جهود الناس، خصوصًا النساء، ممن يقومون وعلى نحو بطـولي ببنـاء مساكنهن الخاصة بأنفسهن على أراضٍ طرفية غير مخدومـة، بينمـا مـستوى الكفاف في العيش المعتمد على عمل غير رسمي، دائمًا ما يشكل نسبة كبيرة من إجمالي حجم العاملين"(٥٢). أما العشوائيات التي تتخذ اسم *فـافيلا favelas* فـي ساوباولو، فقد احتوت على مجرد ١,٢% من إجمالي السكان في عـام ١٩٧٣، ولكنها وصلت ١٩,٨ في ١٩٩٣. أي أنها نمت عبر عقد التسعينيات من القـرن الماضي، وفق معدل انفجاري قوامه ١٦,٤% سنويًا(٥٣). وفي منطقة الأمازون، أحد أسرع جبهات النمو الحضري في العالم، تمثّل ٨٠% من نسبة نمو المدينـة في العشوائيات، والعشش التي تفتقر تمامًا إلى أية خدمات مـن نـوع المرافـق والنقل الأهلي. وهو مـا يجعـل "الحـضرنة" و"انتـشار طـابع العـشوائيات favelization" شيئين مترادفين تمامًا(٥٤).

---

(51) UN-HABITAT, *An Urbanising World: Global Report on Human Settlements*, Oxford 1996, p. 239.

(52) Priscilla Cannolly, "Mexico City: Our Common Future?," *Environment and Urbanization* 11:1)April 1999), p. 56.

(53) Ivo Imparato and Jeff Ruster, *Slum Upgrading and Participation. Lessons from Latin America*. Washington, D.C 2003, p. 333.

(54) John Browder and Brain Godfrey, *Rainforest Cities. Urbanization, Development, and Globalization of the Brazilian Amazon*. New York 1997, p. 130.

إن هذه التيارات نفسها، موجودة بوضوح في كل مكــان مــن آســيا. فهيئات البوليس في بكين، تقدر وصول ٢٠٠,٠٠٠ من "العــائمين floaters" سنويًا (المهاجرين الريفيين غير المسجلين)، إلى المدينــة، كثيــرون مــنهم يتكدسون في أحياء عشوائية مكتظة، على الحافة الجنوبية من العاصــمة(٥٥). وفي جنوب آسيا، في الوقت ذاته، أظهرت دراسة في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، أن ما يربو على ٩٠% من نمو الحيازة السكنية الحــضرية، قــد حدث في أحياء عشوائية(٥٦). كذلك انتشار واضعي اليد، أو المستولين على الوحدات السكنية الخالية، الذين يتخذون مــسمى *"كاتــشي أبــادي" Katchi abadi*، ويمتدون في انتشار واسع عبر كاراتشي. وهؤلاء يتضاعف عددهم كل عقد من الزمن، في حين أن الأحياء العشوائية في الهند، ما زالت تواصل نموها بمعدل ٢٥٠% أسرع من إجمالي عدد السكان(٥٧). أمــا فــي ولايــة مومباي، فإن معدل النقص السنوي المقدر في السكن بـــــ٤٥,٠٠٠ وحــدة سكنية من وحدات القطاع الرسمي، يُترجَم على الفور إلى زيادة مقابلة فــي ساكني العشوائيات، أو الأحياء الفقيرة غير الرسمية(٥٨). ومن بين ٥٠٠,٠٠٠ نسمة يهاجرون كل عام إلى مدينة دلهي، يُقدر عدد من ينتهي بهم الحال إلى السكن في العشوائيات بـــ٤٠٠,٠٠٠ نسمة. ويحلول عــام ٢٠١٥، ســيكون بالعاصمة الهندية سكان عشوائيات يفوق عددهم ١٠ ملايين نــسمة. "فــإذا واصل هذا التيار مسيرته بكامل قوّته، ودون أن يعتريه وهن"، كمــا يحــذر

---

(55) Yang Wenzhong and Wang Gongfan, "Peasant Movement: A Police Perspective,"in Michael Dutton (ed), *Streetlife China*, Cambridge 1998, p 89.

(56) Dileni Gunewardena, "Urban Poverty in South Asia: What Do We Know? What Do We Need To Know?", working paper, Conference on Poverty Reduction and Social Progress, Rajendrapur, Bangladesh, April 1999, p. 1.

(57) Arif Hasan, "Introduction," in Akhtar Hemmed Khan, *Orangi Pilot Project: Reminiscences and Reflections*. Karachi 1996, p. xxxiv.

(58) Suketu Mehta, *Maximum City: Bombay Lost and Found*. New York 2004, p. 117

خبير التخطيط جواتـــام شـــاتيرجي Guatam Chatterjee، "ســيكون لـيــدنا عشوائيات فقط دون مدن"(٥٩).

أما بالنسبة للوضع الأفريقي، فإنه يعد بالطبع أكثر تطرفًا. فالعشوائيات في أفريقيا تنمو مرتين ضعف سرعة نمو المدن المتفجرة في القارة. والحقيقة أن نسبة لا تصدق، وهي ٨٥% من النمو السكاني في كينيا ما بـين عـامي ١٩٨٩ و١٩٩٩، تم استيعابها في العشوائيات الآسنة المكتظة فـي نيروبـي ومومباسا(٦٠). وفي الوقت نفسه، فإن أملاً واقعيًا في تخفيف الفقر الحـضري في أفريقيا، قد خبا، أو تلاشى من الأفق الرسمي. وفي الاجتمـاع الـسنوي المشترك لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي فـي أكتـوبر/ تـشرين الأول ٢٠٠٤، أشار وزير مالية المملكة المتحدة "جوردون براون" Gordon Brown الذي كان متوقعًا أن يكون وقتها وريث "توني بليـر" Tony Blair، إلـى أن الأهداف الإنمائية للألفية، تلك التي وضعتها الأمم المتحدة بالنسبة لأفريقيا، قد وُضعت في الأصل لتتحقق بحلول عام ٢٠١٥، وأنها لن يتسنى تحقيقها على مدى أجيال بطولها: "فأفريقيا جنوب الصحراء، لن تحقق التعلـيم الابتـدائي الشامل حتى عام ٢١٣٠، ونسبة ٥٠% في تخفيض الفقر في عـام ٢٠١٥، والقضاء على أسباب وفاة المواليد التي يمكـن تجنبهـا حتـى ٢١٦٥"(٦١). وبحلول عام ٢٠١٥ فإن أفريقيا السوداء، سيكون بها ٣٣٢ مليون نسمة مـن قاطني العشوائيات، وهو عدد سيواصل الازدياد بمعدل الضعف كل خمـسة عشر عامًا(٦٢).

---

(59) Guatam Chatterjee, "Consensus versus Confrontation," *Habitat Debate* 8:2 (June 2002), p. 11. Statistics for Delhi from Rakesh K. Sinha, "New Delhi: The World's Shanty Capital in the Making," *One World South Asia*, 26 August 2003.

(60) Harvey Herr and Guenter Karl, "Estimating Global Slum Dwellers: Monitoring the Millenium Development Goal 7, Target 11," UN-HABITAT working paper Nairobi 2003, p. 19.

(61) Gordon Brown quoted in *Los Angeles Times*, 4 October 2004.

(62) UN statistics quoted in John Vidal, " Cities Are Now the Frontline of Poverty," *Guardian*, 2 February 2005.

إذن، فمدن المستقبل، بدلاً من أن تُصنع من الزجاج والحديد، كما تخيلتها الأجيال السابقة من المخططين الحضريين، سوف تعتمد في بنائها اعتمادًا كبيرًا على الطوب الخام، والقش، والبلاستيك المعاد تدويره، وكتل الأسمنت والخشب الخام. وبدلاً من مدن النور المحلقة في عنان السماء، فإن جزءًا كبيرًا من العالم الحضري في القرن الحادي والعشرين، سيقبع في القذارة والمستنقعات محاطًا بالتلوث، والغائط، والتعفن. والحقيقة أن سكان المدينة الذين يصل عددهم حول العالم إلى بليون نسمة، والذين يقطنون الأحياء العشوائية ما بعد الحداثية، قد ينظرون خلفهم بحسد على دمار البيوت الطينية الصلبة؛ تشاتال هوجيك *Çatal Hüyük* في الأناضول، تلك التي انتصبت هناك في فجر الحياة المدينية، منذ تسعة آلاف سنة خلت.

الفصل الثاني

تفشي العشوائيات

"ترك العنان لعقله، وهو يحملق في المدينة:
نصف عشوائية، نصف جنة. كيف يمكن
لمكان ما أن يكون بمثل هذا القبح والعنف معًا،
ويظل في الوقت نفسه جميلاً؟".
كريس أباني[1] *Chris Abani*

إن انتشار العشوائيات بشكل مذهل، يمثل التيمة الرئيسية التي يعمل عليها تقرير *التحدي الذي تطرحه العشوائيات The Challenge of Slums*، وهو تقرير تاريخي أسود كئيب، نشره "برنامج الموئل البشري للأمم المتحدة" (UN-HABITAT) في أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٣. هذا الفحص الأول من نوعه للفقر الحضري، والذي يعد بحق فحصًا عالميًا، والذي يسير على الخطى والآثار الشهيرة لكل من فريدريش إنجلز Freidrich Englis، وهنري مايهو Henry Mayhew، وتشارلز بوث Charles Booth، ويعقوب ريس Jacob Riis، يتوج قرنين من الاستطلاع والاستكشاف العلمي لحياة العشوائيات، ذلك الجهد الذي بدأ بكتاب جيمس وايتلو James Whitelaw سنة ١٨٠٥ *مسح للفقر في دبلن Survey of Poverty in Dublin*. وهو أيضًا النظير الإمبريقي الذي طال انتظاره، لتلك التحذيرات التي أطلقها البنك

(1) Chris Abani. *Graceland*, New York 2004, p. 7.

الدولي في تسعينيات القرن الماضي، من أن الفقر الحضري من شأنه أن يصبح "المشكلة الأكثر دلالة والمتفجرة سياسيا في القرن القادم"(٢).

إن تقرير *التحدي الذي تطرحه العشوائيات*، عبارة عن ثمرة تعاون تم بين أكثر من مائة باحث/ة، ويدمج بين ثلاثة مصادر مستحدثة من التحليل والبيانات؛ **الأول:** أنه يقوم على دراسات حالة تشريحية للفقر، والظروف الملمة بالعشوائيات، وسياسات الإسكان في ٣٤ منطقة من المناطق المركزية في المدن العاصمية من أبيدجان إلى سيدني. هذا المشروع قامت بتنسيقه من أجل برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية، وحدة تخطيط التنمية في جامعة لندن(٣). **ثانيًا:** أنه ينتفع من قاعدة بيانات مقارنة فريدة، تغطي ٢٣٧ مدينة حول العالم، أنشأها برنامج المؤشرات الحضرية Urban Indicators Program ضمن برنامج الأمم المتحدة للموئل UN-HABITAT من أجل قمة إسطنبول+ ٥ الحضرية ٢٠٠١ Istanbul + 5 Urban Summit(٤). **ثالثًا:** أنه يدمج بيانات المسح العالمي للأسر المعيشية التي تطرق أرضًا جديدة، بتضمين الصين والكتلة السوفييتية سابقًا. ويدين مؤلفو الأمم المتحدة بدين غريب إلى برانكو ميلانوفيتش Branko Milanovic، اقتصادي البنك الدولي الذي قاد هذه المسوح، كميكروسكوب قوي لدراسة التفاوت، أو انعدام المساواة، على مستوى العالم. (في إحدى أوراقه البحثية يوضح ميلانوفيتش أنه: "للمرة الأولى في تاريخ البشرية يتوافر لدى الباحثين بيانات دقيقة إلى حد كبير، حول توزيع الدخل أو الرفاهية [الإنفاقات أو الاستهلاك] وسط أكثر

(2) Anqing Shi, "How Access to Urban Potable Water and Sewerage Connections Affects Child Morality," Finance, Development Research Group, working paper. World Bank, January 2000, p 14
(3) University College London Development Planning Unit and UN-HABITAT, *Understanding Slums. Case Studies for the Global Report on Human Settlements* 2003. literary
(4) See *Challenge*, p 245.

من ٩٠% من سكان العالم"[٥]). فإذا كانت تقارير هيئة الحكومـات المعنيـة بالتغير المناخي Intergovernmental Panel on Climate Change، تمثل اتفاقا علميًا غير مسبوق على مخاطر الاحترار العالمي، فإن تقرير *التحدي الـذي تطرحه العشوائيات*، يمثل في الوقت نفسه تحذيرًا قويًا حول كارثـة الفقـر الحضري العالمية.

ولكن، ما "العشوائية"؟ إن أول تعريف لها منشور، يقال إنه جاء فـي كتاب *مفردات اللغة السريعة Vocabulary of the Flash Language* لمؤلفـه الكاتب السجين "جيمس هاردي فوكس"James Hardy Vaux ، حيث جـاءت مفردة slum، مرادفة لكلمتي "تدبيرة أو نصَبة racket"، أو تجـارة إجراميـة criminal trade"[٦]. ومع حلول سنوات الكوليرا في ثلاثينيـات وأربعينيـات القرن التاسع عشر، كان الفقراء يعيشون تدبيرات slums الحيـاة (بـالمعنى السابق– م) ولا يمارسونها. ويأتي "كاردينال وايزمان" Cardinal Wiseman، خصوصًا في كتابته حول الإصلاح الحضري، والذي أحيانًا ما يمنح الإقرار بفضله في تحويل كلمة "slum" بمعنى "تدبيرة" (المساحة التي وقعـت فيهـا المجريات المريبة أو "المشبوهة")، من لهجة الشارع إلـى لهجـة الكتّـاب المهذبين[٧]. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت كلمة slums متطابقة المعنى في كل من فرنسا، والولايات المتحدة، والهند. وقد كان يتم الاعتراف بها عمومًا كظاهرة دولية. وقد تجادل العارفون والخبـراء والمـستطرقون *flâneurs*، حيث كان الحظ من قدر الإنسان قد بلغ أسوأ حالاته: كنيسة بيضاء Whitechapel، أو كنيـسة Le Chapelle، الغـاليين Gorbals، أو الحريـات

(5) Bianko Milanovic, "The World Income Distribution, 1988 and 1993: First Calculation Based On Household Survey Alone," working paper, World Bank, New York 1999, n. p. 245.

(6) Prunty, *Dublin Slums*, p. 2.

(7) J A. Yelling, *Slums and Slum Clearance in Victorian London*, London 1986, p 5.

Liberties، بيج آلي Pig Alley أو موليبري بيند Mulberry Bend. وفي مسح "للفقراء في المدن الكبرى"، أجرى عام ١٨٩٥، صوتت *مجلة آل سكريبنر* *Scribner's Magazine* لمستودعات نابولي Naples' *Fondaci*s بوصفها "أماكن العيش البشرية الأكثر بشاعة على وجه الأرض"، غير أن جوركي Gorky كان على ثقة بأن حي خيتروف Khitrov سيئ السمعة في موسكو، كان بالفعل "الأعماق الأكثر انحطاطًا". فيما ضحك كيبلينج Kipling، واصطحب قراءه إلى ما هو "أعمق وأعمق"، حيث كلوتولاه Clootollah "الدرك الأسفل" قاطبة، في كالكاتا Calcutta "مدينة الليل المخيف"[(٨)].

ووفق التصوير الكلاسيكي، اشتهرت هذه العشوائيات بكونها منحصرة ضيقة، ومحلية الطابع من الناحية التصويرية، إلا أن الإصلاحيين عمومًا يتفقون مع تشارلز بوث Charles Booth– د. ليفينجستون لندن المنبوذة– على أن العشوائيات كانت تتصف بخلطة من السكن البالي المتهدم، والتكدس، والمرض، والفقر، والرذيلة. وبالطبع، فقد كان البعد الأخلاقي لحياة العشوائيات حاسمًا بالنسبة إلى ليبراليي القرن التاسع عشر. وللوهلة الأولى، كان يُنظَر إلى الحي العشوائي، وقبل كل شيء، بوصفه مكانًا لـ"فَضْلَة" اجتماعية فاسدة وهمجية، تتعفن وتتفسخ في فضاء لا أخلاقي، وعنيف في الغالب. والحقيقة أن ثمة أدبيات كثيرة دغدغت وضعية الطبقات الوسطى الفيكتورية، بحكايات مجيدة عن الجانب المظلم من المدينة. "فالهمج Sauvages"، "كما احتفى بهم وأثنى عليهم ريفرند تشابن Reverend Chapin في كتابه *الإنسانية في المدينة* *Humanity in the City* (١٨٥٤)، لا يكونون في الغابات الضبابية الكئيبة، بل تحت سطع مصابيح الغاز، وأعين رجال

---

(8) Robert Woods et al., *The Poor in Great Cities: Their Problems and What is Being Done to Solve Them*, New York 1895, p. 305 (*Scribners Magazine*); Blaire Ruble, *Second Metropolis: Pragmatic Pluralism in Gilded Age Chicago, Silver Age Moscow, and Meiji Osaka*, Cambridge 2001, pp. 266-67 (Khitrove), Rudyard Kipling, *The City of Dreadful Night, and Other Poems*, London 1891, p. 71.

البوليس؛ بصيحات الحرب، والهراوات الموحَّدة، ملابسهم مبهرة، وأرواحهم وحشية؛ مثلهم مثل أقرانهم على طرفي الأرض"[٩]. وبعد أربعين سنة من تلك اللحظة، ظلت وزارة العمل الأمريكية الجديدة، وفي أول مسح "علمي" للحياة السكنية الأمريكية (*عشوائيات بولتيمور، شيكاغو، نيويورك، وفلادلفيا The Slums of Baltimore, Chicago, New York, and Philadelphia*, 1894)، تعرّف الحي الفقير، أو العشوائية بوصفها "منطقة من الشوارع الخلفية القذرة، خاصة عندما يقطنها سكان من القذرين البائسين والمجرمين"[١٠].

تعداد عالمي للعشوائيات:

ينبذ مؤلفو تقرير *التحدي الذي تطرحه العشوائيات* هذه الافتراءات التي تنتمي إلى العصر الفيكتوري، ولكنهم على صعيد آخر، يحافظون على التعريف الطبقي للمنطقة العشوائية، أو الحي الفقير. ويتميز بالتكدس، والسكن الفقير أو غير الرسمي، وعدم إمكانية الوصول بطرق ملائمة إلى مياه آمنة، وصرف صحي، فضلاً عن غياب أي ضمان للحيازة. وهذا التعريف الإجرائي الذي تم تبنّيه رسميًا في اجتماع للأمم المتحدة، انعقد بنيروبي في أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٢، ("تعريف يظل مقتصرًا على الصفات والخصائص المكانية/ الفيزيقية والقانونية للمستوطنة البشرية"، متجنبًا في الوقت نفسه "الأبعاد الاجتماعية" الأخرى الأكثر استعصاءً على القياس، على الرغم من أنه يبقى تعريفًا مساويًا– في أغلب الظروف– للتهميش الاقتصادي والاجتماعي)[١١].

(9) Rev Edwin Chapin, *Humanity in the City*, New York 1854, p. 36.

(10) See Carroll D. Wright, *The Slums of Baltimore, Chicago, New York, and Philadelphia*, Washington 1894, pp. 11-15.

(11) *Challenge*, pp. 12-13.

وفي اشتمالها على أحياء الصفيح الفقيرة ما قبل الحضرية، وكذلك البنايات السكنية الجماعية التقليدية داخل المدن، فإن هذه المقاربة متعددة الأبعاد، تعد من حيث الممارسة مقياسًا محافظًا جدًا للعوامل المؤهّلة، أو الخصائص المميزة للحي العشوائي. ولسوف يفاجأ قراء كثيرون بالنتائج التجريبية المقابلة التابعة للأمم المتحدة، والتي تفيد أن ١٩,٦% من المكسيكيين الحضر، يعيشون في أحياء عشوائية (وعادة ما يقر خبراء محليون بأن ثلثي المكسيكيين هم في الغالب يعيشون في بنايات سكنية قديمة، أو في *مستوطنات غير نظامية colonias populares*). وحتى باستخدام هذا التعريف المقيّد، فإن باحثي الأمم المتحدة يقدّرون على الأقل وجود ٩٢١ مليون نسمة من ساكني العشوائيات في عام ٢٠٠١، ارتفع عددهم إلى أكثر من بليون نسمة في عام ٢٠٠٥: وهو ما يعادل تقريبًا عدد سكان العالم عندما غامر "إنجلز" Engels الشاب في عام ١٨٤٤، للمرة الأولى بالتجول في شوارع سان جيلز St. Giles الوضيعة، وفي بلدة مانشستر القديمة Old Town Manchester.(١٢)

والحقيقة أن الرأسمالية النيوليبرالية، منذ عام ١٩٧٠، ضاعفت من حضور الحي العشوائي سيئ السمعة بمواصفاته تلك الشهيرة في حي "Tom-all-Alones"، عند الروائي الكبير ديكنز، في روايته *المنزل الكئيب Bleak House*، وذلك بفعل قوى مضاعفة مركبة exponential powers. فقاطنو الأحياء العشوائية، في الوقت الذي يشكلون فيه ٦% فحسب من سكان المدن في البلدان النامية، فإنهم يشكّلون نسبة متزايدة قوامها ٧٨,٢% من المناطق الحضرية في البلدان الأقل نموًا؛ وهو ما يساوي تمامًا ثلث السكان الحضر في العالم.

(12) UN-HABITAT executive director Anna Tibaijuka quoted in "More than one Billion People Call Urban Slums Their Homes," *City Mayors Report*, February 2004; www.citymayors.com/report/slums.html.

ووفقًا لبرنامج الأمم المتحدة للموئل UN-HABITAT، فإن أعلى النسب المئوية ارتفاعًا لسكان العشوائيات على مستوى العالم، توجد في إثيوبيا (نسبة مذهلة: تبلغ ٩٩,٤% من السكان الحضر)، وتشاد (أيضًا ٩٩,٤%)، وأفغانستان (٩٨,٥) ونيبال (٩٢%). أما بومباي، بما تحتويه من سكان الأحياء القذرة المتكدسة بقاطني المساكن الجماعية المتلاصقة، الذين يتراوح عددهم من ١٠ إلى ١٢ مليون نسمة، فهي تعد عاصمة قاطني العشوائيات على مستوى العالم، تليها مكسيكو سيتي، ودكا (من ٩ إلى ١٠ ملايين في كل منهما)، ثم تأتي لاجوس، وبعدها القاهرة، وكاراتشي، فكنشاسا برازافيل، وساو باولو، وشنغهاي، ودلهي (من ٦ إلى ٨ ملايين في كل منها)(١٣).

الشكل ٦(١٤)

أكبر تجمعات سكانية عشوائية حسب البلد

البلد	النسبة للمئوية من العشوائيات إلى السكان الحضر	العدد (بالمليون)
الصين	٣٧,٨	١٩٣,٨
الهند	٥٥,٥	١٥٨,٤
البرازيل	٣٦,٦	٥١,٧
نيجيريا	٧٩,٢	٤١,٦
باكستان	٧٣,٦	٣٥,٦
بنجلاديش	٨٤,٧	٣٠,٤
إندونيسيا	٢٣,١	٢٠,٩

(13) UN-HABITAT, "Slums of the World: The Face of Urban Poverty in the New Millennium?," working paper, Nairobi 2003, annex 3.

(١٤) هذه التقديرات منبثقة عن دراسات حالة، قدمها "برنامج الأمم المتحدة للموئل البشري UN-HABITAT"، وهي خلاصة عشرات من المصادر المتنوعة التي تفوق إمكانية ذكرها.

إيران	٤٤,٢	٢٠,٤
الفلبين	٤٤,١	٢٠,١
تركيا	٤٢,٦	١٩,١
المكسيك	١٩,٦	١٤,٧
كوريا الجنوبية	٣٧,٠	١٤,٢
بيرو	٦٨,١	١٣,٠
الولايات المتحدة	٥,٨	١٢,٨
مصر	٣٩,٩	١١,٨
الأرجنتين	٣٣,١	١١,٠
تنزانيا	٩٢,١	١١,٠
إثيوبيا	٩٩,٤	١٠,٢
السودان	٨٥,٧	١٠,١
فيتنام	٤٧,٤	٩,٢

إننا نجد الأحياء العشوائية الأسرع نموّا، في روسيا الاتحادية (خاصة "البلدات المجمعة، الشيوعية سابقًا" التي كانت تعتمد على صناعة واحدة صارت الآن متوقفة)، وفي الجمهوريات السوفييتية سابقًا، حيث الإهمال الحضري قد تغذى على سرعة المعدة المتمخضة نفسها، مثل التمييز الاقتصادي وتخلف الاستثمارات المدنية. ففي ١٩٩٣ أفاد برنامج المؤشرات الحضرية في الأمم المتحدة، بأن معدلات الفقر وصلت إلى أكثر من ٨٠% في كل من باكو Baku (أذربيجان) ويريفان Yerevan (أرمينيا)[١٥]. وبالمثل، فإن المركز العمراني الذي اشتهر بحديد التسليح والصلب في العهد السوفييتي

(15) Christiaan Grootaert and Jeanine Braithwaite, "The Determinants of Poverty in Eastern Europe and the Former Soviet Union," in Jeanine Braithwaite, Christiaan Grootaert and Branko Milanovic (eds), *Poverty and Social Assistant in Transition Countries*, New York 2000, p. 49; UNCHS Global Indicators Database 1993.

في أولان باتر(*) Ulaanbaatar نجده الآن محاطًا ببحر من المفقَّرين؛ قوامه ٥٠٠,٠٠٠ نسمة أو أكثر، فيما يعيش الرعاة القدامى في خيام تسمى *gers*، وقليل منهم يستطيع تدبير الطعام لأكثر من وجبة واحدة في اليوم(١٦).

إلا أن التجمعات السكانية الحضرية الأكثر فقرًا، ربما نجدها في كل من لواندا Luanda، ومابوتو Maputo (موزمبيق)، وكنشاسا Kinshasa (الكونغو الديمقراطية)، وكوشابامبا Cochabamba (بوليفيا)، حيث ثلثًا السكان أو أكثر، يكسبون أقل مما يفي بالحد الأدنى من تكلفة التغذية اليومية المطلوبة(١٧). ففي لواندا، حيث يعيش ربع الأسر حياتهم اليومية على نسبة استهلاك تقل عن ٧٥ سنتًا يوميًا للفرد، فإن معدلات الوفيات بين الأطفال (الأقل من ٥ سنوات) كانت مرعبة في عام ١٩٩٣، حيث بلغت ٣٢٠ حالة وفاة، من بين كل ١٠٠٠ طفل- وهي النسبة الأعلى في العالم(١٨).

وللعلم لا يعيش جميع فقراء الحضر في أحياء عشوائية، وليسوا جميعًا من الفقراء قاطني العشوائيات. فالواقع، أن تقرير ***التحديات التي تطرحها العشوائيات***، يؤكد أنه، في بعض المدن يعيش أغلبية الفقراء بالفعل خارج العشوائيات بمعناها الضيق *stricto sensu*(١٩). على الرغم أنه من الواضح أن الفئتين- فقراء الحضر وفقراء العشوائيات- تتقاطعان، حيثما تمثل كل فئة منهما الأغلبية. إلا أن عدد فقراء الحضر، يعد الأكبر إلى حد ما: يصل-

(*) عاصمة منغوليا. (المترجم)

(16) Office of the Mayor, Ulaanbaatr City, "Urban Poverty Profile," submitted to World Bank, n.d. infocity.org/F2F/poverty/papers2/UB(Mongolia)%20Poverty.pdf.

(17) Simon, "Urbanization, Globalization, and Economic Crisis in Africa," p. 103; Jean-Luc Piermay, "Kinshasa: A Reprieved Mega-City?," in Rakodi, p. 236; and Carmen Ledo Garcia, *Urbanization and Poverty in the Cities of the National Economic Corridor in Bolivia*, Delft 2002, p. 175 (60% of Cochabamba on dollar per day or less).

(18) Alternately, Luanda's child mortality is *400* times higher then that of Rennes, France, the city with the lowest under-5-years death rate (Shi, "How Access to Urban Portable Water Sewerage Connections Affects Child Mortality," p. 2).

(19) *Challenge*, p. 28.

على الأقل- إلى نصف سكان الحضر على مستوى العالم، حسبما حددته مستويات حدية من الفقر المحلي النسبي(٢٠). فضلاً عن ذلك، فإن ربع التجمعات الحضرية تقريبًا (وفقا للمسح الذي تم عام ١٩٨٨)، يعيش في فقر "مدقع"؛ بالكاد يمكن تخيله- حيث العيش على دولار واحد أو أقل في اليوم(٢١). فإذا كانت بيانات الأمم المتحدة دقيقة، فإن التباين في إجمالي دخل الأسرة بين مدينة غنية مثل سياتل، ومدينة فقيرة جدًا مثل إبادان Ibadan (ثاني أكبر مدن نيجيريا- م) يبلغ ٧٣٩ إلى ١- وهو تفاوت لا يمكن تصديقه(٢٢).

إن دقة الإحصاءات تعد في حقيقة الأمر مسألة صعبة؛ لأن سكان الحضر الفقراء، وسكان العشوائيات، غالبًا ما يتم رسميًا تعمد التقليل في نسب تقديراتهم؛ بحيث تبدو أقل مما هي عليه الواقع. وفي أحيان أخرى يتم جمعهم في جملة واحدة من قبل المسئولين، وبتقديرات منخفضة أيضًا. ففي أواخر ثمانينيات القرن المنصرم، على سبيل المثال، كان لدى بانكوك معدلات رسمية للفقر، تتحدث عن نسبة ٥% فقط، فيما وجدت المسوح التي تمت أن ما يقرب من ربع السكان (١,١٦ مليون نسمة) يعيشون في ١٠٠٠ منطقة عشوائية، ومعسكرات مستحلة من قبل واضعي اليد(٢٣). وبالمثل، فإن حكومة المكسيك زعمت، في تسعينيات القرن الماضي، أن تجمعًا واحدًا فقط

(20) Kavita Datta and Gareth A Jones, "Preface," in Datta and Jones (eds), *Housing and Finance in Developing Countries*, London 1999, p. xvi. In Kolkata.

على سبيل المثال، إن خط الفقر معرف بوصفه المقابل النقدي لما يعادل ٢,١٠٠ سعر حراري في اليوم.

ذلك أن الشخص الأكثر فقرًا في أوروبا من شأنه أن يكون الأغنى في كلكتا والعكس صحيح.

(21) World Bank report quoted in Ahmed Soliman, *A Possible Way Out: Formalizing Housing Informality in Egyptian Cities*, Lanham (md) 2004, p 125.

(22) Shi, "How Access to Urban Potable Water and Sewerage Connections Affects Child Mortality," Appendix 3, driven from UNCHS Global Urban Indicators Database, 1993 A decimal point may be misplaced in the Ibadan figure.

(23) Jonathan Rigg, Southeast Asia: A Region in Transition, London 1991, p. 143

من كل عشرة تجمعات حضرية، يعد فقيرًا بالفعل، وذلك على الرغم من البيانات التي لا خلاف عليها، والتي قدمتها الأمم المتحدة، وبيّنت في حقيقة الأمر أن ما يقرب من ٤٠% من السكان هناك، يعيشون على أقل من دولارين يوميًا[٢٤]. كما أن الإحصاءات التي قدمتها كل من إندونيسيا وماليزيا، تعد أيضًا سيئة السمعة؛ لما تخفيه من حقائق الفقر الحضري. فالأرقام الرسمية التي وردت عن جاكرتا، حيث يقدّر معظم الباحثين أن ربع السكان من فقراء سكان الأحياء الفقيرة المجمعة *kampung*، تعد أرقامًا تتسم بالسخف: أقل من ٥%[٢٥]! وفي ماليزيا، يشكو عالم الجغرافيا السيد جوناثان ريج Jonathan Rigg من أن الخط الرسمي للفقر "يفشل في النظر إلى التكلفة الأعلى من الحياة الحضرية"، ومن ثم يتعمد بخس التقديرات الخاصة بالفقراء الصينيين[٢٦]. في الوقت نفسه، يعتقد عالم الاجتماع العمراني السيد إرهارد برنر Erhard Berner، أن تقديرات الفقر بالنسبة لماليزيا، تعد مبهمة عن سبق إصرار وترصد، وأن ثُمْن سكان العشوائيات على الأقل غير مدرجين ضمن هذه التقديرات[٢٧].

تصنيف للعشوائيات:

على سطح الأرض ثمة ٢٠٠,٠٠٠ حي عشوائي، وربما أكثر من ذلك، تتراوح من حيث عدد السكان القائمين فيها، ما بين عدة مئات إلى أكثر من مليون نسمة. والمدن الخمسة الكبرى المركزية في جنوب آسيا (كاراتشي، ومومباي، وكلكاتا، ودلهي، ودكا) تحتوي وحدها على ما يقرب

(24) Imparato and Ruster, Slum Upgrading and Participation, p 52
(25) Paul McCarthy, "Jakarta, Indonesia," UN-HABITAT Case Study, London 2003, pp. 7-8.
(26) Rigg, Southeast Asia, p. 119.
(27) Erhard Berner, Defending a Place in the City: Localities and Struggle for Urban Land in Metro Manila, Quezon City 1997, pp 21, 25, 26.

من ١٥,٠٠٠ من المجتمعات العشوائية المتميزة، يشكل مجمل عدد سكانها ما يربو على ٢٠ مليون نسمة. ومــن المعــروف أن "العــشوائيات الكبــرى Megaslums" تظهر عندما تندمج الأحياء الفقيرة، وأحياء الصفيح، والأحياء القذرة معًا في الأحزمة العشوائية، أو اللارسمية، المتواصلة من حيث السكنى والفقر. وهو ما يحدث عادة على أطراف المناطق الحضرية. فمدينة مكسيكو سيتي، على سبيل المثال، ضمت عام ١٩٩٢ ما يقدر بنحو ٦,٦ مليون نسمة من ذوي الدخل المنخفض، يعيشون متلاصقين في مساحة ٣٤٨ كيلو متــرًا مربعًا من السكن العشوائي اللارسمي(٢٨). وبالمثل، فإن معظم الفقــراء فــي ليما، يعيشون في ثلاثة *تجمعات* طرفية *conos* تنطلق من المدينة المركزية، مثلها في ذلك مثل تلك التركزات المكانية الضخمة من الفقر الحضري، التي نجدها شائعة أيضًا في أفريقيا والشرق الأوسط.

ومن ناحية أخرى، ففي جنوب آسيا، نجد الفقراء الحضر، يميلون إلــى العيش في أعداد أكبر بكثير من تلك التي تعيش في العشوائيات المتميزة، التي تتوزع على نحو أوسع على مستوى النسيج الحضري، وفي أنماط يغلب عليها تعقيد نسبي. ففي كلكاتا Kolkata، على سبيل المثال، هناك آلاف من تجمعات الأكواخ، يحتوي كل تجمع منها على خمسة أكواخ، وتسمى محليًا *ثيكا باستيز thika bustees*، وتضم غرفًا مشتركة مساحة الغرفة منها ٤٥ متــرًا مربعًــا، وتحتوي في المتوسط، وبما يتنافى مع أي تصديق ١٣,٤ شخصًا ممتزجين في تنوع من أوضاع مختلفة بين المقيمين ومستخدمي الأرض(٢٩). وفي دكا، قــد يكون النظر بعين الاعتبار إلى المناطق غير العــشوائية، بوصــفها منــاطق محوّطة enclaves في مصفوفة استثنائية من الفقر المدقع، أمرًا أكثر منطقية.

(28) Keith Pezzoli, Human Settlements and Planning for Ecological Sustainability: The Case of Mexico City, Cambridge 1998, p. 13.
(29) Keith Pezzoli, Human Settlements and Planning for Ecological Sustainability: The Case of Mexico City, Cambridge 1998, p. 13.

وعلى الرغم من أن لبعض العشوائيات تاريخًا طويلاً- مثـل منطقـة مورو دي بروفيدنشا Morro de Providencia، في ريو دي جانيرو، وهـي أول مدينة صفيح *favela*، فقد تأسست في ثمانينيات القرن التاسع عشر؛ إلا أن معظم الأحياء العشوائية الضخمة لم تتمُ إلا بدءًا مـن سـتينيات القـرن العشرين. فمنطقة سيداد نيزا Ciudad Nezahualcóyotl، في مكسيكو سيتي؛ تلك الضاحية الفقيرة التي احتوت على ١٠,٠٠٠ نسمة فـي عـام ١٩٥٧؛ نجدها الآن تضم ثلاثة ملايين نسمة. أيضًا (منشية "منشأة" ناصر) المتمـددة على أطراف القاهرة، كانت قد نشأت فيما يشبه معسكرًا لعمال البناء، الـذين بنوا ضاحية مدينة نصر في ستينيات القرن المنـصرم. بينمـا العـشوائية الضخمة الموجودة أعلى تـل فـي كراتـشي، وتـسمى أورانجـي/ بلـديا Orangi/Baldia، بسكانها المختلطين من لاجئين مسلمين، جاءوا مـن الهنـد والبشتون(*) Pathans عبر الحدود الأفغانية، كانت قد تأسست عـام ١٩٦٥. كما أن فيلا السلفادور Vila El Salvador- وهي إحدى أكبر مدن الـصفيح، وتسمى في ليما "بريادس" barriadas- تأسست عـام ١٩٧١ تحـت رعايـة حكومة بيرو العسكرية، وعقب بنائها بسنوات قليلة أصبحت تضم أكثر مـن ٣٠٠,٠٠٠ نسمة.

في كل مكان من العالم الثالث، يمثل اختيار السكن حسبة معقـدة مـن المكسب والخسارة، تبعث على الحيرة. مثلما أشار المعماري الفوضوي جون ترنر John Turner في جملة شهيرة: "إن السكن فعل". وعلى الفقراء الحضر

(*) البشتون: البشتو/ الفارسية/ الأوردية: پشتون، پختون، پتان، أفغان (مجموعة عرقية من جذور شرق إيران، تقطن جنوب وشرق أفغانستان ومناطق الشمال الغربي الحدودية، والمناطق الفيدرالية المدارة قبليًا، وإقليم بلوشستان بغربي باكستان. يتميز البشتون بلغتهم البشتو وممارستهم للبشتونية (پشتونوالي)، أو الحفاظ على السنن والرموز التقليدية السمحاء لديهم. يعتنق البشتون ديانة الإسلام. (المترجم).

القيام بحل معادلة معقدة، حيث يحاولون تحقيق أفضل مستوى من تكلفة السكن، وتأمين الحيازة، وجودة المأوى، وسهولة الانتقال إلى العمل، وأحيانا ضمان الأمن الشخص بالنسبة إلى البعض، بمن فيهم ساكنو الأرصفة، فإن الموقع القريب من العمل- ولنقل في سوق إنتاج أو محطة قطار- يعد أكثر أهمية من إقامة سقف للبيت. وبالنسبة إلى آخرين، فإن حيازة أرض مجانية أو شبه مجانية، وحدها ما يستحق التنقل عبر مسافة بعيدة من مركز المدينة إلى أطرافها. وبالنسبة للجميع، فإن الوضع الأسوأ على الإطلاق هو الموقع السيئ الأكثر تكلفة، وبدون خدمات بلدية أو مرافق أو تأمين للحيازة.

الشكل ٧

الـ ٣٠ منطقة عشوائية الأكثر ضخامة في العالم (٢٠٠٥)(٣٠)

المنطقة	مليون		مليون
١. نيزال/ شالكو/ إزتا (مكسيكو سيتي)(٣١)	٤,٠	١٦. داراوي Dahravi (مومباي)	٠,٨
٢. ليبرتادور Libertador (كاركاس)	٢,٢	١٧. كيبيرا Kibera (نيروبي)	٠,٨
٣. السور/ سيداد بوليفار El Sur/ Ciudad Bolivar (بوغوتا Bogota)	٢,٠	١٨. إل ألتو El Alto (La Paz)	٠,٨
٤. سان خوان دي لوريجانشو San Juan de Lurigancho (ليما)(٣٢)	١,٥	١٩. القرافة City of the Dead (القاهرة)	٠,٨

(30) Scores of sources were consulted and median figures were chosen over extremes.

(٣١) تضم هذه المنطقة العشوائية الضخمة نزالكويتل Nezahaucoyotle (١,٥ مليون نسمة)، وتضم شالكو Chalco (٣٠٠,٠٠٠ نسمة)، وإزتابالابا Eztapalapa (١,٥ مليون نسمة)، وتشيمالوكان Chimalhuacan (٢٥٠,٠٠٠ نسمة)، فضلا عن ١٤ امتدادًا *ولاية* ملاصقة في الربع الجنوبي الغربي من المدينة الكبرى.

(٣٢) تضم سان خوان دي لوريجانشو (٧٥٠,٠٠٠ نسمة)، وكوماس Comas (٥٠٠,٠٠٠ نسمة)، وإندبندنشيا Independencia (٢٠٠,٠٠٠ نسمة).

٥. كونو سور Cono Sur (ليما)[٣٣]	١,٥	٢٠. سيكر Sucre كاراكاس)	٠,٦
٦. أجيجونل Ajegunle (لاجوس)	١,٥	٢١. إسلام شهر/ مدينة الإسلام Islamshahr (طهران)[٣٤]	٠,٦
٧. مدنية الصدر (بغداد)	١,٥	٢٢. تلابان Tlapan (مكسيكو سيتي)	٠,٦
٨. سويتو Soweto (غاوتنج Gauteng/ جنوب أفريقيا)	١,٥	٢٣. إناندا Inanda INK (دربان)	٠,٥
٩. غزة (فلسطين)	١,٣	٢٤. منشية ناصر (القاهرة)	٠,٥
١٠. أورانجي تاون Orangi Township	١,٢	٢٥. التنداج Altindag (أنقرة)	٠,٥
١١. كيب فلاتس[٣٥] Cape Flats (كيب تاون)	١,٢	٢٦. ماثير Mathare (نيروبي)	٠,٥
١٢. بكين Pikine (دكار)	١,٢	٢٧. أجواس بلانكاس Aguas Blancas(كالي Cali كولومبيا)	٠,٥
١٣. إمبابة (القاهرة)	١,٠	٢٨. أجيج Agege (لاجوس)	٠,٥
١٤. عزبة الهجانة (القاهرة)	١,٠	٢٩. سيتي سوليه/ مدينة الشمس Cité Soleil (بورتو برنس Port-au-Prince/ هاييتي)	٠,٥
١٥. كازنجا Cazenga (لواندا)	٠,٨	٣٠. ماسينا Masina (كينشاسا)	٠,٥

وفي نموذج ترنر Turner الشهير، وتأسيسًا على عمله في بيرو خلال ستينيات القرن الماضي، فإن المهاجرين الريفيين يتحركون أولاً من الإقليم إلى مركز المدينة– موقع بأي ثمن– للعثور على أعمال ووظائف، ثم مع

(٣٣) كونو سور، تعني: فيلا السلفادور Villa El Salvador (٣٥٠,٠٠٠ نسمة). وسان خوان دي ميرافلورس Miraflores (٤٠٠,٠٠٠ نسمة)، وفيلا ماريا دي تريانفو Villa Maria de Triunfo (٤٠٠,٠٠٠ نسمة).

(٣٤) "كيب فلاتس"، كايليتشا Khayelitsha (٤٠٠,٠٠٠ نسمة)، وهضبة متشل Plain Mitchell s (٢٥٠,٠٠٠ نسمة)، وكروسرودز Crossroads (١٨٠,٠٠٠ نسمة) وثمة بلدات أصغر (وفق تعداد ١٩٩٦).

(35) إسلام شهر (٣٥٠,٠٠٠ نسمة) فضلاً عن شهارنجه Chahar Dangeh (٢٥٠,٠٠٠ نسمة).

تأمين العمل ينتقلون إلى الأطراف، حيث الملكية ممكنة المنال. وهذا التقدم (وفق مصطلحات "ترنر") من "طرف الجسر bridgeheader" إلى "نقطة الدمج consolidator"، يعد بطبيعة الحال نوعًا من إضفاء المثالية، قد لا يعكس إلا وضعًا انتقاليًا تاريخيًا في قارة أو قُطر(٣٦).

وفي تحليل أكثر حنكة وتركيبًا، فإن خبير الإسكان "أحمد سليمان"، يناقش أربع إستراتيجيات أساسية في ***المأوى من أجل الفقراء في القاهرة***. **الأولى**: لو كان الوصول إلى أسواق العمل ذا أهمية عظمى، فإن الأسرة يمكنها التفكير في استئجار شقة. المساكن المؤجرة توفر مركزية وتأمينًا للحيازة، ولكنها باهظة الثمن، ولا تمثل أملاً في الملكية الدائمة. **الخيار الثاني**: هو المأوى في موقع مركزي، ولكن غير رسمي. وهذا الوضع وصفه سليمان بكونه "غرفة صغيرة جدًا، أو سقفا بموقع في بيئة سيئة للغاية، وقيمة إيجارية منخفضة، أو بدون قيمة إيجارية على الإطلاق، مع وجود إمكانية وصول جيدة لفرص العمل، ولكن دون أمل في حيازة آمنة. ومثل هؤلاء السكان المخترقين للقانون سيكونون مجبرين في نهاية الأمر على الانتقال إلى معسكرات في أراضي وضع اليد، أو إلى مساكن شبه عشوائية"(٣٧).أما **الحل الثالث** الأرخص للسكن- حسب سليمان- هو: وضع اليد على أرض ملكية عامة، عادة في ضواحي الظهير الصحراوي للقاهرة، تلك المناطق التي غالبًا ما تقع في مسقط رياح التلوث. وهنا تتمثل الجوانب السلبية في التكلفة الباهظة للاتصال بأماكن العمل، وتجاهل الحكومة للبنية الأساسية. "حيث إن مناطق وضع اليد في حي الدخيلة، على سبيل المثال، أصبحت مستوطنة على مدى أربعين عامًا، بلا أي تحرك عمومي، أو تدخل

(36) See John Turner, "Housing Priorities. Settlement Patterns and Urban Development in Modernizing Countries," Journal of the American Institute of Planners 34 (1968), pp. 354-36: and "Housing as a Verb," in John Turner and Robert Fichter (eds), Freedom to Build: Dweller Control of the Housing Process, New York 1972.

(37) Soliman, A Possible Way Out, pp. 119-20.

من السلطات المحلية". والحل الرابع، الذي يعد مفضّلاً في حقيقة الأمر لدى أغلب القاهريين، هو: شراء موقع للمنزل في واحدة من المناطق المطـورة، شبه اللارسمية الواسعة (غالبًا على أرض تشترى من البدو، أو فـي قـرى الفلاحين) مع حيازة قانونية، ولكن بدون ترخيص قانوني بالبناء. وبالرغم من بُعد هذه المواقع عن أماكن العمل، فإنها آمنة، بل ويمكن بشيء من التعبئـة المجتمعية والتفاوض إلزام البلدية بمد الخدمات الأساسية إليها[٣٨].

ويمكن تحديد نماذج مشابهة من الخيارات المعقولة، والمنطقية، لكافـة المدن. وهو ما يولّد مجالاً ضخمًا من الحيازة ذات الخـصوصية المحليـة، وأنماطًا من المستوطنات البشرية. والتصنيف المعروض في الشكل ٨ يعـد تبسيطًا تحليليًا، يلخص ويجرّد ملامح مهمة على المستوى المحلـي، ويتـيح إمكانية المقارنة على المستوى العالمي. وقد تعطي تحليلات أخرى الأولويـة للوضع القانوني للسكن (*رسمي مقابل غير رسمي*)، ولكنني أعتقد أن القرار الأول لمعظم القادمين الجدد إلى الحضر، هو ما إذا كان في استطاعتهم تحمل تكلفة اتخاذ موقع قريب من التركزات الرئيسية للعمل والوظائف (*مركـزي مقابل طرفي*).

الشكل ٨

تصنيف للعشوائيات

أولاً. مواقع مركزية، في قلب العاصمة:

١. *رسمية:*

أ. مساكن جماعية منخفضة التكلفة tenements:

(٣٨) المرجع السابق.

(١) وحدات مستخدمة تسلّم من ساكن إلى آخر hand-me-downs.

(٢) مساكن مبنية للفقراء.

ب. مساكن عمومية.

ج. نُزل، خان رخيص، إلخ.

٢. *غير رسمية:*

أ. وضع يد:

(١) مرخصة.

(٢) غير مرخصة.

ب. ساكنو الأرصفة.

ثانيًا. مواقع طرفية، على أطراف العاصمة:

١. *رسمية:*

أ. إيجار خاص.

ب. سكن عام.

٢. *غير رسمية:*

أ. تقسيمات فرعية بالقرصنة.

(١) احتلال أرض المالك.

(٢) إيجار.

ب. وضع يد:

(١) مرخصة (تشمل الموقع والخدمة).

(٢) غير مرخصة.

٣. *معسكرات للاجئين.*

في العالم المتقدم أو ما يسمى بالعالم الأول، ثمة بالطبع تمييز تصنيفي أولي، ما بين المدن الأمريكية التي تأخذ شكل "الكعكة donut-shaped"، مع تركز الفقراء من الناس في مراكز مهملة أو منبوذة، وضواحٍ داخلية، وبين المدن الأوروبية التي "على شكل طبق الفنجان saucer"، حيث يتجمع المهاجرون والمعطلون عن العمل؛ متكدسين في وحدات سكنية ذات طوابق مرتفعة، على أطراف الضواحي الحضرية. ومن ثم فإن فقراء الأمريكان، إذا تسنى لنا القول، يعيشون على كوكب عطارد Mercury، بينما الفقراء الأوروبيون يعيشون على نبتون Neptune أو بلوتو Pluto. وكما يصور الشكل ٩، فإن ساكني العشوائيات في العالم الثالث، يحتلون طيفًا متنوعًا من المدار الحضري، مع تركيز أكبر في الأطراف المنخفضة. وفي تناقض مع أوروبا، فإن السكن العمومي للفقراء في الجنوب، يعد استثناء- هونج كونج، سنغافورا، الصين- وليس القاعدة. فما بين الخمس والثلث من الفقراء الحضر، يعيش داخل المركز الحضري أو بالقرب منه، وذلك أساسًا داخل السكن القديم المؤجر لأسرة متعددة.

١- الفقر داخل المدينة:

في المدن الأمريكية الشمالية، والأوروبية، ثمة تمييز أساسي بين "المساكن المستخدَمة التي يسلمها ساكن إلى آخر، مثل مباني "حي هارلم" Harlem القديمة، و"الجورجيون" Georgians في دبلن، وبين المساكن الجماعية الرخيصة المبنية خصيصًا للفقراء، مثل نموذجها الموجود في برلين، والذي يأخذ مسمى *Mietskaserne*، وبين ما يسمى بالتركيزات الطرفية dumbbells سيئة السمعة في حي الجانب الشرقي المنخفض Lower East Side في نيويورك. وعلى الرغم من ندرة وجود المساكن المستخدمة،

تلك التي تسلم من ساكن إلى آخر في المدن الأفريقية الجديدة، بما في ذلــك النُزل التي بقيت من زمن الاستعمار والفيلات الفيكتورية، فإن هذه الظـــاهرة شائعة جدًا في أمريكا اللاتينية، وفي بعض المدن الآسيوية.

الشكل ٩

أين يعيش الفقراء؟[٣٩]

(نسبة السكان الفقراء)

المدينة	عشوائيات داخل المدينة	عشوائيات على الأطراف
كاراتشي	٣٤	٦٦
الخرطوم	١٧	٨٣
لوساكا	٣٤	٦٦
مكسيكو سيتي	٢٧	٧٣
مومباي	٢٠	٨٠
ريو دي جانيرو	٢٣	٧٧

وبغض النظر عن روعتها قـديمًا، فـإن معظـم الأحيـاء الـسكنية المتدهورة، وبمسمياتها المحلية المختلفة، سواء *البالوميرز palomares* فـي مدينة جواتيمالا، و*الأودية avenidas* في ريو دي جانيرو، و*العمارات السكنية conventillos* في بيونس أيرس وسنتياجو، والنُزل *quintas* في كيتـو Quito

(39) Keith Pezzoli, "Mexico's Urban Housing Environment," in Brian Aldrich and Ranvinder Sandhu (eds.) Housing the Urban Poor: Policy and Practice in Developing Countries, London 1995, p. 145; K. Sivaramakrishnan, "Urban Governance: Changing Realities," in Michael Cohen et al., (eds), Preparing for the Urban Future: Global Pressures and Local Forces, Washington, D.C. 1997, p. 229; Mariana Fix, Pedro Arantes, and Giselle M. Tanaka, "Sao-Paulo, Brazil, "UN- HABITAT Case Study, London 2003, p. 9; Jacquemin, Urban Development and New Towns in the Third World, p. 89.

والكوارتريوس cuarterias في هافانا القديمة، هي الآن مهدمة ومتكدسة بالزحام. ولقد زار المعماري "ديفيد جلاسر" David Glasser إحدى الفيلات التي كانت مملوكة سابقًا لأسرة واحدة في كيتو Quito، على سبيل المثال، كانت تأوي ٢٥ أسرة و١٢٨ فردًا، ولكنهم لم يكن لديهم أية خدمات بلدية في حالة عمل(٤٠). وعلى الرغم من أن *الأحياء السكنية الرخيصة vecindades* في مكسيكو سيتي سرعان ما استبدل بها طبقة من الأثرياء أو تهدمت، إلا أنها ما زالت متكدسة، مثل كازا جراند Casa Grande تلك الكتلة من المساكن الجماعية المشهورة التي تأوي ٧٠٠ نسمة، وكان سبب شهرتها أن ذكرها عالم الأنثروبولوجي "أوسكار لويس" Oscar Lewis في كتابه *أطفال سانشيز The Children of Sanchez* (١٩٦١)(٤١).

وفي آسيا، يتجسد الموازي لمثل هذه الحالة في نزل الطبقة الرفيعة، أو *الزميندار Zamindar* المتحللة (التي تخضع الآن للبلديات) في كلكاتا Kolkata، وتتخذ اسمًا شاعريًا هو "حدائق الحي الفقير lum gardens"، في كولومبو التي تشكل ١٨% من حجم السكن المتهالك في المدينة(٤٢). وعلى الرغم من تقلصه من حيث الحجم وعدد السكان؛ بفعل التجديد العمراني، إلا أن الحي الفقير أو العشوائي داخل بكين، المدينة القديمة التي تتألف من سكن الفناء، أو الساحة منج Ming وكنج Qing، الذي يفتقر إلى المرافق الحديثة، ربما يكون أوضح مثال على ذلك(٤٣).

---

(40) David Glasser, "The Growing Housing Crisis in Ecuador" in Carl Patton (ed.), Spontaneous Shelter: International Perspective and Prospects, Philadelphia 1988, p. 150.

(41) Oscar Lewis, The Children of Sanchez: Autobiography of a Mexican Family, New York 1961.

(42) Kalinga Tudor Silva and Karunatissa Athukorala, *The Watta-Dwellers: A Sociological Study of Selected Urban Low-Income Communities in Sri Lanka*, Lanham (Md.) 1991, p. 20.

(43) Feng-hsuan Hsueh, *Beijing: The Nature and the Planning of the Chinese Capital City*, Chichester 1995, pp. 182-84.

في الغالب الأعم نجد أن الأحياء البرجوازية بكاملها، وقد تحولت إلى أحياء فقيرة، مثلما حدث في ساو باولو مع حي كامبوس إليسيوس Campos Eliseos الذي كان ذات يوم من الصيحات العمرانية الحديثة، وكذلك في المشهد المديني cityscape الكولونيالي/الاستعماري لمدينة ليما. ومن ناحية أخرى نجد في المقاطعة الساحلية الشهيرة "باب الواد" في مدينة الجزائر، كيف حل الفقراء الأصليون محل الطبقة العاملة الفرنسية أيام الاستعمار. وعلى الرغم من أن النموذج العالمي المهيمن، هو إخلاء الفقراء من المركز، إلا أن بعض مدن العالم الثالث، تعيد إنتاج الفصل العمراني على النمط الأمريكي، مع فرار الطبقات الوسطى ما بعد الكولونيالية من القلب إلى الضواحي المغلقة، وما يسمى "بالمدن الطرفية edge cities". وقد استمر هذا الأمر يحدث لوقت طويل في كنجستون Kingston، حيث يقطن ربع مليون نسمة من الفقراء في وسط المدينة المكبلة بالجريمة، والتي تتصف رغم ذلك بالدينامية والحيوية من الناحية الثقافية، فيما تعيش الطبقات المتوسطة أعلى المدينة. وبالمثل، وفيما بدأ الأغنياء هجر أحيائهم في مركز مدينة مونتفيديو Montevideo في سبعينيات وثمانينيات القرن المنصرم من أجل السكن في أحياء أكثر جاذبية في الساحل الشرقي، فإن المشردين ومَن كانوا بلا مأوى؛ انتقلوا إلى المنازل المهجورة والفنادق الخاوية.

إن هذا النوع من الخلافة الدينامية، قد حدث في وقت سابق في مدينة ليما، حين بدأت الطبقات المتوسطة والعليا في ترك المركز التاريخي للمدينة، بعد الزلزال الكبير في عام ١٩٤٠؛ ولكن كان من المفترض أن تشديد الإجراءات على البيع المتجول في الشوارع عام ١٩٩٦ يمثل تدشيناً لـ *استرداد reconquista* للمنطقة من أيدي الطبقات العاملة الأنديزية Andean، تقوده الحكومة[٤٤]. وفي الوقت نفسه: نجد في جوهانسبرج، مكاتب الشركات

(44) Hans Harms, "To Live in the City Center: Housing and Tenants in Central Neighborhoods of Latin American Cities." *Environment and Urbanization* 9:2 (October 1997), pp 197-98.

والطوابق العليا، وقد نزحت في السنوات الأخيرة رأسًا إلى الضواحي الشمالية البيضاء. بينما الخليط من المساكن الجماعية الفقيرة، وتجمعات شقق الطبقة الوسطى، والمقاطعة المركزية للأعمال- التي كانت ذات يوم تمثل العاصمة المالية للقارة بأكملها- أصبحت مركزًا للتجارة غير الرسمية، والمشاريع الأفريقية الصغيرة[٤٥].

والمثال الأكثر استثناءً لتوفير السكن الموروث، يتمثل بلا شك في منطقة "القرافة" بالقاهرة، حيث يعيش هناك مليون نسمة من السكان الفقراء؛ مستخدمين مدافن المماليك بوصفها تجمعات سكنية جاهزة التصنيع. فالقرافة ذات المساحة الشاسعة، موقع دفن الأمراء والسلاطين، تشكل جزيرة حضرية مسورة ومحاطة بعدد من الطرق المزدحمة. كان سكان القرافة الأصليون، في القرن الثامن عشر، هم خفراء مدافن الأسر الغنية من القاهريين، تلاهم بعد ذلك عمال المحاجر، ثم في العهد الحديث اللاجئون الذين انتزِعوا من أماكنهم الأصلية في سيناء والسويس، أثناء حرب ١٩٦٧. وهؤلاء "الغزاة"، كما يشير جيفري ندوروسك Jeffrey Nedoroscik، باحث في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، "قد قاموا بتكييف المدافن بطرق إبداعية؛ لتلبي احتياجات الأحياء من البشر. فشواهد القبور تحولت مثلاً إلى وسائل مستخدمة كمناضد، وأرفف ودواليب رأسية. والحبال ممتدة بين شاهدي المقبرة لنشر الملابس المغسولة"[٤٦]. وفي أماكن أخرى بالقاهرة (التي كانت سابقًا مدينة تضم ٢٩ معبدًا لليهود)، نجد مجموعات صغيرة من واضعي اليد، قد استولوا على مقابر اليهود. وهنا يكتب الصحفي "ماكس رودنبك" Max Rodenbeck قائلاً: "في زيارة خلال ثمانينيات القرن المنصرم، وجدتُ زوجين شابين وأربعة

(45) See Job Beall, Owen Crankshaw, and Susan Parnell, *Uniting a Divided City: Governance and Social Exclusion in Johannesburg*, London 2002, esp. chapter 7

(46) Jeffrey Nedoroscik, *The City of the Dead: A History of Cairo's Cemetery Communities*, Westport 1997, p. 43.

أطفال، وقد استكانوا في دعة في واحد من أروع العقود القبابية الفرعونية الحديثة، قد فك ساكنو المقبرة مكان الرُّفات من الداخل، ووجدوا أنه من المريح أن يتحول إلى أرفف داخلية للملابس، وأوعية الطهي، وأيضًا لتليفزيون ملون"[٤٧].

ولكن في معظم أنحاء العالم الثالث، نجد المساكن العامة التي تُسلَّم من ساكن إلى آخر، أقل شيوعًا من المساكن الجماعية، ومن المساكن التي بُنيت لغرض الإيجار. في الهند، وفيما يعود إلى زمن الاستعمار كان الرفض المتزمت من حاكم الولاية لتوفير الحد الأدنى من المياه والصرف الصحي للأحياء الهندية الحضرية، يسير جنبًا إلى جانب السياسة الإسكانية على أرض الواقع، والتي اعتمدت على طمع النخب المحلية من أصحاب الأراضي والعقارات، ممن بنوا مساكن جماعية مكتظة بالسكان، وبدون صرف صحي، ولكنها عالية الأرباح، ما زالت تأوي ملايين من الهنود[٤٨]. وفي مومباي نجد المسكن الجماعي التقليدي الذي يسمى *شاول chawl*، ويتكون عادة من أربعة أو خمسة طوابق (يشكل ٧٥% من سوق السكن الرسمية في المدينة)، عبارة عن مأوى متهدم، مكون من غرفة واحدة للإيجار، تنحشر فيه أسرة من ستة أشخاص في ١٥ مترًا مربعًا؛ وعادة ما يكون المرحاض مشتركًا مع ست أسر أخرى تعيش في المبنى نفسه[٤٩].

ومثل *الشاولات chawls* المساكن الجماعية المكتظة في مومباي، فإن نظير هذا النمط يُسمى في ليما *مساكن الأزقة callejones*، التي بنيت خصيصًا للإيجار للفقراء، وبنت كثيرًا منها الكنيسة الكاثوليكية التي تعد مالك العشوائيات الرائد في المدينة[٥٠]. وهي في الأساس من المساكن البائسة

---

(47) Max Rodenbeck, *Cairo: The City Victorious*, New York 1999, pp. 158-59.

(48) See Nandini Gooptu, *The Politics of the Urban Poor in Early Twentieth-Century India*, Cambridge (UK0 2001, pp 91-102.

(49) Jacquemin, *Urban Development and New Towns in the Third World*, p. 89.

(50) Greet Custers, :Inner-city Rental Housing in Lima: A Portrayal and an Explanation," *Cities* 18:1 (2001), p 252.

المصنوعة من الطوب، أو الكينشا quincha وفق المسمى المحلي (أطر خشبية مملوءة بالطين والقش)، والتي سرعان ما تتدهور وتصبح في الغالب غير مستقرة، على نحو ينذر بالخطر. وقد بينت إحدى الدراسات عن *مساكن الأزقة* *callejones* أن ٨٥ شخصًا، يشاركون بعضهم البعض في صنبور واحد للمياه، و٩٣ شخصًا يستخدمون المرحاض نفسه(٥١). وبالمثل، وحتى رواج مدن الصفيح على أطراف المدينة، وازديادها في الثمانينيات من القرن المنصرم، فإن معظم فقراء مدينة ساو باولو، كانوا يسكنون تقليديًا في غرف مؤجرة بالمساكن الجماعية، داخل المدنية المعروفة باسم *cortices*، وتعني "غيتو الفقراء"، وقد بُنى نصفها كمساكن جماعية، والنصف الآخر في شكل مساكن، يتم تسليمها بصورة مؤقتة، من ساكن إلى آخر من البرجوازيين الحضر(٥٢).

أما مساكن الخشب والصفيح في بيونس أيرس، المسماة *inquilinatos*، فقد بُنيت في الأصل من أجل فقراء المهاجرين الإيطاليين، في الأحياء الساحلية، مثل لابوكا La Boca، وباراكاس Barracas. ولكن، ومنذ أزمة الديون الأخيرة، تم إخلاء كثير من العائلات التي كانت في السابق تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، حيث أُجبروا بالقوة على الخروج من شققهم الخاصة، وأصبح أفرادُ كل أسرة منهم الآن مكتظين في غرفة واحدة من الخشب والصفيح، يتقاسمون مطبخًا جماعيًا، وحمامًا واحدًا مع خمس أسر أو أكثر. ولقد اكتسبت بيونس أيرس على مدار العقد الأخير الذي غلبت عليه الأزمة، ما يقدر بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ من واضعي اليد في المباني والمصانع المهجورة في المقاطعة الفيدرالية المركزية وحدها(٥٣).

---

(51) المرجع السابق، ص. ٢٥٤.

(52) Fix, Arantes, and Tanaka, "Sao Paulo, Brazil."

(53) David Keeling, *Buenos Aires: Global Dreams, Local Crises*, Chichester 1996, p. 100.

في المقابل، وفي أفريقيا جنوب الصحراء، نجد المساكن الجماعية القديمة غائبة بشكل أو بآخر. "ففي المستعمرات البريطانية السابقة"، مثلما يشير الجغرافي مايكل إدواردز Michael Edwards: "تجد المساكن الجماعية نادرة؛ لأن المدن تفتقر إلى قلب حضري تاريخي. وذلك على الرغم من أن الإيجار كان تقريبًا شائعًا وعموميًا وسط الأفارقة قبل الاستقلال، فالمستأجرون عاشوا في فنادق (لو كانوا رجالا أفرادا) أو في مساكن البلدات (لو كانوا أسرًا) بدلاً من المساكن الجماعية المؤجرة"(٥٤). وفي أجزاء قديمة من أكرا وكماسي، نجد الملكية العرفية المعتادة للعقارات ما زالت شائعة. وفي الوقت الذي يشيع فيه الاستئجار، فإن الروابط العشائرية عادة ما تحول دون الإيجارات الباهظة، ومن ثم نجد الاستئجار سريع التفشي في لاجوس ونيروبي. والحقيقة أن المجمعات السكنية القائمة على القرابة، حيث الفقراء من الناس يعيشون في مساكن العائلات الممتدة، مع الأقارب الأكثر ثراء، تجعل الأحياء الغانية أكثر تنوعًا من الناحية الاقتصادية، مقارنة بنظيراتها من مدن أفريقية أخرى(٥٥).

هذا، وتشمل الخيارات الأخرى للسكن داخل المدينة، سواء الرسمية منها أو غير الرسمية، طيفًا واسعًا وابتكاريًا من الإضافات غير القانونية، والمساكن والخانات الرخيصة، ومساكن وضع اليد، ومدن الصفيح الصغيرة. ففي هونج كونج، يعيش ربع مليون نسمة داخل تعليات غير قانونية فوق أسطح المنازل، أو في الأماكن الخالية، وفي بير المصعد أو السلّم داخل العمارات في وسط المباني. ولكن الظروف الأسوأ من نوعها، تقع على كاهل من يسمون "حبيسو القفص caged men"، "وهو مصطلح محلي يشير إلى

(54) Michael Edwards. "Rental Housing and the Urban Poor" in Philip Amis and Peter Lloyd (eds). *Housing Africa's Urban Poor*, Manchester 1990, p 263

(55) A. Graham Tipple and David Korboe. :Housing Poverty in Ghana," in Aldrich and Sandhu. Housing the Urban Poor, pp 359-61.

مساحات فراش العزّاب. وقد جاءت كلمة "قفص" بإيعاز من ميل هؤلاء المستأجرين إلى نصب أغطية من السلك على فراشهم؛ لمنع سرقة متعلقاتهم وهم نائمون. ومتوسط عدد ساكني هذه الشقق التي تحوي مجرد مساحة الفراش يبلغ ٣٨,٣ فردًا، ومساحة العيش لكل فرد فيها تبلغ في المتوسط ١٩,٤ قدمًا"(٥٦). إن التباينات في مستوى "المسكن/ الخان، منخفض التكلفة والخدمات" الأمريكي، على الصيحة القديمة، تعد أيضًا مألوفة في معظم المدن الآسيوية الكبرى. في سول مثلاً، نجد أن من تم إخلاؤهم من المستوطنات التقليدية التي كانت وضع يد، وكذلك المتعطلين من الناس، قد تكدسوا داخل ما يقرب من ٥٠٠٠ من وحدات الإقامة الرخيصة المؤجرة، التي تأخذ مسمى *Jiogbang*، حيث يتم تأجير الفراش أو الأسّرة باليوم، مع توفير مرحاض واحد لكل ١٥ نزيلاً(٥٧).

بعض السكان المفقّرين داخل المدينة، يعيشون في العراء، وواحد من بين كل عشرة أشخاص في "بنوم بنه"(٠) Phnom Penh يعيش على أحد الأسطح، مثلما يعيش عدد لا يصدق من القاهريين قوامه ١,٥ مليون نسمة، وأيضًا من الإسكندرانيين ٢٠٠,٠٠٠ نسمة(٥٨). فداخل ما يسمى "المدينة الثانية" في القاهرة، نجد الطقس أبرد مما هو عليه داخل المساكن الجماعية، غير أن سكان الأسطح هم الأكثر عرضة لتلوث الهواء، من عوادم السيارات

---

(56) Alan Smart, Making Room: Squatter Clearance in Hong Kong, Hong Kong 1992, p. 63

(57) Seong-Kyu Ha, "The Urban Poor, Rental Accommodation, Housing Policy in Korea," Cities 19 3 (2002), pp. 197-98.

(٠) بنوم بنه" Phnom Penh : هي الأكبر والأكثر اكتظاظًا بالسكان، بالإضافة إلى كونها عاصمة كمبوديا. كانت تعرف بلؤلؤة آسيا عام 1920 م، اشتهرت المدينة بجمعها بين طابع الخمير التقليدي، والطابع الفرنسي بحكم الاستعمار. تعتبر المدينة من أغنى مدن كمبوديا، كما تعتبر المركز السياسي، الاقتصادي والثقافي للدولة، يسكنها حوالي مليونين من بين ١٥ مليونا هم مجموع سكان كمبوديا. (المترجم).

(58) Asian Coalition for Housing Rights, "Building an Urban Poor People's Movement in Phnom Penh, Cambodia," *Environment and Urbanization* 12:2 (October 2001), p. 63; Soliman, *A Possible Way Out*, p. 119

ومصانع الأسمنت، وأيضًا بسبب الغبار القادم من الظهير الصحراوي. من ناحية أخرى، فإن العشوائيات العائمة، وعلى الرغم من كونها ما زالت شائعة في جنوب شرق آسيا، إلا أنها تأخذ في الاختفاء سريعًا في هونج كونج، حيث المراكب التي وفرت ذات يوم ١٠% من المأوى لمستعمرة التاج Crown Colony، أساسًا للتانكا Tanka، والهاكا Hakka، إلا أنهم كشعبين تم اعتبارهما من جانب الأغلبية أقل منزلة من الهان Han(٥٩).

وأخيرًا، هناك الشارع نفسه. إذ تعد مدينة لوس أنجلس العاصمة الأولى على مستوى العالم، لمن هم بلا مأوى، حيث يقدر عدد المشردين في شوارعها بنحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة، يتضمنون عددًا متزايدًا من الأسر، معسكرين في شوارع وسط المدينة، أو يعيشون خفية في الحدائق العامة، ووسط مواقع الطرق السريعة. أما أكبر عدد بين سكان قاطني الأرصفة في العالم الثالث، فنجده في مومباي؛ حيث قدر أحد البحوث عام ١٩٩٥ عددهم بنحو مليون نسمة، يعيشون على جوانب الطرق(٦٠). ويعد النمط التقليدي لقاطني الأرصفة من الهنود متمثلاً في الفلاحين المعدمين، من النازحين حديثًا من الريف إلى المدينة، والذين يعيشون على التسول. ولكن، وكما كشف بحث تم في مومباي، فإن من بينهم جميعًا تقريبًا (٩٧% منهم) واحدًا في المئة فقط من كاسبي العيش، و٧٠% ظلوا في المدينة لما لا يقل عن ست سنوات، وتم إخلاء ثلثهم من إحدى العشوائيات أو أحد الأحياء الفقيرة(٦١). والحقيقة أن كثيرًا من ساكني الأرصفة هم ببساطة من العمال– ممن يعملون على عربات يد صغيرة، يجرونها كوسيلة لركوب شخص أو شخصين، وعمال البناء، والحمّالين في الأسواق– وهم جميعهم مجبرون، بحكم أعمالهم،

---

(59) Bruce Taylor. "Hong Kong's Floating Settlements," in Patton, *Spontaneous Shelter*, p. 198.

(60) Minai Pimple and Lysa John," Security of Tenure: Mumbai's Experience," in Durand-Lasserve and Royston. *Holding Their Ground*, p. 78.

(61) Jacquemin. *Urban Development and New Towns in the New World*, p. 90.

على العيش في تلك الأماكن، حيث الخيار الوحيد أمامهم، هو العيش في قلب المدينة المركزية التي لا يمكنهم تحمل أعباء السكن فيها[٦٢].

غير أن العيش في الشوارع نادرًا ما يكون مجّانيًّا. فعلى حد تأكيد إرهارد برنر Erhard Berner: "حتى ساكني الأرصفة في الهند أو الفلبين، مجبرون على تسديد رسوم منتظمة للشرطة والنقابات"[٦٣]. وفي لاجوس نجد المقاولين يستعيرون عربات اليد المستخدمة في نقل مواد البناء (*البارّاويتا* -م) من مواقع البناء، ويؤجرونها للمشرّدين عوضًا عن الفراش[٦٤].

٢- عمران القرصنة:

غالبية فقراء الحضر في العالم، ما عادوا يعيشون في داخل المدن. فمنذ عام ١٩٧٠ نجد النصيب الأكبر من نمو سكان الحضر على مستوى العالم، قد ابتلعته المجتمعات العشوائية على أطراف مدن العالم الثالث. فلم يعد التمدد ظاهرة تمتاز بها أمريكا الشمالية وحدها، لو حصل أن كانت كذلك ذات يوم. فالانتشار الأفقي للمدن الفقيرة، غالبًا ما يكون مدهشًا تمامًا مثل نمو السكان: مدينة الخرطوم مثلاً في ١٩٨٨، من حيث الأماكن المخطّطة، كانت أكبر ٤٨ مرة مما كانت عليه عام ١٩٥٥[٦٥]. والحقيقة أن مناطق الضواحي في كثير من المدن الفقيرة، أصبحت الآن من الضخامة بما يوحي بالحاجة إلى إعادة التفكير في مسألة *الطرفية* *peripherality*. في لوساكا مثلاً، نجد المدن العشوائية الطرفية أو المحيطة بالمدينة، تأوي ثلثي سكان المدينة. وهو ما دفع أحد الكتاب إلى القول بأن (هذه التجمعات تسمى

(62) Frederic Thomas, *Calcutta Poor: Elegies on a City Above Pretense*, Armonk (NY) 1997, pp. 47, 136.

(63) Erhard Berner, "Learning from Informal Markets," in David Westendorff and Deborah Eade (eds), *Development and Cities: Essays from Development Practice*, Oxford 2002, p. 233.

(64) Amy Otchet, "Lagos: The Survival of Determined." *UNESCO Courier*, 1999.

(65) Galal Eldin Eltayeb, "Khartoum, Sudan," UN-HABITAT Case Studies, London 2003, p. 2.

"طرف- حضرية"، ولكن في واقع الأمر إن المدينة طرفية ككل)[٦٦]. وها هو عالم الاجتماع التركي ساجلار كيدر Caglar Keyder، يشير إلى نقطة شبيهة بذلك، حول المساكن العشوائية سريعة الإنشاء بدون تصاريح، والتي تسمى باللغة التركية *gecekondus*، تلك التي تحيط بمدينة إسطنبول؛ كتجميع لهذه النوعية من المساكن العشوائية، وأحيائها ذات الوحدة العضوية المحدودة. وكلما أضيفت منطقة جديدة من هذه المساكن العشوائية- وهي حتمية بالنسبة للمحيط الخارجي- كلما لضمت هذه العُقد الجديدة على الشبكة الطرفية، بطريقة تسلسلية"[٦٧].

إذن، في مدن العالم الثالث المتمددة، يعد "الطرف" أو المحيط الخارجي، مصطلحًا نسبيًّا إلى درجة كبيرة، ومحددا بعامل الوقت أيضا: فما نعتبره اليوم حوافٍ حضرية، أو حقولاً حدودية، أو ظهيرًا صحراويًّا، قد يصبح غدًا جزءًا من مركز المدينة المكتظ. وباستثناء شرق آسيا، حيث توجد قوائم كبيرة من الإسكان الطرفي الذي تبنيه الدولة (مثل ضواحي شكنجشان shijingshan الصناعية القديمة في بكين، وفنجتاي Fengtai، وتشانجكسيانديان Changxiandian)، فإن جُل التنمية الطرفية في المناطق الحضرية بالعالم الثالث، تأخذ شكلين رئيسين؛ **الأول**: مستوطنات وضع اليد. **والشكل الثاني**- وباستخدام المصطلح الكولومبي المثير: *قراصنة العمران* *urbanizaciones piratas*. وكلا النوعين ينتجان مشاهد "المناطق العشوائية" بنسب كبيرة من البناء الذاتي، والسكن دون المستوى، وبنى تحتية بائسة. وعلى الرغم من أن التقسيمات الفرعية للقرصنة، أو وضع اليد، غالبًا ما يساء إليها بوصفها جماعات من الهجّامة واضعي اليد، إلا أن هناك فروقًا أساسية بين المفهومين على النحو التالى:

(66) Sivaramakrishnan, "Urban Governance," in Cohen, *Preparing for the Urban Future*, p. 229.
(67) Caglar Keyder, "The Housing Market from Informed to Global," in Keyder (ed), *Istanbul · Between the Global and the Local*. Lanham (Md.) 1999. 149.

وضع اليد squatting، بالطبع هو حيازة الأرض أو امتلاكها بدون بيع أو أحقية. والأرض الطرفية "منعدمـــة التكلفـــة"، غالبًا ما تمّت مناقشتها بوصفها الـــسر الـــسحري لمدرســـة العمران الحضري في العالم الثالث: دعم ضخم غير مخطط لأفقر الفقراء. ولكن نادرًا ما يكون وضع اليد بدون تكلفـــة، حيث يقتضي الأمر دائمًا دفع رشاوى للساسة أو للشرطة أو البلطجية؛ بهدف الوصول إلى المواقع. وقد يستمر دفع هـــذا المقابل، أو لنقل "القيمة الإيجارية" غير الرسمية في صـــورة نقود، و/أو أصوات في الانتخابات، على مدى سنين. فضلاً عن ذلك، فثمة تكاليف جزائية للموقع غير المخدوم، والبعيد عن المركز الحضري. والواقع أنه عند جمع كافة التكلفـــة- مثلما يشير إرهارد برنر Erhard Berner في دراســـته عـــن مانيلا- سنجد أن وضع اليد ليس بالضرورة أرخص تكلفـــة من شراء قطعة أرض. والجاذبية الرئيسية التـــي ينطـــوي عليها وضع اليد، تتمثل في "إمكانية التطوير التوسعي، وبناء بيئة تفضي إلى انتشار أو توزيع [مرحلي] للتكاليف"(٦٨).

وأحيانًا يمكن أن يكون وضع اليد على الأراضي، دراما سياسية فـــي الواجهة. ففي أمريكا اللاتينية، ومنذ فترة الستينيات إلى ثمانينيـــات القـــرن الماضي، وأيضًا في مصر، وتركيا، وجنوب أفريقيا فـــي أوقـــات مختلفـــة، اتخذت ظاهرة وضع اليد شكل السطو على الأراضي. وهو غالبًا ما كان يتم بدعم من الجماعات المتطرفة أو، وهذا أكثر ندرة، من الحكومـــات القوميـــة الشعبية (بيرو في الستينيات؛ ونيكاراجوا في الثمانينيات). وفي اعتمادهم على

(68) Berner, *Defending a Place*, 236-37.

التعاطف العام، فإن شاغلي الأرض يستهدفون– على نحو تقليدي– الأراضي العامة غير المطوّرة، أو العقارات الخاصة بمالك واحد (أحيانًا يتم تعويضه لاحقًا). وأغلب حالات وضع اليد، تكون اختبارًا طويل الأمد للإرادة والتحمل، ضد الجهاز القمعي للدولة. وقد كتب فريق بحثي تابع لجامعة كاليفورنيا لوس أنجلس UCLA حول كاركاس في السبعينيات، قائلاً: "ليس من الجديد أن نسمع بمستوطنة وضع يد، تم بناؤها أثناء الليل وهدمها البوليس في صباح اليوم التالي، ثم بنيت ثانية في الليلة التالية؛ فدُمِّرت مرة أخرى، وأعيد بناؤها، إلى أن تعبت السلطات من المعركة[٦٩]. وبالمثل، وفي روايتها *برجي كريستين: حكايات من تلال القمامة* *Berji Kristin: Tales from the Garbage Hills*، توضح الكاتبة التركية "لطيفة تكِن" Latife Tekin سبب تسمية الأحياء العشوائية في إسطنبول باسم *gecekondus* ("المشيدة في الليل"): فواضعو اليد البطوليون في "تل الزهور"، يبنون ويعيدون بناء كل عشوائية ليلاً؛ لأن السلطات تهدمها كل صباح. فقط وبعد حصار شديد دام ٣٧ يومًا ترقّ الحكومة، فتسمح بمستوطنة جديدة مبنية ليلاً *gecekondu* لتأخذ لها مكانًا على أحد تلال القمامة[٧٠].

غير أن معظم المجتمعات المكونة على أراضي وضع يد، تعد نتيجة لما يسميه "آصف بايات" Asef Bayat عالم الاجتماع، في كتابته حول طهران والقاهرة "زحف هادئ للعامة": تسرب أو تخلل صغير الحجم، غير متحدٍّ للأطراف أو المواقع الفارغة أو ما يمكن تسميته بالمواقع الفجوية interstitial. على خلاف "النمط البِرختي[*]" Brechtian للصراع الطبقي

(69) Kenneth Karst, Murray Schwartz, and Audrey Schwartz, *The Evolution of Law in the Barrios of Caracas*, Los Angeles, pp. 6-7
(70) Latife Tekin, *Berji Kristin: Tales from the Garbage Hills*, London 1996 (Published in Turkey in 1984).

(*) نسبة إلى الكاتب المسرحي الشاعر المخرج الألماني برتولت بريخت/ بريشت.

ومقاومة الفلاحين الفقراء"– الذي تشتهر إثارته في دراسات جيمس سكوت James Scott– فإن صراعات فقراء الحضر هذه، "ليست مجرد دفاعية"، بل، ووفقًا لـ"آصف بايات"، هي "عدوانية هجومية على نحو خفي" فيما تهدف إليه، وبلا توقف، من توسيع مساحة الحياة، وحقوق المحرومين من التصويت[٧١]. إن هذه الأنماط من الزحف العمراني، كما سنرى في الفصل التالي، عادة ما يتكرر تزامنها مع فرصة محبذة لاحتلال الأرض، مثل الانتخابات، والكوارث الطبيعية، و*الانقلابات*، أو الثورة.

لقد بلغ وضع اليد بجميع أنواعه ذروته في أمريكا اللاتينية، والشرق الأوسط، وجنوب شرق آسيا خلال سبعينيات القرن المنصرم. أما في الوقت الحالي، فإن وضع اليد بالمعنى الدقيق، ما زال يتم في الأراضي الحضرية منخفضة القيمة، وعادة في المناطق الخطرة، أو في المواقع شديدة الهامشية، مثل سهول الفيضانات، أو سفوح التلال، أو المستنقعات، أو الأراضي المحروقة brownfields، أي تلك الأراضي التي استُخدمت في أغراض صناعية، وأصبحت مهجورة، وغالبًا ما تكون ملوثة. وكما تشير عالمة الاقتصاد الحضري إلين شتيلفاجون Eileen Stillwaggon: "إن واضعي اليد، في الأساس، يحتلون الأراضي التي بلا قيمة إيجارية، أراضي لا تتمتع سوى بقيمة شرائية ضئيلة للغاية، بما لا يجعل احتلالها مصدرًا لأية مضايقة لمن يمتلك، أو يفرض ملكيته عليها"[٧٢]. ففي بيونس أيرس، على سبيل المثال، نجد معظم *العشوائيات villas de emergencia*– التي غالبًا ما يبنيها المهاجرون من بوليفيا وبارجواي– تقع على ضفاف نهري ريو دي لا

---

(71) Asef Bayat, "Un-civil Society: The Politics of the 'Informal People'," *Third World Quarterly* 18:1 (1997), pp 56-57.

(72) Eileen Stillwaggon, *Stunted Lives, Stagnant Economies: Poverty, Disease and Underdevelopment*, New Brunswick (NJ) 1998, p. 67.

ريكونكويـــستا Rio de la Reconquista، وريـــو دي لا ماتـــانزا Rio de la Matanza اللذين تنبعث منهما روائح كريهة، شديدة التلـــوث. وهنـــا يكتـــب الجغرافى ديفيد كيلنج David Keeling عن زيارته لعشوائية نموذجية علـــى ضفاف ريو دي لا ريكونكويستا، قائلاً: "المياه الراكدة والمجاري، خلقت حالة شديدة العفن والنتانة، حيث كانت المنطقة برمتها تعج بالجرذان، والبعوض، والذباب، وغيرها من الحشرات". والشيء الذي يجعل هذه الحالـــة، يمكـــن تحمُّلها في تلك العشوائية، هو أن تلك المواقع على الأراضي المحروقة، تعد وبصورة مؤقتة بلا قيمة في اقتصاد منهار(٧٣). وبالمثل في كاركـــاس نجـــد المواقع الخطرة من العشوائيات المبنية على أراضي وضـــع يـــد، لا تـــزال تزحف في طريقها إلى أعلى، حيث منحدرات الجبال الصخرية، والأراضي الزلقة التي لا يمكن لأحد من مقاولي التطوير العمرانـــي، ولا ممـــن فقـــدوا عقولهم، أن ينظروا أبدًا إلى هذه المواقع بوصفها عقارات أو أراضي، يمكن تسويقها. لقد أصبح وضع اليد رهاناً على كارثة حتمية.

ولكن الأراضي الطرفية المسطحة، حتى ولو كانت صحراوية، تكـــون ذات قيمة سوقية. واليوم نجد معظم مستوطنات منخفضي الدخل على الحواف العمرانية الحضرية، على الرغم من وصفها دائمًا بأنها وضع يـــد، إلا أنهـــا فعليًا تعمل من خلال سوق خفية للعقارات(٧٤). ومن ثم، فإن هذا النوع مـــن "عمران القرصنة"، تمت دراسته بعناية للمرة الأولى من قبل راكش موهـــان Rakesh Mohan تبع البنك الدولي، وكان فريق البحث في بوجوتا إبان نهاية سبعينيات القرن المنصرم:

(73) Keeling, *Buenos Aires*, pp. 102-05.

(74) Paul Baross, "Sequencing Land Development: The Price Implications of Legal and Illegal Settlement Growth," in Paul Baross and Jan van der Linden (eds), *The Transformation of Land Supply Systems in Third World Cities*, Aldershot 1990, p. 69.

... وهذه المستوطنات المقتَسمة التي تقوم على القرصنة، لم تنشأ نتيجة السطو على الأراضي: فالأرض فعليًا قد غيرت الأيادي عبر عمليات بيع قانونية. وإنما الاقتسام نفسه هو ما يعد غير قانوني. إلا أن أفضل ما توصف به هذه المستوطنات، هو أنها فوق القانون، لا أنها غير قانونية. فالأسر من ذوي الدخل المنخفض، وما بين المنخفض والمتوسط، والدخل المتوسط، صارت مستبعدة من سوق السكن الرسمي، يشترون قطع أراض من المقاولين الذين يحوزون مساحات من الأراضي غير المخططة، ويقسّمونها بدون الانصياع لقانون التقسيم المكاني، ولا للوائح التقسيم، ولا لمعايير مد المرافق والخدمات. وقطع الأراضي المباعة، لا توفر عادة سوى الحد الأدنى من الخدمات. وهو في الغالب ما لا يتعدى رصف بعض الشوارع، ومحطات المياه. وبطبيعة الحال، فإن هذه البنية التحتية الأساسية، تزداد تطويرًا بعد أن تكون المستوطنة الأولية قد تم إرساؤها(٧٥).

وبالتالي، فإن عمران القرصنة يعد في واقع الأمر، خصخصة للعقارات وأراضي وضع اليد. ففي دراسة مهمة جرت عام ١٩٩٠، شخّص خبيرا السكن "بول باروس" Paul Baross و"جان فان دير ليندن" Jan van der Linden، مستوطنات القرصنة، أو "التقسيمات التجارية المقننة للإقامة SCRS؛ بوصفها المعيار الجديد في سكن الفقراء. وفي مقابل واضعي اليد الحقيقيين، فإن قاطني تقسيمة بالقرصنة، حصلوا على أحقية قانونية، أو أحقية فعلية لقطعة الأرض التي يحوزونها. وفي حالة الأحقية القانونية، عادة ما

(75) Rakesh Mohan, *Understanding the Developing Metropolis: Lessons from the City Study of Bogota and Cali, Colombia*, New York 1994, pp. 152-53.

يكون القائم بالتقسيم من المضاربين، أسرة كبيرة، أو جماعة ريفيــة (علـــى سبيل المثال، أراضي الجموع *الإيهيدو* مكسيك *ejido*) أو كيان عرفي (مثــل قبيلة بدوية أو مجلس قروي). وملاك الأراضي– كمــا فــي حالـــة إحـــدى *المستوطنات asentamiento* في ضواحي بيونس أيرس التي ناقــشها ديفيــد كيلنج– قد تُشجِّع قاطني المستوطنة على تنظــيم أنفــسهم بوصـــفهم غـــزاة للأرض، في ظل توقعات حادة بأن الدولة ســتكون مجبــرة علـــى ضـــمان التعويض النهائي، وكذلك تطوير البنية التحتية(٧٦).

في الحالة الثانية للحيازة الفعلية، عادة ما تكون الأرض مملوكة للدولة، ولكن المستوطنين اشتروا ضماناً للحيازة مـــن الـــساسة أصـــحاب النفـــوذ، أو زعماء القبائل، أو عصابات المجرمين (على ســـبيل المثـــال، الترِيـــادس Triads الذين يمثلون أصحاب الملكية غير الرسميين الرئيسيين فـــي هـــونج كونج)(٧٧). المثال الآخر سيئ السمعة، يتمثل في نموذج *الوسطاء dalals* في كراتشي، هؤلاء الذين يعتبرهم "أخطر حميد خان" Akhtar Hameed Khan، مؤسس "المشروع الاستكشافي أورانجـــي" Orangi Pilot Project، "مقــاولي قطاع خاص، تعلموا فن التواطـــؤ مـــع، والتلاعـــب بـــساستنا، وموظفينـــا البيروقراطيين الجشعين. وبرعايتهم المكلفة، فإن *الوسطاء dalals* يؤمّنـــون حيازة الأراضي [العامة]، ويشترون الحماية ضد الإخلاء، ويحصلون علـــى مرافق المياه والنقل"(٧٨). والوسطاء dalals (كلمة قد تعنـــي "القَـــوّاد "pimp، والوسيط "middleman)، يسيطرون على العشوائيات/ *كاتشي أباديس katchi abadis* التي نشأت بوضع اليد والاقتسام من الباطن، مثل عشوائية أورانجي Orangi، حيث تأوي تلك العـــشوائيات، مـــا يقـــرب مـــن نـــصف ســـكان كاراتشي(٧٩).

---

(76) Keeling, *Buenos Aires*, pp. 107-08.

(77) On Triads' control of squatting, see Smart, *Making Room*, p. 114.

(78) Khan, *Orangi Pilot Project*, p. 72.

(79) Urban Resource Center. "Urban Poverty and Transport: A Case Study from Karachi," *Environment and Urbanization* 13.1 (April 2001), p. 224.

وعلى الرغم من أن المساكن الفعلية، غالبًا ما تكون غير مرخص لها رسميًا من قبل الحكومة المحلية، فإن التقسيمات حسب القرصنة، وعلى خلاف كثير من معسكرات وضع اليد، تعد عمومًا مقسمة إلى أراض موحدة مع شبكات شوارع تقليدية، ولكن الخدمات فيها، إما أن تكون شديدة البدائية، أو غير متوافرة أصلاً، وسعر البيع يعتمد على مدى قدرة القاطنين فيها على سرقة مرافقهم، أو التفاوض على تحسين البنية التحتية. وهنا يكتب "باروس" Baross و"ليندن" Linden: "باختصار، إن التصميمات المخططة، وانخفاض مستويات الخدمة، والمواقع على الضواحي، وأمن الحيازة المرتفعة، وعدم الاتساق مع خطط التنمية العمرانية، والسكن بالمساعدة الذاتية.. كلها ملامح وراثية للتقسيمات التجارية المقننة للإقامة SCRS"(٨٠). ومع التخريجات المحلية المناسبة لكل حالة، فإن هذا التعريف يفي بوصف التطوير الطرفي أو الحدودي في مكسيكو سيتي، وبوجوتا، وساو باولو، والقاهرة، وتونس، وهراري، وكراتشي، ومانيلا، ومئات من المدن الأخرى؛ بما في ذلك كتلة منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية Organization for Economic Co-operation and Development (OECD)، والتجمعات السرية clandestine حول لشبونة، ونابولي، وأيضًا المستعمرات الحديثة خارج الباسو El Paso، وبالم سبرينغز Palm Springs.

لقد ظل تسليع عملية تطوير العشوائيات الطرفية، أو على حدود العمران، قائمًا في بعض البلدان لعقود طويلة. وهنا يوضح لنا المخطط العمراني أيس يوندر Ayse Yonder "أنه بحلول منتصف ستينيات القرن الماضي، كانت ظاهرة وضع اليد- بمعناها التقليدي- قد اختفت من إسطنبول. وكان على المستوطنين دفع الأموال لرجال محليين أشداء؛ من

(80) Paul Baross and Jan van der Linden, "Introduction," in Baross and van der Linden, *Transformation of Land Supply in Third World Cities*, pp. 2-7.

أجل الحصول على حقوق شَغل الأراضي، حتى العمومية منها. وباتصالات سرية، بدأ المقاولون في منتصف السبعينيات، في السيطرة على الأراضي العمومية في مقاطعات بعينها داخل إسطنبول، فراحوا يبيعون الأراضي ويحتكرون جميع أنشطة البناء"(٨١). وفي نيروبي التي تعد اليوم مدينة لخيام الفقراء المؤجرة، انطلقت عملية تسليع متكاملة الأركان في بدايات السبعينيات من القرن الماضي، حيث اكتشف الأجانب الأغنياءُ، أن وضع اليد كان يخلق سوقًا جديدة للأراضي تعود بأرباح ضخمة، يجنونها من وراء عملية التقنين. حيث بدأ أصحاب الأراضي (في الغالب خلفاء الملاّك الآسيويين الأصليين) في التخلص من القِطع غير المرخص لها. ووفقًا للباحث فليب آميس Philip Amis المتخصص في دراسات الفقر، فإن أصحاب الأراضي، بالتالي، غزوا أراضيهم التابعة لهم، ووفقًا لخططهم بنوا عليها مساكن غير مرخص لها... وقد تم تسوية الأمر بدفع العمولات لدرء المخاطر الناجمة، وقد تم ذلك بطريقة سلسة، ولم تصدر أوامر بالهدم. وكانت عودة الاستثمار بمعدلات غاية في الارتفاع"(٨٢).

٣- المؤجّرون الخفيون:

كقاعدة بديهية، فإن التراث العام والأكاديمي حول السكن العشوائي أو غير الرسمي، يميل إلى إضفاء الرومانسية على واضعي اليد، في حين يتجاهل المؤجّرين. وقد أقر باحثو البنك الدولي حديثًا، بأن "البحث الذي تم إجراؤه على الأسواق الإيجارية لمنخفضي الدخل، يعد ضئيل الحجم بدرجة

(81) Ayse Yonder, "Implications of Double Standards in Housing Policy: Development of Informal Settlements in Istanbul," in Edesio Fernandes and Ann Varley (eds), *Illegal Cities: Law and Urban Change in Developing Countries*, London 1998, p. 62.
(82) Philip Amis, "Commercialized Rental Housing in Nairobi," in Patton, *Spontaneous Shelter*, pp. 240, 242.

ملاحظة"(٨٣). وفي الحقيقة إن ملكية الأراضي تمثل أبعاد علاقــة اجتماعيــة أساسية ونزاعية، في حياة العشوائيات على مستوى العالم. إنها طريقة أساسية يمكن بها لفقراء الحضر سك أو صياغة مساواتهم (بصفة رســمية أو غيــر رسمية)، ولكنها تتم غالبًا في إطار علاقة استغلالية، حتى مع مَن هم أفقــر منهم. وقد تضمّنت عملية تسليع السكن غير الرسمي أو العــشوائي، النمــو السريع للقطاعات الفرعية الإيجارية المتميزة: تطويرات الحشو، أو البناء بين الفراغات في العشوائيات القديمة، أو بنايات متعددة الأُســر فــي تقــسيمات للأراضي بالقرصنة. وللتأكيد، فإن معظم فقراء الحضر في غرب أفريقيــا، غالبًا ما استأجروا من أصحاب أراضٍ، كما فعل معظم الــسكان فــي دكــا، وبعض المدن الآسيوية الأخرى (ففي بانكوك، ثُلُثا "واضعي اليد" يستأجرون بالفعل الأراضي التي يبنون عليها عششهم)(٨٤). كما أصبح الإيجــار أيــضًا أكثر شيوعًا مما هو معترف به عادة في أطراف مــدن أمريكــا اللاتينيــة، والشرق الأوسط، وجنوب أفريقيا. ففي القاهرة، على ســبيل المثــال، نجــد الفقراء المتمتعين بمزايا أكبر نوعًا ما، يشترون الأراضي المقرصَــنة مــن الفلاحين، بينما الأقل مزايا منهم، يضعون أياديهم على أراضي البلدية. أمــا أفقر الفقراء، فيستأجرون من واضعي اليــد(٨٥). وبالمثــل، وكمــا لاحــظ الجغرافي آلان جلبير Alan Gilbert عن أمريكا اللاتينية في عام ١٩٩٣، فإن "الغالبية الواسعة من السكن الإيجاري الجديد، تقع في الأطراف المكثفة التي تسود فيها حالة المساعدة الذاتية، وليس في مركز المدينة"(٨٦).

(83) Marianne Fay and Anna Wellenstein, "Keeping a Roof over One's Head," in Fay (ed.), *The Poor in Latin America*, Washington, D.C. 2005, p. 92.

(84) Rigg, *Southeast Asia*, p. 143.

(85) Soliman, *A Possibility Way Out*, p. 97

(86) Alan Gilbert et al.. In Search of a Home: Rental and Shared Housing in Latin America, Tucson 1993, p 4.

وتعد مكسيكو سيتي حالة مهمة في هذا السياق، فعلى الرغم من أن ثمة قانونًا نموذجيًا Model Law *لعشوائيات البرولتاريـا colonias proletarias* يسعى إلى حظر ملكية الغائبين، و"الجور على أرض الغير"، ومنع المضاربة في إسكان منخفضي الدخل؛ فإن حكومـــة لـــوبيز بورتيلـــو Lopez Portillo (١٩٧٦-١٩٨٢) سمحت لسكان العشوائيات ببيع ممتلكاتهم وفـــق معـــدلات السوق. وكان من نتائج هذا الإصلاح أن حدث ثمة إثراء للطبقة المتوســـطة، من بعض *المستعمرات أو العشوائيات* في مواقع جيدة، كانت سابقًا للفقـــراء. ونتيجة أخرى لذلك، حدث تكاثر في طبقة صغار أصحاب الأراضي. وكمـــا اكتشفت عالمة الاجتماع سوزان إكشتاين Susan Eckstein، في عودتها عـــام ١٩٨٧ إلى *المستعمرة العشوائية* التي كانت قد قامت بدراســـة عليهـــا لأول مرة، قبل هذا التاريخ بخمسة عشر عامًا، أن ما بين ٢٥ إلـــى ٥٠% مـــن واضعي اليد الأصليين، بنوا *مساكن عامة جماعية vecindades*، يضم الواحد منها من أسرتين إلى خمس عشرة أسرة، قاموا بتأجيرها بعد ذلك إلى قادمين جدد أكثر منهم فقرًا. وكتبت إكشتاين حينذاك: "ثمة في الجوهر سوق للسكن المكون من طابقين، يعكس فروقًا اقتصادية اجتماعية وســـط *المـــستعمرات العشوائية*". وقد وجدت الباحثة "نوعًا من التسوية الاقتـــصادية الاجتماعيـــة للسكان 'إلى أسفل'، منذ أن كنت هنا في المرة الأخيرة... فإن طبقة الخيـــام الأكثر فقرًا قد تزايد حجمها". وعلى الرغم من أن بعض القاطنين القـــدامى، انتعشوا كملاك للأراضي، فإن المستأجرين الجدد لم يكن لديهم ســـوى أمـــل ضئيل في الانتقال اقتصاديًا واجتماعيًا من الجيل السابق عليهم، و*المستوطنة العشوائية* ككل لم تعد "عشوائية للأمل"(٨٧).

(87) Eckstein. pp. 60 235-38.

والواقع، أن المؤجّرين عادة ما يكونون هم الطرف الأكثر خفاءً، والأقل قوة من بين سكان العشوائيات. ففي مواجهة إعادة التطوير والإخلاء، تجـدهم بطبيعة الحال غير مؤهلين للحصول على التعويض، أو إعادة التوطين. وعلى خلاف سكان المساكن الجماعية الفقيرة في برلين أو نيويورك بدايـة القـرن العشرين، فضلاً عن كونهم تشاركوا في حالة من التضامن القريب والمترابط، فيما يتعلق بأصحاب الأحياء، أو مالكي الأراضي، فإن مؤجري العـشوائيات بطبيعة الحال، يفتقدون القوة التي تخوّل لهم تنظـيم جماعـات المـستأجرين، أو شن إضرابات عن الإيجار. وكما يوضح باحثان رائدان في مجال السكن:" فإن المستأجرين متناثرون عبر المستوطنات غير النظامية، بمدى واسع مـن الترتيبات الإيجارية غير الرسمية، وهم في الغالب غير قادرين على التنظـيم كمجموعة ضغط من أجل حماية أنفسهم"(٨٨).

إن العشوائيات الطرفية الكبيرة، خاصة في أفريقيا، عادة مـا تكـون مكونة من شبكات دقيقة ومعقدة من علاقات القرابة والمـصاهرة، وأنظمـة الحيازة، والعلاقات الإيجارية. وقد درست "ديانا لـي سـميث" Diana Lee-Smith، إحدى مؤسسي "معهد مازينجيرا بنيروبـي" Nairobi's Mazingira Institute، عن قرب، عشوائية ضخمة على الحد الشرقي للمدينـة، تـسمى "كوروجوشو" Korogocho، وهي تضم سبع قرى تمثل قائمة متنوعـة مـن أنماط السكن وأشكال الإيجار المختلفة. والقرية الأكثر تدهورًا من بينها، هي قرية "جورجان" Gorgan، وتتألف من عشش كرتونية من غرفـة واحـدة، مأهولة بعدد كبير من الأسر التي تعولها نساء، كان قد تـم إخلاؤهـا مـن عشوائيات قديمة بالقرب من مركز المدينة. من ناحية أخـرى، نجـد قريـة "جيثا" Githaa، الشبيهة بالثكنات العسكرية، و"هي قرية تقوم على المضاربة من الطراز الأول، بناها مقاولون من أجل الإيجار"، على الرغم من حقيقة أن

(88) Durand-Lasserve and Royston, "International Trends and Country Contexts," p. 7.

الأرض ملكية عامة. أما داندورا Dandora المجاورة، فهي عبارة عن منظومة المواقع والخدمات، حيث نصف المُلاك هم الآن من الملاك الغائبين. وتؤكد "لي سميث" أن ملكية الأراضي والإيجار من الباطن، تعد واحدة من الإستراتيجيات الرئيسية للثراء لدى الفقراء، وأن مُلاك المنازل سرعان ما يصبحون مستغلين؛ حتى لمن هم أكثر إفقارًا. وعلى الرغم من هيمنة الصورة البطولية لواضعي اليد؛ بوصفهم البناة الذاتيين والمالكين الشاغلين، فإن الواقع في كوروجوشو، وغيرها من عشوائيات نيروبي، يتمثل في الزيادة التي لا يمكن وقفها، ولا مقاومتها، في القيمة الإيجارية والاستغلال البسيط(٨٩).

أما سوويتو Soweto، فقد نمت من ضاحية إلى مدينة تابعة، أو ملحقة، قوامها ما يقارب مليوني نسمة، وهي تُظهر بالمثل طيفًا واسعًا من الأوضاع السكنية المختلفة، فثلثا ساكنيها يعيشون إما في منازل قطاع خاص سابقًا (الطبقة الوسطى المهنية)، أو، وهذا الأكثر شيوعًا، في منازل المجلس (الطبقة العاملة التقليدية). وفي خلفية النوعية الأخيرة من المنازل، وهي منازل المجلس، قام السكان ببناء عشش وبيوت على نحو غير قانوني، يؤجرونها للأسر الشابة، أو للبالغين من العزّاب. حتى هؤلاء الأكثر فقرًا، بمن فيهم المهاجرون الريفيون، إما تجدهم يقيمون في غرفة داخل نُزُل، أو يضعون أياديهم على أراضٍ في ضواحي سوويتو. هذا في الوقت الذي نجد فيه العشوائيات الأخرى في جوهانسبرج، تلك الشهيرة منذ عهد سياسة الفصل العنصري/ الأبارتيد، مثل ألكسندرا Alexandra أكثر فقرًا، وتضم عددًا أقل من المنازل التي كانت منتمية في السابق إلى القطاع الرسمي(٩٠).

(89) Diana Lee-Smith, "Squatter Landlords in Nairobi: A Case Study of Korogocho," in Amis and Lloyd, *Housing Africa's Urban Poor*, pp 176-85.

(90) Jo Beall, Owen Crankshaw, and Susan Parnell, "Local Government, Poverty Reduction and Inequality in Johannesburg," *Environment and Urbanization* 12:1 (April 2000), pp. 112-13.

هذا التنوع الهائل من حقوق الملكية، وأشكال السكن، يتشكل في العشوائيات الكبرى في أفريقيا وأمريكا اللاتينية، ولا غرو أن يولّد نسبا مختلفة اختلافًا شديدًا من الفائدة. كما يشير الجغرافي "بتر وارد" Peter Ward، في حالة مكسيكو سيتي، "من المرجح أن يتشكل المنظور الأيديولوجي للمرء بفعل وضعه السكني":

> إن التنوع، وعدم التجانس، داخل المستوطنات غير النظامية... يقوّض الاستجابة الجماعية عن طريق تقسيم المستوطنات على أساس نمط الاستحواذ على الأراضي، و"مرحلة" التكثيف، وأولويات الخدمة لدى السكان، وهياكل قيادة الجماعة، والطبقات الاجتماعية، وفوق هذا وذاك علاقات الحيازة (مُلاك، مقابل شركاء، مقابل مؤجرين). كما أن هذا التضاعف في عدد تقسيمات الحيازة، لا يزال يتغلغل في القواعد الشعبية التي قد يندرج تحتها الناس، أو ينقسمون إليها... مؤجرون، وواضعو يد معرضون للتحرش والمطاردة، خيام النازحين في وسط المدينة، ومن المرجح أن يكون هؤلاء أكثر راديكالية وعرضة لشن مظاهرات مناهضة للحكومة، من أولئك الذين تم التعامل معهم بطرق التحايل الحكومية عن طريق السياسات السكنية المتتابعة(٩١).

(91) Peter Ward, *Mexico City: The Production and Reproduction of an Urban Environment*, London 1990, p 193.

٤- أطراف المنبوذين:

إن المزيد من التحليل يتحرك بنا بعيدًا عن مركز مدينة العالم الثالث، ذلك الضباب المعرفي/ الإبستمولوجي الأكثر كثافة. فمثلما يشدد عالم التاريخ "إلن برنان" Ellen Brennan: "فإن معظم مدن [العالم الثالث] تفتقر إلى البيانات الدقيقة المحدَّثة عن أنماط تحوُّل الأرض، وعدد الوحدات السكنية (سواء غير الرسمية منها أو الرسمية)، التي بُنيت خلال السنة الماضية، وكذلك أنماط استهلاك البنية التحتية، وأنماط التقسيم من الباطن، وما إلى غير ذلك"(٩٢). ولا تعرف الحكومة سوى القدر الضئيل، حول حدودها المتاخمة للمناطق العمرانية، تلك الحدود الفاصلة الغريبة، حيث تم تحويل المدن ذات الطابع الريفي إلى ريف ذي طابع حضري(٩٣).

و"الحد الحضري" هو منطقة الأثر المجتمعي، حيث تجتمع قوى المدينة المركزية مع تطور الريف. فضاحية "بكين" Pikine المفقَرة الضخمة في دكار، ووفقًا للباحث محمدو عبدول Mohamadou Abdoul، هي نتاج "تلاقي تدفقَين من التدفقات الديمغرافية كبيرة الحجم، بداية من سبعينيات القرن الماضي: وصول السكان الذين تم تهجيرهم قسرًا- في الغالب على يد الجيش- إلى أحياء الطبقة العاملة في دكار والعشوائيات، وأيضًا وصول من تم الإمساك بهم أثناء الخروج الريفي"(٩٤). وبالمثل، فإن المليوني نسمة من سكان العشوائيات الطرفية سريعة التنامي في "بانجالور" Bangalore، تتضمن كلاً من سكان العشوائيات والمطرودين من المركز، وعمال المزارع المطرودين من أراضيهم. ومن الشائع على حدود مكسيكو سيتي، وبيونس

(92) Ellen Brennan, "Urban Land and Housing Issues Facing the Third World," in Kasarda and Parnell, *Third World Cities*, p. 80.
(93) See Seabrook, *In the Cities of the South*, p. 187.
(94) Mohamadou Abdoul, "The Production of the City and Urban Information," in Enwezor et al., *Under Siege*, p. 342.

أيرس، وغيرها من مدن أمريكا اللاتينية، أن نجد العشوائيات ومدن الصفيح- التي تتألف من المهاجرين الريفيين- الجدد مجاورين للأحياء المسوّرة، التي تسكنها الطبقة المتوسطة الفارّة من الجريمة، وعدم الأمان في مركز المدينة(٩٥).

وثمة أيضًا تيار مهاجر، قوامه الصناعات الملوّثة، والسامة، التي غالبًا ما تفتقد الشرعية القانونية، يسعى إلى ذلك الغموض المتاح على أطراف المدينة. وهنا يلاحظ الجغرافي "هانز شنك" Hans Schenk أن الحدود الطرفية الحضرية في آسيا، تمثل فراغًا ضابطًا، جبهةً حقيقيةً، حيث "داروين Darwin يهزم كينز Keynes، والمقاولون القراصنة والسادة الفاسدون غير مقيدين بالقانون، أو بالمراجعة والرقابة العمومية. وعلى سبيل المثال، فإن معظم ورش الملابس الصغيرة في بكين، مختفية بعيدًا في مجموعة أرخبيلية من القرى التي ما زالت تتمتع بصفتها الزراعية. وفي العشوائيات عند الحافة الجنوبية للمدينة. وفي بنجالور Bangalore نجد بالمثل الأطراف الحضرية، تتمثل في المكان الذي يمكن للمقاولين فيه أن يحصلوا على عمالة رخيصة، بأقل حد ممكن من رقابة الدولة(٩٦). ملايين من العمال المؤقتين والفلاحين البائسين، يحومون أيضًا حول أطراف تلك العواصم العالمية للاستغلال الفائق المتجاوز للحدود؛ من مثيلات سورات Surat وشينزين Schnzhen. فهؤلاء العمال الرُّحل يفتقدون موطئ القدم الآمنة، سواء في المدينة أو الريف، وغالبًا ما ينفقون حياتهم في نوع من الحركة البراونية(*) Brwonian motion

(95) Guy Thuillier, "Gated Communities in the Metropolitan Area of Buenos Aires," *Housing Studies* 20:2 (March 2005), p. 255.

(96) Hans Schenk, "Urban Fringes in Asia: Markets versus Plans," in I. S. A. Baud and J. Post (eds), *Realigning Actors in Urbanizing World: Government and Institutions from a Development Perspective*, Aldershot 2002, pp. 121-22, 131.

(*) الحركة البروانية سميت بذلك نسبة إلى عالم النباتات "رويرت براون" Robert Brown عام ١٨٢٧، وتعني الحركة العشوائية لجزئيات ميكرونية في سائل، وكذلك الأعمال الرياضية التي تستخدم لتوضيح تلك -

بين المكانين في الوقت نفسه. وفي أمريكا اللاتينية ثمة منطق معاكس يفعل مفعوله: يتزايد معدل استئجار مقاولي الأعمال لساكني العشوائيات الحضرية في العمل الموسمي أو المؤقت، في الريف(٩٧).

غير أن الوظيفة الأساسية للأطراف العمرانية أو الحضرية، في العالم الثالث، هي أن تظل مقلبًا لنفايات الإنسان. وفي بعض الحالات نجد النفايات الحضرية، والمهاجرين غير المرغوب فيهم، ينتهي بهما الحال في مكان واحد، مثلما هو الحال في "عشوائيات القمامة" غير المشهورة التي أخذت المسمى المناسب لها، وهو "الكرنتينيا" Quarantina تلك البلدة الصغيرة على ضواحي بيروت، وأيضًا حلة كوشة Hillat Kusha في الخرطوم، وسانتا كروز ميالكو Santa Cruz Meyehualco في مكسيكو سيتي، وجبل الدخان سابقًا Smokey Mountain في مانيلا، أو مقلب نفايات وعشوائية دابا Dhapa الضخمة التي قامت على أطراف مدينة كلكاتا Kolkata (عاصمة ولاية البنغال الغربي في الهند-م). وعلى الدرجة نفسها من الشيوع، نجد المعسكرات الحكومية المعزولة، والمستوطنات التي تتمثل في مجرد الحد الأدنى من مواقع وخدمات، تضم سكانًا مطرودين في نصف الحروب التي تشنها البلديات على العشوائيات والأحياء المفقرة. فخارج ولايتي بينانج

= الحركات العشوائية. وقد كان ذلك إثر دراسته لجزيئات رحيق الأزهار، حيث لاحظ عند وضع هذه الجزيئات في الماء لملاحظتها عن طريق المجهر أنها في حركة عشوائية متواصلة .. فتساءل عن سبب هذه الحركة.. أهي ناتجة عن كون الجزيئات كائنات حية؟ (كحركة البكتيريا مثلا)..؟؟.. وللتأكد من هذه الفرضية قام براون بتكرار التجربة نفسها، مستخدما هذه المرة جزيئات معدنية ميكرونية، ومن جديد، شاهد حركة شديدة التشابه مع ملاحظاته السابقة.. وقد أثبتت هذه التجارب أن الحركة البراونية غير ناتجة عن قوة حيوية .. لكن ما أصل هذه الظاهرة؟.. هل أصلها فيزيائي كما ذكر ألبرت أينشتاين في واحدة من مقالاته الشهيرة؟..لمزيد من المعلومات، راجع صفحة الويكيبيديا، على شبكة المعلومات (الإنترنت): http://en.wikipedia.org/wiki/Brownian_motion. (المترجم)

(97) Cristobal Kay, "Latin America's Agrarian Transformation: Peasantization and Proletarianization," in Bryceson, Kay and Mooij, Disappearing Peasantries?, p. 131.

Penang، وكوالالامبور في ماليزيا، على سبيل المثال، نجد سكان العشوائيات ممن تم إخلاؤهم، وقد انحشروا في معسكرات انتقالية، لا يوجد بها سوى الحد الأدنى من سبل الحياة. وها هم نشطاء الحق في السكن يوضحون الوضع قائلين:

> إن مصطلح "منزل ممتد في القِدم"، يستدعِي صورًا مريحة لشكل ما من أشكال السكن القديم باللغة المحلية الماليزية، ولكن واقع هذه المعسكرات الانتقالية مختلف تمامًا. فهذه البيوت القديمة عبارة عن صفوف بائسة من العشش الخشبية الهشة والاسبستوس، ملحقة على الجوانب ومواجهة لحارات غير ممهدة، وبلا أية أشجار، قبالة مزيد من الأكواخ والعشش، وليست مزودة سوى بالخدمات الضرورية الشحيحة إن وجدت. وقد تحولت هذه المنازل القديمة إلى مساكن لم تعد مؤقتة على أية حال. فكثير من ضحايا الإخلاء ما زالوا هناك، وبعد عشرين سنة، ينتظرون أن تفي الحكومة بوعودها في توفير سكن لمنخفضي الدخل...(٩٨).

لقد خاطر الأنثروبولوجي مونيك سكيدمور Monique Skidmore، ذات يوم، بالتعرض للتوقيف والقبض عليه، وقام بزيارة إلى العشوائيات البالية ما قبل نطاق العمران الحضري، تلك التي تسمى "الحقول الجديدة New Fields"، خارج رانجون Rangoon (عاصمة بورما-م)، حيث قامت الديكتاتورية العسكرية بإعادة التوطين الجبري فيها لمئات الآلاف من الحضر، ممن كانت مساكنهم وأحياؤهم العشوائية تقف عقبة في طريق المشروع السياحي لإعادة

(98) Asian Coalition for Housing Rights, "Special Issue on How Poor People Deal with Eviction," *Housing by People in Asia* 15 (October 2003), p. 19.

بناء مركز المدينة. و"يتحدث السكان عما انتابهم من حزن وألم جراء فقدانهم أحياءهم السابقة... وعن محلات الخمور، وأكوام القمامة، والمياه الراكدة، والوحل المخلوط بمياه المجاري غير المعالَجة والمحيطة بمعظم البيوت". من ناحية أخرى، فإن الأمور تعد أسوأ في العشوائيات والعشش على أطراف مدينة ماندلاي Mandalay (ثاني أكبر مدينة في بورما-م). هناك، كما يوضح "سكيدمور": "يجب على سكان العشوائية المشي فوق تلال جبال الشان Shan؛ باحثين عن أخشاب للوقود. ولا توجد هناك مناطق صناعية، ولا مصانع للملابس، ولا غيرها من ورش لتشغيل العمال، ولو بأجور منخفضة جدًا، كما هو الحال في العشوائيات التي أعيد توطين سكانها في رانجون"(٩٩).

إن اللاجئين الدوليين والنازحين داخليًا، غالبًا ما يتعرضون لمعاملة أكثر قسوة، حتى من ضحايا الإخلاء من المناطق الحضرية. وقد تطورت بعض معسكرات اللاجئين الضخمة في العالم الثالث، تطورت إلى مدن طرفية في حد ذاتها. فقطاع غزة الذي يعتبره البعض أكبر عشوائية في العالم، يمثل في الأساس تجمعًا ذا طابع حضري لمعسكرات اللاجئين (٧٥٠,٠٠٠ لاجئ)، حيث يعيش ثلثا السكان على أقل من دولارين للفرد يوميًا(١٠٠). أما معسكر "داداد" Dadaad، داخل الحدود الكينية، فهو يضم ١٢٥,٠٠٠ صومالي، تمامًا مثلما كان الحال في معسكر "جوما" Goma في زائير إبان منتصف التسعينيات، حيث كان معسكرًا بائسًا لما يقدر بنحو ٧٠٠,٠٠٠ رواندي، مات كثيرون منهم مصابين بالكوليرا؛ جراء الظروف المرتبطة بمياه المجاري. أما معسكرات اللاجئين الأربعة في الظهير الصحراوي، على أطراف الخرطوم (مزارع مايو، وجبل علية، ودار السلام،

(99) Monique Skidmore, *Karaoke Fascism: Burma and the Politics of Fear*, Philadelphia 2004, pp. 150-151, 156.

(100) Fact sheet, Al-Dameer Association for Human Rights Gaza, 2002. , مؤسسة الضمير

ووادي البشير)؛ فتضم ٤٠٠,٠٠٠ من ضحايا الجفاف، والمجاعة في الحرب الأهلية. وثمة ١,٥ مليون نسمة آخرون، تمت إزاحتهم- معظمهم من الجنوبيين- يعيشون في أفواج داخل عشوائيات وضع يد كبيرة، حول المدن السودانية الكبرى(١٠١).

وبالمثل فإن مئات الآلاف من ضحايا الحرب، واللاجئين العائدين من إيران وباكستان، يعيشون دون مياه أو صرف صحي، في أفواج جماعية، داخل عشوائيات على التلال فوق كابول. "وفي مقاطعة كارته أريانا Karte Ariana"، مثلما ورد في تقرير لـ *واشنطن بوست في* أغسطس/ آب ٢٠٠٢، هناك "مئات الأسر من الفارين بعيدًا عن جحيم الصراع المحتدم بين طالبان وقوى المعارضة في الشمال الريفي من أفغانستان، هم محشورون الآن في متاهة من العشوائيات الأفقية، بدون مطابخ أو حمّامات، ينامون في مجموعات مكونة من ١٥ إلى ٢٠ فردًا في كوخ".. ولم ينزل المطر لعدة سنوات؛ فجفت الآبار. كما أن الأطفال في هذه العشوائيات، يعانون باستمرار من التهاب الحلق، ومن أمراض أخرى بسبب اضطرارهم لشرب المياه الملوثة. ولذلك فإن معدل العمر، المتوقع بين هؤلاء، هو الأدنى من نوعه على مستوى العالم(١٠٢).

أما أكبر تجمعين للسكان النازحين/ المهجرين داخليًا، على مستوى العالم، فنجدهما في أنجولا وكولومبيا. فقد تم تحويل أنجولا إلى المسار الحضري جبرًا؛ بفعل أكثر من ربع قرن من الحرب الأهلية المستمرة (من ١٩٧٥ إلى ٢٠٠٢)، والتي أثارتها مكائد وتدابير بريتوريا والبيت

(101) Eltayeb, "Khartoum, Sudan," p. 2.
(102) *Washington Post*, 26 August 2002.

الأبيض- وأزاحت ٣٠% من السكان في وجهها. وهناك كثير من اللاجئين لم يعودوا أبدًا إلى بيوتهم السابقة في الريف المدمَّر، المحفوف بالمخاطر. ولكنهم سكنوا "وضع يد"، في عشوائيات محيطة بمدن لواندا، ولوبيتو Lobito، وكابندا Cabinda، وغيرها. ونتيجة لذلك، فإن أنجولا التي لم تكن نسبة الحضر فيها خلال عام ١٩٧١ تتعدى ١٤%، أصبحت الآن أمة يغلب عليها السكان الحضر، ومعظم سكان مدنها هم من الفقراء فقرًا مدقعًا، والمهملين تمامًا من قبل الدولة، التي كان من المقدر لها عام ١٩٩٨ أن تنفق ١% فقط من موازنتها على التعليم العام والرفاه الاجتماعي[١٠٣].

وبالمثل، فإن الحروب التي لا نهاية لها في كولومبيا، قد أضافت المزيد من أعداد المهجرين داخليًا، الذين يمكن تقديرهم بحوالى ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، انضموا بفعل الحرب إلى حزام الفقر الحضري لمدينة بوجوتا، هذا الحزام الذي يشمل المستوطنات غير الرسمية/ العشوائيات الضخمة، في مناطق سومباز Sumpaz، وسيداد بوليفار Ciudad Bolivar، وأوسم Usme، وسوكا Soacha. وكما توضح إحدى المنظمات غير الحكومية العاملة في مجال الإغاثة، فإن "معظم المهجّرين، هم من المنبوذين اجتماعيًا، والمستبعَدين من الحياة الرسمية، والتشغيل. وحاليًا (عام ٢٠٠٢)، فإن ٦٥٣,٨٠٠ من أهالي مدينة بوجوتا لا يجدون فرصة عمل في المدينة. والأكثر صدمة من ذلك، أن نصف هذا العدد ممن هم تحت سن التاسعة والعشرين من عمرهم".. فهؤلاء هم الفلاحون الشباب؛ ممن يفتقدون لأية مهارات حضرية، وإمكانية الوصول إلى التعليم. وهو ما تكرر على مدار

(103) Tony Hodges. *Angola*, 2nd ed., Oxford 2004, p. 22.

سنوات عمرهم. كما أن أطفالهم يشكلون المجندين الأمثل لعصابات الشوارع المحاربة.. ورجال الأعمال المحليون الذين تضرروا بدورهم من المشردين، يشكلون *جماعات التطهير* *grupos de limpieza*، المتصلة بـأفواج المـوت اليمينيين، حيث يتم التخلص من جثث الأطفال المقتولين بإلقائها على أطراف البلدة(١٠٤).

إن هذا الكابوس نفسه نجـده يتكـرر فـي ضـواحي مدينـة كـالي (اليونان– م). حيث يذكرنا الأنثروبولوجي مايكل تاوسج Michael Taussig بـ **جحيم دانتي**؛ ليصف الصراع هناك من أجل الحيـاة، فـي اثنـين مـن العشوائيات الطرفية "الخطرة خطورة مذهلة". فـ"نافـارو" Navarro "جبـل قمامة" سيئ السمعة، حيث النساء والأطفال الجوعى يلتقطون النفايات، فيمـا الشباب المسلحون (*malo de malo*) إما مـستأجَرون حـاليون، أو أُنهيـت خدمتهم، لدى المحاربين اليمينيين المحليـين. أمـا المـستوطنة الأخـرى، "كارلوس ألفريدو دياز" Carols Alferdo Diaz، فهي مليئة بـ"أطفال يتجولون بأسلحة وبارود مصنوع منزليًا". وقد كتب تاوسج Taussig: "لقد بدا لي عالم العصابات من الشباب الذين تحولوا إلى كائنات برية، لهم واديهم المقـدس، هنا على الأطراف الحضرية لمقاطعة كارلوس ألفريدو دياز، حيث تـضرب العشوائيات في عمق حقول القصب.. تمامًا مثلما يكـون لـدى العـصابات قاعدتهم الأكثر أهمية في الغابات التي لا نهاية لها، على نهر الكاكيتـا Caqueta، في نهاية اللامكان على طرف حوض نهر الأمازون"(١٠٥).

---

(104) Project Counseling Services. "Deteriorating Bogota· Displacement and War in Urban Centres" *Colombia Regional Report: Bogota* (December 2002), pp. 3-4.

(105) Michael Taussig, *Law in a Lawless Land: Diary of a Limpieza in Colombia*, New York 2003, pp. 114-15.

الفصل الثالث

الدولة الخائنة

"لو كان للرأسمالية العاتية وجه غير مقبول في عمومه، فإن الأسوأ من ذلك الوجه على الدوام، دولةٌ فاسدة تعمل لصالح الأغنياء.

وفي مثل هذه الظروف لا يمكن التعويل على تحقيق الكثير حتى ولو بمحاولة تحسين النظام".

آلان جيلبير وبتر وارد[1] Alan Gilbert and Peter Ward

عبّر اثنان من الجغرافيين مؤخرًا عن شكواهما، قائلين: "المدهش أنه لا يوجد كاتب واحد قد اقتفى أثر الجغرافيا المتغيرة لأيـة مـستوطنة سـكنية لمنخفضي الدخل، في أي من مدن العالم الثالث على مدار الفتـرة اللاحقـة للحرب"[٢]. ولا أيضًا حاول أحد، بالطبع حتى الآن، القيام بمراجعة شـاملة تاريخية حديثة للنموذج العالمي للعشوائيات، في الوقت الذي نجـد فيـه أن كثيرًا من التناولات التاريخية الوطنية، والخصوصيات الحضرية، تجعل من هذه التركيبة مهمة مخيبة للآمال. ولكن على الرغم من ذلك، فمـن الممكـن المغامرة بأخذ عينة زمنية متمثلة في مدة تاريخية معينة، وعلى نحو بـسيط للتأكيد على تيارات رئيسية وتحولات مهمة في حضرنة الفقر العالمي.

(1) Alan Gilbert and Peter Ward, *Housing, the State and the Poor: Polity and Practice in Three Latin American* Cities, Cambridge 1985, p. 254.

(2) Richard Harris and Malak Wahba, "The Urban Geography of Low-Income Housing: Cairo (1947-96) Exemplifies a Model," *International Journal of Urban and Regional Research* 26:1 (March 2002), p. 59.

ولكن قبل أن نمضي قُدمًا في النظر، في سبب نمو مدن العالم الثالث، وعشوائياتها، نموًا سريعًا جدًا في النصف الثاني من القرن العشرين، نجد أنه من الواجب علينا أولاً، فهم سبب نموها *البطيء* جدًا في النصف الأول من القرن نفسه. وعلى الرغم من وجود بعض الاستثناءات في هذا القياس، إلا أن معظم مدن الجنوب الكبرى اليوم، تشترك في مسار واحد: نظام من النمو البطيء نسبيًا، بل قد يكون نموًا معاقًا، ثم تسارُع مفاجئ إلى مرحلة النمو السريع في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، غالبيته مهاجرون ريفيون يأوون- وعلى نحو متزايد- إلى العشوائيات في المناطق الطرفية من المدن. وفي وقت سابق على هذه الحقبة من القرن العشرين، كان الوضع الحاصل أن النقل الجماعي للفقر الريفي، إلى المدن، قد أعاقته الجدران الاقتصادية، وما يعادلها من جدران سياسية- فكلاهما مدخل حضري. وقد يكون الأهم من ذلك أن المواطنة الحضرية الحقيقية، كانت ممنوعة- بشكل منظم- عن أجزاء كبيرة من السكان الزراعيين.

منع الفلاحين من الدخول:

كان من المتاريس الرئيسية بالطبع، حركة الاستعمار الأوروبي التي بلغت أوجها في مدن الاستعمار البريطاني لشرق وجنوب أفريقيا؛ فأنكرت على السكان الأصليين حقوق ملكية الأراضي، والإقامة الدائمة في المناطق الحضرية. فقد خشي البريطانيون بأيديولوجيتهم الدائمة "فرِّق تسد"، أن حياة المدينة من شأنها أن "تخلص الأفارقة من الطبيعة القبلية detribalize"؛ ومن ثم تعضد أشكال التضامن المناهضة للاستعمار[٣]. وقد كانت الهجرة من الريف إلى الحضر محكومة بقوانين العبور، فيما كانت قواعد وقوانين

(3) Garth Myers. "Colonial and Postcolonial Modernities in Two African Cities." *Canadian Journal of African Studies* 37.2-3 (2003), pp. 338-39.

التشرد، تعاقب على العمل غير الرسمي. وحتى عام ١٩٥٤، علـى سـبيل المثال، كان الأفارقة يُعتبرون مجرد أشخاص مقيمين إقامة مؤقتة في نيروبي التي كانت آنذاك مغلقة بصورة عنصرية، وكانوا من ثم عاجزين عن امتلاك أية ممتلكات أسرية خاصة بهم(٤). وبالمثل، فإن الأفارقة في دار السلام، وفقًا للباحثة "كارين نورو" Karin Nuru "كان لا يتم التعامل معهم بأيـة طريقـة، سوى بوصفهم قوة عاملة مؤقتة. وكان لزامًا عليهم العودة إلى الريـف"(٥). وفي روديسيا (زمبابوي)، كان على الأفارقة الانتظار حتى عشية الاستقلال؛ كي ينالوا حقهم القانوني في امتلاك بيوت في الحضر. بينما في لوساكا- التي تم تشييدها كـ"مدينة عالية التنظيم مقسمة حسب العرق، والطبقـة، والنـوع الاجتماعي"- كان السكان الأفارقة فيها "يُعتَبرون- بشكل أو بآخر- حـضرًا مؤقتين، ضالتهم الوحيدة في البلدة، هي خدمة فريق عمل الإدارة"(٦).

وبطبيعة الحال، فقد صعدت سياسة الفصل العنصري/ الأبارتيد، بهـذا النظام، إلى حدوده القصوى في الدستوبيا(*) dystopian، أي: بلاءٌ وتـشاؤم. وفي قيامها على أساس العنصرية الاستعمارية، فإن تشريعات ما بعد الحرب في جنوب أفريقيا، لم تجرّم الهجرة الحضرية فحسب، بـل وفّـرت أيـضًا المجال لانتزاع المجتمعات التاريخية الملونة داخل المدينة، وبوحشية رهيبة. فهناك ما يقرب من مليون نسمة من السود، تـم إخلاؤهـم مـن المنـاطق المفترض أنها "للبيض". ونتيجة لذلك، فإن حركـة الحـضرنة أو العمـران الحضري الصافي، ازدادت بصعوبة وبالكاد، ما بين عامي ١٩٥٠ (٤٣%)

(4) Amis, "Commercialized Rental Housing in Nairobi," p. 238.
(5) Karin Nuru, "Tanzania," in Kosta Mathey, *Housing Policies in the Socialist World*, Munich 1990, p. 183.
(6) Myers, "Colonial and Postcolonial Modernities in Two African Cities," p. 334.
(*) الدستوبيا: مفهوم فلسفي عكس اليوتوبيا، وهو المكان السيئ الكئيب الذي يحتوي على الفقر والظلم والمرض. ويعتبر "جورج أورويل" أشهر من تناول فكرة الدستوبيا في روايته الشهيرة ١٩٨٤، كما أنه كمصطلح يشير إلى مجتمع افتراضي يوجد في بيئة مستقبلية سيئة واتجاهاته وغاياته متشائمة ورهيبة (المترجم).

و١٩٩٠ (٤٨%). والحقيقة أنه في ستينيات القرن الماضي، كان هناك تدفق صاف من الأفارقة قادمين من المناطق الحضرية[٧]. ولكن في نهاية الأمر، فإن هذا المثال النموذجي من "المدن البيضاء والأوطان السوداء"، قد اصطدم بحاجات سوق العمل لرأس المال الضخم، وبالمقاومة البطولية لضحاياه.

وفي شبه القارة الهندية مارس البريطانيون أيضًا التفرقة، والتسييس لمسألة التدفق من الريف إلى الحضر. ففي دراستها اللامعة لمدن ولاية أتر برديش Uttar Pradesh، أثناء سنوات الحرب الداخلية، تسجل نانديني جوبتو Nandini Gooptu، الجهود المتزايدة للمسئولين الاستعماريين والنخب، الممنوحين حديثًا حق التصويت، في دفع الفقراء نحو حدود وأطراف المدن، وما بعدها. ولقد كان لصناديق تحسين البلدات المستحدثة Town Improvement Trust، فاعلية شديدة في إزالة العشوائيات، وما يسمى "نقاط الوباء" من فجوات المناطق السكنية والتجارية الأفضل، والحفاظ على نوع من النطاق المكاني، حول المناطق الاستعمارية، ومناطق سكنى الطبقة المتوسطة. وفي تلك الأثناء، فإن "قوانين الزحف" التي تم إنفاذها قسرًا، جرّمت كلاً من وضع اليد، والتشرد في الشوارع[٨]. وفي الوقت نفسه، فإن النمو الاقتصادي الحضري، في ظل الهند البريطانية Raj، ما قبل الحرب، كان متقطعًا في أفضل أحواله– حتى مومباي المشهورة بنخبها من المقاولين، ومصانع النسيج كان نموها بطيئًا، حتى أن عدد سكانها لم يتضاعف على مدى نصف قرن منذ ١٨٩١ إلى ١٩٤١.

وعلى الرغم من عداوتهم للمستوطنات الحضرية الوطنية الكبيرة، فإن البريطانيين كانوا أكبر بنّائي الأحياء الفقيرة والعشوائيات، طوال الوقت.

---

(7) Michel Garenne, *Urbanization, Poverty and Child Mortality in Sub-Saharan Africa*, Paris 2003, table 1, p. 22.
(8) See chapter 3, Gooptu, *The Politics of the Urban Poor in Early Twentieth-Century India*.

فسياستهم في أفريقيا، أجبرت قوة العمل المحلية على العيش في عشش مفقرة معدمة، على أطراف المدن التي سادها الفصل العنصري، والتي كانت مقصورة عليهم وحدهم. وفي الهند، وبورما، وسريلانكا، كان لرفض البريطانيين تحسين الصرف الصحي، أو حتى مد الحد الأدنى من خدمات البنية التحتية لأحياء الأهالي المواطنين، كان سببًا أكيدًا في ارتفاع حصيلة الموتى من جراء الأوبئة التي انتشرت في أوائل القرن العشرين (الطاعون، والكوليرا، والأنفلونزا)، وهم الذين خلقوا مشكلات هائلة من القذارة الحضرية التي ورثتها عنهم النخب الوطنية بعد الاستقلال.

وفيما يتعلق بالإمبراطوريات الأخرى، فقد سعت جميعها- وبدرجات متفاوتة النجاح- إلى حصر وتقييد الهجرة الريفية، ووضع ضوابط صارمة لها. وباستثناء حالات قليلة، فإنه لم يكن ثمة قيمة مضافة من التصنيع أو المعالجة سوى النذر اليسير، قد تُركت في الموانى الاستعمارية أو مرافئ النقل؛ لتوليد العمالة الرسمية والنمو الحضري. وفي كل مكان، كانت القوة العاملة الأصلية أو الأهلية، محصورة في العشوائيات والعشش. ففي المدن الكونغولية، ووفقًا للتاريخ الحديث، فإن الدولة الاستعمارية "حافظت على الضوابط الفعالة نسبيًا المفروضة على التدفق الحضري، وكذلك على شبكة عضوية نظامية حول البلدات، ومنعت كلاً من التجارة الصغيرة والقنوات الخارجية المقررة، وبناء المساكن 'الفوضوية'"[(٩)].

تُذكِّرنا المؤرخة "جين سوريت كانال" Jean Suret-Canale، بأنه في أفريقيا الاستوائية، في ذلك الوقت، قام الفرنسيون بإحكام السيطرة على حركات العمالة الريفية، بينما ألزمت سكان البلدات الصغيرة من الأفارقة

(9) Crawford Young and Thomas Turner, *The Rise and Decline of the Zairian State*, Madison (WI) 1985, p. 87.

مكانهم على الأطراف البالية. ففي عشوائيات استعمارية مثل المدينة Medina (في دكار)، وتريشفل Treichville (أبيدجان) وبوتو- بوتو Poto-Poto (برازافيل)، حيث الشوارع "كانت مجرد رمال أو دروبًا من الوحل... وبدلاً من مد الصرف الصحي، لم يكن هناك سوى مجارٍ قليلة، مفتوحة عادةً أو مغطاة على نحو بائس بالبلاط. أما عن المياه فشحيحة، أو غير موجودة بالمرة، حيث عدد قليل من الطلمبات تصطف أمامها طوابير طويلة من البشر، تنتظر من الصباح الباكر. والكهرباء العمومية لم تكن متوفرة سوى للأحياء الأوروبية. ولقد خلق الازدحام ضررًا كبيرًا للصحة"[10]. والحقيقة أن هذا الرفض الشامل لتوفير حتى ولو الحد الأدنى من البنية التحتية للصرف الصحي لـ"الأحياء الأهلية" حتى خمسينيات القرن الماضي؛ كان أكثر من مجرد شح: فقد كان ذلك رمزًا دالاً على الافتقاد لأي نوع أو درجة من درجات "حق" الأهالي "في المدينة".

غير أن الاستعمار الأوروبي لم يكن هو النظام الدولي الوحيد الضابط للنمو الحضري، فعلى الرغم من صعود الستالينية الآسيوية إلى السلطة عبر ثورة فلاحين، فإنها أيضًا حاولت كبح التدفق من الريف.

أولاً في عام ١٩٤٩ فتحت الثورة الصينية أبواب المدينة لعودة اللاجئين والمتعطشين للعمل من الفلاحين الجنود سابقًا. وكانت النتيجة فيضانًا غير محكوم انهال على المدن: فقد وصل ما يقرب من ١٤ مليون نسمة في أربع سنوات فقط[11]. وأخيرًا، وفي عام ١٩٥٣ صب النظام الجديد لعنته على التدفق الريفي، وأحكم قبضته عليه، عبر اتخاذ عدة ضوابط صارمة انسحبت على الهجرة الوطنية عمومًا. وبالتزامن مع ذلك، كانت الماوية

(10) Jean Suret-Canale, *French Colonialism in Tropical Africa, 1900-1945*, New York 1971, p. 417

(11) On-Kwok Lai, "The Logic of Urban Development and Slum Settlements," in Aldrich and Sandhu, *Housing the Urban Poor*, p. 284

Maoism قد أغدقت المزايا على البروليتاريا الحضرية- المنتفعة من "قانون العمل المؤمَّن iron rice bowl"، والرفاهية من المهد- إلى اللحد، وقيدت بصرامة نمو السكان الحضر، من خلال تبنيها نظام تسجيل أسري (*hukou*) أوثق ربط المواطنة الاجتماعية بعضوية كاملة بوحدة العمل.

أما بكين التي أعادت تسكين المشردين، وأزالت معظم العشوائيات الحضرية بحلول عام ١٩٦٠، فقد واصلت ممارسة التيقظ والرقابة الفائقة على الهجرة الريفية غير الرسمية. فالمدينة والريف كان يُنظر إليهما بوصفهما عالمين منفصلين، لا يتقاطعان سوى في ظل توافر ظروف محددة بعناية من قبل الحزب الحاكم. فلو أن السكان الحضر كانوا قد حصلوا ذات مرة على تصريحٍ رسمي بالانتقال إلى مدنيةٍ أخرى، فلم يُسمع يومًا أن فلاحين نالوا تصديقًا على ترك مجتمعهم. فضلاً عن ذلك، فإنه في بداية ستينيات القرن الماضي، تم إجلاء أعدادٍ ضخمة من المهاجرين الحضر غير المسجلين- بعض التقديرات تقول إنهم وصلوا إلى ٥٠ مليون نسمة- وإعادتهم إلى قراهم الأصلية(١٢). ونتيجة لذلك، ووفقًا لـ"جيلهم فبير" Guilhem Fabre، متخصص علم الصينيات بجامعة لي هافر Le Havre، فإن نسبة الحضر من السكان، هبطت من ارتفاع قوامه ما يقرب من ٢٠% في عام ١٩٦٠ إلى ١٢,٥% عام ١٩٧١(١٣). وكانت ضوابط شبيهة على الهجرة من الريف إلى الحضر، قد تم إدخالها خلال عقد الخمسينيات من القرن الماضي، في كوريا الشمالية، وألبانيا، وبصورة أكثر اعتدالاً، في فيتنام الشمالية (نظام *البو كبو bo kbou*)، ذلك على الرغم من ذروة المعاداة الحضرية على أساس أيديولوجي، التي تمثلت بالتأكيد في الإجلاء الوحشي عام ١٩٧٥ الذي قام به "بول بوت" Pol Pot لمواطني "بنوم بنه" Phnom Penh.

(12) Dorothy Solinger. *Contesting Citizenship in Urban China: Peasants, the State and the Logic of the Market*, Berkeley 1999. pp. 2, 41.

(13) Table 1. Fabre. "Le Chine." p. 196.

وفي أمريكا اللاتينية، تم وضع عوائق رهيبة أمام الهجرة الحضرية، وإن كانت أقل تنظيمًا. فقبل الحرب العالمية الثانية، عاش معظم الفقراء الحضر في أمريكا اللاتينية في السكن بالإيجار داخل المدينة، ولكن في أواخر أربعينيات القرن الماضي أثارت موجة التصنيع، وإحلال الواردات، موجة حادة من غزو واضعي اليد على ضواحي مكسيكو سيتي، ومدن أخرى في أمريكا اللاتينية. واستجابة للطفرة الجديدة من العشوائيات، قامت السلطات في عدة بلدان- مدعومة بحماس الطبقات المتوسطة الحضرية- بشن هجمات شديدة على العشوائيات، أو المستوطنات غير الرسمية. ونظرًا لأن كثيرًا من المهاجرين الحضر الجدد، كانوا من *الشعوب الأصلية* *indigenists* أو من سلالة العبيد، فقد كان هناك في الغالب بعدٌ عنصري في شن هذه "الحرب على واضعي اليد".

وقد كان ديكتاتور فنزويلا ما بعد الحرب، ماركوس بيرز جيمينيز Marcos Perez Jimenez، عدوًا سيئ السمعة للسكن العشوائي. فوفقًا لثلاثة من فريق بحثي بجامعة كاليفورنيا، لوس أنجلس UCLA، فإن "الحلول التي طرحتها حكومة [هذا الديكتاتور] لمشكلة العشوائيات كانت البلدوزر. ففي صباح ما يصل رجال البوليس برفقة الشاحنات الضخمة إلى إحدى العشوائيات، ويقوم المسئول بإعطاء التوجيهات لتحميل المتعلقات الخاصة بالسكان في الشاحنات: وسوف يتعامل رجال البوليس مع أية اعتراضات. وفور إزالة السكان ومتعلقاتهم إلى الوحدات السكنية الجديدة، كان يتم هدم بيوتهم". وقد تم إجلاء واضعي اليد إلى ضواحي كاركاس، حيث أعيد تسكينهم في بنايات بشعة من ١٥ طابقًا، احتقرها وكرهها جميع ساكنيها(١٤).

(14) Karst, Schwartz, and Shwartz, *The Evolution of Law in the Barrios of Caracas*, p.7.

وفي مكسيكو سيتي، استأسدت الطبقات الوسطى التقليدية؛ فإرنستو أورشورتو Ernesto Uruchurtu الذي عبر توليه لفترة طويلة منصب العمدة (١٩٥٢-١٩٥٨، و١٩٦٤-٦٦)، وحسب نموذج الحزب الثوري المؤسسي PRI، للنمو الاقتصادي الوطني المرتكز على المقاطعات الفيدرالية DF-centric؛ حارب أورشورتو مد تيار الفقراء الريفيين الذين اجتاحوا المدينة، فعندما تولى المنصب، عام ١٩٥٢، كان آلاف من الريفيين من وسط المكسيك "يهبطون بالباراشوت فجأة" إلى أطراف المدينة كل شهر. فكانت مستوطنات واضعي اليد، والتي تسمى *المستعمرات الشعبية* *colonias populares*، والتي آوت نسبة ضئيلة، تكاد لا تذكر، قوامها ٢,٣% من السكان في عام ١٩٧٤، أصبحت في ظرف خمس سنوات موئلاً لما يقارب ربع سكان مكسيكو سيتي(١٥). وقد قرر العمدة "أوروشورتو" وقف تدفق الفلاحين؛ بإخلاء *الباراشوتيين* *paracaidistas*، مُزيحًا البائعين الجائلين غير الرسميين من الشوارع، ومعارضًا حقوق الحيازة، ومد الخدمات إلى العشوائيات الموجودة. وكما تشير عالمة الاجتماع ديانا ديفيز Diane Davis، فإن إستراتيجية "أوروشورتو" للنمو المحكوم قد عكس الأساس العنصري وراء قاعدته السياسية: "مثل كثير من ساكني المدن، فقد أنحى أوروشورتو باللائمة على الجماهير المتدفقة من المهاجرين منخفضي التعليم- كثير منهم من التركة الهندية- على التدمير المكاني والاجتماعي للمدينة"(١٦).

الطوفان:

لقد تمت إزالة عوائق الطريق المؤسسية أمام النمو الحضري بفعل التناقض الذي تنطوي عليه التركيبات الخاصة بالثورة المضادة الاستعمارية،

---

(15) Pezzoli, in Aldrich and Sandhu, *Housing the Urban Poor*, 147.

(16) Diane Davis, *Urban Leviathan: Mexico City in the Twentieth Century*, Philadelphia 1994, pp. 132-35, 155.

وحركة الاستقلال الوطني في أفريقيا وآسيا، وبفعل الإطاحة بالديكتاتوريات، ونظم الحكم التي كرست للنمو البطيء في أمريكا اللاتينية. وباندفاعهم نحو المدن بقوى وحشية لا يمكن مقاومتها. أكد الفقراء بقضهم وقضيضهم "حقهم في المدينة"، حتى ولو كان هذا الحق يعني مجرد كوخ على أطرافها. وقد كانت الحرب الأهلية والثورة المضادة هي العامل الأكثر فعالية، حتى أكثر من المجاعة والديون، في حركة الحضرنة العشوائية في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

ففي حالة شبه القارة الهندية، قادت عملية التقسيم Partition وتوابعها العرقية الدينية، الملايين نحو العشوائيات. فإن مومباي، ودلهي، وكلكتا، وكراتشي، ولاهور، ودكا، كانت جميعها قد أجبرت على استيعاب فيضانات من اللاجئين في أعقاب الأحداث العنيفة عام ١٩٤٨ (التقسيم)، وعام ١٩٦٤ (الحرب الهندية الباكستانية)، و ١٩٧١ (انفصال بنجلاديش)(١٧). فعدد سكان مومباي- النامي بمعدل يقل عن ٢% سنويًا أثناء العقود الأخيرة من عهد الانتداب البريطاني- تضاعف في الغالب في أواخر أربعينيات القرن العشرين وبداية الخمسينيات منه، وذلك مع تدفق اللاجئين المفقرين القادمين من باكستان، وأيضًا بفضل التوسع المصاحب (على الرغم من كونه بطيئًا) لصناعة النسيج(١٨). وفي الوقت نفسه، فإن نصف سكان كاراتشي وحيدر أباد في عقد الخمسينيات، كانوا من "المهاجرين" اللاجئين المسلمين من البنجاب الشرقي. وقد انضم إليهم لاحقًا في السبعينيات مئات الآلاف من البهاريين Biharis: فلاحون مسلمون و"مهاجرون مزدوجون"؛ فروا للمرة الأولى إلى باكستان الشرقية، ثم وبعد انفصال بنجلاديش فروا إلى باكستان(١٩). ومنذ

(17) Frederic Thomas, *Calcutta Poor: Elegies on a City Above Pretense*. Armonk (NY) 1997, p. 41.

(18) Sujata Patel, "Bombay's Urban Predicament," in Patel and Alice Thorner (eds), *Bombay: Metaphor for Modern India*. Delhi 1996, p. xvi.

(19) Oskar Verkaaik, *Migrants and Militants: Fun and Urban Violence in Pakistan*, Princeton 2004, p 64.

البداية، كان هؤلاء اللاجئون المقيمون في العشوائيات، معتمدين اعتمادًا كبيرًا على المنتفعين السياسيين، وآليات الحزب الفاسد. ونتيجة لذلك؛ فإن نمو العشوائيات في كل من الهند وباكستان، أصبح مشهورًا بتزامنه مع الدوائر الانتخابية: ففي كاراتشي ازدادت عمليات غزو الأراضي، وتقسيمها بالقرصنة بطبيعة الحال، في سنوات الانتخابات. أما في الهند، فإن الانتخابات أمدت واضعي اليد بدفعة للسعي إلى إضفاء الشرعية على عشوائياتهم *bustees* أو تحسينها(٢٠).

وفي فيتنام الجنوبية، كانت عملية الحضرنة الجبرية (وفق الوصف الساخر لجورج أورويل بوصفها "تحديث") جزءًا لا يتجزأ من الإستراتيجية العسكرية الأمريكية. فنظرًا لأن "فيتكونج Vietcong" الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام، وفقًا لإستراتيجي الحرب صمويل هنتنجتون Samuel Huntington، شكلت "قوة ضاربة لا يمكن فصلها عن قاعدتها الشعبية، ما دامت هذه القاعدة الشعبية ظلت موجودة"، فقد تباحث هنتنجتون مع غيره من الصقور في محو هذه "القاعدة الشعبية". وقد أمد القصف الأمريكي الإرهابي ما يلزم من قوة "بمثل هذا الحجم الكبير لإنتاج هجرة جماعية ضخمة من الريف إلى المدينة، [بحيث] لم يعد للافتراضات الأساسية الداعمة لعقيدة الحرب الماوية الثورية أية فاعلية. فالثورة الريفية الملهمة بالماوية، قطعتها الثورة الحضرية برعاية أمريكية"(٢١). وعلى مدار الحرب، وكما تشير المؤرخة مارلين يونج Marline Young، كان القسم الحضري من فيتنام الجنوبية، يزداد محلقًا من ١٥ إلى ٦٥% مع وجود ٥ ملايين مهجّرًا من الفلاحين، تحولوا إلى ساكني عشوائيات أو قاطني معسكرات لاجئين(٢٢).

(20) Robei-Jan Baken and Jan van der Linden, *Land Delivery for Low Income Groups in Third World Cities*, Aldershot 1992, p. 31.
(21) Samuel Huntington, The Bases of Accommodation," *Foreign Affairs* 46:4 (July 1968), pp. 650-53.
(22) Marilyn Young, *The Vietnam Wars: 1945-1990*, New York, p. 177.

وبالمثل، فقد كان للسنوات السبع من الحرب الاستعمارية التي لا ترحم في الجزائر (١٩٥٤-١٩٦١) أن تهجّر نصف سكان الريف. وبعد الاستقلال عام ١٩٦٢، انصبت هذه الجماهير المنتزعة من جذورها في المــدن. وقــد تضاعف عدد سكان مدينة الجزائر في أقــل مــن عــامين، حيــث تكــدس المهاجرون الفقراء في *مدن الصفيح bidonvilles* المجعّدة، أو احتلــوا علــى الأطراف الشقق المتروكة خالية بعد رحيل ٩٠٠,٠٠٠ مــن *المــستعمرين*. وكان التأكيد الأولي لنظام الحكم الجديد على حركة التصنيع، وفق نمط الكتلة السوفيتية وإهمالها النسبي للزراعة المعيشية تدعيمًا للخروج مــن الريــف. وسرعان ما أصبحت مدينة الجزائر مكدسة فعليًا بالسكان، حيث انحشر كثير منهم في مساكن قديمة متهالكة وخطرة. وبالفعل انهار عــدد قياســي مــن المساكن القديمة في *القصبة*، وفي الغالب راح سكانها ضحايا. وفي الوقــت نفسه، استمرت *مدن الصفيح* "الشيوعية" في التوسع، والزحف على الضواحي الحضرية، وعبر الطرق السريعة الرئيسية(٢٣).

وفي تركيا ما بعد الحرب، كانت الهجرة إلى المدن في تلك الأثناء، قد أثارتها معونة خطة المارشال، وتحديث الزراعة، وكذلك نمو التصنيع بــدلاً من التصدير. غير أن الدولة الكمالية، مثلما يشير عالم الاجتماع الماركــسي كاجلار قيدر Caglar Keyder، لم تكن مستعدة لا لبناء مــساكن عامــة، ولا لنقل أراضي الدولة لتطوير القطاع الخاص. وبدلاً من ذلــك "فــإن العمالــة الشعبية الخاملة والواسعة هي التي سادت". وكان مهاجرو الأناضــول، قــد أجبروا على بناء مدنهم الفقيرة والعشوائية، على ضواحي أنقرا وإســطنبول، في مفاوضة تمت مع المسئولين المحليين. ومن ثم أصبح العقد الممتد من عام ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥ يمثل العصر البطولي لوضع اليد، حيث ازداد عدد سكان

(23) Djatfar Lesbet, "Algeria," in Mathey, *Housing Policies in the Socialist Third World*, pp 252-63

عشوائيات *وضع اليد* **gecekondu** من ٥% (٢٥٠,٠٠٠ نسمة) إلـــى ٢٣% (مليونان و٢٠٠ ألف نسمة) من إجمالي سكان الحضر (وهي نسبة لم تتغيــر تغيرًا دالاً منذ ذلك الحين)[٢٤]. وفي تلك الفترة المبكرة على الأقل، ســاعدت *عشوائيات وضع اليد*، على نحو تآزري، النظام السياسي الذي جعلها الـــنمط الأساسي للسكن الشعبي. ويواصل "قيدر" وصفه قائلاً: "إن الـــساسة فـــضلوا عمومًا الحصول على مزايا التخصيص التعـــسفي لخلـــق الـــدعم الـــشعبي، والمحافظة عليه. ومن ثم تعضيد مواقفهم ومناصبهم. ووجـــود مثـــل هـــذه العلاقات القائمة على العمولة والانتفاع، كانت قائمة على الاســـتيلاء علـــى الأراضي بطرق غير رسمية"[٢٥].

وفي باقي بلدان الشرق الأوسط، حدث التوسع والنمـــو الأكبـــر فـــي الحضرنة غير الرسمية، بعد عقد أو عقدين، أثناء الطفرة التي شهدتها الدول المصدِّرة للنفط OPEC بداية السبعينيات. ويعتقد أحمد ســـليمان أن "الطفـــرة الرئيسية لحالة اللارسمية السكنية" في القاهرة، كانت من ١٩٧٤ إلى ١٩٩٠، حيث تدفقت عائدات العمال المهاجرين من المملكة السعودية؛ لـــتملأ بعـــض الفجوات التي تركها أفول نظام الرفاه الاجتماعي في العهـــد الناصـــري[٢٦]. وبالمثل في إيران، فإن مئات الآلاف من العمـــال بـــلا أرض، والحـــرفيين، انتقلوا إلى طهران في أوائل السبعينيات باحثين عن العمل في حقول صناعة الطوب ومواقع البناء، ليواجهوا البطالة بعد عام ١٩٧٦. وسرعان ما أصبح تبدد الأوهام، وأيضًا غضبهم المادة الخام للثورة الإسلامية[٢٧]. وقـــد خلقـــت الثورة بدورها مجالاً فريدًا لنمو العشوائيات. وهنا يوضح آصف بايات أنـــه

(24) Keyder, *Istanbul*, p. 147: H. Tank Segul, "On the Trajectory of Urbanization in Turkey," *International Development Planning Review* 25·2 (2003), p. 160.
(25) Keyder, "The Housing Market from Informal to Global," p. 147.
(26) Soliman, *A Possible Way Out*, p. 51.
(27) Farhad Kazemi, *Poverty and Revolution in Iran: The Migrant Poor, Urban Marginality, and Politics*, New York 1980, p. 114.

"عندما كان الثوار يتحركون في مسيرات تجوب شوارع المدن الكبرى، كان الفقراء شديدو الفقر مشغولين في بسط حيازتهم على مجتمعاتهم، وفي جلب مزيد من الأراضي الحضرية إلى حزام (سوء) التنمية". فضلاً عن أنه بعد رحيل الشاه "استفادت الأسر الفقيرة من انهيار قبضة البوليس، لتستولي على مئات من البيوت الخاوية، والبنايات السكنية نصف المشطبة، وقاموا بتجديدها كما لو كانت ملكيتهم الخاصة". وكيدًا في التجار التقليديين، قام الفقراء الجدد أيضًا بتأسيس محطات، وأكشاك، وعربات الدفع باليد؛ لبيع الفاكهة والخضروات، محولين "أرصفة الشوارع إلى أماكن تسوق من مختلف الألوان والحيوية"(٢٨).

وفي أفريقيا جنوب الصحراء، بدأ الريف في صب سكانه في المدن بعد الاستقلال. ففي معظم البلدان، ولو نحيّنا جنوب أفريقيا جانبًا، لوجدنا أن معدلات النمو الحضري منذ الستينيات، كانت ضعف معدلات النمو الطبيعي للسكان. وحتى ثمانينيات القرن نفسه، كان نمو المدينة في معظم البلدان مدعومًا بسياسات قسرية، أجبرت الفلاحين على تسليم منتجات مزارعهم بأسعار القيمة السوقية المنخفضة، فيما فرضت ضرائب على الريفيين بمعدلات متفاوتة الارتفاع. ففي زائير، على سبيل المثال، اعتاد الرئيس موبوتو على شجب "مخاطر التنمية الحضرية المتضخمة، وشرور البطالة والجريمة: بينما واصل التضييق على الريف بلا شفقة، إلى درجة أن الفلاحين لم يكن لديهم سوى خيارات قليلة للهرب إلى المناطق الحضرية(٢٩). ولكن ما يسمى بـ"الانحياز للحضر" في التنمية الأفريقية، صب بالكاد في صالح الجماهير الحضرية الجديدة. والحقيقة أنه مع التصاق النخب ما بعد

(28) Asef Bayat. "Un-Civil Society." p 53.

(29) Young and Turner. *The Rise and Decline of the Zairian State*. p. 98. Deborah Posel. "Curbing African Urbanization in the 1950s and 1960s." in Mark Swilling. Richard Humphries. and Khehla Shubane (eds). *Apartheid City in Transition*. Cape Town 1991. pp. 29-30.

الاستعمارية، والقوات المسلحة بالريف، فإن توفير البنية التحتية والخدمات العامة في المدن، سرعان ما تدهور(٣٠).

وفي تلك الأثناء، خلقت عمليات الإطاحة بالديكتاتوريات، في أمريكا اللاتينية، فرصًا مؤقتة لغزو الأراضي ووضع اليد، حتى مع ما وفرته تنافسات الأحزاب القوية، والتهديد غير المباشر للثورة من فرص تاريخية للمهاجرين الحضر؛ للاتجار بأصواتهم لصالح البنية التحتية للأرض. وفي فنزويلا، ووفقًا لدراسة حديثة، "تعتبر التواريخ المهمة جدًا في تشكيل الأحياء الشعبية أو العامة في كاركاس، هي في الفترة من ١٩٥٨-١٩٦٠". وبعد خروج بيريز جيمينيز Perez Jimenez، وقبل انتخاب "رومولو بتانكورت" Romulo Betancourt، فإن المجلس الحاكم المشترك علق الإخلاءات في الأحياء، وقدم إعانة عامة للمتعطلين عن العمل. ونتيجة لذلك، انتقل إلى كاركاس ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، معظمهم من الفقراء، في أقل من عام واحد. وبعد ذلك، كان للتنافس الشديد في الانتخابات بين الحزبين السياسيين الرئيسيين، حزب أكسيون ديمقراطيكا Accion Democratica اليساري الوسط، وحزب COPEI اليميني الوسط، أن يفتح أبواب الفيضان (التي حاول بيريز جيمينيز غلقها) لتوسع الأحياء الفقيرة المتفجرة على التلال المحيطة بالمدينة. وبالتالي، فإن كاركاس وغيرها من مدن فنزويلا، نمت نفس السرعة الأفريقية: خلال الستينيات، انتقلت البلد من ٣٠% حضرًا إلى ٣٠% ريفًا(٣١).

وفي مكسيكو سيتي، ثبت أن إستراتيجية "أوروشورتو" Uruchurtu المناهضة للعشوائيات، الساعية إلى إحداث النمو المحكوم، لم تعد في نهاية

(30) Arole Rakodi, "Global Forces, Urban Change, and Urban Management in Africa," in Rakodi, *The Urban Challenge in Africa*, pp. 32-39.

(31) Urban Planning Studio, Columbia University, *Disaster Caracas*, New York 2001, p. 25.

الأمر متوافقة مع احتياجات الصناعيين، والمستثمرين الأجانب الساعين إلى الحصول على عمالة رخيصة، ولا حتى مع مطالـب العمـال فـي سـكن رخيص. وبالمثل، شعر أصحاب التطوير العقاري الأقوياء، أنهـم معوّقـون بسياسة لجنة التخطيط المحافظة. وكانت القشة التي قسمت ظهر البعير هـي معارضة أوروشورتو لبناء مترو أنفاق المدينة. وبعد عصيان الأخير- هـدم مستوطنة سانتا أورسولا Santa Ursula في أجيسكو Ajusco فـي سـبتمبر/ أيلول ١٩٦٦- تم تنحيته من قبل الرئيس "جوستافو دياز أورداز" Gustavo Diaz Ordaz، وهو السياسي سيئ السمعة؛ نظرًا لارتباطاته المتشعبة بـرأس المال الأجنبي، والمضاربات في الأراضي. وأصبحت أجندة النمو الـسريع التي تضمنت التسامح مع الحضرنة بالقرصنة على أطراف المدينة، عوضًـا عن التجديد الحضري في المركز، بل أصبحت هي السياسة الخاصة بالحزب الثوري المؤسسي PRI في العاصمة(٣٢).

وبعد جيل كامل من إزالة العوائق أمام تدفق الحضرنة غير الرسمية، في أماكن أخرى، بدأت الصين في إرخاء قيودها المفروضـة علـى النمـو الحضري، في أوائل ثمانينيات القرن الماضي. ومع وجود ذخيرة هائلة مـن العمالة الريفية الفائضة (متضمنًا ذلك أكثر من نصف القوة العاملة سيـشوان Sichuan، وفقًا لجريدة الشعب اليومية *s Daily 'People*)؛ أسفر تفكك الـسد البيروقراطي العظيم عن "فيضان الفلاحين"(٣٣)، بالمعنى الحرفـي للكلمـة. وكانت الهجرة المحظورة رسميًا، قد طمسها تيار عارم من المهاجرين غيـر المصرح لهم، أو "الطوّافين floaters". وبدون منحهم المواطَنة الرسمية فـي المدينة، بواسطة بطاقة سجل أسري ساري المفعول، لـم يعـد لـدى هـذه الجماهير الحاشدة من فقراء الفلاحين (يقدر عددهم حاليًا بنحو ١٠٠ مليـون

(32) Davis, *Urban Leviathan*, pp. 135, 177-80.
(33) Solinger, *Contesting Citizenship in Urban China*, p. 155.

نسمة) أي حق قانوني في الخدمات الاجتماعية، أو السكن. وبدلاً من ذلك، فقد أصبحوا وقودًا بشريًا رخيصًا جدًا لمحلات وورش ملابس التصدير لشركة "بيرل ريفر دلتا" Pearl River Delta، ومواقع البناء في شنغهاي وبكين، ويسكِنون أنفسهم في أكواخ رثة، وفي غرف متكدسة على أطراف المدن. فإن عودة الرأسمالية إلى الصين، قد جلبت معها انتشار العشوائيات الحضرية القذرة.

وأخيرًا، ففي أواخر ثمانينيات القرن المنصرم، ومع اندلاع أهم انتفاضة عشوائيات في تاريخ العالم (حركة "المدنيين" في البلدات السوداء)، وجد حكام جنوب أفريقيا أنفسهم مجبرين على تفكيك النظام الشمولي، الكامن في ضوابط التحكم والسيطرة– أولاً، قانون المرور Pass Law عام ١٩٨٦، ثم قانون المناطق الجماعية Group Areas Act عام ١٩٩١– ذلك النظام الذي كان يضع القيود على الهجرة والإقامة الحضرية. وقد وصف الكاتب "ريان مالان" Rian Malan، الأثر الناتج عن ذلك في مدينة "كيب تاون"، حيث السكان الأفارقة السود أكثر عددًا، ثم تضاعفوا ثلاث مرات بين أعوام ١٩٨٢ و١٩٩٢:

> فيما بعد... تم إلغاء قوانين المرور المقيتة، وبدا الأمر كما لو كان سدًا منيعًا وقد انهار، سامحًا لكتلة من البشر اليائسين والآملين بالقدوم في فيضان على الجبال، لينتشروا عبر مسطحات كيب Cape Flats. وقد جاءوا بمعدل ثمانين وتسعين أسرة يوميًا، وبنوا بيوتًا بأياديهم، مستخدمين قضبانًا خشبية، ورقائق من الصفيح، وقطعًا وأجزاء من مخلفات باقية من ركام النفايات، وأكياس القمامة للحماية من الأمطار. وفي خلال سنتين، اختفت تلال الرمال، تحت بحر هائل من العشش والأكواخ، متكدسة على

طريقة مدن العصور الوسطى، وتسكنها شخصيات رائعة: معاقرو خمور، وعصابات، وأنبياء، و"الراستافاريان"(*) Rastafarian، وتجار السلاح، وقياصرة الماريوانا/ البانجو. وعلاوة على هذا وذاك، مليون نسمة من عامة الطبقة العاملة(٣٤).

وعود مكسورة وأحلام مسروقة:

لم تكن العشوائيات هي المستقبل الحتمي للنمو العمراني الحضري. ففي بداية عام ١٩٦٠، على سبيل المثال، بدأ المعهد الوطني للمدخرات والسكن National Institute of Savings and Housing في كوبا، وبقيادة الأسطورة باستوريتا نونيز Pastorita Núñez إحلال المناطق العشوائية سيئة السمعة في هافانا (لاس ياجواس Las Yaguas، ولليجا بون Llega Pon، ولاكيفا دل هومو La Cueva del Humo، وغيرها) ببيوت مصنعة مسبقًا، قام بنصبها السكان أنفسهم. وقبل ذلك بسبع سنوات، أثناء محاكمته على مهاجمة

(*) الرستفارية، راستا، أو الحركة الرستفارية: هي الديانة التي تقبل الإمبراطور هيلا سيلاسي الأول، الإمبراطور السابق لأثيوبيا، كتجسيد للرب والذي يطلقون عليه اسم جاه Jah. كما يراه أتباع تلك الديانة كجزء من الثالوث المقدس بوصفه المسيح المذكور في الإنجيل. الاسم "رستفاري" يأتي من راس، وتعني الرأس (وهو اللقب الأثيوبي المعادل لمرتبة دوق) والجزء الثاني هو تافاري ماكونين، اسم قبل التتويج للإمبراطور هيلاسيلاسي الأول. نشأت هذه الحركة في جامايكا بين الطبقات العاملة والمزارعين السود في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي ١٩٣٠، من تأويل لنبوءة إنجيلية تقوم في جزء منها على حالة هيلا سيلاسي بوصفه الحاكم الأفريقي الوحيد في ذلك الوقت على دولة مستقلة تمامًا، وألقابه كانت ملك الملوك وسيد السادة. بحلول عام ٢٠٠٠ أصبح هناك مليون رستفاري من أتباع الديانة الرستفارية حول العالم، بالإضافة إلى أن تعداد ما نسبته ٥- ١٠% من الشعب الجامايكي يعرفون أنفسهم بوصفهم رستفاريين. ولعل من أهم انتشار ثقافة الراستا في العالم هو المغني بوب مارلي وموسيقى الريجي حول العالم، والتي خلقت نوعًا من الاهتمام بهذه الحركة الدينية. ذلك اللون الغنائي الذي ينتمي إلى الرستفاريين، ويتميز بلون خاص في الغناء والشكل الذي جذب إليه ملايين الناس حول العالم. (المترجم).

(34) Rian Malan quoted in Western, p. xxii.

ثكنات مونكادا Moncada، كان فيدل كاسترو قد وعد الكوبيين بثورة سيكون من شأنها إنفاذ ضمان السكن اللائق وفق دستور ١٩٤٠ التقدمي. وفي عام ١٩٥٨ كان ما يقرب من ثلث الكوبيين يعيشون في عشوائيات أو مستوطنات بشرية وضع يد. وبالتالي، ففي السنوات الأولى الذهبية من الثورة، كان ثمة مجهود وطني ضخم لإعادة تسكين الفقراء، حتى ولو كان كثير من المشاريع- إذا ما أعدنا النظر- مجرد تعديلات لا نصيب لها من الحداثة[٣٥].

وعلى الرغم من أن التزام كوبا الثورية بـ"العمران الحضري الجديد"، كان التزامًا طليعيًا، فإن فكرة الأحقية الشعبية في السكن، لم تكن فريدة في العالم الثالث المعاصر، أواخر خمسينيات وبداية ستينيات القرن العشرين: فعبد الناصر، ونهرو، وسوكارنو، قد وعدوا هم أيضًا بإعادة بناء العشوائيات، وإنشاء كميات هائلة من وحدات السكن الجديدة. وفضلاً عن السكن المدعم وضبط الإيجار، فإن "العقد الجديد لناصر مع مصر"، قد ضمن وظائف القطاع العام لكل خريج من مرحلة التعليم الثانوي. كذلك شرّعت الجزائر الثورية للرعاية الصحية الشاملة المجانية، وأيضًا التعليم المجاني، وذلك إلى جانب دعم الإيجار لسكان المدن من الفقراء. كما أن جميع الدول الأفريقية "الاشتراكية"، بداية من تنزانيا في أوائل ستينيات القرن الماضي، بدأت ببرامج طموحة لإعادة تسكين سكان عشوائيات المناطق الحضرية في مساكن جديدة منخفضة التكلفة. وفي مكسيكو سيتي أثناء سنوات أوروشورتو، وظفت المدينة خدمات المعماريين المهاجرين العالميين، من أمثال هانز ماير Hannes Meyer التابع لمدرسة "باوهاوس"(*) Bauhaus، لتصميم المساكن

(35) Joseph Scarpaci, Roberto Segre, and Mario Coyula, *Havana: Two Faces of the Antillean Metropolis*, Chapel Hill 2002, pp. 199-203.

(*) باوهاوس Bauhaus الألمانية: مصطلح يعبر على مدرسة فنية نشأت في ألمانيا، كانت مهمتها الدمج بين الحرفة والفنون الجميلة، أو ما يسمى بالفنون التشكيلية كالرسم، والتلوين، والنحت والعمارة من بين =

المرتفعة للعمال المتحدين و العاملين بالدولة، والتي كانت تـضاهي نمـاذج أوروبا الشمالية المحبذة. وفي البرازيل، في تلك الفترة نفسها، كان كل مـن الرئيس "جاو جولار" Jao Goulart، وحاكم ولاية "ريو جراند دو سول" Rio Grande do Sul الراديكالي "ليونيل بريزولا" Leonel Brizola يكتسبان تأييدًا واسعًا لرؤيتهما الخاصة باتفاق جديد New Deal عمراني حضري. ولاحقًا في عقد الستينيات نفسه، يقوم ديكتاتور بيرو العسكري المنحاز لليسار "خوان فيلاسكو" Juan Velasco بكسب خطوة على الفيدلية (مبـادئ ثـورة فيـدل كاسترو) *Fidelismo*، برعايته عمليات غزو الأراضي الحضري، وتأسـيس برنامج طموح للدولة لترقية وتطوير العشوائيات (التي أعاد تسميتها في نهاية الأمر لـ *البلدات الشابة* *pueblos jouvenes*).

وبعد ما يقرب من نصف قرن، أصبح برنامج المأوى التقـدمي فـي كوبا، يوحي ببطء خطوات السلحفاة، ووفق سياسية التقشف: للفترة الخاصـة (Special Period). التي أعقبت انهيار الكتلة السوفييتية، كما تباطـأ تـوفير السكن مقارنة بالإنجازات الأكثر تقدمية التي حققتها الـبلاد، والتـي كانـت

= الفنون السبعة. كان للباوهاوس تأثير كبير على الفن والهندسة المعمارية والديكور والتصميم الخارجي والطباعة وتصميم الجرافيك. يعتبر أسلوب الباوهاوس في التصميم من أكثر تيارات الفن الحديث تأثيرًا في الهندسة والتصميم في الفن المعاصر. قام بإنشاء المدرسة المهندس المعماري الألماني والتر غروبيوس عام 1919 م في فايمار في ألمانيا إلى حين أن انتقلت إلى ديساو عام1925 ، ثم إلى برلين عام 1932م، حيث أغلقها النظام النازي الحاكم آنذاك بدعوى أنها عالمية الطراز وغير ألمانية. بعد أن تم إغلاق الأكاديمية في ألمانيا أجبر فنانو الباوهاوس على الهجرة بحثًا عن وسيلة للعيش. هاجر معظم الفنانين إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ مما ساهم في نشر طراز هذه المدرسة بشكل أكبر. جاءت تسمية باوهاوس من الاسم الألماني Bau *باو* والذي يعني *بناء* و *haus* هاوس، والتي تعني "بيت". يعتبر مبنى مدرسة الباوهاوس الأول في ألمانيا أحد المواقع الموجودة على لائحة اليونسكو لمواقع التراث العالمي. (المترجم).

مذهلة في مجال الصحة والتعليم. وبعيدًا عن الحالات الخاصة لهونج كونج وسنغافورا، فإن الدولة الصينية، أثناء ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، كانت الدولة الوحيدة في العالم النامي التي استطاعت بناء كميات ضخمة من المساكن العامة الجماعية اللائقة (على الرغم من أن هذه "الثورة التي لم تنل حقها في الذكر"- مثلما يسميها الخبير العمراني ريتشارد كيركبي- قد فشلت في تلبية حاجات عشرات الملايين من الفلاحين المنتقلين إلى المدن)(٣٦).

وفي بقية بلدان العالم الثالث، كانت فكرة الدولة المتدخلة، الملتزمة التزامًا شديدًا بالسكن الاجتماعي وتنمية العمل، تبدو هلوسة أو نكتة سخيفة؛ لأن الحكومات منذ زمن تخلت عن أية جهود جادة لمحاربة العشوائيات ومواجهة التهميش الحضري. وفي كثير من المدن الفقيرة، كانت علاقة المواطنين بحكوماتهم، تشبه ما وصفه أحد سكان العشوائيات في نيروبي مؤخرًا لمراسل *الجارديان*، حين قال: "الدولة لا تفعل شيئًا هنا. إنها لا توفر مياهًا، ولا مدارس، ولا صرفًا صحيًا، ولا طرقًا، ولا مستشفيات". والحقيقة أن الصحفي اكتشف أن السكان يشترون المياه من تجار قطاع خاص، ويعتمدون على مجموعات المراقبة من أجل الأمن- ولم يقم البوليس بالزيارة سوى لجمع الرشاوى(٣٧).

وقد كانت الأرثوذكسية الاقتصادية "النيوليبرالية الحالية"، كما عرّفها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وراء تقليص دور الحكومات الوطنية في توفير السكن إلى حده الأدنى. فبرامج التكيف الهيكلي التي فُرضت على الأمم المدينة في أواخر سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، تطلبت تقليصًا لبرامج الحكومة، وفي الغالب خصخصة أسواق السكن. ولكن الدولة الاجتماعية في

(36) Richard Kirkby. "China," in Kosta Mathey (ed.) *Beyond Self-Help Housing*, London 1992. pp. 298-99
(37) Andrew Harding, "Nairobi Slum Life," (series), *Guardian*. 4, 8, 10 and 15, October 2002.

العالم الثالث كانت بالفعل تتوارى حتى قبل أن تدق برامج التكيف الهيكلي المسمار الأخير في نعش الرفاهة الاجتماعية. ولأن خبراء كثيرين يعملون من أجل "إجماع واشنطن Washington Consensus"، حسبوا أن توفير الحكومة للسكن الحضري كارثة محققة، فإنه من الأهمية مراجعة تاريخ بعض الحالات، وسنبدأ بما قد يبدو لنا من النظرة الأولى الاستثناءات الرئيسة لقاعدة فشل الدولة.

سنغافورا وهونج كونج كانتا هما المدينتان الاستوائيتان اللتان تم توفير السكن العمومي فيهما بنسب كبيرة بديلاً عن العشوائيات. فبوصفها نموذج دولة- مدينة بسياسات هجرة محكومة، لم تكن هونج كونج مضطرة إلى مواجهة الضغوط الديمغرافية المعتادة لأرض زراعية فقيرة خلف الحدود الساحلية hinterland. وهنا يوضح "إرهارد برنر Erhard Berner"، أن "جزءًا كبيرًا من المشكلة، تم تصديره إلى جوهور بهرو Johor Baru التي تعد بمثابة نسخة سنغافورية من مدينة تياوانا Tijuana المكسيكية(٣٨)". ومن ناحية أخرى فإن هونج كونج كان عليها أن تستوعب ملايين اللاجئين، والآن تستوعب المهاجرين من مينلاند Mainland. غير أن نجاح مستعمرة التاج Crown Colony سابقًا في إعادة تسكين واضعي اليد، وساكني الأحياء الجماعية المكدسة، ولاجئي الحرب الأهلية، في بنايات من الوحدات السكنية/ الشقق، لا يمثل المعجزة الإنسانية التي غالبًا ما تصور عليها.

وكما بين "آلان سمارت Alan Smart"، فإن سياسات الإسكان في هونج كونج، أصبحت نوعًا من حساب المثلثات الحصيف للمصالح المنفصلة لمطوري الممتلكات، ورأس المال الإنتاجي، والمقاومة الشعبية، والتدخل المحتمل لإستراتيجيات تقليص الفقر التي تلوح في الخلفية. وكان التحدي هنا

(38) Berner, "Learning from Informal Markets," p. 244.

في توفيق الأوضاع بين الطلب على عمالة رخيصة وقيم الأرض المرتفعة، ولم يكن الحل المفضل هو القيمة الإيجارية المرتفعة– التي كان لها أن تُجبر على رفع الأجور– بل عملية الإزاحة للأطراف والتكدس بحلول عام ١٩٧١، كما يكتب "سمارت"، فقد تم إعادة توطين مليون نسمة من واضعي اليد "على أراضٍ تعادل ٣٤% فقط من نسبة الأرض التي كانت مشغولة سابقًا، وعلى الأراضي الموجودة على أطراف المدينة ذات القيمة الأقل بكثير". وبالمثل، فإن مئات الآلاف من المستأجرين الفقراء تم إعادة توطينهم بعيدًا عن مساكنهم التي كانت فيما سبق بإيجارات مضبوطة ومقننة، في المناطق المركزية. وقد كان تخصيص الأماكن في المساكن العامة، في أوائل ستينيات القرن الماضي، ضئيلا جدًا، قوامه ٢٤ قدمًا مربعًا لكل شخص ناضج بحمامات ومطابخ مشتركة للطابق بأكمله. وعلى الرغم من تحسن الظروف خلال مشاريع بنيت لاحقًا، فإن هونج كونج ظلت محافظة على أعلى كثافة سكانية رسمية على مستوى العالم: ثمن تحرير الحد الأقصى من المساحة الأعلى موجه من أجل المكاتب المرتفعة والشقق الباهظة[٣٩].

والغريب في الأمر، أنه خلال إعادة بناء الاقتصاد المكاني لهونج كونج، فإنه نادرًا ما لفت المخططون الانتباه إلى الإستراتيجيات الفعلية لمصادر رزق فقراء الحضر، بما في ذلك استخدامهم المتكرر لمنازلهم كورش عمل، أو حاجتهم إلى السكن في موقع قريب من الأسواق المركزية، أو المصانع. كما أن عدم اتساق السكن الشاهق، الكائن على أطراف المدن، لا مع البِنى الاجتماعية السائدة، ولا مع الاقتصاديات غير الرسمية للمجتمعات الفقيرة، يعد بالطبع تاريخًا قديمًا: خطيئة أصلية تكررت عبر عقود، على يد الإصلاحيين الحضريين، وقياصرة المدن في كل مكان.

(39) Smart, *Making Room*, pp. 1, 33, 36, 52, 55.

والحقيقة أنه بالعودة إلى خمسينيات القرن التاسع عشر، نجد الإمبراطورية الثانية للبارون هاوسمان Baron Haussmann's Second Impire، تلك الحالة النموذجية لسكن العمال، مثل مدينة نابليون Cité Napoléon في باريس، التي تم رفضها من قبل سكانها المحتملين أو المستهدفين؛ بسبب شكلها الموحَّد، ونوعيتها التي تشبه "الثكنات العسكرية". ووفقًا للمؤرخة آن لويس شابيرو Ann Louise Shapiro: "فقد شكا هؤلاء السكان من أن أصحاب الأعمال الخيرية وجمعيات البناء، كانوا قد بدءوا في نقل السكان العاملين إلى أحياء خاصة، كما في العصور الوسطى، وفي المقابل حثوا الحكومة على فرض ضرائب على الوحدات السكنية الخالية؛ كي تخفض قيمة الإيجار، وتوفر عددًا أكبر من المساكن، في الأحياء المختلطة في وسط المدينة". وفي النهاية أصبح مشروع هاوسمان الشهير "مأوى للمستأجرين البرجوازيين فحسب"(٤٠).

ولمشروع مدينة نابليون سلالات حديثة كثيرة في العالم الثالث. ففي جاكارتا، على سبيل المثال، نجد المساكن العامة لا تتمتع بجاذبية لدى القوى العاملة غير الرسمية الضخمة؛ لأنها لا توفر مساحة لورش العمل المنزلية. ونتيجة لذلك، فإن معظم المستأجرين هم من الهيئات العسكرية والخدمات العامة(٤١). وفي بكين، على الرغم من أن البناء المرتفع أدى إلى تحسينات حقيقية على المستوى الكمي في المساحة السكنية، إلا أن ساكني الأبراج ينعون أنفسهم على فقدان القيم الاجتماعية. وفي عدد من المسوح التي جرت في هذا الصدد، أفاد السكان بوجود انحدار حاد في الزيارات الاجتماعية/ والتفاعل مع الجيران، ومعدل تكرار لعب الأطفال، وكذلك العزلة المتزايدة

(40) Ann-Louise Shapiro, "Paris," in M J. Daunton (ed.), *Housing the Workers, 1850-1914: A Comparative Perspective*, London 1990, pp. 40-41

(41) Hans-Dieter Evers and Rudiger Korff, *Southeast Asian Urbanism: The Meaning and Power of Social Space*, New York 2000, p. 168.

والوحدة لدى كبار السن(٤٢). وبالمثل في بانكوك، ووفقًا لمسح أجراه باحثان أوروبيان، فإن الفقراء يفضلون بحماسٍ أحياءهم العشوائية القديمة، عن كتل الأبراج الجديدة.

> ترى الهيئات التي تخطط لإخلاء العشوائيات، أن ثمة بديلاً للناس في الشقق المرتفعة الرخيصة: والناس في العشوائيات يعرفون أن الإخلاء والحياة في هذه الشقق، سوف يقللان من وسائل الإنتاج وإمكانيات الإنتاج المعيشي. فضلاً عن أن الوصول إلى العمل سيصبح أكثر صعوبة بحكم موقع هذه الشقق. وبناء على هذا السبب البسيط، يفضل قاطنوا العشوائيات بقاءهم فيها، ومن ثم يبدءون في مقاومة الإخلاء. إن العشوائيات بالنسبة لهم هي المكان الذي يبقى فيه الإنتاج في ظل ظروف متدهورة أمرًا ممكنًا. فيما هي بالنسبة للمخطط العمراني مجرد سرطان في جسد المدينة(٤٣).

في تلك الأثناء، أصبحت "برشطة poaching"– كما يسميها خبراء السكن– أو استيلاء الطبقة الوسطى على السكن العام أو المدعوم من قبل الدولة ظاهرة شبه عالمية. فالجزائر في بدايات ثمانينيات القرن الماضي، على سبيل المثال، بدأت في تقسيم احتياطي الأرض الحضرية إلى قطع، ظاهريًا من أجل التطوير من قبل جمعيات سكنية، وكانت مواد البناء متوافرة بأسعار مدعومة. ومع ذلك، وكما يشير المعماري "جعفر لسبت" Djaffar Lesbet، فإن هذا التوازن الأنيق– من الناحية النظرية– بين معونة الدولة والمبادرة المحلية، لم يحقق الديمقراطية في إمكانية الوصول إلى السكن:

(42) Victor Sit, *Beijing: The Nature and Planning of a Chinease Capital City*, Chichester 1995, pp. 208-19.
(43) Evers and Korff, *Southern Asian Urbanism*, 168.

"قطع الأراضي المخصصة للبناء سمحت لأولئك الذين منحهم النظام مزايا أن ينتهجوا نهجهم، وتحقيق سكنهم الخاص. وقد ساعدوا أيضًا في تقليل النغمة الدرامية والسياسية لأزمة السكن، وذلك بتحويلهم هذه القضية الوطنية إلى مشكلة فردية"(٤٤). ونتيجة لذلك، فقد حظى الموظفون العموميون وغيرهم بمنازل منفصلة وفيلات مدعومة، بينما الفقراء في حقيقة الأمر، انتهى بهم الحال في العشش غير القانونية، داخل *عشوائيات وضع اليد*. كذلك حدث الأمر نفسه في تونس، فعلى الرغم من افتقادها إلى الروح الثورية الجزائرية، فإن تونس أيضًا طورت مساكن عامة مدعومة من الدولة، ولكن ٧٥% منها لم يكن من الممكن للفقراء تحمل أعبائها. وفي المقابل فقد تكدسوا في عشوائيات تونس الزاحفة المتزايدة الانتشار، مثل: التضامن، وملاسين Mellassine، والجبل الأحمر Djebel Lahamar(٤٥).

في الهند أيضًا، يمكننا تبين التيار نفسه، في عديد من الأوجه أو مظاهره المختلفة. ففي سبعينيات القرن المنصرم، على سبيل المثال، دشنت البلدية وسلطات الدولة منظومة طموحة جدًا، لخلق مدينة حديثة مزدوجة على أرض كبيرة المساحة، مقابلة لشبه جزيرة مومباي. وكان الفقراء الحضر قد سمعوا وعدًا ببيوت وأعمال جديدة في مومباي، تلك المدينة الجديدة المتلألئة (هي الآن "نافي مومباي" Navi Mumbai)، ولكن بدلاً من ذلك، تم تهجير المحليين من الأراضي الرئيسية فاقدين بذلك الأرض ومصادر الرزق، بينما ذهبت كتلة المساكن الجديدة إلى جعبة الموظفين العموميين، والطبقات الوسطى(٤٦). وفي دلهي، بالمثل، وزعت وكالة التنمية Development Agency نصف مليون قطعة أرض، ولكن "معظمها تم

(44) Lesbet, "Algeria," pp. 264-65.
(45) Frej Stambouli, "Tunis: Crise du Logement et Rehabilitation Urbaine," in Amis and Lloyd, *Housing Africa's UrbanPoor*, p. 155.
(46) Alain Jacquemin. *Urban Development and New Towns in the Third World*, pp. 196-97.

الاستيلاء عليه من قبل الموسرين". ويشير البحث في هذا المجال إلى أن ١١٠ آلاف مسكن فحسب، تم بناؤها بالفعل للفقراء في مدينة تقوم حاليًا بإخلاء ٤٥٠ ألفًا من ساكني العشوائيات "غير القانونيين"(٤٧).

وفي كلكاتا، حيث جاءت الجبهة اليسارية إلى السلطة، في أواخر سبعينيات القرن العشرين، كان من المفترض أن تختلف القصة، حيث زمام الأمور بيد الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي) الذي طالما كافح وشن حملات من أجل "تحرير" سكان العشوائيات، ولكن ما حدث واقعيًا أنه بمرور الوقت، أسفرت وعود تسكين الفقراء عن التوطين الانتخابي للطبقات الأكثر امتيازًا. وهنا يقول الكاتب "فريدريك توماس" Frederic Thomas: "إن الرياء والكلام الرنان، لا يزالان هما العملة التي يتم التعامل بها مع حاجات الفقراء، أما نصيب الأسد من الموازنة؛ فيستخدم لتلبية احتياجات مواطني كلكاتا من الطبقتين الوسطى والعليا، فلم يتم توجيه سوى ١٠% فقط من استثمار هيئة تنمية مدينة كلكاتا إلى تطوير العشوائيات"(٤٨). وفي فيتنام أيضًا، تم التلاعب بسياسات الإسكان الثورية؛ لتعود بالنفع على النخب التابعة للدولة، مع إلقاء قليل من الفتات إلى الفقراء الفعليين. وهنا يكتب الباحثان "نجيين دوك نهوان" Nguyen Duc Nhuan، و"كوستا ماثيي" Kosta Mathey ما يفيد أن "الوصول إلى المساكن التابعة للبلدية، محفوظ بدرجة كبيرة للموظفين العموميين، وأعضاء القوات المسلحة، ممن لهم حق مقرر قانونيًا في شقة مكونة من غرفتين، والذين هم أيضًا وبهدف زيادة دخلهم؛ يأجرون هذه الوحدات من الباطن، في حالة عدم استخدامها لأنفسهم(٤٩).

(47) Neelima Risbud, "Policies for Tenure Security in Delhi," in Durand-Lasserve and Royston, *Holding their Ground*, p. 147.
(48) Thomas, *Calcutta Poor*, p. 147.
(49) Nguyen Duc Nhuan and Kosta Mathey, "Vietnam," in Mathey, *Housing Politics in the Socialist Third World*, p. 282.

لقد تم تعزيز ودفع نيجيريا ذات يوم على أنها سوف تستخدم أرباحها المرتفعة من النفط في إعادة توطين الفقراء الحضر، ولكن الخطتين الوطنيتين التمويتين الثالثة والرابعة؛ جاءا وصمتي عار بخصوص هذا الوعد الطموح- حيث لم يتم تشييد سوى أقل من خمس المنازل التي كان مخططًا لبنائها، ومعظمها ذهب إلى أناس آخرين غير الفقراء(٥٠). وبالمثل في كانو Kano، حيث السكن منخفض التكلفة للموظفين العموميين (استمرار لتقليد استعماري)، تم الاستيلاء عليه من قبل أفراد يتمتعون بنفوذ سياسي دخولهم مرتفعة، تفوق عتبة الفئة المؤهلة للحصول على هذه النوعية من المساكن(٥١). وتنضم جمايكا إلى القائمة، كبلد آخر لم يكن فيه أبدًا الخطاب الشعبوي الرنان ملبيًا للاحتياجات. وللتأكيد فإن الصندوق الوطني للإسكان National Housing Trust، كانت لديه قاعدة أصول كبيرة نسبيًا، ولكنه- كما يؤكد كل من "توماس كلاك Thomas Klak" و"مارلين سميث" Marlene Smith- يفعل كل شيء في الواقع فيما عدا بناء مساكن للفقراء. وفي الوقت الحالي تذهب معظم أموال الصندوق الوطني للإسكان لتغطية رواتب العاملين فيه، ومساعدة الحكومة المركزية في متطلبات الحجز، وتوفير التمويل المؤقت لأصحاب الدخول المرتفعة، وكذلك لبناء مساكن خارج نطاق اختصاص الصندوق، وتمويل الرهن العقاري لمساهمين قليلين معظمهم من ذوي الدخول المرتفعة"(٥٢).

وفي المكسيك، استطاعت السوق الرسمية للإسكان خلال عقد الثمانينيات، أن توفر ما يربو قليلاً على ثلث حجم الطلب على السكن، إلا أننا

---

(50) T. Okoye, "Historical Development of Nigerian Housing Policies,' in Amis and Lioyd, *Housing Africa's Urban Poor*, p. 81.

(51) H. Main, "Housing Problems and Squatting Solutions in Metropolitan Kano," in Robert Potter and Ademola Salau (eds), *Cities and Development in the Third World*. London 1990, p. 22.

(52) Thomas Klak and Marlene Smith, "The Political Economy of Formal Sector Housing Finance in Jamaica," in Datta and Jones, *Housing and Finance in Developing Countries*, p. 72

نجد السكن مدعومًا دعمًا كبيرًا لأُسر القوات المسلحة، والموظفين العموميين، ولأعضاء عدد قليل من الاتحادات القوية، مثل اتحاد عمال النفط. أما شديدو الفقر، فلا يصلهم سوى الفتات من مساعدات الدولة. فصندوق الحكومة للتمويل FOVI، يخدم القطاع الأوسط من سوق السكن (الدخول التي تزيد عشر مرات عن الحد الأدنى للأجور)، يعبئ ٥٠% من الموارد الفيدرالية للسكن، بينما FONHAPO، الذي يخدم القطاع الأشد فقرًا؛ فيتلقى ٤% فقط من تلك الموارد(٥٣). وفي بوجوتا يعثر "جون بتانكور" John Betancur على وضع مماثل، حيث فئات الدخل المتوسط، يتلقون دعمًا كريمًا، بينما لا توفر الدولة سوى مساعدة شحيحة- على مضض- لحاجات إسكان الفقراء(٥٤). وفي ليما، بالمثل، نجد معظم السكن العام أو المدعوم، يقع في أيدى فئات الطبقة المتوسطة، ومستخدَمي الدولة(٥٥).

لقد نجحت النخب الحضرية، والطبقات الوسطى في العالم الثالث، نجاحًا استثنائيًا أيضًا، في التهرب من ضرائب البلدية. وهنا يكتب "أوبراي" A. Obreay من منظمة العمل الدولية ILO: "في معظم البلدان النامية، نجد أن الريع المحتمل من الضرائب العقارية، غير منتفع به على الوجه الأكمل. فالنظم الموجودة تميل إلى المعاناة من إدارة تقييم فقيرة، وتآكل واضح وجوهري للقاعدة الضريبية بسبب الإعفاءات، وكذلك الأداء الضعيف فيما يتعلق بتجميع الضرائب"(٥٦). ولقد كان أوبراي شديد الكياسة: فالأغنياء الحضر في أفريقيا، وجنوب آسيا، وكثير من بلدان أمريكا اللاتينية، معفَوْن من الضرائب بشراسة، وأحيانًا بإجرام من قبل الحكومات المحلية. فضلاً عن

(53) Pezzoli, :Mexico's Urban Housing Environment," p 142.

(54) John Betancur. "Mexico's Urban Housing Environment in Colombia," in Aldrich and Sandhu, *Housing the Urban Poor*, p. 224.

(55) John Leonard, "Lima: City Profile," *Cities* 17:6 (2000), p. 437.

(56) Obcrai, *Population Growth, Employment and Poverty in Third-World Mega-Cities*, p 169

ذلك، وفيما أصبحت المدن المضغوطة ماليًا ضغطًا شديدًا، معتمدة على ضرائب المبيعات التنازلية regressive sales taxes، وضرائب المستخدم- وهذه النوعية من الضرائب تدر ٤٠% من الريع في مكسيكو سيتي، على سبيل المثال- وقد تحول هذا العبء الضريبي شيئًا فشيئًا؛ ليكون مجافيًا للفقراء أكثر من الأغنياء. وفي تحليل مقارن أجراه ناد للإدارة المالية، بين عشرة مدن في العالم الثالث، يجد "نيك ديفز" Nick Devas نموذجًا ارتكاسيًا متسقًا، وقليلاً من الأدلة على الجهود الجادة لتقييم وتجميع ضرائب الملكية من الموسرين(٥٧).

ولا بد من أن يقع جزء من اللوم على صندوق النقد الدولي، الذي بدوره كمراقب مالي للعالم الثالث، يدافع في كل مكان عن أجور المستخدم التنازلية، وفرض الضرائب على الخدمات العامة، ولكنه لا يجتهد أبدًا في طرح جهود مقابلة لفرض الضرائب على الأغنياء، أو على الاستهلاك السفيه على مظاهر لفت الانتباه conspicuous consumption، أو على العقارات. وبالمثل، فإن البنك الدولي يكافح من أجل "الحكم الرشيد" في مدن العالم الثالث، ولكنه يقوّض إمكانية حدوث ذلك؛ بحكم دعمه النادر لفرض للضرائب التصاعدية(٥٨).

وبطبيعة الحال، فإن كلاً من "البرشطة" أي: استيلاء الطبقة الوسطى على السكن العام أو المدعوم، وكذلك الانحياز المالي على النحو السابق وصفه، يمثلان تعبيرين عن افتقاد الأغلبية الفقيرة للنفوذ السياسي. فعلى مستوى أغلب بلدان العالم الثالث، لا تزال الديمقراطية الحضرية هي الاستثناء، وليست القاعدة، خصوصًا في أفريقيا. حتى حيثما يحق لفقراء

(57) Nick Devas, "Can City Governments in the South Deliver for the poor?," *International Development and Planning Review* 25:1 (2003), pp. 6-7.
(58) Oberai, *Population Growth, Employment and Poverty in Third-World Mega-Cities*, pp. 165, 171.

العشوائيات التصويت في الانتخابات، فإنهم نادرًا ما يستطيعون ممارسة هذا الحق من أجل التأثير في إعادة توزيع فعالة للنفقات، أو موارد الضرائب: فهناك عدد متنوع من الإستراتيجيات الهيلكلية- بما فيها التشظي السياسي المديني المركزي، والتحكم في الموازنات من قبل السلطات الإقليمية أو الوطنية، وتأسيس الهيئات المستقلة- تم استخدامها لعزل صنع القرار على المستوى الحضري، عن حق التصويت الشعبي.

وفي دراسته لمنطقة مومباي، يؤكد "ألين جاكمين Alain Jacquemin" على مصادرة السلطة المحلية من قبل السلطات الحضرية للتنمية، والتي يتمثل دورها في بناء بنية تحتية حديثة، تسمح للأجزاء الأكثر ثراءً من المدن أن تزج بنفسها- ونفسها فقط- في الاقتصاد الفضائي cyber economy العالمي. وهذه السلطات، كما يكتب جاكمين، "أمعنت في تقويض مهام ووظائف الحكومات البلدية المنتخبة ديمقراطيًا، التي أضعف من قوتها بالفعل فقدانها المسئوليات القطاعية، والموارد المالية والبشرية لصالح سلطات خاصة معاونة. ولا عجب أن تظل الحاجات التي يتم التعبير عنها محليًا على مستوى البلدية والأحياء، غير مسموعة أو بلا صدى"(٥٩).

إذن، وباستثناءات قليلة جدًا، نجد الدولة ما بعد الكولونيالية/ الاستعمارية، أصبحت، وعلى نحو مريع، خائنة لوعودها الأصلية لفقراء الحضر. وهناك إجماع بين أساتذة العمران الحضري على أن السكن العام والمدعوم بمساعدة الدولة في العالم الثالث، قد انتفعت به بشكل رئيسي الطبقات الوسطى الحضرية والنخب، هؤلاء الذين يتوقعون تسديد معدلات ضرائب منخفضة، ويتلقون مستويات مرتفعة من الخدمات البلدية.

(59) Jacquemin, *Urban Development and New Towns in the Third World*, pp. 41, 65; see also K. Sivaramakrishnan, "Urban Governance: Changing Realities," pp. 232-33.

وفى مصر، يخلص الباحث "أحمد سليمان" إلى أن "الاستثمار العام [من أجل السكن]، قد تم تبديده على نطاق واسع"، وكانت النتيجة أن "حوالي عشرين مليون نسمة، يعيشون اليوم في مساكن مُهلِكة لصحتهم وأمنهم"(٦٠). وبالمثل وفي حالة الهند، تصف "نانديني جوبتو" Nandini Gooptu تحول السياسات التي كانت داعمة للفقراء في عهد غاندي، إلى النقيض:

> وفي نهاية الأمر، فإن المفهوم الكبير للتحول الحضري، كان قد ولى زمنه، وتم تدجينه لتلبية المصالح الفورية لطبقات أصحاب الأملاك. وبدلاً من أن تفتح منظومات التخطيط للبلدات كمشاريع مثالية لإعادة الإنتاج الاجتماعي، تم تطويرها كأماكن تولد المزيد من المصالح والطموحات للمالكين، وآلية التهميش المتنامي للفقراء. والحرب على العشوائيات تقترب بخطورة، لتصبح معركة للسيطرة على مستوطنات وموئلاً للفقراء، وهي في الحقيقة تعدٍّ سافرٌ على الفقراء أنفسهم(٦١).

(60) Soliman, in Ananya Roy and Nezar Al Sayyad (eds), *Urban Informality: Transnational Perspective from the Middle East, Latin America, and South Asai*, Lanham (Md.) 2004, pp. 171, 202.
(61) Gooptu, *The Politics of the Urban Poor in Early Twentieth-Century India*, p. 84.

الفصل الرابع

أوهام المساعدة الذاتية

"من الحماقة أن ننتقل من فكرة مشوهة– مؤداها أن العشوائيات تمثل أماكن للجريمة والمرض واليأس– إلى فكرة مشوهة أخرى، مفادها أن هذه العشوائيات يمكن تركها بأمان كي ترعى نفسها بنفسها".

جرمي سيبروك[1] *Jeremy Seabrook*

بإقلاع حكومات العالم الثالث، وتخليها عن الحرب ضد العشوائيات في سبعينيات القرن المنصرم، اضطلعت مؤسسات "برتن وودز" Bretton Woods– مع صندوق النقد الدولي "كشرطي فاسد"، والبنك الدولي "كشرطي صالح"– وباضطراد، للقيام بدور قيادي في وضع المقاييس والمعايير الخاصة بسياسات الإسكان الحضري. وقد تزايد معدل إقراض التطوير الحضري من جانب البنك الدولي، من مجرد ١٠ ملايين دولار في ١٩٧٢ إلى أكثر من بليوني دولار في ١٩٨٨[٢]. وفيما بين عامي ١٩٧٢ و١٩٩٠ ساعد البنك الدولي في تمويل إجمالي ١١٦ موقعًا وخدمة، و/أو خطط لتطوير العشوائيات في ٥٥ دولة[٣]. وفيما يتعلق بمدى الحاجة، فإن ما نتحدث عنه للتو يمثل

---

(1) Seabrook, *In the Cities of the South*, p. 197.

(2) S. Sethuraman, "Urban Poverty and the Informal Sector: A Critical Assessment of Current Strategies," International Labour Organization (ILO) working paper, Geneva 1997, pp. 2-3.

(3) Cedric Pugh, "The Role of the World Bank in Housing," in Aldrich and Sandhu, *Housing the Urban Poor*, p. 63.

بالطبع مجرد قطرة في بحر، ولكنها قطرة تعطي البنك الدولي مكانة قوية في السياسات الحضرية الوطنية من جانب، وعلاقات رعاية مباشرة للمجتمعات العشوائية المحلية والمنظمات غير الحكومية NGOs من جانب آخر؛ كما أن تلك "القطرة" سمحت للبنك الدولي بأن يفرض نظرياته الخاصة بوصفها أرثونكسية للسياسات الحضرية/ العمرانية على مستوى العالم.

لقد أصبح تحسين العشوائيات بدلاً من إحلالها، هو الهدف الأقل طموحًا للتدخل العام والخاص. فبدلاً من إصلاح الفقر الحضري هيكليًا من أعلى لأسفل، مثلما سعت لإتمامه الديمقراطية الاشتراكية في أوروبا، وناصره القادة الوطنيون الثوريون من جيل الخمسينيات في القرن العشرين، فإن الحكمة الجديدة في أواخر سبعينيات وبداية ثمانينيات القرن نفسه، أقرت بأن تتحالف الدولة مع المانحين الدوليين. ومن ثم، مع المنظمات غير الحكومية؛ لتصبح قادرة "وممكّنة enabler" للفقراء. وفي أول تكرار لها، أكدت فلسفة البنك الدولي الجديدة، المتأثرة بأفكار المعماري الإنجليزي "جون ترنر" John Turner، على مقاربة "مواقع– وخدمات" (توفير بنية تحتية أساسية "مائية"(*) (وهندسة مدنية) للمساعدة في ترشيد وتطوير السكن، بالجهود الذاتية. ولكن في أواخر ثمانينيات القرن المنصرم، كان البنك الدولي آنذاك يمجد بطولات خصخصة خدمة توفير السكن عبر العالم، وسرعان ما أصبح هو البوق المؤسسي الأكثر قوة لمخططات "إرناندو دي سوتو" Hernando de Soto الاقتصادي البيروفي الذي يناصر الحلول الصغيرة للفقر الحضري، القائمة على العمل الحر.

(*) البنية التحتية المائية "wet" infrastructure: مصطلح يستخدم لوصف طيف متنوع من المشاريع المرتبطة بالمياه والمرتبطة بتوفير المياه، ومعالجة عملية التخزين، وإدارة الموارد المائية، وكذلك إدارة الفيضانات، وحماية السواحل، والقوة المائية، وكذلك مرافق الطاقة المتجددة. وتشمل الأمثل الشائعة على البنية التحتية المائية البنية الجديدة وأيضًا التجديدات والصيانة للمحابس، والسدود النهرية، وحواجز المد والأمواج العاتية، ومراكز الضخ، والجسور، وأنظمة التحكم، وأنظمة الإدارة وتجهيزات الأنفاق. (المترجم).

أصدقاء الفقراء:

لقد كان التزاوج الفكري الذي تم في سبعينيات القرن الماضي، ما بين رئيس البنك الدولي "روبرت مكنامارا" Robert McNamara وبين المعماري "جون ترنر" John Turner، تزاوجًا غريبًا بما يفوق التوقع. فالأول كان بالطبع هو المخطط الرئيسي للحرب في فيتنام، بينما الأخير كان في يوم ما مساهمًا رائدًا في الورقة الفوضوية الإنجليزية التي حملت عنوان *الحرية Freedom*. وقد ترك "ترنر" إنجلترا في عام ١٩٧٥ ليعمل في بيرو، حيث كان مجذوبًا وواقعًا تحت تأثير العبقرية الإبداعية التي وجد أنها فاعلة في السكن بوضع اليد. ولم يكن هو المعماري الأول الذي يتحمس لإمكانات الفقراء في التنظيم الذاتي الجماعي والبناء الذكي، فالمعماريون والمخططون الفرنسيون الاستعماريون، مثل مجموعة "كيام ألجير" Groupe CIAM Alger، مدحوا النظام العفوي للمستوطنات سريعة التشييد، فوق أراضي وضع يد، وفضّلوها على تلك العلاقة "العضوية" بين المباني والموقع (آثار مدينة *القصبة*، في الجزائر)، وكذلك على حساب مرونة المساحات لاستيعاب وظائف متنوعة، وحاجات المستخدمين المتغيرة"[٤]. ولكن "ترنر" وبالتعاون مع عالم الاجتماع "وليام مانجن" William Mangin كان نشطًا فوق العادة، ومروّجًا فعالاً؛ زاعمًا أن العشوائيات تمثل- في حد ذاتها- حلاً أكثر من كونها مشكلة. وعلى الرغم من أصوله الراديكالية، فإن برنامج "ترنر" الجوهري الخاص بالمساعدة الذاتية، والبناء المتنامي، وتشريع حركة العمران الحضري العفوية، كان هو بالضبط نوع المقاربة البرجماتية الفعالة- على مستوى التكلفة- للأزمة العمرانية الحضرية الذي كان يحبذها "مكنامارا".

---

(4) Zeynep Celik, *Urban Forms and Colonial Confrontations: Algiers under French Rule*, Berkeley 1997, p. 112.

وبحلول عام ١٩٧٦، العام الأول لمؤتمر "برنـــامج الأمـــم المتحـــدة للمستوطنات البشرية" UN-HABITAT، وأيضًا هو العام الـــذي نـــشر فيـــه "ترنر" كتابه *السكن بسواعد الناس: نحو الاستقلال في بناء البيئات* *Housing by People: Towards Autonomy in Building Environments*، أصبحت هذه التوليفة الخليط من الفوضوية والنيوليبرالية، تمثل أرثوذكسية جديدة "شـــكلت نقطة انطلاق راديكالية في مفهوم السكن العام، لـــصالح مـــشاريع المواقـــع والخدمات وتطوير العشوائيات في مكانها". وكان من المفترض أن يكون قسم التنمية الحضرية Urban Development Department الجديـــد فـــي البنـــك الدولي، هو الراعي الرئيس لهذه الإستراتيجية. وهنا يواصل "سيدريك بـــو" Cedric Pugh تشريحه، قائلاً: "كانت النية منعقدة على جعل السكن قابلاً لأن تتحمل الأسر ذات الدخل المنخفض أعباءه المالية دون دفع الدعم، في مقابل تلك المقاربة الخاصة بالسكن العام المدعوم دعمًا كبيرًا من الدولة"(٥). ووسط صخب كبير حول "مساعدة الفقراء من أجل مساعدة أنفـــسهم"، تـــم تـــسجيل ملاحظة صغيرة علانية؛ للتقليص الآتي واللحظي لأحقيـــة تطـــوير ودعـــم مساكن العشوائيات المتضمنة في تقنين البنـــك الـــدولي. فمـــدح ممارســـات الفقراء، أصبح ستار الدخان الذي يهدف من ورائه الحنث بالوعد، والرجوع في الالتزامات التاريخية للدولة نحو تخفيض الفقر، ومعدلات التشرد. وهنـــا تكتب "جيرمي ســـيبروك" Jeremy Seabrook، أنـــه "باســـتعراض القـــدرة، والشجاعة، وإمكانات المساعدة الذاتية لسكان العشوائيات، [كـــان] الطريـــق ممهّدًا لانسحاب الدولة وتدخل الحكومة المحلية ودعمها"(٦).

فضلاً عن ذلك، فقد أضفى "ترنر" ومحبوه في البنـــك الـــدولي حالـــةً رومانسية معقولة على تكاليف ونتائج سكن واضعي اليد، الآخذ في التنامي.

---

(5) Pugh, "The Role of the World Bank in Housing." p. 64.

(6) Seabrook, *In the Cities*

وكما أوضح البحث الذي قام به كل من "كافيتا داتا" Kavita Datta و"جارث جونز" Gareth Jones، فإن الخسارة في اقتصاديات السعة economy of scale في بناء السكن، تُملي علينا، إما وحدات بأسعار باهظة بسبب تكلفة مواد البناء (التي يشتريها التجار القريبون بكميات قليلة)، أو البناء بمواد درجة ثانية رديئة الجودة. ويرى الباحثان "داتا" و"جونز" أن "الإسكان الذاتي self housing"، يعد نوعًا ما ضربًا من الخيال، أسطورة: "فمعظم حالات البناء بالمساعدة الذاتية، تتم فعليًا بالمساعدة المدفوعة من الحرفيين، والمهام المتخصصة، والعمل الفني المتخصص"(٧).

والأهم في هذا السياق، شروط استعادة التكلفة الخاصة بالاقتراض من البنك الدولي، والذي يمثل جزءًا من عقيدة نيوليبرالية متصلبة، وضعت وبتأثير نافذ أفقر الفقراء خارج سوق قروض المساعدة الذاتية. وقد قدّرت "ليزا بيتي" Lisa Peattie، إحدى ناقدات البنك الدولي الأكثر حسمًا، في عام ١٩٨٧ أن نسبة قاعدية من ٣٠ إلى ٦٠% من السكان، حسب البلد المعني، كانوا عاجزين عن تلبية الالتزامات المالية لشرط المواقع- الخدمات، أو قروض التطوير(٨). فضلاً عن ذلك، فحتى مشاريع البنك الدولي الأكثر طموحًا ورواجًا، جنحت إلى الوقوع تحت طائلة الاستيلاء عليها من جانب الطبقات المتوسطة، أو ممن هم لا حاجة لهم إليها، بالطريقة نفسها التي حدثت مع المساكن العامة.

ولقد جاءت الفلبين، بوصفها البلد الذي شهد التجربة الاستكشافية لإستراتيجية البنك الدولي الجديدة، لتمثل حالة سيئة السمعة في هذا الصدد. فبالتعاون مع ديكتاتورية ماركوس Marcos، حدد فريق البنك ٢٥٣ "منطقة

---

(7) Kavita Datta and Gareth Jones. "Preface," in Datta Jones, *Housing and Finance in Developing Countries*, p. 12.

(8) Lisa Peattie, "Affordability," *habitat International* 11:4 (1987), pp. 69-76.

مهدمة ومعدمة كأولوية للتطوير والتنمية"، وذلك بدءًا بقطـــاع واســـع مـــن المساكن العشوائية عبر شاطئ "توندو" Tondo للعاصـــمة مـــانيلا. ولكـــن "الاستثمارات" كما يزعم "إرهارد برنر" Erhard Berner، وبساطة "تـــسربت مباشرة إلى مطوري الأراضي وصناعة البناء". وعلى سبيل المثال، فإن قرية سان جوزيف St. Joseph Village الواقعة في باسيج Pasig، تم الترويج لهـــا كمشروع نموذجي للأسر الفقيرة، بل إن "إميلدا مـــاركوس" Imelda Marcos جندت البابا بول السادس Pope Paul VI كراعٍ رسمي للمشروع. ولكن فـــي غضون خمس سنوات؛ وفقًا لرواية "برنر": "رحل معظم السكان الأصـــليين، بسبب بيع قطع الأراضي الخاصة بهم إلى الأسر الثرية"(٩).

وقد كانت الإخفاقات محرجة للغاية، إلى درجة أن البنك الدولي أعـــاد ترتيب الأدوات، بحيث يتم التركيز بدلاً من ذلك على شرط المواقع–الخدمات في مناطق إعادة التوطين خارج مركز العاصمة مانيلا. وقد لعب بُعد هـــذه المواقع دورًا في إحباط محاولة التربح والإثراء من وراء هـــذه المـــشاريع، ولكن السبب نفسه جعلها محط كراهية الفقراء؛ نظرا لبعدها عن أماكن العمل والخدمات. وفي نهاية الأمر، كما يقول "برنر": تركت جهود البنك الـــدولي البطولية معظم العشوائيات المستهدفة "مكدسة ومتدهورة كما كانت دائمًا"(١٠).

وفي مومباي التي مثلت معملاً مرجحًا جدًا من قبل البنك الدولي، تـــم الوعد بتطوير العشوائيات على مستوى كبير وواسع (يعود بتأثير فعلي على ٣ ملايين نسمة)، ولكن النتائج مرة أخرى كانت تافهة، لا قيمة لها. فبرنامج الصرف الصحي، على سبيل المثال، كان يستهدف توفير مرحاض واحد لكل ٢٠ ساكنًا، ولكن النسبة المحققة من ذلك، كانت مرحاضًا واحدًا لكـــل ١٠٠

(9) Berner, *Defending a Place*, p 31.

(10) Erhard Berner, "Poverty Alleviation and the Eviction of the Poorest," *International Journal of Urban and Regional Research* 24.3 (September 2000), pp. 558-59.

ساكن، كما أن الصيانة المتقطعة للمرافق، أطاحت بأية ميزة للمكان من ناحية الصحة العامة. وفي تلك الأثناء، من "عام ١٩٨٩"، ووفقًا لرؤية خبيرة، "جاءت خطة تطوير العشوائيات مخيبة للتوقعات، وظهر أن ٩% فقط من المستفيدين ينتمون إلى فئات منخفضي الدخل"(١١).

ويكشف بيان رصيد الجيل الأول من مشاريع البنك الدولي في أفريقيا، عن نتائج مخيبة للآمال، أو بائسة على أحسن تقدير. ففي دار السلام، وبعد نهاية تدخل طموح من البنك الدولي (١٩٧٤-١٩٨١)، أظهرت إحدى الدراسات أن "أغلبية من تم تخصيص قطع أراضٍ لهم من واضعي اليد، ضمن برنامج المواقع والخدمات، قد قاموا ببيعها، وعادوا إلى وضع اليد على أراض بكر، على أطراف المناطق الحضرية". وانتهى الحال بمعظم قطع الأراضي المدرجة ضمن مشروع المواقع والخدمات، إلى أيدي موظفي الدولة والطبقات المتوسطة(١٢). وهنا يقول خبير التخطيط "تشارلز شوجيل" Charles Choguill: لم يكن هذا بالمفاجأة؛ لأن المدخرات الدنيا المطلوبة من قبل البنك الدولي للتأهل إلى قرض بناء، كانت عالية جدًا؛ بحيث إنها استبعدت تلقائيًا معظم واضعي اليد(١٣). وبالمثل، في خطة الموقع- الخدمة في لوساكا، فقد ذهب خُمس القروض فقط إلى الفئات المستهدفة، وتقريبًا حدثت النتائج المخيبة للآمال نفسها في دكار(١٤).

---

(11) Creg O'Hare, Dina Abbott, and Michael Berke, "A Review of Slum Housing Policies in Mumbai," *Cities* 15:4 (1998). p. 279.

(12) A. Mosa, "Squatter and Slum Settlements in Tanzania," in Aldrich and Sandhu, *Housing the Urban Poor*, p. 346: John Campbell, "World Bank Urban Shelter Projects in East Africa," in Amis and Lloyd, *Housing Africa's Urban Poor*, p. 211.

(13) Charles Choguill, "The Future of Planned Urban Development in the Third World," in Aldrich and Sandhu, *Housing the Urban Poor*, p. 408.

(14) Campbell, "World Bank Urban Shelter Projects in East Africa," *Housing Africa's Urban Poor*, p. 211' Richard Stren, "Urban Housing in Africa," ibid, p 41.

وفي عام ١٩٩٣، خلص "أوبراي" A. Oberai، الباحث التابع لمنظمة العمل الدولية ILO، إلى أن مشاريع البنك الدولي لتطوير العشوائيات والمواقع والخدمات، فشلت فشلاً ذريعًا في أن تكون ذات أثر ملموس على أزمة السكن في العالم الثالث: "على الرغم من الجهود التي بُذلت لجعل هذه المشاريع قابلة للتطبيق، فإن المقاربة المستخدمة تخصص وتكشف موارد ضخمة وجهودًا مؤسساتية في مواقع قليلة؛ لذلك لم تكن قادرة على تحقيق المستوى المرجو من سوق السكن. ومن ثم، فإنه ليس من المرجح أن يكون لمقاربة المشروع الأثر الدال على حل مشكلة المأوى في معظم البلدان النامية"(١٥). وقد أشار نقاد آخرون إلى انفصال برنامج توفير السكن، عن خلق فرص العمل، وإلى الميل الحتمي لخطط المواقع- الخدمات لأن تكون في مواقع طرفية سيئة الخدمة، على الأقل، من حيث وسائل النقل العام(١٦). غير أن البنك الدولي واصل ضغطه بمقاربته الخاصة بالتنامي- التي تم تنقيحها، وتغيير اسمها إلى "تطوير إسكان القطاع ككل"- بوصفها الإستراتيجية الأفضل لتحسين ظروف العشوائيات.

إمبريالية ناعمة:

منذ أواسط تسعينيات القرن الماضي، قام البنك الدولي والبرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، وغيرهما من مؤسسات الدعم الدولية، وعلى نحو متزايد، بتجاوز الحكومات أو تجنبها، والعمل مباشرة مع المنظمات غير الحكومية الإقليمية، أو الموجودة في الأحياء. والواقع أن ثورة المنظمات غير الحكومية- يوجد الآن عشرات الآلاف منها في مدن العالم الثالث- أعادت تشكيل مشهد المساعدات المقدمة للتنمية العمرانية الحضرية، بطريقة تشبه

(15) Oberai. *Population Growth, Employment and Poverty in Third-World Mega-Cities*. p. 122.

(16) "Livelihood and Shelter Have To Be Seen as One Rather than Separate Entities," in Kalpana Sharma, *Rediscovering Dharavi: Stories from Asia's Largest Slum*, New Delhi 2000. p. 202.

كثيرًا الطريقة التي حولت بها الحرب على الفقر في ستينيات القرن الماضي العلاقات بين واشنطن، والآليات السياسية لمدينة كبيرة، والقواعد الشعبية المتمردة داخل المدينة(١٧). ومع انحدار الدور التوسطي للدولة، اكتسبت مؤسسات دولية كبيرة قواعدها الشعبية الخاصة والمتحققة، من خلال المنظمات غير الحكومية المستقلة، في آلاف من العشوائيات والمجتمعات الحضرية الفقيرة. وبطبيعة الحال، فإن مانحًا- مقرضًا دوليًّا مثل البنك الدولي، أو هيئة التنمية الدولية للمملكة المتحدة UK Department for International Development، أو مؤسسة فورد Ford Foundation، أو مؤسسة فريدريش إيرت Friedrich Ebert Foundation الألمانية، سوف يعمل من خلال منظمة غير حكومية رئيسية، وهي بدورها توفر الخبرة لمنظمة غير حكومية محلية، أو المتلقين من السكان الأصليين. وهذا النظام المرتب على مستويات من التعاون والتمويل، عادة ما تم تصويره بوصفه الكلمة الفصل في "التمكين"، و"التآزر"، و"الحكم التشاركي".

وعلى جانب البنك الدولي، فإن الدور المتزايد للمنظمات غير الحكومية، جاء مقابلاً لإعادة توجيه أهداف البنك في ظل رئاسة "جيمس ولفنسون" James Wolfensohn، عالم الماليات الأسترالي المولد وصاحب الباع الطويل في الأعمال الخيرية الذي بدأ عقده في هذا المنصب في يونيه/ حزيران ١٩٩٥. ووفقًا لكاتب السير "سبستيان مالابي"Sebastian Mallaby؛ فإن ولفنسون وصل إلى واشنطن معلنًا نفسه مصلحًا عالميًا "يسعى إلى إحياء الطاقة الخلاصية لبنك مكنامارا"، وذلك بجعل تقليص الفقر و"الشراكة" الجزأين المحوريين في جدول أعماله. وكانت حكومات العالم الثالث قد طُلب منها إشراك المنظمات غير الحكومية وجماعات المناصرة، في الإعداد للأوراق الإستراتيجية لتقليل الفقر، تلك التي يطلبها البنك الآن كدليل على أن

(17) Datta and Jones, "Preface," p. xviii.

المساعدة ستصل إلى مستحقيها من الفئات المستهدفة. وبطريقة الخليفة لمكنامارا، سعى ولفنسون أيضًا إلى دمج المستويات العليا من عالم المنظمات غير الحكومية، في الشبكات الوظيفية للبنك الدولي. وعلى الرغم من ظهور حركة مناهضة للعولمة، فإنه نجح نجاحًا كبيرًا، كما يشير "مالابي" Mallaby، "في تحويل أعداء قمة مدريد [١٩٩٤] إلى رفاق مائدة عشاء"(١٨).

وعلى الرغم من أن بعض النقاد السابقين، قد أثنى على هذا "التحول التشاركي" داخل البنك الدولي، فإن المنتفعين الحقيقيين بدوا متمثلين في منظمات غير حكومية كبيرة، وليس في الناس المحليين. وفي مراجعة لدراسات حديثة، تشمل تقريرًا رئيسًا أجراه معهد بانوس الكائن في لندن London-based Panos Institute، تخلص "ريتا أبراهامسن" Rita Abrahamsen، إلى أنه "بدلاً من تمكين 'المجتمع المدني'، فإن عملية أوراق إستراتيجية تقليص الفقر PRSP، قامت بتحصين موقف 'مثلث حديدي' صغير ومتجانس، قوامه محترفون متعددو الجنسيات، موجودون في وزارات حكومية رئيسية (خاصة وزارة المالية)، وهيئات تنموية متعددة الأطراف وثنائية، وكذلك منظمات غير حكومية دولية"(١٩). ومن ثم، فإن ما وصفه "جوزيف ستيجليتس" Joseph Stiglitz، الحائز على جائزة نوبل- خلال فترة توليه القصيرة رئيسًا لاقتصاديي البنك الدولي- بأنه ظهور لما يسمى "ما بعد-إجماع واشنطن post-Washington Consensus"، قد يكون من الأفضل توصيفه كـ"إمبريالية ناعمة soft imperialism"، حيث تكون المنظمات غير الحكومية الرئيسية، أسيرة أجندة المانحين الدوليين، وبالمثل، تكون فئات عامة الناس والفقراء، معتمدة على المنظمات غير الحكومية الدولية"(٢٠).

---

(18) Sebastian Mallaby, *The World's Banker: A Story of Failed States, Financial Crises, and the Wealth and Poverty of Nations*, New York 2004, pp. 89-90. 145

(19) Rita Abrahamsen, Review Essay: Poverty Reduction or Adjustment by Another Name?," *Review of African Political Economy* 99 (2004), p. 185.

(20) Stiglitz's, 1998 speech, "More Instruments and Broader Goals: Moving Towards the Post-Washington Consensus," is discussed in John Pender, "From Structural Adjustment to =

أما بالنسبة للخطاب البرّاق حول التحول الديمقراطي/المقرطة، والمساعدة الذاتية، ورأس المال الاجتماعي، وتقوية المجتمع المدني، فإن علاقات القوة الفعلية للمنظمات غير الحكومية في هذا العالم الجديد، لا تشبه أي شيء بقدر ما تشبه العمالة، أو علاقة الزبون الراعي clientalism التقليدية. فضلاً عن ذلك، فإنه مثلما تمت رعاية المنظمات المجتمعية من جانب الحرب على الفقر في ستينيات القرن الماضي، فإن منظمات العالم الثالث غير الحكومية أثبتت ألمعيتها في الحلول محل القيادة المحلية، وكذلك في الهيمنة على المجال الاجتماعي الذي اعتدنا تقليديا أن يشغله اليسار. حتى لو كانت هناك بعض الاستثناءات المُحتفى بها- مثل المنظمات غير الحكومية المكافحة التي تشتهر بكونها عملية، ونشطة في خلق المنتديات الاجتماعية العالمية- فإن الأثر الواسع الذي أحدثته المنظمة غير الحكومية/ "ثورة المجتمع المدني"، مثلما يقر بذلك حتى بعض باحثي البنك الدولي، كان محتمًا له أن يضفي البيروقراطية على الحركات الاجتماعية الحضرية، وينتزع الراديكالية عنها[(٢١)].

وفي هذا الصدد، تكتب عالمة اقتصاد التنمية "ديانا ميتلن" Diana Mitlin، حول أمريكا اللاتينية، واصفة، من ناحية أخرى، كيف أن المنظمات غير الحكومية "تعوق المجتمعات عن بناء قدراتها، حيث إنها تستولي على أدوار صنع القرار والتفاوض"، بينما هذه المنظمات، ومن ناحية أخرى، تكون مقيدة بفعل "الصعوبات الخاصة بأموال المانحين التي تدير العملية، وذلك بإصرارها على أموال المشاريع قصيرة الأجل، وعلى المحاسبة المالية، والمخرجات الملموسة"[(٢٢)]. وبالمثل، في حالة الأرجنتين الحضر،

='Comprehensive Development Framework': Conditionality Transformed?," *Third World Quarterly* 22:3 (2001).

(21) Imarato and Ruster, *Slum Upgrading and Participation*, p. 255.

(22) Diana Mitlin, "Civil Society and Urban Poverty – Examining Complexity," *Environmental and Urbanization* 13:2 (October 2001), p. 164.

تشكو المعمارية "روبن جازولي" Ruben Gazzoli من احتكار المنظمات غير الحكومية للمعرفة الخبيرة، وأدوار الوساطة؛ بالطريقة نفسها التي تستخدمها الآليات السياسية التقليدية(٢٣). وها هي أيضًا المؤرخة الاجتماعية "لي جيلينك" Lea Jellinek التي أمضت أكثر من ربع قرن في دراسة فقراء جاكرتا، تروي بدورها كيف أن إحدى المنظمات غير الحكومية الشهيرة، وهي بنك مصغر في أحد الأحياء، "بدأ كمشروع مع عامة الناس مدفوعًا بحاجات وقدرات النساء المحليات"، ونما بطريقة فرانكنشتاين إلى "بيروقراطية كبيرة مركبة من أعلى لأسفل وموجهًا توجيهًا تكنيكيًا"، ومن ثم كان "أقل مسئولية وأقل تدعيمًا" لـ"قاعدته من منخفضي الدخل"(٢٤).

ومن منظور شرق أوسطي، يتحسر "آصف بايات" Asef Bayat، مستنكرًا المبالغة المقترنة بالمنظمات غير الحكومية، مشيرًا إلا أن "قدراتهم على التنظيم المستقل والديمقراطي، كانت موضع مبالغة شديدة عمومًا. فالاحترافية أو مهنية المنظمات غير الحكومية، تنحو نحو التقليل من شأن المستقبل التعبوي للنشاط الاجتماعي لعامة الناس، بينما ترسخ في الوقت نفسه شكلاً جديدًا من علاقة الزبون الراعي clientalism"(٢٥). وفضلاً عن ذلك، يجادل "فريدريك توماس" Frederic Thomas، في كتابته حول كلكاتا Kolkata، بأن "المنظمات غير الحكومية تعد محافظة على نحو متأصل. فهي مدارة بموظفين عموميين متقاعدين، ورجال أعمال على رأس الهرم، نزولاً إلى الإخصائيين الاجتماعيين، من بينهم المتعلمون المتعطلون عن العمل،

(23) Ruben Gazzoli, "The Political and Institutional Context of Popular Organizations in Urban Argentina," *Environment and Urbanization* 8:1 (April 1996), p 163.

(24) Lea Jellinek, "Collapsing under the Weight of Success: An NGO in Jakarta," *Environment and Urbanization* 15 1 (April 2003), p 171.

(25) Bayat in Roy and Al Sayyad (eds), *Urban Informality. Transnational Perspective from Middle East, Latin America, and South Asia*, pp. 80-81.

وأيضًا بواسطة ربات البيوت، وغير هؤلاء ممن ليسوا لهم جذور في العشوائيات أو في الأحياء المفقَرة"(٢٦).

أما الناشط القديم في مجال حقوق السكن في مومباي "بي كيه داس" P.K. Das، فيقدم نقدًا أكثر قوة للمنظمات غير الحكومية الموجهة إلى العشوائيات، قائلاً:

> إن جهودها الدائمة تسعى إلى تحوير، وتشويه وانتزاع المثالية عن الناس، بحيث تبقيهم دائمًا بعيدين عن الصراع الطبقي. وهذه المنظمات تتبنى، وتمارس، الدعاية لسلوك التسول على أساس أرضية تعاطفية وإنسانية، بدلاً من إعمال شعورهم ووعيهم المقموع باتجاه حقوقهم. والحقيقة أن هذه الهيئات والمنظمات تتدخل تدخلاً منظمًا؛ لإعاقة المسار التحريضي الذي يسلكه الناس للحصول على مطالبهم. كما أن جهودها دائمًا ما تحرف انتباه الناس عن الشرور السياسية الأكبر للإمبريالية إلى مجرد الانشغال بالقضايا المحلية، ومن ثم تربك الناس، وتجعلهم مشوشين في تمييز الأعداء من الأصدقاء(٢٧).

إن شكاوى "داس" نجدها في صيغة أكبر داخل التفاصيل التي تسوقها "جيتا فرمان" Gita Verman في كتابها المثير للجدل *إضفاء العشوائية على الهند Slumming India*، الصادر عام ٢٠٠٢. وهو يمثل هجومًا شرسًا على العقيدة الاحتفائية للمنظمات غير الحكومية الحضرية، وفي الغالب بسخرية على النمط السويفتي Swiftian(*). وبوصفها مخططة متمردة، ومنفية من قبل

---

(26) Thomas. *Calcutta Poor*, p. 131.

(27) P.K. Das, "Manifesto of a Housing Activist," in Patel and Thorner, *Bombay*, pp. 179-80.

(*) نسبة إلى جوناثان سويفت الأديب الإنجليزى الأيرلندى الذى عاش بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، واشتهر بمؤلفاته الساخرة المنتقدة لعيوب المجتمع البريطاني فى أيامه والسلطة الإنجليزية فى أيرلندا. (المترجم).

ما تسميه "النظام"، تشخص "فرمان" المنظمات غير الحكومية كـ"طبقة جديدة" من الوسطاء الذين يغتصبون، بفضل ونعمة الخيريين الأجانب، أصوات الفقراء الحقيقية. وهي تعبر عن سخطها على نموذج البنك الدولي لتطوير العشوائيات الذي يسلم بالعشوائيات كواقع داخلي، وأيضًا تعلن رفضها للحركات المناهضة للإخلاء، تلك التي ترفض رفع مطالب أكثر راديكالية. وتقول في هذا السياق: إن "الحق في البقاء لا يمثل ميزة كبيرة.. ربما قد يوقف البلدوزر الذي يهجم في المناسبات، ولكن بالنسبة لبقية الأيام، فإنه يصنع تغييرًا طفيفًا في العنوان من 'مشكلة' إلى 'حل'، مع بعض الرطانة الابتكارية في طبعة جميلة". ثم تضيف "فرمان" في إشارة محددة إلى دلهي أن "إنقاذ العشوائيات تترجم إلى التصديق على عدم التكافؤ، والتمييز ضد نسبة تتراوح من خمس إلى ربع سكان المدينة الذين يعيشون على ٥% فقط من أراضي المدينة"(٢٨).

كما تشمل رواية "فرمان" أيضًا تعرية مدمرة لاثنين من المشاريع الحديثة لتحسين العشوائيات، وهما من بين أكثر المشاريع شهرة في الهند. فالخطة الداخلية التي ترعاها المملكة المتحدة UK-sponsored Indore scheme، ونالت عليها جوائز من مؤتمر الموئل الثاني في إسطنبول عام ١٩٩٦، ومن مؤسسة "أغاخان" عام ١٩٩٨، وكان من المفترض لهذه الخطة أو المشروع أن يمد أسر المنطقة العشوائية في دلهي بالمياه ووصلات الصرف الصحي على نحو فردي. تقول "فرمان": إن هذا كان مجرد "نجاح مزيف أسفر عن كارثة مدنية". فعلى الرغم من أن الأحياء أصبح لديها الآن صرف صحي، فإن السكان لا يتمتعون بما يكفيهم من المياه للشرب. ومن ثم فالمياه أقل مما يكفي لصرف النفايات، وبالتالي فإن المجاري أصبحت مسدودة في البيوت والشوارع، فانتشرت الملاريا والكوليرا، وبدأ السكان

(28) Gita Verma, *Slumming India: A Chronicle of Slums and Their Saviours*, New Delhi 2002, pp 150-52.

يلقون حتفهم من المياه الملوثة. وتكتب "فرمان" إن كل صيف يأتي "يجلب معه للمنتفعين من المشروع (وربما للأشخاص المتأثرين بالمشروع) مزيدًا من نقص المياه، ومزيدًا من المجاري المسدودة، ومزيدًا من الأمراض، ومزيدًا من فوضى طفح المجاري، ومزيدًا من الأسباب لرفع الشكاوى حول البنية التحتية المتسيبة للمشروع وبؤس حالتها"[٢٩].

وبالدرجة نفسها تواصل "فرمان" نقدها اللاذع حول مشروع "أرانيا" Aranya لإعادة التوطين، والحائز أيضًا على الجوائز: أحد أنواع المشاريع التي تعيد تسكين عدد صغير فقط من ضحايا الإخلاء، أو واضعي اليد، ولكنه يضفي الاحتفال والتهليل الدولي على منقذيهم "منقذي العشوائيات". وفي هذه الحالة، فإن معظم إنجازات المشروع، كانت حبرًا على ورق بالمعنى الحرفي للكلمة.

> ولكن، الحقيقة وراء مشروع "أرانيا" هي أن عناصره الرابحة غير موجودة ببساطة على أرض الواقع. فلا يوجد مركز للبلدة، ولا يوجد متنزهات خضراء للمشاة، ولا يوجد ٤٠٠,٠٠٠ نسمة من الفقراء يعيشون هناك. وهذه الأشياء ليست موجودة سوى في الأدبيات عن أرانيا، ولأكثر من عقد كامل ظللنا نحتفل بمجرد رسومات، وتصميم فكرة، لسنا متأكدين من أنها ستفلح أم لا؛ لأنها لم تختَبَر بعد[٣٠].

حتى المراقبين الأقل قسوة من "فرمان"، يتفقون على أنه في الوقت الذي قد تسفر فيه مقاربة البنك الدولي لتطوير العشوائيات، عن قصص نجاح محلية، فإنها تلقي بالأغلبية العظمى من الفقراء وراء ظهرها. وهنا تسجل

---

(٢٩) المرجع السابق، ص. ٨-١٥ و٣٣-٣٥.

(٣٠) المرجع السابق، ص. ٩٠-٩١.

الناشطة والكاتبة "أروندـاتي روي" Arundhati Roy ملاحظـة قائلـة: "إن المنظمات غير الحكومية تنهي العمل مثل الصافرة الموجودة في حلة الطهي التي تعمل بضغط البخار. فهم يحولون الغضب السياسي ويسمون بـه، ويتأكدون من أنه لا يمكن أن يراكم للوصول إلى الهـدف المنـشود"(٣١). إن التأكيدات الرسمية المعسولة حول "التمكين" و"الحكم الرشيد"، تُنحّـي جانبًـا القضايا الجوهرية لانعدام التكافؤ والدَّين العالمي، وهي أمور تعتبر في نهاية الأمر مجرد ألعاب لغوية، تغطي غياب أية إستراتيجية كبيرة لتخفيف الفقـر الحضري. وربما يكون هذا الشعور المذنب بالفجوة، بين الوعـد والحاجـة مفسرًا لبعض العاطفة التي تحتـضن بهـا المؤسـسات الماليـة المقرضـة والمنظمات غير الحكومية أفكارَ "إرنانـدو دو سـوتو" Hernando de Soto، رجل الأعمال البيروفي الذي أصـبح الأب الروحـي العـالمي للـشعبوية النيوليبرالية.

فبظهوره كنسخة التسعينيات من "جون ترنر" John Turner، يؤكد "دو سوتو" أن مدن العالم الثالث لا تتضور جوعًا مـن الاسـتثمار والوظـائف، وفرص العمل، مثلما تعاني من نقص مصطنع في حقوق الملكية. وبتحريـك العصا السحرية الخاصة بالحصول على الأحقية فـي الأرض land-titling، كما يزعم "دو سوتو"، فإن مؤسسته معهد الحرية والديمقراطية Institute for Liberty and Democracy، يمكن أن يجمع كميات هائلة من رأس المال مـن هذه الأحياء الفقيرة والعشوائيات نفسها. فالفقراء، كما يبرهن، هم في الحقيقة أغنياء، ولكنهم عاجزون عن الوصول إلى ثرواتهم (العقارات المحسنة فـي القطاع اللارسمي)، أو تحويلها إلى رأس مال سـائل؛ لأنهـم لا يمتلكـون صكوكًا رسمية أو حقوق ملكية. ومن ثم فأحقية الأرض أو امتلاكهـا، كمـا

---

(31) Arundhati Roy, *The Checkbook and the Cruise Missile: Conversations with Arundhati Roy*, Boston 2004, p. 82.

يزعم "دو سوتو"، من شأنها أن تخلق على الفور تكافؤًا هائلاً، بتكلفة قليلة للحكومة أو منعدمة. ومن ثم، فإن جزءًا من هذه الثروة الجديدة، بدورها، ستدر رأس مال للمقاولين الصغار المحتاجين إلى الائتمان لخلق فرص عمل جديدة في العشوائيات، وهذه الأخيرة ستصبح وقتئذ "أفدنة من الماس". وهو يتحدث عن "تريليونات الدولارات، جاهزة للاستخدام لو استطعنا فقط أن نفك سر كيفية تحويل الأصول إلى رأسمال حي"(٣٢).

وللسخرية، فإن "دو سوتو"، مسيح رأسمالية الشعب، يزيد قليلاً في اقتراحاته من حيث الجانب العملي والممارسة، عما حارب اليسار من أجله طويلاً في أمريكا اللاتينية، أو الحزب الشيوعي الهندي (الماركسي) في كلكاتا، حين يقترح "ضمان حيازة المستوطنين غير الرسميين". ولكن "جيفري باين" Geoffrey Payne الخبير في حيازة الأرض، يوضح كيف أن الحصول على سندات الملكية سلاح ذو حدين، وهي خطوة كما يقول: "تمثل بالنسبة للملاك اندماجهم الرسمي في المدينة الرسمية، والفرصة لبلوغ ما قد يمثل أصولاً متزايدة تزايدًا هائلاً. وبالنسبة للمستأجرين، أو أولئك العاجزين عن تسديد ما يتبع ذلك عادةً من ضرائب إضافية، فإن خطوة كهذه قد تدفع بهم جميعًا إلى خارج السلم السكني". وبمعنى آخر، فإن امتلاك الأرض يسرع من التفريق الاجتماعي داخل العشوائيات، ولا تفعل الملكية شيئًا لإنقاذ المستأجرين، وهم الأغلبية الفعلية من الفقراء في كثير من المدن. وهنا يحذِّر "باين" من خطورة أن هذه الخطوة، قد تنذر بـ"خلق طبقة تحتية كبيرة، محرومة من الوصول إلى أي شكل من أشكال السكن المقبول الذي يمكن تحمل أعبائه المالية"(٣٣).

---

(32) Hernando de Soto, *The Mystery of Capital: Why Capitalism Triumphs in the West and Fails Everywhere Else*, New York 2000, pp. 301-31.

(33) Geoffrey Payne, unpublished 1989 report, quoted in Alan Gilbert and Ann Varley, *Landlord and Tenant. Housing the Poor in Urban Mexico*, London 1991, p. 4.

ويؤكد "بتر وارْد" Peter Ward على أن امتلاك الأرض– أو بالأحرى "إضفاء النظامية regularization"– في مكسيكو سيتي، كـان بمثابـة نعمـة مختلطة *للمستوطنات العشوائية*. "فالأمر ليس ببساطة وسيلةً لبسط سـندات الملكية الكاملة على الفقراء، بل إنها– وعلى نحو مضطرد– وسيلة لـدمجهم في الوعاء الضريبي". كما أن منافع القدرة على اسـتخدام المنـازل كـسند قانوني، يقابلها في التأثير أن تكون مكشوفًا، وواقعًا تحت جبـاة الـضرائب والمرافق البلدية. ومن ثم، فإن إضفاء النظامية أيضًا يقوض روح التـضامن داخل العشوائيات؛ بإضفاء الفردية على النضال من أجل السكن، وذلك بمنح مُلاّك المنازل المستحقين فوائد ومصالح، تختلف عن مصالح غيـرهم مـن سكان العشوائيات. ويدفع "وارد" بأن "المؤجرين، وواضعي اليد المعرضـين للمضايقات، والمستأجرين ممن تمت إزاحتهم من وسط المدينة، من المرجح أن يكونوا أكثر راديكالية، واستعدادًا لشن مظاهرات مناهضة للحكومة، مـن أولئك الذين تم شراؤهم من قبل الحكومة عبر سياسات إسكانية متتالية"(٣٤).

وقد كانت هذه هي حالة مدينة ساو باولو، حيث حاولت إدارات حـزب العمل، بداية من عام ١٩٨٩، تنظيم وتطوير "المدينة غير الشرعية الـضخمة" الخاصة بالفقراء. وعلى الرغم من أن إصلاحات حزب العمال أسـفرت عـن بعض النتائج التي كانت محل إعجاب، فإن "سوزانا تـاكنر" Suzana Tachner التي درست الأثر المحلي بعناية، تشير إلى التداعيات السلبية أيضًا: "للأسـف، مع التطوير، فإن أسواق التعامل في العقارات من الباطن، تتكثف في *المناطق العشوائية favela*. وتصبح الأرض والمساكن سلعا استهلاكية ترتفع أسـعارها في السماء". ومن بين النتائج ظهور ما تسميه "تاكنر" "عـشوائية فـي مـدن الصفيح"، حيث يتم إحلال منازل واضعي اليد، بمساكن جماعية بائسة، مكونة

---

(34) Ward, *Mexico City*, p 193.

من غرفة واحدة للإيجار لأفقر الفقراء[٣٥]. بمعنى آخر، فإنه بدون تدخل عملي حاسم في أسواق العقارات، تظل ملكية الأراضي في حد ذاتها بالكـــاد رافعـــة أرشميدية Archimedean لرفع ثروات الكتلة الأكبر من فقراء سكان الحضر.

ولكن، الحل أو العلاج الشامل الذي يقدمه دو سوتو، يظل علاجًا شعبيًا بدرجة كبيرة، ولأسباب واضحة: فإستراتيجية تمليك الأراضي، تَعِد بمكاسب اجتماعية كبيرة بمجرد جرة قلم. ومن ثم، تبث الحياة من جديد في النمـــاذج المساعدة الذاتية المتداعية التي يروج لها البنك الدولي. كما أن إســـتراتيجية تمليك الأراضي تتوافق تمامًـــا مـــع الأيديولوجيـــة النيوليبراليـــة المهيمنـــة والمناهضة للدولة، بما في ذلك التأكيد الحالي للبنك الـــدولي علـــى تيـــسير الحكومة لأسواق السكن التابعة للقطاع الخاص، والترويج لملكية المنازل على نطاق واسع. وهو ما يعد بالدرجة نفسها- أي علاج دو سوتو الشامل- يعد جذابًا للحكومات؛ لأنه يعدهم بشيء ما- استقرار، أصوات، ضرائب- نظير لا شيء في الحقيقة. وهنا يوضح "فيليـــب أمـــيس" Philip Amis أن "قبـــول المستوطنات غير المصرح لها، هي نسبيا طريقة غير مؤلمة، ومن المحتمل أن تكون مربحة لتهدئة فقراء الحضر في العالم الثالـــث"[٣٦]. ومـــن ناحيـــة أخرى، وكما يؤكد كلٌ من الجغـــرافيين آلان جيلبيـــر Alan Gilbert، و"آن فارلي" Ann Varley أنه في حالة أمريكا اللاتينية، فإن نهج دو ســـوتو يعـــد إصلاحًا كلاسيكيًا محافظًا: "الطبيعة الجوهرية لعملية الإســـكان بالمـــساعدة الذاتية قد... أسهمت في إحداث السكينة السياسية. وقد كان لانتـــشار ملكيـــة المنازل، أن تضفي الحالة الفردية على ما قد كان من الممكن أن يشكل كفاحًا مجتمعيًا واسعًا"[٣٧].

---

(35) Suzana

(36) Amis. "Commercialized Housing in Nairobi," p. 237.

(37) Gilbert and Varley, *Landlord and Tennant*, p. 11.

وعلى نفس المزاج، يقدم إرهارد برنر بعض الأمثلة البائسة من مانيلا، حول كيف أسفرت عمليات شراء الأرض، وصياغة الأحقية في الملكية، عن تفريق وتمييز اجتماعي رأسي، ومنافسة مرة داخل حركات واضعي يد، كانت ذات يوم حركات مكافحة. فنراه يكتب:

> إن مهمة تثبيت القيمة الاجتماعية للأرض، والحصول على موافقة عليها من الأعضاء، وفي النهاية، يتم طرد أولئك العاجزين أو غير المستعدين للسداد، يعد اختبارًا ومحنة لجميع الجمعيات والروابط المحلية. فالوقت الذي كان يمكن فيه للـ K-B [جمعية واضعي اليد] أن تظن خطئًا أنها جزء من "حركة اجتماعية" مناهضة للتنظيم، هذا الوقت قد ولى وراح بلا رجعة لا محالة. والآن وهم يصبحون مالكي أراض، فإن زعماء جمعية واضعي اليد يعتبرون تحالفهم مع منظمات واضعي اليد من الأمور الغابرة المهجورة التي لا معنى لها، ويؤكدون علاقتهم مع المؤسسات الحكومية[٣٨].

أرباح الفقر:

حتى في ظل تلاعب وعبث المنظمات غير الحكومية ومقرضي التنمية مع "الحكم الرشيد"، ومع التنمية المتنامية للعشوائيات، فإن قوى السوق، الأقوى بدرجة لا تقارن، تدفع أغلبية الفقراء أبعد وأبعد إلى هوامش الحياة الحضرية. فقد تم التحرر إلى أقصى حد من آثار إنجازات العمل الخيري الدولي الإيجابية ومن تدخل بقايا الدولة، وذلك بفعل الآثار السلبية التي تركها على أرض الواقع تضخم المعاملات والمضاربات في مجال الملكية. فأسواق العقارات، كما رأينا في حالة الحضرنة القائمة على القرصنة، عادت إلى

(38) Berner, *Defending a Place*, p. 179.

العشوائيات مُحمَّلة بثأر. وعلى الرغم من منهجية واضعي اليـد البطـوليين المتواصلة، والأرض الحرة، فإن فقراء الحضر يـصبحون، وعلـى نحـو متزايد، أتباعًا للإقطاعيين أو أصحاب الأرض، والتطوير.

وبالطبع، فإن ملكية أراضي العشوائيات slumlordism شر قديم، وإنما تجسداته المعاصرة هي التي أثارت وجه المقارنة مع أسلافه في القرن التاسع عشر. ففي تحليله للاقتصاد السياسي لحي "إيست إند" East End فـي لنـدن (أكثر الأحياء فقرًا في العالم الفيكتوري)، وصف المؤرخ جاريث سـتيدمان جونز Gareth Stedman Jones دائرة مفرغة من السيطرة على السكن، ورفع قيم الإيجار، والتكدس، والمرض. وقد وصـف ذلـك قـائلاً: إن "الأربـاح المرتفعة لم تنتج في حقيقة الأمر من رواج الاستثمار في السكن بالضواحي، بل من رواج القيمة الإيجارية الباهظة في المنطقة الداخلية"[٣٩]. وقد اجتذبت الأحياء الفقيرة والعشوائيات، مثل "سـانت جيلـز" St. Siles، و"وايتـشابل" Whitechapel، و"بيثنال جرين" Bethnal Green، المـستثمرين الأرسـتقراط "ممن خاب سعيهم وراء جني الأرباح، أو العائدات، المرتفعة من الاسـتثمار الأجنبي". وكذلك الطبقات الوسطى المقتصدة ممن كانوا يمثل لهم السكن في المدينة الداخلية "الوسائل الأكثر شعبية ومنالاً لتحقيق رأس المـال". ويجـد جونز أن قطاعًا عرضيًا كبيرًا من مجتمع لندن، يتراوح بين أنـاس كبـار أصحاب أراضٍ في الأحياء الفقيرة، مثل "تومـاس فلايـت" Thomas Flight (المشهور بانتزاعه الإيجار من أكثر من ١٨,٠٠٠ مسكن) وبـين "صـغار التجار، والبنائين المتقاعدين، وأعضاء الأبرشيات الزارعين أو الذين يملـك الواحد منهم منزلاً واحدًا". هؤلاء كان لديهم رهان ربحي في إفقار وزيـادة بؤس immiseration عشوائية "إيست إند"[٤٠].

---

(39) Gareth Stedman Jones, *Outcast London: A Study in the Relationship Between Classes in Victorian Society*, London 1971, pp. 209.

(40) المرجع السابق، ص. ٢١٢-١٣.

وبالمثل، في حالة نابولي *نهاية القرن* التاسع عشر (تعد بمثابة "كلكاتا أوروبا")، تعجّب المراقبون المعاصرون من معجزة الإيجارات الأعلى دائمًا، تلك التي عادت من عشوائيات، ومن نُزُل أكثر فقرًا وبؤسًا. فيكتب "فرانك سناودن" Frank Snowden في دراسته الاستثنائية للفقراء من أهل نابولي:

> بنهاية القرن التاسع عشر، ارتفع معدل الإيجارات خمسة أضعاف قيمته، بينما ازداد الفقراء فقرًا. فضلاً عن ذلك، ويا للسخرية، فإن أعلى الإيجارات للمتر المربع الواحد، تلك التي كانت تدفع في إيجار الغرف الأكثر بؤسًا وبلاءً في الأحياء العشوائية. لأن هذه الغرف أقل تكلفة من غيرها بالمعنى المطلق للكلمة، فإن الطلب عليها كان الأعلى. وللتعاسة، فإن الطلب على الإقامة في العشوائيات قد ازداد مع تزايد معدلات الفقر، وهو ما أعطى دفاعات أكثر للارتفاع الجنوني في أسعار الإيجار، وعلى أقل تقدير، فقد أثر بدوره بالطبع على قدرة الناس على السداد(٤١).

إن الفقر الحضري لا يزال يمثل المنجم الذي تُستخرج، أو تُنتزَع، منه الأرباح الفاحشة، والتي تشكل مفارقة فجة. فعلى مدى أجيال طويلة، ظلت النخب من أصحاب الأراضي الريفية في العالم الثالث، تحول نفسها إلى أصحاب أراضٍ في الأحياء الفقيرة الحضرية. وهنا يكتب "هانز-ديتر إيفر" Hans-Dieter Evers و"روديجر كورف" Rudiger Korff، في هذا السياق قائلين: إن "غياب أصحاب الأراضي يُعد ظاهرة حضرية بشكل كبير"(٤٢). والقاعدة الواسعة نسبيًا من ملكية المساكن أو وضع اليد بطريقة شرعية في أمريكا اللاتينية، تمثل وجه النقيض للتركزات الرائعة لملكية الأراضي في

(41) Frank Snowden, *Naples in the Time of Cholera, 1884-1911*, Cambridge 1995, p. 39.

(42) Evers and Korff, *Southeast Asian Urbanism*, p. 180.

كثير من المدن الأفريقية والآسيوية. ففي دراستهما المقارنـــة الاستكـــشافية الرائدة، اكتشف الباحثان الألمانيان "إيفر" و"كورف" أن متوسط ما مـــساحته ٥٣% من الأرض في ١٦ مدينة من مدن جنوب شرق آسيا، كانت مملوكـــة لـــ٥% فقط من كبار أصحاب الأراضي، مقارنة بنسبة ١٧% من مـــساحة الأراضي يملكها ٥% من كبار أصحاب الأراضي في المدن الألمانيـــة(٤٣). والحقيقة هي أن ما يقرب من نصف "مانيلا"، وفقًا لكـــلام "إرهـــارد برنـــر" Erhard Berner، تملكه حفنة من الأسر(٤٤).

في الوقت نفسه، نجد في الهند، أن ما يقدر بثلاثـــة أربـــاع المـــساحة الحضرية، يملكها ٦% من الأسر الحضرية، وأن ٩١ شخصًا فقط يسيطرون على أغلبية الأراضي الخالية في مومباي(٤٥). وفـــي الوقـــت نفـــسه، فـــإن المضاربة في الأراضي، تضر إضرارًا شديدًا بإصلاح السكن في كاراتشي، وغيرها من المدن الباكستانية الكبيرة. وذلك حسبما توضح "إلـــين برنـــان" Ellen Brennan:

> لقد حاولت حكومة كاراتشي السيطرة على المضاربات بالحد من عدد قطع الأراضي التي يمكن للفرد أن يمتلكها. وقد تم التحايل على القانون؛ باستخدام وكلاء الأسر. فضلاً عن هذا، فإن ضرائب الملكية ومكتسبات رأس المال في كاراتـــشي، ساعدت المستثمرين على امتلاك أراض لم ينتووا يومًـــا أن يشغلوها. على سبيل المثـــال، فـــإن مـــن ٨٠٠,٠٠٠ إلـــى ١٠٠,٠٠٠ قطعة أرض مـــن إجمـــالي ٢٦٠,٠٠٠ قطعـــة

---

(43) المرجع السابق، حيث يؤكد المؤلفان أنه "على الرغم من أهمية الموضوع، فإن البيانات المتوفرة عن ملكية الأرض تعد نادرة للغاية. وهذا ما يتناقض بحدة مع البحث الدائر عن حيازة الأرض في المناطق الريفية." (ص. ١٨٤).

(44) Berner, *Defending a Place*, p. 21.

(45) Baken and van der Linden, *Land Delivery for Low Income Groups in Third World Cities*, p. 13.

طورتها هيئة التنمية في كاراتشي خلال السبعينيات من القرن المنصرم تم تملكيها بغرض الاستثمار وبقت خالية لعشر سنوات لاحقة(٤٦).

فضلاً عن ذلك، فإن هذا التيار المتجه صوب حالة *الممتلكات العقارية الواسعة latifundia*، يتجذر وينزق في أزمة الاقتصاد الإنتاجي وانحداره. ومن المفترض أنه كانت هناك ذات يوم قيم تتعلق بالأرض الحضرية في علاقتها المتزامنة مع النمو الاقتصادي والاستثمار الحضري. ولكن في حقيقة الأمر، ومنذ أواخر السبعينيات، تفككت هذه العلاقة؛ حيث أصبح العقار وعلى نحو متزايد فخاً كبيرًا للمدخرات الوطنية. وقد دمرت أزمة الديون المتشابكة، والتضخم المستفحل، والعلاج بالصدمة من قبل صندوق النقد الدولي أواخر السبعينيات معظم حوافز الاستثمار الإنتاجي في صناعات السكن، والتشغيل العام. وقد سارت برامج التكيف الهيكلي بدورها بالمدخرات المنزلية من التصنيع والرفاهة في الطريق إلى المضاربة في الأراضي. ويكتب عالم الاقتصاد السياسي "كوادو كونادو- آجيمانج" Kwadwo Konadu- Agyeman عن أكرا قائلاً: "إن معدل التضخم المرتفع، ومقياس التدهور الهائل، كلها عوامل أدت إلى تدني قيمة المدخرات، وجعلت الاستثمار في الأراضي غير المطوَّرة أو المطورة جزئيًا، هو الطريقة الأكثر أمانًا وربحًا، أكثر من امتلاك الأصول، والتي يمكن أيضًا بيعها بالعملة الصعبة"(٤٧).

وقد تمثلت النتيجة في ظهور أو تكريس فقّاعات الملكية، وسط حالة من الركود أو حتى التدهور الاقتصادي العام. ففي إسطنبول، ومثلما يشير "كاجلار قيدر" Caglar Keyder، "وسط بيئة من التضخم في ثمانينيات القرن

(46) Brennan. "Urban Land and Housing Issues Facing the Third World," p. 78.

(47) Kwadwo Konadu-Agyemang. *The Political Economy of Housing and Urban Development in Africa Ghana's Experience from Colonial Times to 1998*. Westport 2001, p. 123

الماضي، أصبحت العقارات هي القطاع الأعلى ربحًا... حيث يتقاطع كل من عوامل الفساد السياسي، والتطوير الرأسمالي، والقطاع المالي الدولي معًا في هذا القطاع"[٤٨]. في أنقرا على سبيل المثال، تدفقت أموال ذكية في السوق الرائجة لتحويل العشوائيات إلى أحياء سكنية، مكونة من مبانٍ شاهقة بنظام الشقق. وهنا يوضح أوزليم دوندار Ozlem Dundar، أن المواقع المركزية للأحياء العشوائية وضع اليد، جعلتها أهدافًا للتجديد والثراء، لا يمكن مقاومة إغرائها من قبل كبار المطوِّرين الذين "كانوا هم وحدهم من يتمتعون بالنفوذ السياسي والقوة المالية، اللازمين لحل مشكلات التملك المربكة في مناطق *العشوائيات gecekondu*"[٤٩].

وفي العالم العربي، وكما شددت "جانيت أبو لوغد" كثيرًا، فإن عائدات النفط، والتحويلات من الخارج لا تتدفق في وسائل الإنتاج، "بل في الأرض كـ'بنك' لرأس المال. وقد أسفر هذا عن مضاربة عشوائية في الأراضي (وهو ما يجعل التخطيط الرشيد للمدينة أمرًا مستحيلاً)، وهو ما نتج عنه تضخم هائل في قيم الأرض، بالإضافة، في بعض الحالات، إلى الزيادة المفرطة في الشقق الفاخرة"[٥٠]. وفي حالة مصر، على الأقل، كان رواج أرض الحضر في التسعينيات مدعومًا، نظرًا لوجود دعم عام هائل للقطاع البنكي والمطورين المرضي عنهم سياسيًا. وكما يوضح الجغرافي تيموثي متشيل Timothy Mitchell، في دراسته البارزة لواحدة من ضواحي القاهرة، تسمى "دريم لاند":

> كان التكيف الهيكلي مقصودًا به توليد رواج في الصادرات، لا رواجًا في البناء. وكانت مصر في طريقها للرخاء ببيع

(48) Keyder, "The Housing Market from Informal to Global," p. 153.

(49) Ozlem Dundar, "Informal Housing in Ankara," *Cities* 18:6 (2001), p. 393.

(50) Janet Abu-Lughod, "Urbanization in the Arab World and the International System," in Gugler, *Cities of the Developing World*, p. 196.

الفاكهة والخضروات لأوروبا والخليج، لا بتجريـد حقولهـا لبناء الطرق الدائرية. غير أن العقارات حلـت الآن محـل الزراعة، بوصفها ثالث أكبر قطاعـات الاسـتثمار غيـر المرتبطة بالنفط، وذلك بعد التصنيع والسياحة. والحقيقة، أنه قد يكون القطاع الأكبر قاطبة خارج قطاع النفط، حيـث إن معظم استثمارات السياحة تذهب إلى بناء قـرى سـياحية، وبيوت قضاء الإجازات، وهو شكل آخر من العقارات(٥١).

حتى أنه مع تضاعف مساحة القاهرة العاصمة في خمـس سـنوات، وتمدد الضواحي الجديدة إلى داخل الصحراء، تظل أزمة السكن أزمة حادة: فالوحدات السكنية الجديدة باهظة التكاليف بالنسبة للفقراء، وكثير منها خـالٍ غير مشغول؛ لأن المُلاّك خارج البلاد، يعملون في الـسعودية أو الخلـيج. وتكتب "جيفري ندوروسك" Jeffrey Nedoroscik في هذا السياق قائلـة: "إن الارتفاع بالبنايات السكنية إلى أعلى؛ لتحتوي على مليـون شـقة، تنتـصب خاوية... يعني أنه لا توجد أزمة سكن علـى أرض الواقـع. والحقيقـة أن القاهرة مليئة بالبنايات شبْه الخالية من السكان"(٥٢).

أما "دكا المدينة الكبرى، الأفقر على مستوى العالم"؛ مثلما توضح "إلين برنان" Ellen Bernnan، "فقد شهدت مضاربة مكثفة علـى الأراضـي فـي المناطق الحضرية. فهناك ما يقدر بثلث التحويلات الخارجية ذهبـت إلـى شراء الأراضي. ومن ثم، فقد ارتفعت أسعار الأراضي من ٤٠ إلـى ٦٠% تقريبًا، أسرع من أسعار أية سلع وخدمات أخرى. وهي الآن أسعار خـارج نطاق مستويات الدخل تمامًا"(٥٣). المثال الآخر من جنوب آسيا هو كولومبو،

---

(51) Timothy Mitchell, "Dreamland The Neoliberalism of Your Desires," *Middle East Report* (Spring 1999), np (internet archive)

(52) Nedoroscik, *The City of the Dead*, 42.

(53) Bernnan, "Urban Land and Housing Issues Facing the Third World," p. 76.

"حيث ازدادت قيم الملكية ألف مرة ضعف قيمتها التي كانــت عليهــا فــي سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، الوضع الذي دفع أعدادًا كبيــرة مــن سكان الحضر المسنين والفقراء، إلى السكن في منــاطق علــى الأطــراف الحضرية، أو ما قبل الحضرية"(٥٤).

في الوقت نفسه، فإن المساكن العشوائية المزدحمة التي لا تلقى سوى صيانة ضعيفة، غالبًا ما تكون استثمارًا مربحًا في كل قدم مربع منها، أكثــر من أنواع العقارات الأخرى.. ففي البرازيل، حيث يعمل كثيــر مــن أبنــاء الطبقة المتوسطة كأصحاب أراضٍ للفقراء، فإن امتلاك عدد قليل من المساكن المجمعة، يدفع عددًا كبيرًا من المهنيين والمديرين في المناصب المتوســطة، إلى نمط الحياة الفاخرة على نموذج كوباكابانا(*) Copacabana وقــد فــوجئ باحثو "برنامج الموئل" التابع للأمم المتحدة عندما وجدوا أن القيمة الإيجارية في المساكن العشوائية لكل متر مربع في ساو باولو، تفوق ٩٠% تقريبًا قيمة الإيجار في السوق الرسمية(٥٥)".

وفي كيوتو Quito يبيع أصحاب العقارات جزيئات مــن الأرض فــي التلال والأودية المنحدرة– عادة ما تكون مرتفعة عن مستوى حــد المدينــة بحوالى ٢٨٥٠ مترًا، وهو أعلى مستوى يمكن للمرافق البلدية أن تضخ المياه إليه– وذلك من خلال وسطاء المهاجرين المتعطشين للأرض، تاركين السكان فيما بعد يحاربون من أجل خدمات المدينة(٥٦). وفي مناقشته "سوق الــسكن

(54) Dayaratne and Samarawickrama, "Empowering Communities. p. 102.

(*) أحد أشهر الشواطئ في العالم، ومركز سياحي مزدهر. تحتل كوباكابانا المرتبة الحادية عشرة في مؤشر التنمية البشرية في منطقة ريو دي جانيرو. في العام ٢٠٠٠ منحت كوباكابانا ٠,٩٠٢ نقطة، وهي أعلى من مؤشر التنمية البشرية في البرتغال مثلا، والذي سجل حينها ٠,٨٩٧ نقط. لكن على الرغم من مؤشر التنمية المرتفع لكوباكابانا فهناك أربع مناطق فقيرة تطل عليه. (المترجم).

(55) Fix, Arantes and Tanaka. "Sao Paulo, Brazil." p. 18.

(56) Glasser, "The Growing Housing Crisis in Ecuador," p. 151. For Quito. see also Gerrit Burgwal, *Caciquismo Paralelismo: The History of a Quito Squatter Settlement*, Amsterdam 1993.

بالقرصنة" في بوجوتا، يزعم عالم الاقتصاد "أومبيرتــو مولينــا" Umberto Molina المتخصص في الأراضي، أن المــضاربين يطــوّرون الأطــراف الحضرية بــ"أسعار احتكارية" وبأرباح هائلة"(٥٧).

وفي كتابها عن "لاجوس"، تبين "مارجريــت بيــل" Margaret Peil أن "وضع اليد أصبح أقل كثيرًا... مما هو عليه في شرق أفريقيــا أو أمريكــا اللاتينية؛ لأن انخفاض مستوى السيطرة الحكومية علـــى البنـــاء، يعنـــي أن المساكن القانونية، يمكن بناؤها بسهولة وبهدف الربح: فتسكين الفقراء كانت تجارة جيدة... والاستثمار المتاح الأكثر أمانًا، وهو ما أنتج عائـــدًا ســـريعًا لرأس المال"(٥٨). ويفضل أصحاب العقارات الأكثر ثراءً، التأجير بدلاً مـــن البيع؛ بحيث يمكنهم بسط سيطرتهم على الأرباح في سوق الأراضي ســـريع الارتفاع(٥٩). وكما هو حاصل في كينيا، فإن الساسة، جنبًا إلى جانب العُمــد التقليديين، أصبحوا بارزين وسط كبار مضاربي الإسكان العشوائي(٦٠).

في الوقت نفسه، تعد عشوائيات نيروبي المملوكة للساسة وأبناء الطبقة العليا حقولاً واسعة للإيجار. وعلى الرغم من أن معظم التطور في الإيجـــار الخاص "لا يحتكم إلى أساس قـــانوني رســـمي... فـــإن علاقـــات الملكيـــة والممتلكات [والفضل للنظام السياسي الفاسد] موجـــودة بـــالمعنى الحقيقـــي للكلمة"(٦١). وفي منطقة "ماثير فور إيه" Mathare 4A العشوائية في نيروبي، حيث يقطن ١٢,٠٠٠ نسمة- أفقر الفقراء- يأجّرون أكواخًا رثة مبنية مـــن الطين والقش، مساحة الواحد منها ٩ × ١٢ مترًا، نجد أصحاب الأراضـــي،

(57) Umberto Molina, "Bogota: Competition and Substitution Between Urban land Markets," in Baken and van der Linden, p. 300.

(58) Margaret Peil, *Lagos: City Is the People*, London 1991, p. 146.

(59) Margaret Peil, "Urban Housing and Services in Anglophone West Africa," in Hamish Main and Stephen Williams (eds), *Environment and Housing in Third World Cities*, Chichester 1994, p. 176.

(60) Drakakis-Smith, *Third World Cities*, p. 146.

(61) Amis, "Commercialized Rental Housing in Nairobi," p. 245.

وفقًا لأحد الباحثين التابعين لوزارة الطرق، يتمتعون بالقوة والنفوذ خلف المشهد، بل غالبًا ما يكونون من الشخصيات العامة البارزة، أو ممن لهم علاقة بهم، أو من الأفراد، أو المؤسسات الثرية جدًا"(٦٢). وفي دراسة أخرى يكتب باحثو الأمم المتحدة عن "سبعة وخمسين بالمائة من المساكن في منطقة عشوائية واحدة في نيروبي، يملكها ساسة وموظفون عموميون، وأن عشش الصفيح تمثل السكن الأكثر ربحًا في المدينة. فمالك العشوائية الذي يدفع ١٦٠ دولارًا أمريكيًا، مقابل عش مساحته ١٠٠ قدم مربع، يمكنه استعادة كامل الاستثمار خلال شهر واحد"(٦٣).

إن المضاربات في الأراضي، كما توضح الحالات المرصودة في نيروبي، يمكن أن تنتعش حتى عندما تكون الأرض المتضمنة في المضاربات، واقعة رسميًا ضمن نطاق الأراضي العامة- وهنا تقدم لنا مصر، وباكستان، والصين، ومالي، أمثلة أخرى استثنائية. ففي القاهرة العاصمة المركزية، ووفقًا للمعماري التخطيطي خالد أدهم، "احتوى بيع بعض الأراضي العامة تحويلاً هائلاً للصحراء المحيطة بالقاهرة إلى ملكية خاصة". ويضيف أن المنتفعين كانوا من "الطبقة الجديدة من المقاولين الذين يرتبطون وعلى نحو مضطرد بكل من المؤسسات التابعة للدولة، وبالشركات الدولية". وأعضاء نظام مبارك من المرتبة الرفيعة يفترض أن لديهم مصالح خفية في المؤسسات المطوِّرة للضواحي في الصحراء، غرب أهرامات الجيزة"(٦٤).

إن أطراف كاراتشي تتألف من أراضٍ عامة، مفترض أنها تحت سيطرة هيئة تنمية كاراتشي. ولكن، وفيما "أخفقت الهيئة كلية في توفير

---

(62) Patrick Wasike, "The Redevelopment of large Informal Settlements in Nairobi," Ministry of Roads and Public Works, Kenya, nd.

(63) Cited in Davan Maharaj, "Living on Pennies," part four, *Los Angles Times*, 16 July 2004.

(64) Khaled Adham, "Cairo's Urban Déjà vu," in Yasser Elsheshtawy (ed.), *Planning Middle Eastern Cities: An Urban Kleidoscope in a Globalizing World*, London 2004, p. 157.

أراضٍ للسكن للفئات منخفضة الدخل"، وفقًا لـ"بيتر نايننتيد" Peter Nientied و"جان فان دير لندن" Jan van der Linden، فإن الأطراف تم تقسيمها من الباطن، وبصورة غير قانونية، كما أشرنا سابقًا، من قبل نقابات المسئولين العموميين، والشرطة الفاسدة، والوسطاء أو "المبرطشين" والمعروفين محليًّا باسم *الدلالز dalals* (أي الوسطاء بما تحمله الكلمة أيضًا من معنى قوادين. م). وفي نهاية المطاف، فإن سكان العشوائيات لم يحققوا سوى ما يزيد قليلاً عن المداومة على تسديد الإيجار. و"حيث إن العملية برمتها تعد غير قانونية، فإن المطالب، بمعنى الكلمة، دائمًا ما تكون من أجل المعروف أو الجميل، وليس من أجل الحقوق"[٦٥].

وبالمثل في حيدرأباد، التي قام "إرهارد برنر" Erhard Berner بعمل دراسة عليها "فإن السالبين للأراضي مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بمجلس الريع Board of Revenues"، قاموا باختطاف خطة طموحة لإعادة توطين الفقراء، مستخلصين رسومًا غير قانونية من السكان، كما سرقوا أراضي عامة. ويوضح "برنر" أن "تأسيس مكتب للشرطة، زاد الطين بلة، حيث انحازت الشرطة إلى جانب النقابة، وبدأت في مضايقة السكان أنفسهم"[٦٦].

وفي الوقت نفسه، فإن المضاربة غير القانونية في الأراضي الحضرية على أطراف المدن، أصبحت واحدة من الأشكال الرئيسية للفساد الرسمي في الصين. وهنا تقدم "*نيويورك تايمز*" في أحد تقاريرها، أنه "في إحدى القرى الموجودة في إقليم "جيجيانج" Zhejian الغني، تم منح الفلاحين ٣,٠٤٠ دولارات لكل مو[*] mu، فقط كي نشاهد موظفي المدينة، وهم يؤجرون قطع

---

(65) Peter Nientied and Jan van der Linden, "The Role of the Government in the Supply of Legal and Illegal Land in Karachi," in Baken and van der Linden, *Land Delivery for Low Income Groups in Third World Cities*, pp. 230, 237-38.

(66) Berner, "Learning from Informal Markets," p. 241

(*) وحدة قياس صينية، والمائة مو تساوي ما يقرب من ٦٦٦ مترا مربعا. (المترجم).

الأراضي نفسها للمطورين، مقابل ١٢٢,٠٠٠ دولارًا للقطعة الواحدة". وقد شكا أحد الفلاحين المسنين من أن "المسئولون أخذوا تلك الأرض من أجل التنمية، واختلسوا كل المال لأنفسهم". وفي حادثة شبيهة في شانسي Shaanxi، حيث قال أحد مسئولي الحزب الشيوعي الحاكم، لإحدى النساء المحتجات:" إذن أنت أيتها النفاية الفقيرة القذرة، تعتقدين أن بإمكانك معارضة حكومة المدينة؟ أنت لا تملكين حتى فرصة في الجحيم"(٦٧).

وفي باماكو (مالي)، حيث توجد الملكية الجماعية جنبًا إلى جانب أراضي السوق، فإنه كان من المفترض تقسيم أطراف المدينة تقسيمًا من الباطن، حيث ظهرت الحاجة إلى ذلك، وفقًا لقانون عرفي وسط أرباب الأسر. ولكن بدلاً من ذلك، وكما حدث في كاراتشي، استولت الطبقة البيروقراطية الجديدة على الخطة. وقد وجد الباحث أوغوست فان ويستن August van Westen، "أن الثلثين من جميع الأراضي المخصصة"، كانت مستخدمة في أغراض مضاربة، وإعادة بيع، بدلاً من إسكان أسر المُلاك. والمشكلة تتمثل في أن تجاور نمطين متصارعين من توفير الأراضي– نظام متكافئ رسميًا في التخصيصات العامة، والثاني سوق تجارية بحتة في ملكيات الأراضي المسجلة بالفعل– جعل من السهولة الحصول على أرباح هائلة". ولقد تحول التجار والموظفون العموميون أنفسهم إلى أصحاب عقارات وأراضٍ في الحضر، بينما أصبح قسم كبير ومتزايد من السكان إما مؤجرين أو شاغلين لـ"المستوطنات غير القانونية... والتي تظل سياسيًا رهينة قطاعات من داخل المؤسسة الحزبية"(٦٨).

---

(67) "Farmers Being Moved Aside by China's Booming Market in Real Estate." *New York Times*, 8 December 2004.

(68) August van Westen, "Land supply for Low-Income Housing: Bamako," in Baross and van der Linden, *The Transformation of Land Supply System in Third World Cities*, pp. 93, 101-02.

وأخيرًا، فإن وضع اليد، يمكن حتى أن يكون إستراتيجية خفية، أو سرقة، تيسر للنخبة التلاعب بقيمة الأرض. وفي كتاباته حول مدينة "ليما" في السبعينيات، أطلق الجغرافي "مانويل كاستلز" Manuel Castells مسمى "رواد حضريون" على واضعي اليد الذين تم استغلالهم من قبل مُلاك الأراضي.

> في أغلب الأحيان تلاعَب أصحاب الأراضي والمطورون من القطاع الخاص، بواضعي اليد؛ زاجين بهم في قطع من الأراضي الواقعة ضمن سوق العقارات، وذلك بالحصول من السلطات على شيء من البنية التحتية الحضرية، من أجل واضعي اليد!! ومن ثم تعزيز قيمة الأرض وفتح الطريق أمام بناء السكن المربح. وفي مرحلة ثانية، تم طرد واضعي اليد من الأرض التي شغلوها، بل وأُجبروا بذلك على البدء ثانية على أرض أخرى عند حدود المدنية التي تمددت نتيجة لأطماع هؤلاء الملاك(٦٩).

وفي وقت أحدث، لاحظ "إرهارد برنر" Erhard Berner العملية نفسها من "التسامح مع غزو الأرض ووضع اليد" في مدينة مانيلا، حيث "حول واضعو اليد جوانب التلال الجدباء، أو الحقول الهامشية، أو المستنقعات السبخة إلى أراضٍ سكنية". وهو ما رفع قيمة الأرض لمُلاّكها هؤلاء الذين لديهم القدرة وقتئذ على إما إخلاء ساكنيها، أو رفع قيمة الإيجار(٧٠).

---

(69) Manuel Castells, *The City and the Grassroots: A Cross-Cultural Theory of Urban Social Movements*, New York 1983, p. 191.

(70) Berner, "Learning from Informal Markers," pp. 234-35.

نهاية التخوم الحضرية:

لا يزال واضع اليد هو الرمز الإنساني الرئيسي، سواء كضحية أو كبطل، في مدن العالم الثالث. ولكن وكما رأينا في الفصل السابق، فإن العصر الذهبي لوضع اليد- الإشغال المجاني، أو منخفض التكلفة للأرض الحضرية على أطراف المدينة- كان قد انتهى على نحو واضح بحلول تسعينيات القرن الماضي. والحقيقة، أنه وفي وقت مبكر، يعود إلى عام ١٩٨٤، كان فريق من خبراء السكن الرواد، قد حذروا في اجتماع بمدينة بانكوك، من أن "إشغال الأرض بدون تكلفة، يمثل ظاهرة مؤقتة"، وأن "الخيارات المطروحة أمام الحلول غير الرسمية لـ[أزمة السكن]، أصبحت قليلة بالفعل، وأنها سرعان ما ستقل أكثر فأكثر بمرور الوقت"، مع استمرار "المؤسسات الخاصة القوية، والمندمجة مع بعضها البعض، في الاستيلاء على عملية الحضرنة التي تجري على أطراف المدينة". "ومن وجهة نظرهم، فإن إضفاء الصفة الرسمية على الأراضي القابلة للتحويل، وملكيات الأراضي (بتمييز عن الضمان القانوني للحيازة)، كان يعمل بالفعل على الإسراع من العملية التي بمقتضاها كان المقاولون ممن "تحايلوا على عملية التخطيط أو أفسدوها، قادرين على تحويل عملية وضع اليد إلى القطاع الخاص"[٧١].

وبعد بضع سنوات، كررت "إلين برنان" Ellen Bernnan التحذير نفسه؛ حين أشارت إلى أنه: "فيما سبق كان أمام منخفضي الدخل كثير من الخيارات المتوافرة، مثل الأراضي العامة غير المستخدمة. هذه الخيارات الآن تحتفي بوتيرة سريعة، كما أن إمكانية الحصول على أراضي أطراف المدن تأخذ في الانحسار. والحقيقة أن الأراضي الخالية على الأطراف الحضرية، وفي أماكن أخرى، تم تجميعها وتطويرها من قبل شركات التنمية،

(71) Baross and Jan van der Linden, "Introduction," in *The Transformation of Land Supply in Third World Cities*, pp. 1, 2, 8.

سواء بطرق قانونية أو غير قانونية". ولاحظت "برنان" أن المشكلة كانت أكثر حدة، ما دامت الأرض واقعة في المجال أو الحيازة العامة (كاراتشي ودلهي)، فيما كانت كانت الأطراف في الغالب ملكية خاصة (مانيلا، وسول، وبانكوك)(٧٢).

وفي الفترة نفسها، كتب "آلان جيلبرت" Alan Gilbert بتفاؤل شديد، حول مستقبل دور وضع اليد والإسكان بالمساعدة الذاتية، بوصفه يمثل صمام الأمان للتناقضات الاجتماعية في مدن أمريكا اللاتينية. وقد تنبأ "آلان" بأن اجتماع وتلاقي الحضرنة القائمة على القرصنة، مع الركود الاقتصادي، وتكاليف الانتقال، من شأنه أن يجعل امتلاك المنازل في التقسيمات الطرفية أو في مدن الصفيح، أقل جاذبية مما كانت عليه في الماضي: "فمزيد من الأسر ستحتل قطع أراضٍ صغيرة، وسوف تأخذ وقتًا أطول لتوطيد بيوتهم، كما أنها ستكون مجبرة على العيش لفترات أطول بدون خدمات"(٧٣). وعلى الرغم من التشديد على أن أسواق العقارات والأراضي على أطراف المدن، ما زالت توفر بديلاً مهمًا لأسر الطبقة المتوسطة ممن كسدت صفقات بيع مساكنهم السابقة، فإن مؤسسة Alain Durand-Lasserve، وهي هيئة عالمية أخرى لإدارة الأراضي، تتفق مع "برنان" و"جيلبرت" في أن عملية التسليع "أغلقت الطريق في الحقيقة أمام الوصول غير الرسمي والمجاني إلى الأرض"، وهو ما تمتع به الفقراء فيما مضى(٧٤).

وفي أماكن أخرى، نجد أن المصالح المحلية الأقوى- كبار الإعماريين الربحيين، والساسة، والطغمة الحاكمة العسكرية- نصّبوا أنفسهم للاستفادة من

(72) Bemnan, "Urban Land and Planning Issues Facing the Third World," pp. 75-76.

(73) Gilbert et al., *In Search of a Home*, p. 3.

(74) Alain Durand-Lasserve, "Articulation between Formal and Informal Land Markets in Cities in Developing Contires: Issues and Trends," in Baross and van der Linden, *The Transformation of Land Supply in Third World Cities*, p. 50.

مبيعات الأراضي الطرفية للمهاجرين الفقراء، ولأفراد الطبقة العاملة ممن يحصلون على رواتب ثابتة. فعلى سبيل المثال، كشف تحديد عينة من الملكية على أطراف جاكارتا، عن "أن القطع الواسعة من الأراضي، خصوصًا في البلد التلالي "بريانجان" Priangan، غيرت الأيادي، وأصبحت الآن تنتمي إلى الجنرالات الإندونيسيين وأسرهم، ومسئولي الحكومة رفيعي المستوى، وغيرهم من أعضاء الطبقة العليا الإندونيسية[٧٥]. وبالمثل، في مكسيكو سيتي، حيث تم الآن تقسيم معظم السكن في العشوائيات، من الباطن من *الإكزيئو* *ejidos* أي نظام أراضي الجموع، واستخدامها من قبل عامة الناس، وجد "كيث بزولي" Keith Pezzoli أن "*أصحاب أراضي الجموع* *ejidatariois* يخسرون في عملية العمران الحضري،" حيث "القائمون بالتطوير العمراني لأغراض ربحية والمضاربون يكثفون السيطرة على الأرض المعاد بناؤها"[٧٦]. وفي بوجوتا، حيث قام كبار الرابحين من وراء التعمير، بزرع العقارات السكنية للطبقة المتوسطة على الأطراف، بينما تقبض المضاربة البرازيلية على جميع فئات الأراضي، بما يقدر بثلث المساحة المبنية المتروكة خالية تحسبًا للزيادات في المستقبل[٧٧].

وفي الصين، أصبحت الحافة الحضرية- كما أشرنا سابقًا- ساحة نضال اجتماعي واسع من طرف واحد، بين حكومات المدينة والأسر الفقيرة. ففي مواجهة شهية هيئات التطوير العمراني الشرهة التي لا تشبع للأراضي الجديدة، من أجل المناطق الاقتصادية والضواحي، تم إقصاء الفلاحين جانبًا بأقل قدر ممكن من الاعتبار أو التعويض. وبالمثل، فإن أحياء الطبقة العمالية التقليدية والقرى، يتم تجريدها على نحو روتيني؛ من أجل إحداث تطويرات عمرانية عالية، تتم في الغالب لصالح المسئولين الفاسدين، وقادات الحزب.

---

(75) Evers and Korff, *Southeast Asian Urbanism*, p. 176.

(76) Pezzoli, *Human Settlements*, p. 15.

(77) Gilbert and Varley, *Landlord and Tenant*, pp. 3, 5.

وعندما يحتج المحليون، فإن الحال ينتهي بهم إلى مواجهة مع الشرطة العسكرية، وغالبًا ما يواجهون السجن(٧٨).

في الوقت نفسه، نجد فقراء مانيلا، وقد تم الدفع بهم أبعد وأبعد، إلى اقتراف حالة اللاشرعية، بفعل القيم المسعورة لأسعار الأرض، التي تحجب السكن الرسمي عن نسبة واسعة، لصالح أقلية محدودة من السكان. وهنا يخبرنا المؤرخ البيئي الحضري "جريج بانكوف" Greg Bankoff بأنه "في ثمانينيات القرن الماضي، ارتفعت أسعار الأرض من ٣٥ إلى ٤٠ ضعفًا في مدينة كويزون Quezon، ومن ٥٠ إلى ٨٠ ضعفًا في إسكولتا Escolta. وفي عام ١٩٩٦، سجلت اتفاقية التنوع الحيوي CBD، زيادة سنوية مقدارها ٥٠%، وحتى قيمة الأرض في المناطق الطرفية، ارتفعت بنسبة ٢٥%"(٧٩). ونتيجة لذلك، أصبح السكن الرسمي غير متاح لمئات الآلاف من الفقراء. ومع تضخم أسعار الأرض، حتى على الحافة الحضرية البعيدة، كانت الخيارات الوحيدة الباقية، كما يبدو أمام أفقر فقراء مانيلا، هي إما المخاطرة بالموت في مراكز المدينة المعرضة للفيضان عبر وضع اليد في قاع الاستيروس esteros، أو عبر الضفاف الخطرة للأنهار، أو احتلال الفجوات الخاصة بالمقاطعات أو القرى، أو الأحياء الأكثر ثراءً، حيث الإخلاء بالعنف يمثل تهديدًا ماثلا في الذهن طوال الوقت.

إذن، على مستوى العالم الثالث، فإن تخوم الأرض الخالية لواضعي اليد الفقراء، تلك التي تحدث عنها (جون) ترنر John Ternur قد انتهت: "عشوائيات الأمل" تم إحلالها بـ *اللاتيفونديا* *latifundia*(*) رأسمالية الحاشية

(78) See the fifth installment in Jim Yardley's outstanding series on rural/urban inequality in China in the *New York Times*, 8 December 2004.

(79) Creg Bankoff, "Constructing Vulnerability: The Historical. Natural and Social Generation of Flooding in Metropolitan Manila." *Disasters* 27:3 (2003). p 232.

(*) أي: الأملاك والأراضي الكبيرة لدى قلة من الأغنياء. (المترجم).

والمحسوبية crony capitalism. وبالتالي، فإن فرض القيود على فرص بناء مستوطنات خارج نطاق سوق العقارات على حافة المدن أو منعها تمامًا، كان له تبعات جسيمة على استقرار المدن الفقيرة. وفي خطوة متلازمة مع النسبة المتزايدة من المؤجرين، جاءت النتيجة الأكثر درامية على المدى القصير متمثلة في تزايد رهيب في الكثافة السكانية في عشوائيات العالم الثالث- تضخم الأراضي في سياق التشغيل الرسمي الراكد أو المنحدر، الذي صار بمثابة المكبس الذي دفع هذا الضغط من الناس. والعشوائيات الكبرى، مثل كيبيرا Kibera (في نيروبي) وسيتي- سولاي Cite-Soleil، (بورتو برنس Portau- Prince) حققت كثافات تضاهي كثافة حظائر الماشية: فتكديس مزيد من السكان في كل فدان، داخل مساكن منخفضة، مقارنة بما كان الوضع عليه في أحياء المساكن المجمعة العالية المزدحمة الشهيرة، مثل الجانب الشرقي المنخفض Lower East Side في تسعينيات القرن العشرين، أو في المراكز المرتفعة المعاصرة مثل طوكيو ومانهاتن. والحقيقة، أن العشوائية المعاصرة الأكبر على مستوى آسيا، وهي "دارافي" Dharavi في مومباي، تحتوي على حد أعلى من الكثافة، يزيد مقدارها مرتين عن مدينة نيويورك في القرن التاسع عشر، وعن شوارع بومباي التي اعتقد "روي لوباف" Roy Lubove أنها "البقعة الأكثر ازدحامًا على وجه البسيطة" في العصور الفيكتورية(٨٠).

هذا الانفجار السكاني الحضري، عبر التكدس المستمر، يستعصي على التصديق. ففي عشوائيات كلكاتا، على سبيل المثال، تم بطريقة ما حشر ١٣,٤ نسمة في المتوسط، داخل كل غرفة مشغولة. ولو أمكن تصديق

(80) "حي بعينه في المقاطعة الحادية عشرة، احتوى على ٢٤٣، و٦٤١ نسمة لكل كيلو متر مربع، وفي كومبروارا Koombarwara في بومباي، ١٨٧، و٧٢٢. نسمة/كم" انظر:

Roy Lubove, *The Progressive and the Slums: Tenement House Reform in New York City, 1890-1917*, Pittsburgh 1962, p. 94.

إحصاءات البلدية، فإن عشوائية دارافي Dharavu ترصص ١٨,٠٠٠ نسمة لكل فدان في ١٠ غرف مكونة من ١٠×١٥ قدما، حيث الناس مكومون على بعضهم البعض[٨١]. ومنشية ناصر، على حافة تلال جبل المقطم شرق النيل بالقاهرة، تعتبر أقل ازدحامًا إلى حد ما: فهناك أكثر من نصف مليون نسمة يتقاسمون ٣٥٠ هكتارًا فحسب. (على حافتها الجنوبية، "في ظروف من التدهور والمهانة التي تذكرنا بجحيم دانتي Dantesque". ووفقًا لما جاء في جريدة *فاينانشال تايمز*، فإن الزبالين "جامعي القمامة" المشهورين يعيشون على ما يعثرون عليه من تنقيبهم في القمامة)[٨٢]. وفي الوقت نفسه، نجد العشوائيات من النمط الموجود في ريو دي جانيرو، سرعان ما تم إضفاء نمط مانهاتن عليها؛ استجابة لنقص الأرض التي يمكن وضع اليد عليها، ومن ثم تلبية المطلب المتنامي لمساحات للإيجار. وهنا تكتب "سوزانا تاكنر" Suzana Taschner: "تستطيع رؤية، مع عملية إضفاء حالة أطراف المدينة على عشوائيات ريو، جنبًا إلى جانب، تحويل أقدم العشوائيات إلى عشوائيات عمودية، حيث تظهر بنايات من أربعة إلى ستة طوابق، غالبًا للإيجار"[٨٣].

الفضل إذن يعود إلى تسليع تطوير الأطراف، في أن يصبح التكدس والتكثيف سائدًا في كل مكان على أطراف الحضر، تمامًا كما هو في المركز منها. ففي كاراكاس، على سبيل المثال، نجد العشوائيات تتكثف بمعدل ٢% تقريبًا كل عام: وكثير من هذه الكثافة، يتمثل في نمو عمودي على جوانب الجبال. ولقد كان علماء جامعة كولومبيا، الباحثون في مخاطر انزلاق أرض المدينة، مذهولين من تحدي تسلق الجبال، ذاك المطروح أمام الفقير الساكن في أطراف المراكز المدنية بفنزويلا. "فالحقيقة أن بعض السكان مطالبون بتسلق ما يعادل ٢٥ طابقًا للوصول إلى مساكنهم من الأكواخ. وسكان

(81) Sharma, *Rediscovering Dharavi*, xx, xxvii, 18

(82) James Drummond, "Providing Collateral for a Better Future," *Financial Times*, 18 October 2001.

(83) Suzana Taschner, "Squatter Settlements and Slums in Brazil," pp. 196, 219.

العشوائيات والأكواخ، يحتاجون في الغالب إلى ٣٠ دقيقة على الأقدام للوصول إلى وسائل المواصلات العامة"(٨٤). وفي بوجوتا، نجد تمدد حزام الفقر صوب الجنوب، وقد كرس الكثافة السكانية المرتفعة، بالرغم من ازدياد حجم الأسر المتجهة إلى الأطراف(٨٥).

أما أجيغونل Ajegunle العشوائية الأكبر في لاجوس، فتضرب مثالاً لما هو أسوأ على مستوى العالم: حيث التكدس السكاني يتزامن مع، أو يرتبط بحالة السكن على الأطراف الحدية. ففي ١٩٧٢ ضمت عشوائية أجيغونل ٩٠,٠٠٠ نسمة يعيشون على مساحة ٨ كم مربع من أراضي المستنقعات؛ واليوم يقطنها ١,٥ مليون نسمة، على مساحة مسطحة أكبر قليلاً مما كانت عليه عام ١٩٧٢، وهؤلاء ينفقون متوسط ثلاث ساعات يوميًّا؛ للوصول إلى أماكن عملهم(٨٦). وبالمثل، فإن التكدس الشديد في كيبيرا Kibera بنيروبي، حيث أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ نسمة يكافحون من أجل الكرامة، وسط الوحل والمجاري، يعيش سكان العشوائيات حبيسي شر الإيجار المرتفع الباهظ (من أجل أكواخ تشبه عشش الفراخ)، وتكاليف وسائل المواصلات الباهظة أيضًا. وهنا تكتب "رازنا وارا" Rasna Warah في إطار عملها في برنامج الموئل التابع للأمم المتحدة، مستشهدة بساكنة نموذجية ممثل لسكان كيبيرا، وهي بائعة خضروات، تنفق ما يقرب من نصف دخلها الشهري البالغ ٢١ دولارا، على وسائل النقل من وإلى سوق المدينة(٨٧).

إن تسليع السكن والأرض الحضرية للجيل القادم، في المراكز المدنية الدينامية من الناحية الديموغرافية، ولكن الفقيرة من حيث الأعمال، هي

---

(84) Urban Planning Studio, *Disaster Resistant Caracas*, p. 27.

(85) Mohan, *Understanding the Developing Metropolis*, p. 55.

(86) Peil, *Lagos*. p. 178; and Peil, "Urban Housing and Services in Anglophone West Africa." p. 180.

(87) Rasna Warah, "Nairobi's Slums: Where Life for Women Is Nasty, Brutish and Short," *Habitat Debate* 8:3 (Septmber 2002), np.

وصفة نظرية لنفس الدوائر المفرغة من أسعار الإيجارات المرتفعة ارتفاعًا جنونيًا، والتكدس البشري الذي تم وصفه سابقًا في لندن أواخر العصر الفيكتوري ونابولي. وفي حقيقة الأمر، فإن قوى السوق، بمعنى آخر، تلك التي يمتدحها البنك الدولي بوصفها "الحل لأزمة السكن الحضري في العالم الثالث"، هي بعينها المُشعل التقليدي لنيران الأزمة نفسها. غير أن السوق نادرًا ما تعمل بمفردها. وفي الفصل التالي، سننظر في الصراع الطبقي على المساحة الحضرية في مدن الجنوب، ودور عنف الدولة في تسليع الأرض. وهنا يشير "إرهارد برنر" Erhard Berner بأسًى، ولكن بدقة، إلى أنه "حتى يومنا هذا، فإن الدولة أصبحت في تدمير المساكن الجماهيرية العامة، أكثر فاعلية بما يفوق دورها في بنائها بكثير"(٨٨).

(88) Berner, "Learning from Informal Markets," p. 230.

الفصل الخامس

"هاوسمان" في المناطق الاستوائية

"السبب الجذري في وجود العشوائيات الحضرية، لا يبدو كامنًا في الفقر الحضري؛ وإنما في الثراء الحضري".

جيتا فيرما Gita Verma[1]

إن التمييز الحضري، أو انعدام المساواة الحضرية، في العالم الثالث، أمر واضح يمكن رؤيته حتى من خلال المساحة: فأجهزة الاستطلاع بالقمر الصناعي فوق نيروبي، تكشف عن أن أكثر من نصف السكان يعيشون فقط على ١٨% من مساحة المدينة[2]. وهذا يعني بالطبع وجود تناقضات هائلة في الكثافة السكانية على الأرض. "فالهوة بين الأغنياء والفقراء في نيروبي التي تعد أكثر مدن العالم تميزًا بالتفاوت وانعدام المساواة يمكن تمييزها بوضوح"، على حد قول الصحفي "جيفان فاساجار" Jeevan Vasagar في *الجارديان*، "من خلال أحيائها السكنية. ففي ضاحية "كارن" Karen وارفة الظلال، يوجد أقل من ٣٦٠ ساكنًا في كل كيلو متر مربع، وفقًا للتعداد السكاني لعام ١٩٩٩؛ بينما نجد أجزاء من عشوائية كيبيرا Kibera، تضم أكثر من ٨٠,٠٠٠ نسمة في الكيلو متر المربع!!"[3].

---

(1) Gita Verma, *Slumming India*, p. xix.

(2) G. Sartori, G. Nembrini, and F Stauffer, "Monitoring of Urban Growth of Informal Settlements and Population Estimation from Aerial Photograph and Satellite Imaging." Occasional Paper #6, Geneva Foundation, June 2002, np.

(3) Jeevan Vasagar, "Bulldozers Go in To Clear Kenya's Slum City," *Guardian*, 20 April 2004.

غير أن نيروبي تعد نادرة في تفردها بإجبار الفقراء على العيش في عشوائيات، تشبه قرية النمل من حيث الكثافة، بينما يتمتع الأثرياء بحدائقهم ومساحاتهم المفتوحة. وفي دكا، يتركز ٧٠% من السكان- وفق بعض التقديرات- في ٢٠% فقط من المساحة المسطحة للمدينة(٤). وبالمثل، في "سانتو دومينجو" Santo Domingo (عاصمة جمهورية الدومينيكان)، حيث يعيش ثلثا السكان في مساكن جماعية مرتفعة، ومستوطنات وضع يد، مستخدمين فقط خُمس المساحة الحضرية، مع تكدس أفقر ثُمن السكان في عشوائية مركز المدينة على ١,٦% من مساحة المدينة(٥). كما أن بومباي، وفقًا لبعض الجغرافيين الحضريين، قد تكون الأسوأ في هذا السياق: "فبينما يمتلك الأغنياء ٩٠% من الأراضي، ويعيشون في راحة بين مساحات مفتوحة وفيرة، فإن الفقراء يعيشون متكدسين على ١٠% من مساحة الأرض"(٦).

هذه النماذج المستقطَبة من طرائق استخدام الأراضي، وكثافة السكان في العالم الثالث، إنما تُعيد الكرَّة من جديد إلى منطقيات قديمة من السيطرة الإمبريالية والعنصرية. فعلى مستوى العالم الثالث، ورثت النخب ما بعد الاستعمارية، وأعادت- من وازع الطمع- إنتاج الآثار المكانية للمدن الاستعمارية التي تنطوي على حالة من الفصل العنصري. وعلى الرغم

(4) Shihabuddin Mahmud and Umut Duyar-Kienast, "Spontaneous Settlements in Turkey and Bangladesh: Preconditions of Emergence and Environmental Quality of Gecekondu Settlements and Bustees," *Cities* 18:4 (2001), p. 272.

(5) Edmundo Morel and Manuel Majia, "The Dominican Republic," in Antonio Azuela, Emilio Duhau, and Enrique Ortiz (eds) *Evictions and the Rights to Housing: Experience from Canada, Chile, The Dominican Republic, South Africa, and South Korea*, Ottawa 1998, p. 90: Fay and Wellenstein, "Keeping a Roof Over One's Head," p. 97.

(6) O'Hare, Abbott, and Barke, "A Review of Slum Housing Policies in Mumbai," p. 276.

ويذكر أرجون أبادوراي Arjun Appadurai رقم ٦ ملايين نسمة من الفقراء يعيشون على ٨% فقط من مساحة الأرض في المدينة. وذلك ضمن:

("Deep Democracy. Urban Governmentality and the Horizon of Politics," *Environment and Urbanization* 13:2 [October 2001], p. 27)

من الخطابات، والرطانة الخاصة بالتحرير الوطني، والعدالة الاجتماعية، فإنهم قاموا، وبعدوانية واضحة، بتعديل التخطيط المكاني العنصري للفترة الاستعمارية، في سبيل الدفاع عن مزاياهم الطبقية الخاصة، وحالة الحصر المكاني.

وهنا، تمثل أفريقيا جنوب الصحراء الحالة القصوى. وهو ما لا ينطوي على أية مفاجأة. ففي أكرا، وفقًا لما كتبه "كوادو كونادو- أجيمانج" Kwadwo Konadu-Agyemang: (استولت النخبة الأهلية [بعد الاستقلال] على "المناصب الأوروبية"، وجميع المنافع الملحقة بها. ولم يحافظوا على الوضع الراهن على سوء حاله فحسب، بل خلقوا أيضًا، وعبر التخطيط المكاني، وغيره من آليات التخطيط، مناطق سكنية أخرى عديدة للطبقة العليا، حيث الدخل والمنصب والنفوذ هي العوامل المحدِّدة لإمكانية الوصول)(٧). وبالمثل في لوساكا، وفّر النموذج الاستعماري أساسًا لحالة شاملة في الغالب من الفصل العنصري لمسئولي الدولة، والمهنيين المحترفين الأفارقة، والموظفين العموميين، عن مواطنيهم من الفقراء. وفي هراري، حيث انتقل الساسة والموظفون العموميون إلى ضواحٍ بيضاء، ومدن الحدائق بعد عام ١٩٨٠، اكتسبوا مصلحة متنامية في الحفاظ على المتاريس المكانية، التابعة *للنظام السياسي القديم* والمزايا السكنية(٨). ويكتب الجغرافي "نيل ديوار" Neil Dewar من كيب تاون في هذا السياق، قائلاً: "إن انتقال هؤلاء السود أعطى تأثيرًا ظاهريًا، مثّل مزيدا من التشدد ضد التنفيذ النهائي لخطة توفير مساكن اشتراكية"(٩).

---

(7) Konadu-Agyemang, The Palitical Economy of Housing and Urban Development in Africa, P 73.

(8) Alison Brown, "Cities for the Urban Poor in Zimbabwe: Urban Space as a Resource for Sustainable Development," in Westendorff and Eade, *Development in Cities*. P. 269, Chalo Mwimba, "the Colonial Legacy of Town Planning in Zambia," paper, Planning Africa 2002 Conference, Durban, September 2002, p. 6

(9) Neil Dewar, "Harare: A Window on the Future for the South African City?," in Anthony Lemon (ed.), *Homes Apart: South Africa's Segregated Cities*, Cape Town 1991, p. 198.

في الوقت نفسه، نجد في كينشاسا أن "عملية تحويل الوضع وفق النمط الزائيري"– في ظل ديكتاتورية "موبوتو"– لم تفعل شيئًا حيال عبور الفجوة الهائلة بين الوضع في مستوطنات *السود* (التي ورثها "النظام الكليبتوقراطي" أي: حكم اللصوص) الجديد عن الاستعمار، وبين الوضع في مدينة *البيض*. وهنا تمثل ليلونجوي Lilongwe من ناحية أخرى، مدينة جديدة، بُنيت لتكون واجهة لاستقلال ملاوي؛ ولكنها ملتصقة التصاقًا لا يحيد، بنموذج من السيطرة الحضرية استعماري الطابع. ووفقًا لرواية "آلين هوارد" Allen Howard، فـ"إن الرئيس هاستينج كاموزو باندا Hastings Kamuzu Banda، قد أشرف على بناء المدينة واضعًا بِيضَ جنوب أفريقيا، وغيرهم من الأوروبيين، في مسئولية التخطيط للمدينة عمرانيًّا. وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت عمارة المدينة عبارة عن نماذج تشبه سياسة الفصل العنصري/ الأبارتيد، ومناطق سكنية على نمط 'الحاويات المغلقة'، ومناطق تمثل مصدّات"[١٠]. وفي نفس الأثناء، أصبحت لواندا الأكثر استقطابًا للسكان على الإطلاق؛ نظرًا لموقعها بين مدينة "الأسفلت" التي تركها البرتغاليون *للأغنياء الجدد* *novos ricos* وبين الأطراف الترابية الشاسعة للعشوائيات، والمستوطنات الفقيرة. حتى أديس أبابا، كإحدى المدن القليلة في جنوب الصحراء التي كانت تتحلى بجذور أصيلة، نجدها وقد كرست البصمة العنصرية التي تركها الاحتلال الإيطالي القصير– خلال الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٤١– ويتجلى هذا الآن في شكل فصل عنصري اقتصادي.

أما في الهند، فلم ينجز الاستقلال سوى الأثر الضئيل، فيما يتصل بالجغرافية الحصرية الاستبعادية التي خلفها العهد البريطاني. وفي هذا الصدد، تؤكد "كالبانا شارما"Kalpana Sharma، في كتابها *إعادة اكتشاف*

---

(10) Allen Howard, "Cities in Africa, Past and Present," *Canadian Journal of African Studies* 37.2/3 (2003), p. 206.

دارافي *Rediscovering Dharavi*، حول أكبر عشوائية في آسيا على الإطلاق، تؤكد فيه "استمرار التفاوت، وانعدام المساواة التي تحدد ملامح بومباي، بوصفها بلدة ساحلية استعمارية.... ووفرة الاستثمار دائمًا في أرجاء المدينة الجميلة والممنوحة بالفعل كثيرًا من الموارد. وعلى الرغم من ذلك، فلا توجد أموال تكفي حتى لمجرد توفير الخدمات الأساسية للمناطق الأكثر فقرًا"(١١). وبالنسبة للهند الحضرية ككل، فقد بيّنت "نانديني جوبتو" Nandini Gooptu كيف أن الطبقات المتوسطة في حزب المؤتمر "الاشتراكي"– الذين مجدوا وامتدحوا عامة الناس الفقراء أثناء ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، على نحو مجرد– انتهى بهم الحال بعد الاستقلال؛ كحراس متحمسين للتصميم العمراني الاستعماري القائم على الحصر، والاستبعاد الحضري، والفصل الاجتماعي. وهنا تكتب جوبتو: "ضمنيًا أو علنًا، تم حرمان الفقراء من العيش في مكان مناسب لحياة مدنية، وثقافة حضرية، وأصبح ينظر إليهم كعقبة تعوق التقدم، وتحسين المجتمع"(١٢).

إزالة "الأحمال الإنسانية":

إن الفصل الحضري ليس وضعًا راهنًا متجمدًا، بل هو بالأحرى حرب اجتماعية لا تتوقف رحاها، تتدخل فيها الدولة بانتظام باسم "التقدم" و"التجميل"، وحتى باسم "العدالة الاجتماعية لصالح الفقراء"، وذلك بإعادة رسم الحدود المكانية لصالح أصحاب الأراضي، والمستثمرين الأجانب، ومُلاك العقارات من النخبة، وأبناء الطبقة المتوسطة. وكما كان الوضع في باريس خلال ستينيات القرن التاسع عشر، في العهد المتشدد للبارون هاوسمان Baron Haussmann، فإن التطوير الحضري لا يزال يخدم في

(11) Sharma, *Rediscovering Dharavi*, p. 8.

(12) Gooptu, *The Politics of the Urban Poor in Twentieth-Century India*, p. 421

سبيل التعظيم المتزامن لأرباح القطاع الخــاص، والــسيطرة الاجتماعيــة. والحجم المعاصر لإزالة السكان في العالم الثالث يعد هائلاً: ففي كل عام يتم الإخلاء القسرى لمئات الآلاف، وأحيانًا ملايين، من الفقــراء- المــستأجرين القانونيين، وأيضًا واضعي اليد- من أحيائهم السكنية. والنتيجــة أن فقــراء الحضر، يصبحون رُحّلاً، "مارين في حالة دائمة من إعادة التوطين": (علــى حد تشخيص التخطيطي "توند أجبولا" Tunde Agbola لمحنتهم في مــوطنهم لاجوس)(١٣). وحال هؤلاء مثل حال *الساكولوت sans-culottes طبقة العمال الحضر الراديكاليين في الجيش الثوري الفرنسي*، حين تــم تهجيــرهم مــن أحيائهم القديمة على يد هاوسمان- الذي وجه إليه الناشط الــسياسي لــويس بلانك Blanqui شكوى شهيرة- إنهم "مرهقون بأعمال انتحارية هائلة... هذا التحويل الضخم للأحجار بيد الاستبداد"(١٤). ولقد تعرضوا أيضًا للغيظ الشديد، جراء استخدام لغة التحديث القديمة التي تُعــرّفهم بــأنهم "أحمــال إنــسانية" (استشهادًا بسلطات "دكار" التي أزالت ٩٠,٠٠٠ مــن ســكان العــشوائيات المركزية في سبعينيات القرن المنصرم)(١٥).

وبالطبع، فإن أكثر الصراعات الطبقية اشتدادًا على المساحة الحضرية، تتم في وسط المدينة، والعُقد الحضرية الرئيسية منها. ففي دراسة نموذجيــة، يناقش "إرهاد برنر" Erhard Berner حالة مانيلا، حيث قــيم الملكيــة وقــد تعولمت، وتزامنت مع حاجة الفقراء الماسة إلى أن يكونــوا قــريبين مــن مصادر الدخل، أي أعمالهم.

> إن مانيلا المركزية، تعد واحدة من أكثــر المنــاطق كثافــة سكانية في العالم. وسعر المتر المربع الواحد في أية نقطــة

(13) Tunde Agbola, *Architecture of Fear*, Ibadan, 1997, p. 51.

(14) Auguste Blanqui "Capital et travail" (1885), quoted in Walter Benjamin, *The Arcades Project*, Cambridge 2002, p. 144.

(15) Richard Stern, "Urban Housing in Africa," p. 38

> فيها، قريبة من المراكز التجارية، يتجـاوز بكثيـر مجمـل الدخل السنوي لأي سائق أو حارس أمن. غيـر أن طبيعـة الإمكانات الخاصة بتوليد الدخل، تتطلب من المرء أن يظـل قريبًا من مكان العمل والتصرف؛ لأن بعد المسافة عن مكان العمل، تعني تحمُّل تكاليف باهظة علـى مـستوى الوقـت والمال.... والنتيجة المنطقية لذلك هي انتشار "وضع اليـد". وفي نهاية الأمر، فإن الفجوات المكانية المتروكة مفتوحـة بفعل التطوير العمرانـي للمدينـة، تمتلـئ علـى الفـور بمستوطنات تتناوب على كسر أي رقم قياسي فـي الكثافـة السكانية[١٦].

إن الباعة الجائلين وغيرهم من مقاولي العمل اللارسـمي، يزحمـون الأماكن المركزية أيضًا في ميادين مانيلا، وأركان الـشوارع، والحـدائق. ويصف "برنر" Berner إخفاق آليات السوق، أو حتى التأمين التابع للقطـاع الخاص، في رد غزو الفقراء هذا وهم، وإن كانوا على أية حال، يتـصرفون مثل الفاعلين الاقتصاديين العقلانيين أو الراشـدين- ففـي النهايـة، يعتمـد أصحاب الأراضي على قيام الدولة بالقمع للإبقاء على واضعي اليد بعيدين، هناك خلف الفاصل، وأيضًا في المساعدة على إخلاء التجمعات السكنية مـن مستأجري الطبقة العاملة، ومن قاطني المساكن المجمعة المكدسة.

وبغض النظر عن تعقيداتهم السياسية، واختلاف درجات الـساسة فـي التسامح مع وضع اليد والعشوائيات على الأطراف، فإن معظم حكومات العالم الثالث، دائمًا ما تكون في حالة صراع مع الفقراء داخل المناطق المركزيـة. ففي بعض المدن- هنا تعد ريو حالة شهيرة- ظلت عملية إزالة العـشوائيات مستمرة على مدى أجيال، ولكنها وصلت إلى لحظة لا يمكن مقاومتهـا فـي

(16) Berner, *Defending a Place*, p. xv.

السبعينيات، حيث ارتفعت أسعار الأرض ارتفاعًا جنونيًا. وبعض الحكومات المتمركزة في العواصم- القاهرة، وومومباي، ودلهي، ومكسيكو سيتي، على سبيل المثال لا الحصر، قامت بتشييد مدن تابعة أو ملحقة بالمدينة الكبيرة لتغري الفقراء بإعادة التوطين على الأطراف. ولكننا في معظم هذه الحالات، نجد أن المدن الصغيرة الجديدة وقد امتصت مزيدًا من سكان الريف المتاخم، (أو في حالة ومومباي الجديدة، من أبناء الطبقة المتوسطة)، بينما تعلق الفقراء الحضر التقليديون باستماتة ويأس بالأحياء القريبة من الأعمال والخدمات المتموضعة في مركز المدينة. ونتيجة لذلك، فإن واضعي اليد والمستأجرين، وأحيانًا أيضًا صغار الملاك، يتم، وعلى نحو روتيني، إخلاؤهم مع قليل من العناية والتعويض، أو الحق في الاستئناف. وفي مدن كبيرة بالعالم الثالث، نجد نفس الدور القسري البانوبتيكاني(*) Panoptican لـ"هاوسمان" تلعبه بحذافيره الهيئات التنموية، ذات الأغراض الخاصة؛ بتمويل من المقرضين خارج البلاد، مثل البنك الدولي، وحصانة الأصوات المحلية. ومهمتهم الأساسية هي إزالة، وبناء، والدفاع عن شق الحداثة الفضائية وسط الحاجات الحضرية غير الملباة، وفي ظل سوء التنمية عمومًا.

إن التخطيطي الحضري والعمراني "سولومون بنجامين" Solomon Benjamin، قام بدراسة نموذج بنجالور Bangalore، حيث إن بعثة "مهمة تنفيذ الأعمال" Agenda Task Force التي توجه العملية الإستراتيجية الكلية

(*) السجن النموذجي عند "جيرمي بنتام" Jeremy Bentham البانوبتيكون Panopticon أو "المشتمل" الذي كان منظمًا على شكل حلقة من الزنازين في وسطها برج للمراقبة، حيث يمكن للحراس مراقبة كل سجين داخل زنزانته. ومن ثم فجميع السجناء في جميع الأوقات يعرفون أنهم مراقبون من الحراس. مع ذلك كان كل فرد في زنزانة غير مفتوحة على أي زنازين أخرى، حيث يحرم كل سجين من أي اتصال بالسجناء الآخرين. وفي هذا المناخ يمكن للحراس مراقبة كل سجين، لكن السجين ليس في وضع يتيح له مطلقا التواصل مع أي فرد آخر. كما قال فوكو: "السجين هو هدف المعلومة وليس شخصًا في عملية الاتصال". انظر: التفكير السياسي، والنظرية السياسية، والمجتمع المدني، ستيفن ديلو، ترجمة ربيع وهبة، الفصل السابع عشر، ص. ٦٥٦، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠. (المترجم).

لصنع القرار، تقع بالتأكيد ودون هوادة، في أيدي رئيس الوزراء، والمصالح الخاصة بالشركات الرئيسية، مع إمكانية المحاسبة القابلة لإهمال الممثلين المنتخبين محليًا. "فحماس النخبة السياسية لتحويل بنجالور إلى سنغافورا أخرى؛ أسفر عن إخلاءات موسعة وكثيفة وهدم مستوطنات، خاصة التجمعات التجارية الصغيرة التي تقع في المواقع الحضرية الإنتاجية. وعبر خطة رئيسية فقد تم إعادة إسناد التصرف في الأراضي الناتجة عن علميات الهدم، إلى مجموعات المصالح ذات الدخل الأعلى، بما فيها الشركات الكبرى"(١٧).

وبالمثل في دلهي- حيث يرى "باناشري شاترجيمترا" Banashree Chatterjimitra أن الحكومة قد قامت، وعلى أكمل وجه، "بتحريف أهداف توفير الأراضي من أجل إسكان منخفضي الدخل"، وذلك بسماحها للطبقة الوسطى بالاستيلاء عليها. فقد استهدفت هيئة التنمية إخلاء ما يقرب من نصف مليون من واضعي اليد، أو "إعادة التوطين الطوعي"(١٨). وبهذا المعنى، فالعاصمة الهندية تقدم تأكيدًا وحشيًا على حجة "جيرمي سيبروك" Jeremy Seabrook التي يؤكد فيها أن 'البنية التحتية' للعالم، تعتبر كلمة السر الجديدة للإزالة غير المبهجة لمساكن إيواء الفقراء الهشة"(١٩). وفي تمددها عبر ضفاف نهر يامونا في دلهي Yamuna River، تعد يامونا بوشتا Yamuna Pushta بلدة عشوائية كبيرة، جميع سكانها من واضعي اليد، وقوامها ١٥٠,٠٠٠ نسمة، تأوي في الأساس اللاجئين من المسلمين البنغال. وعلى الرغم من الاحتجاجات ومظاهر الغضب، فإن إزالة المنطقة بدأت في

(17) Solomon Benjamin, "Globalization's Impact on Local Government," *UN-HABITAT Debate* 7:4 (December 2001), p. 25.

(18) Banashree Chatterjimitra, "Land Supply for Low-Income Housing in Delhi," in Baken and van der Linden, *Land Delivery for Low Income Groups in Third World Cities*, pp. 218-29; Neelima Risbud, "Policies for Tenure

(19) Seabrook, *In the Cities of the South*, p. 267.

عام ٢٠٠٤ بهدف إفساح الطريق لكورنيش النهر، وإنشاء مرافق سياحية. وفيما تتنعم الحكومة في المديح الدولي، على "خطتها الخضراء" الجديدة!! فإن السكان تم إبعادهم مسافة ٢٠ كم، إلى حيث عشوائية جديدة على أطراف أبعد، على الرغم من الدليل الرسمي، ووفقًا لجريدة *هندوستان تايمز* *Hindustan Times*، التي "كشفت عن أن نقل سكان عشوائيات العاصمة، قد قلل من متوسط دخل الأسر التي أعيد توطينها بمقدار ٥٠% تقريبًا"[٢٠]. وها هو أحد السكان الذين تم إخلاؤهم، يشكو إلى مراسل صحيفة أخرى: "علينا أن ننفق على الأقل نصف ما نكسبه في الانتقال إلى أماكن عملنا في المدينة"[٢١].

أما أفريقيا الحضر، بالطبع، فقد كانت ساحة للنزوح الإجباري المتكرر، لإفساح المجال أمام مد الطرق السريعة، وإنشاء المجمعات السكانية الفاخرة. وقد كان هدم وتدمير ماروكو Maroco في لاجوس، عام ١٩٩٠ واحدًا من بين أكثر الأمثلة سيئة السمعة، والمؤثرة في النفس، بدرجة تنافس حتى عمليات الهدم التي صاحبت سياسة الفصل العنصري في سوفياتاون Sofiatown، وكروسروودز Crossroads. وماروكو هذه، كانت فيما مضى "قرية صيد" مقامة في المستنقع الكائن عند نهاية شبه جزيرة لاكي Lekki Peninsula، وقد كانت مستعمرة من الفقراء المهجَّرين في أواخر خمسينيات القرن الماضي، "بحيث يمكن للحكومة نزح وتطوير جزيرتي فيكتوريا وإيكوي Ikoyi، من أجل الأوروبيين والأفارقة الأثرياء". وعلى الرغم من إفقارها، فإن ماروكو أصبحت مشهورة بفنها الشعبي *"فرح العيش"* *joie de*

(20) Varun Soni, "Slumming It," *Hindustan Times*, 24 October 2003.

(21) Ranjit Devraj, "No Way but Down for India's Slum Dwellers," *Asia Times*, 20 July 2000.

vivre، وهي موسيقا صاخبة ذات مزاج سوداوي. وفي بـــدايات ثمانينيـــات القرن المنصرم، اعتُبرتْ شبه جزيرة لاكي، التي كانت ذات يوم هامـــشية، موقعًا رئيسيًا لتمدد المواقع السكنية لذوي الدخول المرتفعـــة. وقـــد خلّفـــت عملية تجريد ماروكو عام ١٩٩٠ وراءها ٣٠٠ ألف نسمة مشردين[٢٢]. وهنا تكتب الشاعرة "أوديا أوفايمون" Odia Ofeimun "قليل هم النيجريون الأحياء، مَن يستطيعون نسيان شعور الخيانة، وصدمة الانفصال التي حـــدثت تحـــت وطأة الأقدام العسكرية. وقد احتفى الأدب النيجيري بذكرى هذه الأحداث في الشعر، والدراما، والنصوص النثرية"[٢٣].

وفي ظل نظام حكم دانيال أراب موي Daniel Arap Moi، تم السماح للقادة السياسيين، ولأصحاب أراضي العشوائيات مـــن ذوي النفـــوذ، ببنـــاء مجمعات سكنية للإيجار على أراضٍ عامة، كانت محجوزة لمد الطرق، بمـــا في ذلك قطاع مكون من ٦٠ مترًا عبر قلب منطقة كيبيرا. والآن فإن حكومة ما بعد موي للرئيس مواي كيباكي Mwai Kibaki، تريـــد "اســـتعادة نظـــام التخطيط" بإزالة أكثر من ثلث مليون مستأجر وواضـــعي يـــد[٢٤]. وأثنـــاء عمليات الهدم الأخيرة، أخبرت الشرطة المسلحة بأسلحة ثقيلة الـــسكان بـــأن لديهم ساعتين لإخلاء منازلهم. وتمت مساومة كثيرين منهم علـــى اســـتثمار مدخرات حياتهم في شراء قطع أراضٍ مخصصة بالفعل لمد الطرق[٢٥].

---

(22) Margaret Peil, "Urban Housing and Services in Anglophone West Africa," p. 178.

(23) Odia Ofeimun, "Invisible Chapters and Daring Visions," *This Day*, 31 July 2003. Some examples: Ogaga Ifowodo, *Red Rain* (Originally, *Maroko's Blood*); Maik Nwosu, *Invisible Chapters*, J.P. Clark, "Maroko" (in *A Lot From Paradise*); and Chris Abani's delirious wonderful *Graceland*.

(24) Vasagar, "Bulldozers Go in to Clear Kenya's Slum City."

(25) See articles in *The East African Standard* (Nairobi), 8-9 February 2004.

الشكل ١٠ [٢٦]

بعض الإخلاءات الشهيرة للعشوائيات

السنة	المدينة	عدد من تم إخلاؤهم
١٩٥٠	هونج كوج	١٠٧,٠٠٠
١٩٦٥-١٩٧٤	ريو دي جانيرو	١٣٩,٠٠٠
١٩٧٢-١٩٧٦	دكار	٩٠,٠٠٠
١٩٧٦	مومباي	٧٠,٠٠٠
١٩٨٦-١٩٩٢	سانتو دومينجو	١٨٠,٠٠٠
١٩٨٨	سول	٨٠٠,٠٠٠
١٩٩٠	لاجوس	٣٠٠,٠٠٠
١٩٩٠	نيروبي	٤٠,٠٠٠
١٩٩٥-١٩٩٦	رانجون	١,٠٠٠,٠٠٠
١٩٩٥	بكين	١٠٠,٠٠٠
٢٠٠١-٢٠٠٣	جاكرتا	٥٠٠,٠٠٠
٢٠٠٥	هراري	+٧٥٠,٠٠٠

وعندما تصل المسألة إلى حد استعادة الأراضي ذات القيمة المرتفعة ماليًا، فإن الرموز الأيديولوجية والوعود التي تم التعهد بها للفقراء، لا تعني في مواجهة ذلك سوى القليل بالنسبة لبيروقراطيي السلطة. وعلى سبيل المثال، ففي كالكتا التي تحكمها حكومة شيوعية، تم إخلاء واضعي اليد من مركز المدينة إلى الأطراف، ثم إخلاؤهم مرة أخرى عندما فرضت الضرورة إيجاد مساحة لتقسيمات الطبقة الوسطى. وكما يشير التخطيطي "أنانيا روي" Ananya Roy، فإن "التخوم الإقليمية لمنطقة كالكتا تم تحديديها قسرًا بدوائر لا

(٢٦) من مصادر إخبارية عديدة أكثر مما يمكن ذكره.

تنتهي من التوطين، والإخلاء، وإعادة التوطين"[٢٧]. وبالمثـل، نجـد نظـام "إمبلا" MPLA الحركة الشعبية لتحرير أنجولا الماركسية سابقًا، لا تطرف له عين عندما يسوق آلافًا من الفقراء اللوانديين إلى خارج مساكنهم العشوائية. وكما يوضح "توني هودجز" Tony Hodges من قسم المعلومات فـي مجلـة الإيكونوميست Economist، فإنه "بين ٨٠ و٩٠% مـن الـسكان الحـضر، يعيشون في مستوطنات أو مبانٍ، لا يوجد لها وضـع قـانوني واضـح.... وأصبحت المشكلة الآن أكثر خطورة بالنـسبة إلـى سـكان المـستوطنات العشوائية في المناطق المتاخمة للحضر، أو ما قبل الحضرية، حيث يعـيش أغلبية السكان الحضر الآن. وفي هذه العشوائيات، أعداد هائلة من واضـعي اليد، كثير منهم مهاجرون من المناطق الريفية، لا يمتلكون وثائق قانونيـة، ومن ثم لا يمتلكون ضمانًا للحيازة. والنتيجة أنهم يعيشون في خوف دائم من الإخلاء....". كما أن مشاعر الخوف مترسخة لدى الأهالي: ففي يوليو/تموز ٢٠٠١، أرسلت حكومات الأقاليم شرطتها المسلحة ومعها البلدوزرات؛ لإزالة أكثر من ١٠,٠٠٠ أسرة من قلب عشوائية بوافيستا Boavista الواقعة علـى خليج لواندا Luanda Bay، وذلك لإفساح الطريق لتطوير السكن الفاخر. وقد أُطلق النار على اثنين من السكان وفقدا حياتهما، أما البـاقون فقـد أُزيحـوا للخارج، حيث المناطق الريفية على بعد ٤٠ كيلو مترًا من منازلهم القديمـة، وتُركوا هناك ليدبروا شؤونهم بأنفسهم[٢٨].

غير أن أكثر التناقضات كسرًا للمعتاد والمألوف، بـين الأيديولوجيـة السكنية والممارسة الحالية، نجدها ماثلة حاضرة في الصين، حيث ما زالـت الدولة "الاشتراكية"، كما هو متعارف عليها، تسمح لآليات النمو الحـضري بأن تُهجّر وتُزيح ملايين من أبطال التاريخ سابقًا. ففي مقال مثير يقارن إعادة

(27) Ananya Roy, "The Gentleman's City: Urban Informality in the Calcutta of New Communism," in Roy and Al Sayyad, *Urban Informality*, p. 159.

(28) Hodges, *Angola*, pp. 30-31.

تطوير المدينة حديثًا داخل جمهورية الصين الشعبية بإعادة التجديد الحضري في الولايات المتحدة في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي، يزعم كل من "يان زانج Yan Zhang"، و"كي فانج Ke Fang" أن شنغهاي أجبرت أكثر من ١,٥ مليون نسمة على إعادة التوطين، في الفترة ما بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٧ لإفساح الطريق أمام بناء ناطحات السحاب، والشقق الفاخرة، ومراكز التسوق الكبرى، والبنية التحتية الجديدة، في الفترة نفسها تمت إزاحة نحو مليون من سكان مدينة بكين القديمة، والزج بهم إلى الضواحي الطرفية(٢٩).

في البداية، تمثل إعادة التطوير الحضري في الصين عهد دنج تشاوبينج Deng Xiaoping، مثلما كان في أمريكا عهد ترومان Harry Truman، في مشاريع سكنية تجريبية، بدت وكأنها لا تشكل سوى تهديد طفيف للفابريكة الحضرية التقليدية.

> ولكن، عندما أكثرت السلطات المحلية من هذه التجارب، وأسرعت من وتيرة إعادة تطوير قطاع السكن، لم يكن هناك شرط في البرنامج للحد من السكن وفق معدلات السوق، ولا حتى للاستخدامات غير السكنية. ومن ثم، فإن السكن المتواضع والمناسب لمنخفضي الدخل، سرعان ما فقد وزنه وقيمته: فقد استغل المطورون هذه الانطلاقة، ليقوموا ببناء ما يستطيعون من شقق فاخرة ومنشآت تجارية. وفي بعض الحالات، مثلما الحال في مشروع "هوبايكو Hubeikou" [بكين] لم يستطع أي من السكان الأصليين تحمل نفقات

(29) Yan Zhang and Ke Fang, "Is History Repeating Itself? From Urban Renewal in the United States to Inner-City Redevelopment in China." *Journal of Planning Education and Research* 23 (2004), pp. 286-89.

العودة لأماكنهم. وفي مشاريع أخرى مثل مشروع السوق الشرقية الجديدة New Oriental Plaza، لم يتم بناء أية وحدات سكنية نهائيًا، وبدلاً من ذلك انتصب عاليًا أكبر مجمع تجاري في آسيا(٣٠).

المدينة الجميلة:

في العالم الثالث الحضري، يخشى الفقراء من الأحداث المهمة، رفيعة المستوى، مثل المؤتمرات، والزيارات التشريفية، والأحداث الرياضية، ومسابقات الجمال، والمهرجانات الدولية، تلك التي تدفع السلطات إلى شن حروب صليبية من أجل تنظيف المدينة.. إن سكان العشوائيات يعرفون سلفًا أنهم "القذارة"، أو "الوصمة" التي تفضل الحكومات ألا يراها العالم. أثناء الاحتفال بيوم الاستقلال النيجيري عام ١٩٦٠، على سبيل المثال، كان هناك تحرك تقوم به الحكومة الجديدة، وهو ضرب سور ساتر على جانبي الطريق القادم من المطار، بحيث لا ترى الأميرة ألكساندريا Alexandria ممثلة الملكة إليزابيث، عشوائيات لاجوس(٣١). وفي الوقت الحالي أصبحت الحكومات أكثر استعدادًا لتحسين المنظر عبر تجريد وإزالة العشوائيات والدفع بسكانها إلى خارج المدينة.

إن سكان مانيلا ينتابهم رعب خاص من مثل هذه "الحملات التجميلية". فأثناء سيطرة إميلدا ماركوس Imelda Marcos على حكومة المدينة، تمت بنجاح إزالة سكان الصفيح من مسارات، وطرق استعراض ملكة جمال الكون لعام ١٩٧٤، وزيارة الرئيس جيرالد فورد Gerald Ford ١٩٧٥،

---

(30) المرجع السابق.

(31) Ben Omiyi, *The City of Lagos: Ten Short*, New York 1995, p. 48.

واجتماع صندوق النقد الدولي- البنك الدولي في ١٩٧٦[٣٢]. إجمالي ١٦٠,٠٠٠ نسمة جملة واحدة من واضعي اليد، تم إزالتهم من مجال الرؤية الإعلامي، وكثيرون منهم تم كبّهم في ضواحي مانيلا، على بعد ٣٠ كيلو مترًا أو أكثر من منازلهم القديمة[٣٣]. ثم جاءت حركة "قوة الشعب People's Power" لـ"كورازون أكينو" Corazon Aquino فكانت أكثر قسوة من سلفها: ما يقرب من ٦٠٠,٠٠٠ من واضعي اليد، تم إخلاؤهم أثناء رئاسة أكينو، وعادة دون إتاحة مواقع لإعادة توطين[٣٤]. وعلى الرغم من وعود تلك الحملة بالحفاظ على حق السكن لفقراء الحضر، استمر خليفة أكينو، جوزيف استرادا Joseph Estrada، في الإخلاءات الجماعية: ٢٢,٠٠٠ من مدن الصفيح تم تدميرها في النصف الأول من سنة ١٩٩٩ وحدها[٣٥]. ثم، وفي الإعداد لقمة رابطة أمم جنوب شرق آسيا ASEAN، هاجمت أطقم الهدم في نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٩٩ عشوائية "دابو- دابو" Dabu-Dabu في "باساي" Pasay. وعندما شكل السكان حائطًا بشريًّا، تم استدعاء فريق SWAT مسلحًا بـM16، فقتلوا أربعة وجرحوا ٢٠ منهم. وتم إحراق المنازل بمحتوياتها، وتسويتها بالأرض، وتم إعادة توطين سكان "دابو- دابو" البائسين في موقع عبر ضفاف نهر من مياه المجاري، حيث أصيب أطفالهم بأمراض معوية معدية وقاتلة[٣٦].

(32) Erhard Berner, "Poverty Alleviation and the Eviction of the Poorest," *International Journal of Urban and Regional Research* 24:3 (September 2000), p. 559.

(33) Drakakis-Smith, *Third World Cities*, p. 28.

(34) Berner, *Defending a Place*, p. 188.

(35) Task Force Detainees of Philippines (TFDP-AMRSP), "Urban Poor, Demolition and the Right to Adequate Housing," briefing paper, Manila 2000.

(36) Helen Basili, "Demolition the Scourge of the Urban Poor," *Transitions* (newsletter of Service for the Treatment and Rehabilitation of Torture and Trauma Survivors [STARTTS], #6 (May 2000)>

وبوصفه رئيسًا على عرش وضعته قوات المارينز الأمريكية، صار "خوان بالاجور" Juan Balaguer منمومًا بسمعة "متعهد الإخلاء الأكبر". وبعودته إلى السلطة عام ١٩٨٦، قرر الديكتاتور المسن إعادة بناء مدينة سانتو دومينجو، استعدادًا للذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف كولومبوس العالم الجديد، وزيارة البابا. وبدعم من الحكومات والمؤسسات الأوروبية، شن الديكتاتور سلسلة من المشاريع الكبرى لم يسبق لها مثيل في تاريخ الدومينيكان: فنار كولومبوس Columbus Lighthouse، وبلازا دي آرماز Plaza de Armas، وأرخبيل التقسيمات الفرعية للطبقة الوسطى الجديدة. وفضلاً عن تمجيد نفسه بالآثار والتماثيل، فقد سعى بالأجور أيضًا إلى إضفاء طابع هاوسمان Haussmann على المراكز التقليدية للمقاومة الحضرية. وكان هدفه الرئيسي المنطقة الضخمة العليا من المدينة، التي يقطنها منخفضو الدخل، وتسمى "سابانا برديدا" Sabana Perdida، شمال شرق مركز المدينة. ويكتب الباحثون المُطّلعون في "سابانا برديدا" قائلين: إن "الخطة كانت تتمثل في التخلص من العناصر المثيرة للمتاعب في عشوائيات الطبقة العاملة في أعلى المدينة، وذلك بترحيلهم إلى ضواحي الأطراف. وقد أوحت ذكريات تمرد ١٩٦٥ وأعمال الشغب في ١٩٨٤ بأنه سيكون من الحكمة الإطاحة بمركز الاحتجاج السياسي والمعارضة"(٣٧).

وبعد احتجاجات هائلة من قبل منسقي حقوق العشوائيات، بدعم من لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، تم إنقاذ الجزء الأعلى من المدينة، ولكن عمليات هدم كبيرة، غالبًا ما شارك فيها الجيش نُفذت في المركز، والجنوب الغربي، والجنوب الشرقي من سانتو دومينجو. وبين عامي ١٩٨٦ و١٩٩٢، تمت إزالة ٤٠ منطقة عشوائية، وإخلاء ١٨٠,٠٠٠ نسمة. وفي تقرير مهم حول عمليات الهدم في الحي، وصف كل من "إدموندو مورل" Edmundo

(37) Morel and Mejia, "The Domination Republic," p. 85.

Morel، و"مانويل ماجيا" Manuel Mejia حملة الإرهاب الحكومي ضد الفقراء، وهاكم بعض من وصفهما:

> تم هدم المنازل، بينما كان سكانها لا يزالون بداخلها، أو عندما كان ملاكها بعيدين، وتم استخدام جنود تابعين للجيش لتهديد وإرهاب الناس، وإجبارهم على هجر منازلهم، وتم تخريب المنقولات الأسرية أو سرقتها. وكان الإخطار بالإخلاء قد أعطى في اليوم نفسه الذي تم فيه إلقاء الأسرة إلى الخارج، وتم اختطاف الناس، وتعرضت النساء الحوامل والأطفال للعنف البدني، وتم قطع الخدمات العامة عن العشوائيات- كتكتيك للضغط، وتمت إهانة وتهديد الأسر، كما لعب رجال الشرطة دور القضاة(٣٨).

الألعاب الأوليمبية الحديثة أيضًا لها تاريخ مظلم، ولكنه غير معروف. ففي أثناء الإعداد لدورة الألعاب الأوليمبية عام ١٩٣٦، قام الحُكم النازي- بلا رحمة- بتطهير مناطق برلين من المشردين وسكان العشوائيات، كي تروق للناظرين من الزوار الدوليين. وفيما صاحب الدورات التالية- بما في ذلك دورات مكسيكو سيتي، وأثينا، وبرشلونه- تجديدٌ عمراني حضري وإخلاءات. إلا أن دورة ألعاب "سول" كانت في الحقيقة غير مسبوقة في حجم الهجوم الرسمي على أصحاب البيوت من الفقراء، وواضعي اليد، والمستأجرين: حيث تم إعادة توطين ما يصل إلى ٧٢٠,٠٠٠ نسمة في سول وإنيون Injon، مما دفع منظمة غير حكومية كاثوليكية إلى زعم أن كوريا الجنوبية أصبحت منافسة لجنوب أفريقيا "البلد الذي يعد الإخلاء القسري فيه الأكثر وحشية وانعدامًا للإنسانية"(٣٩).

---

(38) المرجع السابق.، ص.ص. ٩٥-٩٧.

(39) Catholic Institute for International Relations, *Disposable People: Forced Evictions in South Korea*, London 1988, p 56.

وتبدو بكين وكأنها كانت تسير على هدي سالفتها سول في استعداداتها لدورة الألعاب الأوليمبية ٢٠٠٨: "٣٥٠,٠٠٠ نسمة، تمت إعادة توطينهم لإفساح الطريق أمام بناء الاستاد وحده"[٤٠]. وقد لفتت منظمة مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch الانتباه إلى التواطؤ الواسع بين المخططين الرسميين والمطورين العمرانيين، الذين تلاعبوا بالإثارة الوطنية المتأصلة في الألعاب الأوليمبية، بهدف تبرير الإخلاءات الجماعية الضخمة، وسرقة الأراضي بأنانية شديدة في قلب بكين[٤١]. وتزعم "آن ماري برودو" Anne-Marie Broudehoux في كتابها اللامع *صناعة وبيع بكين ما بعد ماو* (٢٠٠٤) *The Making and Selling of Post-Mao Beijing*، أنه في الصين التي تتبع سياسة رأسمالية الدولة، نجد التفضيل في الوقت الحالي متجهًا إلى إخفاء الفقر خلف واجهات "على نمط بوتمكين Potemkin، دون تحسينها على أرض الواقع. وتتنبأ المؤلفة بأن التخطيط للألعاب الأوليمبية (بالنسبة للطبقة العاملة من باب السخرية السوداء) سوف يكرر الخبرة الصادمة للاحتفال بالعيد الخمسين للثورة الصينية.

> لأكثر من عامين تكبد سكان بكين عناء التفرقة، والتمزق الذي سببته حملات تجميل مختلفة، استهلت بمحاولة تمويه وإخفاء التشويه الاجتماعي والمكاني للمدينة. مئات المنازل تم هدمها، وآلاف الأشخاص تم طردهم، وبلايين اليوانات/ العملة الصينية من دافعي الضرائب، تم إنفاقها لبناء واجهة للنظام والتقدم، ولضمان أن الاحتفالات المخططة بعناية تتم تنفيذها بسهولة ويسر. تم وضع العاصمة في حالة تعطل كامل طوال مدة المهرجانات التي استغرقت أسبوعًا. وقد

(40) Asian Coalition for Housing Rights. *Housing by People in Asia* (newsletter). 15 October 2003. p. 12.

(41) See Human Rights Watch, current news reports, and "Demolished: Forced Evictions and tenants' Rights Movement in China" at hrw.org/reports/2004/china.

تلقى مواطنو بكين أوامر بالبقاء في منازلهم، ومتابعة المهرجانات على شاشة التلفاز أثناء الاحتفال بالألعاب الآسيوية(٤٢).

غير أن أكثر برامج "التجميل الحضري" تطبعًا بالنمط الأورويلي(*) Orwellian في آسيا خلال السنوات الأخيرة، كانت بلا شك الاستعدادات لـ"سنة زيارة مينمار ١٩٩٦"، والتي تولت أمرها الديكتاتورية العسكرية البورمية Burmese الممولة من الهروين في "رانجون" Rnagoon، و"ماندالاي" Mandalay. وقد تمت إزالة مليون ونصف مليون من السكان، وهي نسبة لا تصدق، قوامها ١٦% من إجمالي سكان الحضر- من منازلهم (تكرر ذلك بإحداث حريق برعاية الدولة) بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٤، وتم نقلهم إلى أكواخ سريعة البناء من أخشاب البامبو والخوص في الأطراف الحضرية، والتي تمت الآن إعادة تسميتها إلى "الحقول الجديدة". ولم يعرف أحد متى سيأتي دورهم، حتى الموتى تم إخلاؤهم من المقابر. وفي كتابها *فاشية الكاريوكي* *Karaoke Fascism*، تصف مونيك سكيدمور Monique Skidmore، المشاهد الوحشية في رانجون وماندالاي، تلك المشاهد التي تذكرنا بعملية "بول بوت"(**) Pol Pot الشهيرة لتهجير السكان من بنوم بنه

---

(42) Anne-Marie Broudehoux, *The Making and Selling of Post-Mao Beijing*, New York 2004, p. 162.

(*) نسبة إلى جورج أورويل Orwell، ويقصد به الوضع المدمر لرفاهة المجتمع الحر.

(**) ١٩ مايو ١٩٢٨ – ١٥ أبريل/ نيسان ١٩٩٨، والملقب بعدة أسماء أولها بول بوت وبالأخ رقم ١ .Pol. Pouk. Hay. Grand-Uncle, '87', Phem, '99.. قاد بول بوت الحركة الشيوعية، والتي كانت مشهورة بالخمير الحمر. تولى منصب رئيس وزراء كمبوديا لفترة ثلاث سنوات من ١٩٧٦-١٩٧٩، وكان الحاكم الفعلي لكمبوديا منذ منتصف العام ١٩٧٥. واشتهر بسياسات مثيرة للجدل قمعية في أغلبها. في العام ١٩٧٩، وبعد اجتياح القوات الفيتنامية، انهارت حكومة الخمير الحمر، وهرب بول بوت إلى منطقة الغابات شمال غرب كمبوديا. لم يقدم بول بوت لمحاكمة رسمية لكن جماعة الخمير الحمر قامت باعتقاله. (المترجم).

عاصمة كمبوديا. "جميع التجمعات السكنية في المدينة تختفي في ظرف يوم واحد، السكان يُوضعون في شاحنات نقل، ويتم إعادة توطينهم قسرًا في مواقع عشوائية جديدة أنشأتها الحكومة على مشارف حقول الأرز خارج المدن الرئيسية". وقد تم إحلال الأحياء الحضرية بمشاريع من قبيل رانجون الجديدة، ومسار الجولف، تستهدف السائحين الغربيين ورجال الأعمال اليابانيين. "قام الجنرالات بنقل مجتمع ظل موجودًا على مدى أربعين عامًا. وبالنسبة لمن قاوموا، فإما ألقى القبض عليهم أو تم نقلهم بالقوة إلى مستوطنة تبعد ١٥ ميلاً"(٤٣).

وتبرهن "سكيدمور" على أن هذه الخلخلة المكانية الدائمة، أصبحت أساسًا لـ"سياسة التخويف" التي يمارسها النظام. وعبر إعادة التسمية، وإعادة البناء، وإعادة التوطين لساكني المواقع المألوفة، ومع الوجود الثقيل للجيش والتسليح، يفرض المجلس العسكري تشكيلاً مكانيًّا جديدًا على رانجون... قامعًا الأحياء السكنية الديمقراطية المحتملة، وهادمًا المدينة الداخلية، وخالقًا مراكز حضرية جديدة، تخلد مبدأ السلطوية والتسلط. وفي مكان الأحياء السكنية التقليدية، والمباني التاريخية، يمول غسيل أموال المخدرات المباني الشاهقة، المصنوعة من الزجاج والأسمنت المسلح ("فن عمارة عمران المخدرات")، وفنادق سياحية بالعملة الصعبة، ومجمعات للمعابد الفخمة اللامعة. أصبحت رانجون مدينة تجميعة كابوسية من "أرض العجائب السياحية البوذية"، ومتاريس عملاقة، ومقبرة: إنه "مشهد يمجد السيطرة ورؤية قادتها السلطوية"(٤٤).

---

(43) Skidmore, *Karaoke Fascism*, Philadelphia 2002, p. 88.

يمكن الاطلاع على الملف حول بورما عبر هذه الوصلة: www.idpproject.org

(44) Skidmore, *Karaoke Fascism*, pp. 84-85, 89, 159-60.

تجريم العشوائيات:

لقد كان لإستراتيجية التطهير الحضري لجنرالات بورما إرهاصات وسوابق، شريرة بالطبع، في الأجواء الغربية. ففي ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، على سبيل المثال، أعلنت الديكتاتوريات العسكرية المخروط الجنوبي(*) على العشوائيات والمساكن المجمعة التي أدركوها، أو تعاملوا معها بوصفها مراكز محتملة للمقاومة، أو ببساطة عقبات أمام التحول البرجوازي الحضري. تقول سوزانا تاكنر Suzana Taschner في كتابتها حول البرازيل بعد ١٩٦٤: "بداية الفترة العسكرية تميزت باتجاه سلطوي، وإزالة مستوطنات واضعي اليد قسرًا، وبمعاونة قوات الأمن العام". فبإشارة تهديد عصابة واحدة صغيرة من عصابات *الفوكو* *foco* الماركسية، قام الجيش بمسح ٨٠ منطقة عشوائية، وأخلى ما يقرب من ١٤٠,٠٠٠ من الفقراء من ريو المطلة على التلال(٤٥). وفي إطار شروط الدعم المالي المقدَّم من هيئة المعونة الأمريكية USAID، تم لاحقًا هدم مزيد من العشوائيات لإفساح الطريق أمام التوسع الصناعي، أو "لتجميل" حدود المناطق المأهولة بذوي الدخول الأعلى. وعلى الرغم من إخفاق السلطات في تحقيق هدفها المتمثل في الإطاحة بجميع "العشوائيات داخل ريو في حقبة عقد زمني"، فقد أشعلت الديكتاتورية الصراعات بين الأحياء البرجوازية والعشوائيات، وبين الشرطة، وشباب العشوائيات والأحياء الفقيرة، وهو ما استمر زهاء ثلاثة عقود لاحقة(٤٦).

(*) المخروط الجنوبي، بالإسبانية Cono sur، بالبرتغالية Cone Sul. يشير إلى المنطقة الجغرافية المكونة من المناطق الواقعة في أقصى جنوب أمريكا الجنوبية. المنطقة تضم كلا من الأرجنتين وشيلي وأوروغواي، وبعض الأجزاء من باراغواي وجنوب البرازيل، والتي تشمل الولايات البرازيلية ريو غراندي دو سول، وسانتا كاتارينا، وبارانا، وولاية ساو باولو. (المترجم).

(45) Taschner, "Squatter Settlements and Slums in Brazil," p. 205.

(46) Michael Barke, Tony Escasany and Greg O'Hare, "Samba: Metaphor for Rio's Favelas," *Cities* 18:4 (2001), p. 263.

وفي تلك الأثناء، تحديدًا عام ١٩٧٣ في سنتياجو، كان أحد التحركات الأولى لديكتاتورية بونشيه Pinochet– بعد قتل قيادة اليسار الشعبي– هو إعادة إرساء هيمنة الطبقة الوسطى في المدينة المركزية بطرد واضعي اليد (حوالي ٣٥,٠٠٠ أسرة) من *التجمعات* *poblaciones* الفقيرة *العشوائيات* *callampas*، التي كانت حكومة آليند Allende تتسامح مع وجودها[٤٧]. وهنا يقول باحث التنظيم المجتمعي "هانز هارمز" Hans Harms: إن "الهدف المعلن صراحة كان خلق مناطق هيمنة اجتماعية اقتصادية في المدينة'... وقد تم خلق مناخ من العزلة والخوف، مع حظر جميع تنظيمات الأحياء تحت حكم بونشيه العسكري الديكتاتوري زهاء ثلاثين عامًا"[٤٨]. وبعد إحياء النشاط السياسي في عام ١٩٨٤، عاود النظام إطلاق أطقم الهدم لتمارس دورها ضد *مستوطني البلدات* *pobladores* في جولة أخرى من "المكافحات". وكانت النتيجة التراكمية، كما توضح "كاثي شنايدر" Cathy Schneider في تأريخها المهم لمقاومة الأحياء ضد الديكتاتورية، هي إجبار ضحايا الإخلاء والأسر الشابة على العيش في منازل الأصدقاء أو الأقارب. "وقد تزايدت نسبة الأسر التي تعيش بطريقة *allegados* (أي أكثر من ثلاثة أشخاص في غرفة واحدة) من ٢٥% في عام ١٩٦٥ إلى ٤١% عام ١٩٨٥"[٤٩].

لقد تبنت الأرجنتين أولاً إستراتيجية التمرد المضاد من إزالة العشوائيات، أثناء حكم العسكر خلال الفترة ١٩٦٧-١٩٧٠. وكما أكدت "سيسيليا زانيتا" Cecilia Zanetta، فقد استهدفت "خطة مكافحة العشوائيات الطارئة" خصيصًا الحكم الذاتي الراديكالي في العشوائيات، وقد أُجبر ضحايا الإخلاء على تنفيذ مرحلة من "التكيف الاجتماعي" قبل أن يُعاد توطينهم في

---

(47) Alfredo Rodriguez and Ana Mria Icaza, "Chile," in Azuela, Duhaun, and Ortiz, *Evictions and the Right to Housing*, p. 51.

(48) Harma, "To Live in the City Center," p. 198.

(49) Cathy Schneider, *Shantytown Protest in Pinochet 's Chile*, Philadelphia 1995, p. 101.

الأطراف. ولكن لم يكتب لهذه المحاولة العسكرية الأولى لإلغاء العشوائيات سوى نجاح جزئي، ومع استعادة الحكم المدني في أوائل السبعينيات، أصبحت العشوائيات مرة أخرى المهد للتحرك، والاشتعال الراديكالي البيروني(*) Peronist والاشتراكي. وعندما عاد الجنرالات للسلطة في مارس/ آذار ١٩٧٦، كانوا عاقدين العزم على تدمير *العشوائيات البائسة الفقيرة* مرة واحدة وللأبد؛ حيث تم أثناء السنوات المريعة لـ *ال بروسيسو el Proceso* أو *العملية*، إلغاء الضوابط على الإيجار، وإزالة ٩٤% من المستوطنات "غير القانونية" في بيونس أيرس الكبرى Gran Buenos Aires، وهو ما نتج عنه تحويل ٢٧٠ ألف نسمة إلى مشردين. وكان المُنظِّمون سياسيًّا من عامة الناس، بمن فيهم الكاثوليك واليساريون "يختفون" اختفاءً منظمًا. وكما حدث في شيلي، فإن تفكيك المقاومة الاجتماعية المرتكزة في العشوائيات، سارت جنبًا إلى جانب إعادة التدوير القائمة على المضاربة للأراضي الحضرية التي تم الظفر بها حديثًا. وهكذا كانت مكافحة العشوائيات مركزة، وفقًا لإحدى الدراسات، "في المدينة العاصمة، وفي شمال المناطق المركزية من مدينة بيونس أيرس، حيث كانت قيمة الأرض أعلى سعرًا"(٥٠).

وقد شهدت مصر أيضًا، في عقد السبعينيات، عهدًا من قمع الدولة الشرسة موجهًا ضد الأحياء الحضرية "الانقسامية" أو المعادية للنظام(٥١). والمثال الشهير لذلك كان في أعقاب أحداث الغضب في ١٩٧٧ المرتبطة بصندوق النقد الدولي في القاهرة. فسياسات السادات النيوليبرالية الفاشلة المسماة *الانفتاح* أسفرت عن عجز ضخم جعل جيمي كارتر، وصندوق النقد

(*) نسبة إلى الرئيس الأرجنتيني "خوان دومينجو بيروني" Juan Domingo Peron، وهي حركة سياسية تقوم على البرامج التي ارتبطت بحكمه وترتكز على الاستقلال عن النفوذ الأجنبي، ومركزية الحكم والاشتراكية. (المترجم).

(50) Cecilia Zanetta. *The Influence of the World Bank on National Housing and Urban Policies: The Case of Mexico and Argentina in the 1990s*, Aldershot 2004, pp. 194-96.

(51) Harris and Wahba, "The Urban Geography of Low-Income Housing," p. 68.

الدولي، يمارس ضغطًا على الرئيس المصري لتصحيحها. وهنا يكتب الصحفي "جنيف عبده" Geneive Abdo "لسد هذه الفجوة؛ كان السادات مجبرًا على إلغاء الدعم، أو استنزاف الموسرين عبر فرض ضرائب على الدخل الشخصي. وكانت الطبقة البرجوازية، بوصفها قاعدة شعبية رئيسية، مهمة جدًا بالنسبة للسادات؛ لذا اختارت الدولة إلغاء نصف الدعم الموجه [للأغذية المعيشية الأساسية للفقراء]"(٥٢). ومن جانبهم، هاجم القاهريون الغاضبون تلك الرموز المنتصبة أمامهم لنمط الحياة الفاخرة المرتبطة بـ*الانفتاح* مثل الفنادق خمس نجوم، والكازينوهات، والنوادي الليلية، والعمارات السكنية، وأيضًا أقسام البوليس. ثمانون شخصًا قتلوا أثناء الانتفاضة وحوالى ١٠٠٠ جريح.

وبعد ملء السجون باليساريين (القمع الذي جاء بأثر جانبي نفع في صعود الإسلاميين المتطرفين في مصر)، صب السادات جام غضبه على عشوائية "عشش الترجمان" في حي بولاق أبو العلا، بالقرب من وسط القاهرة، بوصفها مصدر ما وصفه بـ"انتفاضة الحرامية بقيادة الشيوعيين". وقد أخبر الصحافة الأجنبية آنذاك بأن المنطقة كانت "عُشًا"– بالمعنى الحرفي للكلمة– للتأليب على نظام الحكم، حيث يختفي الشيوعيون "حيث كان من المستحيل الوصول إليهم، نظرًا لضيق الشوارع التي استحال معها استخدام سيارات الشرطة"(٥٣). وتقول متخصصة علم الأنثروبولوجي فرح غنام: إن السادات، كان مثالاً لنابليون ذلك العصر، فقد أراد "أن يتم إعادة تخطيط مركز المدينة لتسمح بمزيد من السيطرة الفعالة والحكم الشرطي". وقد تم تقسيم سكان عشش الترجمان الموصومين إلى فئتين، وطردوا إلى قسمين مختلفين من أطراف الحضر، بينما أصبح حيهم القديم ساحة لانتظار

---

(52) Geneive Abdo, *No God but God: Egypt and the Triumph of Islam*, Oxford 2000, pp. 129-30

(53) Farha Ghannam, *Remaking the Modern: Space, Relocation, and the Politics of Identity in a Global Cairo*, Berkeley 2002, p. 38.

السيارات. وتدفع "فرح غنام" في حجتها بأن تطهير منطقة بولاق أبو العلا، كان الخطوة الأولى في رؤية طموحة جدًا– لم يكن لدى السادات لا الوقت ولا الموارد لتنفيذها فعليًا– من إعادة بناء القاهرة، "باستلهام مدينتي لوس أنجلوس وهيوستن كنموذجين"(٥٤).

منذ سبعينيات القرن الماضي، أصبح من الشائع بالنسبة للحكومات في كل مكان، تبرير إزالة العشوائيات بوصفها وسيلة لا غنى عنها لمحاربة الجريمة. فضلاً عن ذلك، فإن العشوائيات، غالبًا ما تم تصويرها كموطن تهديدات، ببساطة لأنها خفية أو غير مرئية بالنسبة لجهاز الدولة المعنى بالمراقبة، وتعتبر "بعيدة المنال عن منظومة البانوبتيكون "Off-Panopticon". ففي عام ١٩٨٦، عندما أمر رئيس زامبيا "كينيث كاوندا" Kenneth Kaunda بعمليات هدم وإخلاء واسعة على مستوى لوساكا، زعم أن السبب وراء هذا، هو "أن أغلبية مرتكبي الجرائم يجدون ملجأ في العشش والعشوائيات غير المرخص لها؛ لأنهم بفضل وجودها، يبتعدون عن أنظمة المراقبة الصحيحة"(٥٥).

ولطالما تم استخدام قانون العهد الاستعماري أيضًا لتبرير علميات الإزاحة وطرد السكان. ففي الضفة الغربية، على سبيل المثال، عادة ما يعيد الجيش الإسرائيلي إثارة الحديث حول القوانين واللوائح البريطانية أو حتى العثمانية، عندما يقوم بإخلاء الأسر وتفجير بيوت "الإرهابيين". وبالمثل، فعلت كوالالامبور، أثناء سعيها لتحقيق هدفها في أن تصبح "خالية من العشوائيات" بحلول عام ٢٠٠٥، فقد استخدمت القوة البوليسية استنادًا إلى قوانين الطوارئ في الخمسينيات، عندما محا البريطانيون مجتمعات واضعي اليد الصينيين،

---

(54) المرجع السابق.، ص. ١٣٥.

(55) Mpanjilwa Mulwanda and Emmanuel Mutale, "Never Mind the People, the Shanties Must Go," *Cities* 11:5 (1994), pp. 303, 311.

ممن زعمت بريطانيا أنها تمثل معاقـل شـيوعية. والآن، فـإن القـوانين المناهضة للتأليب على نظام الحكم تخدم ما وصفه نشطاء كوالالامبور بأنــه "استيلاء هائل وفاسد على الأراضي" من قبل الساسة والمتربحين من التطوير العمراني"؛ "فبحلول عام ١٩٩٨ كان نصف واضعي اليد في المدينة، قد تـم إخلاؤهم، مما ترك ١٢٩ ألف نسمة يعيشون في قذارة وخـوف فـي ٢٢٠ مستوطنة"[٥٦]. وفي تلك الأثناء أيضًا، استخدمت حكومة دكا مـن مـصرع رجل شرطة على يد إحدى العصابات، ذريعة لمحو ١٩ مـن "العـشوائيات الإجرامية!!"، وإخلاء ٥٠ ألف نسمة وتشريدهم في الشوارع[٥٧].

وكان "أمن" بكين، بالطبع، إحدى الـذرائع لحـدوث مذبحـة ميـدان "تيانانمين" Tiananmen عام ١٩٨٩؛ وبعدها بستة أعوام أصبح الأمن أيـضًا عذرًا رسميًا للتفكيك الوحشي لقرية تشيانج Zhejiang، وهي عشوائية ممتدة على الحافة الجنوبية للعاصمة. ("تقليديًا"، كما يشير الكاتب "مايكل دوتـون" Michael Dutton، "كان الشطر الجنوبي من المدينة مخصصًا للفقراء، علـى حد ما تم التوصل إليه في حكمة بكين القديمة، 'في الشرق يكون الأثريـاء، وفي الغرب يعيش الأرستقراط وموظفو الدولة، بينما في الجنوب لا يوجـد سوى الفقر'"[٥٨]). ومعظم سكان عشوائية تشيانج Zhejiang البـالغ عـددهم ١٠٠ ألف نسمة جاءوا من مقاطعة "وينزو" Wenzhou في تـشيانج. وهـي منطقة مشهورة بنشاط سكانها التجاري المزدهر، ونقص الأرض الزراعية. أغلبية مَن فيها كانوا من الشباب، ممن لم يتلقوا سوى تعليم بسيط، "العائمون" أي بدون أوراق رسمية للإقامة ممن استأجروا أكواخًا وعششًا من المزارعين المحليين، وعملوا في ورش للخياطة، تنظمها عصابات عشائرية، حيث يـتم

(56) Asian Coalition for Housing Rights, *Housing by People in Asia*, pp. 18-19.

(57) BBC News, 8 and 23 August 1999.

(58) Dutton, *Streetlife China*, p. 149.

تصنيع ملابس بكين الشتوية والمصنوعات الجلدية الرخيصة لأهالي بكين(٥٩). وتصف عالمة السياسة "دوروثي سولينجر" Dorothy Solinger كيف أنه في جميع الأماكن في قرية تشيانج، "كان من الشائع أن تجد أربع أو خمس ماكينات خياطة، وأربعة أو خمسة أشخاص كبار، وطفلاً واحدًا على الأقل، وسريرين أو ثلاثًا في غرفة واحدة مساحتها عشرة أمتار مربعة"(٦٠).

بدأ هدم هذه المنطقة العشوائية في بداية نوفمبر/ تشرين الثاني عام ١٩٩٥، واستمر لمدة أربعة أشهر، وكان عبارة عن عملية عسكرية ممتدة، تضمنت ٥٠٠٠ من أفراد الشرطة المسلحين وكوادر الحزب، وقام بتنسيق العملية أعضاء اللجنة المركزية للحزب ومجلس الدولة. وعلى الرغم من أن قرية تشيانج لطالما وُصمت بما زُعم عنها من كونها موطن عصابات، ومخدرات، وجريمة، وأحداث كثيرة من أمراض تناسلية، فإن تدميرها- كما تقول "سولينجر": تم "إقراره على أرفع مستوى من قبل الرئيس [لي] بينج Peng [Li] نفسه... كتحذير لكل من تسول له نفسه المغامرة في دخول المدينة بطريقة غير قانونية". وفي نهاية المطاف، تم تدمير ٩٩١٧ منزلاً، وإغلاق ١٦٤٥ نشاطًا تجاريًا "غير قانوني" (تراوح بين الدراجات التاكسي pedicabs، والعيادات الطبية)، وطرد ١٨,٦٢١ من السكان "غير الشرعيين"(٦١). ولكن، وكما تشير سولينجر: "بعد مضي بضعة شهور على هذا التدمير الدراماتيكي، عاد كثير من السكان العابرين إلى المكان نفسه"(٦٢).

إن تطهير العشوائيات كبيرة الحجم- مثلما ضربنا المثال عليه في قرية تشيانج- غالبًا ما يكون مصاحبًا بقمع الباعة الجائلين، والعمال اليوميين غير

(59) Liu Xiaoli and Liang Wei, "Zhejiangcun: Social and Spatial Implications of Informal Urbanization on the Periphery of Beijing," *Cities* 14-2 (1997), pp. 95-98.

(60) Solinger, *Contesting Citizenship in Urban China*, p. 233.

(61) Dutton (quoting from official dosumnets). *Streetlife China*, pp. 152-59.

(62) Solinger, *Contesting Citizenship in Urban China*, p. 69.

الرسميين. وقد لا يعلو على الجنرال "سوتيوسو" Suityoso، الحـاكم القـوي لجاكرتا، سوى جنرالات بورما في درجة إساءته لحقوق الإنسان مع الفقراء في ربوع آسيا. فمن سوء سُمْعته في اضـطهاده المعارضـين فـي ظـل ديكتاتورية سوهارتو، اعتبر سوتيوسو منذ ٢٠٠١ أن "تطهير جاكرتـا مـن العشوائيات هي حربه الصليبية الخاصة، وكذلك تطهيرها من الباعة الجائلين وعازفي الموسيقا الجوالين في الشوارع، والمشردين، والدراجات التاكسي"، وبدعم من الأنشطة التجارية الكبيرة، وكبار المطورين العمرانيين، ومؤخرًا من الرئيسة "ميجواتي" نفسها، قام حاكم الولاية بإخلاء أكثر من ٥٠,٠٠٠ من سكان العشوائيات، وألقى بعدد ٣٤,٠٠٠ من سائقي الدراجات التاكسي فـي أتون البطالة، وهدم أكشاك ومنصات ٢١,٠٠٠ من الباعة الجائلين، وألقـى القبض على مئات من عازفي موسيقا الشارع. وكان هدفه الظـاهري هـو تحويل جاكرتا (عدد سكانها ١٢ مليون نسمة) إلى "سنغافورا ثانية"، ولكـن المؤيدين لعامة الشعب، مثل مجمّع فقراء الحضر Urban Poor Consortium اتهموه بأنه يريد ببساطة إزالة العشوائيات من أجل تنمية مستقبلية، معروضة من قبل مَن يدعمه من أصحاب النفوذ والحاشية السياسية الغنية(٦٣).

وإذا كان بعض من ساكني العشوائيات، قد ارتكبوا "جريمـة" كـونهم حجرَ عثرة في طريق التقدم، فإن غيرهم يخطئون بالتجرأ علـى ممارسـة الديمقراطية. ففي أعقاب الانتخابات الملطخة بالفساد فـي زيمبـابوي عـام ٢٠٠٥، صب الرئيس "روبرت موجابي" جام غضبه على أسواق الشوارع، وعشوائيات هراري وبولاوايو Bulawayo، حيث كان الفقراء قـد صـوتوا بأعداد كبيرة لصالح حركة التغيير الديمقراطي Movement for Democratic Change المعارضة. وكانت المرحلة الأولى من العملية التي أخذت عنوانـا

(63) Asian Coalition for Housing Rights, "Housing by People in Asia," as well as press release from the Asian Human Rights Commission and Urban Poor Consortium (See Urban Poor website: www.urbanpoor.or.id).

شريرًا مشينًا وهو *Murambasvina* ("التخلص من الزبالة") في أوائل مـــايو/ أيار، تمثلت في هجوم الشرطة على ٣٤ سوقًا في المدينة من أسواق الشوارع للسلع الرخيصة. وقد وردت معلومات عن قيام ضابط شرطة يحث رجالـــه قائلاً: "بدءًا من يوم غد، أريد التقارير فوق مكتبي تقول إننا أطلقنا النار على أشخاص. لقد أعطانا الرئيس تأييده ودعمه الكامل لهذه العملية، ومن ثـم لا يوجد شيء نخاف منه. لا بد أن نتعاملوا مع هذه العملية كأنها حرب"(٦٤).

وقد فعلها البوليس. فالأكشاك ومنصات البيع، تم حرقها أو إزالتها في هجوم منظم، وتم إلقاء القبض على أكثر من ١٧,٠٠٠ من الباعة، وســائقي سيارات النقل العامة غير الرسمية. وبعد أسبوع، بدأ البوليس فـــي تجريـــد الأكواخ والعشش في معاقل "حركة التغييـــر الـــديمقراطي"، وكـــذلك فـــي العشوائيات الموالية لموجابي (تشيموي Chimoi، ونيـــادزونيو Nyadzonio على سبيل المثال)، والتي كانت تقع في مناطق متعاقد عليها لإعادة التطوير. وفي إحدى الحالات، تحديدًا في امتداد هاتكليف Hatcliffe Extension، غرب هراري، قام البوليس بإخلاء آلاف السكان من عشوائيات الصفيح التي كانوا قد انتقلوا إليها في أوائل التسعينيات من القرن الماضي. وبعد حملة "تمشيط/ تطهير" سابقة، قبيل زيارة رسمية قامت بها الملكة إليزابيث الثانيـــة. وفـــي منتصف يوليو/ تموز، تم التخلص مما يربو عن ٧٠٠,٠٠٠ مـــن ســـاكني العشوائيات- "زبالة" البشر وفق الاصطلاح الرسمي- بينما كل مـــن حـــاول الاحتجاج، تم إطلاق النار عليه في الحال، أو ضـــربه، أو إلقـــاء القـــبض عليه(٦٥). وقد وجد محققو الأمم المتحدة أن "حجم المعاناة هائلة/ خاصة وسط الأرامل، والأمهات غير المتزوجـــات، والأطفـــال، والأيتـــام، والمـــسنين،

(64) Munyaradzi Gwisai, "Mass Action Can Stop Operation Murambasvina," International Socialist Organization (Zimbabwe), 30 May 2005; BBC News, 27 May 2005; *Guardian*, 28 May 2005; *Los Angeles*, 29 May 2005.

(65) BBC News, 8 June 2005; and *Mail Guardian* online (www.mg.co.za), 21 July 2005.

والمعاقين". وقد شجب الأمين العام كوفي أنان عملية "التخلص من الزبالـــة"؛ واصفًا إياها بـــ"ظلم كارثي"(٦٦).

وقد قارن المعارض الاشتراكي للنظام، "براين رافتوبولـــوس" Brian Raftopoulos من جامعة زيمباوي، التطهير العرقي للفقراء الحضر في عهد موجابي، بالسياسات الكريهة في العهود الاستعمارية، وكذلك عهد إيان سميث Ian Smith.

> مثلما كان في الماضي الاستعماري؛ فقـــد اســـتخدم النظـــام الحالي حجج الإجرام والقذارة الحضرية؛ "لاستعادة النظـــام" للمدن. وكما كان أيضًا في العهود الماضية؛ فإن تجريب هذا الأسلوب لا يحل المشكلة... حيث إن أســـاس هـــذا الفقـــر الحضري هو أزمة إعادة إنتاج العمل، والفـــشل المـــستمر للسياسات الاقتصادية الحالية في إرساء اســـتقرار مـــصادر رزق العمال الحضر. والحقيقة أن العمل يعـــد الآن- فيمـــا يخص مصادر العيش والرزق- أكثر هشاشة مما كان عليه في ١٩٨٠، حيث كان لزامًا على العمال تحمـــل التـــأثيرات المميتة لانهيار الأجور الفعلية، وأسعار الغـــذاء المرتفعـــة، والاستقطاعات الهائلة في الأجر الاجتماعي... ولم يحدث في وقت ما في الفترة بعد ١٩٨٠، وربما لم يحدث قط من قبل، أن تم إدارة العاصمة بهذا السوء بأقل قـــدر مـــن الاعتنـــاء بأحوال أغلبية سكانها(٦٧).

---

(66) BBC New. 22 July 2005.

(67) Brian Raftopoulos, "The Battle for the Cities," a contribution to an ongoing Internet debate on Zimbabwe (http://list.kabissa.org/mailman/listinfo/debate).

العوالم المعزولة:

في تناقض مع باريس عهد الإمبراطورية الثانية، فإن العملية المعاصرة من إضفاء "طابع هاوسمان" Haussmannization غالبًا ما تستعيد المركز من أجل الطبقات العليا غير الممتنة، والذين قاموا بالفعل بتعبئة حقائبهم للذهاب إلى الضواحي. فإذا قاوم الفقراء وبمرارة الإخلاء من المركز الحضري، فإن الأغنياء يتاجرون وبطواعية في أحيائهم القديمة من أجل الاستيلاء على أراضي الأطراف المسوّرة، ذات النمط الخيالي. ولا شك أن سواحل الذهب القديمة لا تزال موجودة- مثل الزمالك في القاهرة، والريفيرا في أبيدجان، وجزيرة فيكتوريا في لاجوس، وغيرها- ولكن التيار العالمي الجديد، منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي، أصبح متمثلاً في النمو السريع للضواحي المغلقة الحضرية، والمقامة على أطراف مدن العالم الثالث. حتى (أو لنقل خصوصًا) في الصين، نجد مجتمع المدن المسيجة أو المعزولة عن العالم الخارجي ببوابات ومتاريس، أصبح يطلق عليها "التنمية الأكثر دلالة في التخطيط والتصميم الحضري الحديث"[٦٨].

هذه العوالم "المعزولة، أو البعيدة "off-worlds- باستخدام مصطلح *بليد رانر Blade Runner*- غالبًا ما تُهندَس على طريقة مناطق جنوب كاليفورنيا Southern Californias. فمنطقة "بيفرلي هيلز" لا توجد فقط في النطاق البريدي ٩٠٢١٠؛ بل أيضًا، هناك ضاحية من ضواحي القاهرة، ومعها يوتوبيا ودريم لاند، مدينة خاصة للأثرياء، "سكانها يمكنهم الحفاظ على المسافة بينهم وبين منظر وقنوة الفقر، والعنف، والإسلام السياسي، والذي يبدو أنه يتخلل المواقع المحلية"[٦٩]. وبالمثل، "أورانج كاونتي/ المنطقة

(68) Pu Miao, "Deserted in Jammed Town: The Gated Community in Chinese Cities and Its Solution," *Journal of Urban Design* 8:1 (2003), p. 45.

(69) Asef Bayat and Eric Denis, "Who is Afraid of *Ashiwaiyat*?," *Environment and Urbanization* 17:2 (October 2000), p. 199.

البرتقالية Orange County" عبارة عن منطقة مسورة بالبوابات، مكونة من البيوت المتمددة على نمط كاليفورنيا، ذات المليون دولار، صممها مكتب الهندسية المعمارية "نيوبورت بيتش" Newport Beach، وديكور مارثا ستيوارت Martha Stewart، على الضواحي الطرفية الشمالية لبكين.

(وعلى حد ما أوضحه مطور الضاحية لمراسل أمريكي: "الناس في الولايات المتحدة قد يفكرون في المنطقة البرتقالية كمكان، ولكن في الصين، يشعر الناس أن المنطقة البرتقالية ماركة وعلامة مميزة، وكأنك تتحدث عن صيحة جيورجيو أرماني Armani."[(٧٠)]). كذلك اللونج بيتش Long Beatch– التي صنفتها *نيويورك تايمز* كـ"نقطة المركز للنسخة *المزورة* من لوس أنجلوس في الصين"– أيضًا شمال بكين، يمتد على طريق سريع جديد عبر ست حارات[(٧١)]. في الوقت نفسه نجد بالم سبيرنجز/ ينابيع النخيل Palm Springs منطقة محصورة تحت حراسة مشددة في هونج كونج، حيث السكان الأثرياء يمكنهم "لعب التنس ويتمرغون عبر الحدائق النوعية، حيث القطاع الكوميدي لشخصيات ديزني وهي محاطة بأعمدة إغريقية، وسرادق لأماكن عرض نيوكلاسكية". وتقابل المنظرة المعمارية الحضرية لورا روجاري Laura Ruggeri بين أنماط الحياة الباهظة، المستوردة من كاليفورنيا، لمعيشة السكان في منازلهم الكبيرة شبه المنفصلة، وبين الظروف المعيشية لخدمهم من الفلبينيين الذين ينامون في أكواخ، تشبه أعشاش الدجاج على الأسطح[(٧٢)].

وبالطبع تشتهر بنجالور، بأنماط الحياة الترفيهية في بالو ألتو Palo Alto، وصني فيل Sunnyvale، تكملها كافيتريات ستاربكس Starbucks والمجمعات الترفيهية، في ضواحيها الشمالية. ووفقًا للمخطط "سولومون

---

(70) *Orange County Register*, 14 April 2002.

(71) *New York Times*, 3 February 2003.

(72) Laura Ruggeri. "Palm Springs: Imaginecring California in Hong Kong," 1991/94, author website (www.spacing.org). Another "Palm Springs" is a elegant condominium complex in Beijing.

بنجامين" Solomon Benjamin، فإن الأجانب الأثرياء (رسميًا "الهنود غير المقيمين")، يعيشون كما لو كانوا في كاليفورنيا، في "تجمعات 'مزارع' حصرية"، وعمارات بها شقق مجهزة بحمامات السباحة، والنوادي الصحية الخاصة بهم، ومسورة بإجراءات أمنية خاصة، واحتياطي طاقة كهربائي، يعمل طوال اليوم، ومرافق نادٍ رياضي حصري وخاص"(٧٣). أما "ليبو كاراواتشي" Lippo Karawaci في مقاطعة تانجرانج Tangerang، غربي جاكرتا، فلا تحمل اسمًا أمريكيًا، ولكنها على صعيد آخر نسخة من ضاحية الساحل الغربي West Coast، تمتاز ببنية تحتية، تعد نوعًا ما بالاكتفاء الذاتي مع مستشفى، وسوق تجارية للتسوق، ودور سينما، ونادٍ رياضي وجولف، ومطاعم، وجامعة. كما تحتوي على مناطق مسوّرة داخليًا معروفة محليًا باسم "مناطق كاملة الحماية"(٧٤).

إن الطلب على مسائل الأمن والعزل الاجتماعي، أصبح وسواسًا عالميًا. في الأحياء المركزية والضواحي في مانيلا، تقوم جمعيات مُلّاك المنازل بعمل متاريس في الشوارع العامة، ويشنون حملات من أجل هدم العشوائيات. ويصف "إرهارد برنر" Erhard Berner مقاطعة لويولا هايتس :Loyola Heights

> نظام متطور من البوابات الحديدية، والمتاريس ونقاط التفتيش، ترسم حدود المنطقة، وتعزلها عن بقية المدينة، على الأقل في المساء. تهديدات الحياة، والمتعلقات، والممتلكات، تمثل الهم المشترك الغالب للسكان الأثرياء. المنازل تحولت إلى قلاع محصنة، وذلك بإحاطتها بأسوار عالية تعلوها شرائح زجاجية، وأسلاك شائكة، وقضبان حديدية ثقيلة على النوافذ(٧٥).

---

(73) Solomon Benjamin, "Governance, Economic Settings and Poverty in Bangalore," *Environment and Urbanization* 12:1 (April 2000), p. 39.

(74) Harald Leisch, "Gated Communities in Indonesia," *Cities* 19:5 (2002), pp. 341, 344-45.

(75) Berner, *Defending a Place*, p. 163.

وهذا النمط من "فن عمارة الخوف"، على حد وصف "توند أجبولا" Tunde Agbola، لأنماط الحياة المحصنة في لاجوس، نمط شائع في العالم الثالث، وفي أجزاء من العالم المتقدم، ولكنه يبلغ مداه العالمي في مجتمعات حضرية كبيرة، تنطوي على مظاهر من انعدام التكافؤ الاجتماعي الاقتصادي، هي الأكبر من نوعها، كما في جنوب أفريقيا، والبرازيل، وفنزويلا، والولايات المتحدة(٧٦). ففي جوهانسبرج، حتى قبل انتخاب نيلسون مانديلا، أخلت الأنشطة التجارية الكبيرة، والسكان الأثرياء البيض المركز الحضري متوجهين إلى الضواحي الشمالية (ساندتون Sandton، وراندبرج Randburg، وروزبنك Rosebank، وغيرها) والتي كانت قد تحولت إلى نُسخ من "المدن الحدودية" الأمريكية شديدة التأمين. وداخل هذه المدن المسورة الممتدة في الضواحي ببواباتها المصمتة، والتجمعات السكنية الصغيرة، والشوارع العامة الممترَسة، يرى عالم الأنثروبولوجي أندري تشيجليدي Andre Czegledy أن "الأمن" أصبح ثقافة السُخفاء.

> الجدران المرتفعة ذات المقاييس العالية، غالبًا ما تعلوها إبر معدنية، وشفرات، وحديثًا، سلك كهربائي موصل بإنذارات طوارئ، موصلة بدورها إلكترونيًا بـ"رد مسلح" من شركات الأمن. ولا شك في أن الطبيعة السيريالية لذلك العنف الضمني المستتر، برزت في ذهني يومًا ما، عندما كنت أسير مع زميلي في و"يستدين" Westdene، أحد الأحياء الأكثر انتماءً إلى الطبقة الوسطى في الضواحي الشمالية. على جانب الطريق، كانت هناك سيارة صغيرة تابعة لشركة أمن محلية تقف منتظرة، وقد برزت على جانبها حروف

(76) For a description of Lagos's fortress homes, see Agbola, *Architecture of Fear*, pp. 68-69.

كبيرة، تقول: إنهـا تـرد "بأسـلحة ناريـة ومتفجـرات"..
متفجرات؟(٧٧).

ولكن، في سومرست ويست Somerset West، وهي الحزام العـريض من ضواحي كيب تاون، نجد نمط "المنزل القلعة" ما بعد سياسة الأبارتيد، قد حلت محله منازل أكثر براءة، بدون برامج معقدة للأمن. وسر هذه الأمـاكن السكنية اللطيفة هو السور الكهربائي الذي يعد آخر اختراعات مـن نوعـه، والمحيط بكامل المنطقة، أو، كما هي معروفة محليًا، "قرية الأمن". أسـوار بعشرة آلاف فولت، كانت مصنوعة في الأصل لإبعاد الأسُود عن مراعـي الماشية، تسبب صدمة شديدة دافعة يفترض أن تشل أي دخيل دون أن تقتله. ومع تزايد الطلب البرجوازي العالمي، على مثـل هـذه التقنيـات الأمنيـة السكنية، تأمل شركات السور الكهربائي في جنوب أفريقيا، في استغلال سوق التصدير للأمن الخاص بالضواحي(٧٨).

أما المدينة الحدودية الأكثر شهرة في البرازيل، والمـسوّرة بجـدران عالية على النمط الأمريكي، فهي ألفافيل Alphville، فـي الربـع الـشمالي الشرقي من ساو باولو الكبرى. وبإعطائها هذا الاسم (بنزق) نسبة إلى العالم الجديد الأسود في الفيلم التشاؤمي الكئيب لـ"جودارد" Godard ١٩٦٥، فـإن ألفافيل "مدينة خاصة"، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، بها مجمع أعمال كبير، وسوق تجارية كبيرة، ومناطق سكنية مسورة– جميعها محمية بـأكثر مـن ٨٠٠ حارس خاص. في *مدينـة الجـدران* *City of Walls* (٢٠٠٠)، تلـك الدراسة التي احتفلت بها حديثًا، وتدور حول عسكرة المساحة الحضرية فـي

---

(77) Andre Czegledy. "Villas of Highveld: A Cultural Perspective on Johannesburg and Its Northern Suburbs," in Richard Tomlinson et al (eds), *Emerging Johannesburg: Perspectives on the Postapartheid City*, New York 2003. p. 36.

(78) Murray Williams. "Gated Villages Catch on among City's Super-Rich," *Cape Argus* (Cape Town). 6 January 2004. For details on suburban electric fence technology, see www.electerrific.co.za.

البرازيل، تكتب "تيريزا كالديرا" Teresa Caldeira أن "الأمن أحد العناصر الرئيسية في إعلانها، وهو أيضًا هوس لدى كل المنخرطين فيها". وفي الممارسة العملية، فإن هذا يعني العدالة اليقظة للمجرمين أو الدخلاء المشردين، بينما الشباب البراق خاصة مدينة ألفافيل، فمسموح لهم الانطلاق عراة مستقلين، وفي استشهاد بكلمات أحد السكان، تؤكد كالديرا: "ثمة قانون للناس البشر، ولكن ليس لسكان ألفافيل"(٧٩).

إن المدن الحدية أو الطرفية، في جوهانسبرج وساوباولو (وأيضًا نظيراتها في بانجالور وجاكرتا)، تعد من "العوالم المعزولة" المكتفية بذاتها؛ لأنها تدمج بداخلها قواعد تشغيل واسعة، فضلاً عن معظم جهاز البيع والجهاز الثقافي للمراكز الحضرية التقليدية. وفي حالات الانعزال السكني الأكثر نقاءً، فإن بناء الطرق السريعة- كما هو الحال في أمريكا الشمالية- أصبح شرطًا لازمًا لعملية انتقال الأثرياء إلى الضواحي النائية على أطراف المدن. وكما يبرهن المتخصص في أمريكا اللاتينية "دينيس رودجرز" Dennis Rodgers في حالة نخب ماناجوا Managua، "إنه أمر يتعلق بتواصل وارتباط هذه المساحات المحمية حماية خاصة، وهي العملية التي تشكلها كـ'نظام' قيم، ويمكن البحث في كون العنصر الأكثر أهمية الذي قد سمح بظهور هذه 'الشبكة المحصنة'، كان تطوير مجموعة إستراتيجية من الطرق المصانة جيدًا والمنارة جيدًا والسريعة في ماناجوا خلال نصف العقد الأخير"(٨٠).

ويواصل رودجرز مناقشة مشروع "مانجاوا الجديدة" Nueva Mangaua للعمدة المحافظ (والرئيس في عام ١٩٩٦) "أرنولدو ألمان"Arnoldo Aleman،

(79) Teresa Caldeira, *City of Walls: Crime, Segregation, and Citizenship in Sao Paulo*, Berkeley 2000, pp. 253, 262, 278.

(80) Dennis Rodgers, "'Disembedding' the City: Crime, Insecurity and Spatial Organization in Managua," *Environment and Urbanization* 16:2 (October 2004), pp. 120-21.

الذي فضلاً عن تدميره الأخلاق الثورية، والتضييق على أصحاب مشاريع النقل البسيطة والصغيرة، وواضعي اليد، قام ببناء نظام طرق جديدة مع اهتمام خاص بأمن السائقين الأكثر ثراء، في وسائل تنقلاتهم الرياضية:

> إن انتشار الطرق الدائرية... يمكن ربطها بحقيقة أنها تقلل من مخاطر سرقة السيارات، واختطافها- حيث لن تضطر السيارة إلى التوقف، بينما الغرض الرئيس للمرور الجانبي، يبدو أنه للسماح للسائقين بأن يتجنبوا عصابات الماناجوا التي يذاع عنها مستويات مرتفعة من الجريمة... وفيما يبدو لا يغلب على أعمال الطرق العناية بربط المواقع المرتبطة بحياة النخب الحضرية فحسب، بل هناك وعلى نحو متزامن إهمال شبه كامل للطرق في أجزاء معينة من المدينة، والتي تعد غير مرتبطة بالنخب الحضرية [اقرأ: الموالون لساندنيستا pro-Sandinista](٨١).

وفي صيحة مشابهة، فإن الطرق السريعة التي تم بناؤها بأموال خاصة في بينوس أيرس، تسمح الآن للأغنياء بالعيش كامل الوقت في "بلادهم" (منازلهم في الأندية الريفية)، في بيلار البعيدة، والاتصال بمكاتبهم في مركز المدينة. وتضم بيونس أيرس الكبرى أيضًا مدينة حدودية طَمُوحَة، تسمى "نوردلتا" Nordelta، ممن يعد تحققها ماليًا أمر غير مضمون(٨٢). وفي لاجوس، بالمثل، ممر واسع تم تطهيره عبر عشوائيات كثيفة السكان؛ لخلق طريق فائق السرعة للمديرين وموظفي الدولة، ممن يعيشون في الضاحية الثرية "أجاه" Ajah. وثمة أمثلة عديدة من مثل هذه الشبكات. وهنا يؤكد رودجرز أن "سياسة نزع أجزاء كبيرة من مراكز المدن، لصالح استخدام

---

(81) المرجع السابق.

(82) Guy Thuillier, "gated Communities in the Metropolitan Area of Buenos Aires," pp 258-59.

النخب الحضرية الفردي... تزحف على المساحة العامة للمدينـــة، بطريقـــة أوسع مدى من معـــدلات زحفهـــا علـــى التكوينـــات العمرانيـــة المنعزلـــة المحصنّة"(٨٣).

إنه لمن الأهمية بمكان التأكيد أننا نتعامل هنا مع إعادة تنظيم أساســـي لمساحة مراكز المدينة، بما يتضمنه ذلك من إنقاص وتقليل حاد للتقاطع بين حياة الأغنياء والفقراء. وهو ما يتجاوز هنا حدود أو معنى الفصل الاجتماعي التقليدي، والتشظي الحضري. وقد تحدث بعض الكتاب البرازيليين مـــؤخرًا، حول "عودة مدينة العصور الوسطى"، ولكن التضمينات العمليـــة لانعـــزال الطبقة المتوسطة عن المساحة العامة- وأيضًا عن أية علامة علـــى الحيـــاة المدنية المشتركة مع الفقراء- تعد أكثر راديكالية هـــذه المـــرة(٨٤). ويبلـــور "رودجرز"، متبعًا "أنطوني جيـــدنز" Anthony Giddens، مفهـــوم العمليـــة الجوهرية بوصفها "نزع" الأنشطة النخبوية من مصفوفة خانقة مـــن الفقـــر والعنف الاجتماعي(٨٥). وتشدد لورا روجري Laura Ruggeri (في مناقـــشتها بالم سبرينجز في هونج كونج) أيضًا على الطلب المعاصـــر لنخـــب العـــالم الثالث، المقتلعة على "حياة محاكاة حقيقية"، مصبوبة على نمـــوذج الـــصور التليفزيونية لكاليفورنيا الجنوبية الأسطورية، والتي "كي تنجح يجب أن تكون محدودة- [يمعني] منعزلة عن المشهد العادي"(٨٦).

الأراضي المحاطة المسوّرة، ذات الثيمة الخيالية الرائعـــة، والمـــدن الحدودية، منزوعة من مشهدها الاجتماعي الخاص بهـــا، ولكنهـــا فـــضائية للعولمة مندمجة في كاليفورنيا، تسبح في الأثير الرقمي- وهذا مـــا يـــديرنا

---

(83) Rodgers, "'Disembedding' the City," p. 123.

(84) Amalia Geraiges de Lemos, Francisco Scarlato, and Reinaldo Machado, "O Retorno a Cidade Medieval: Os Condominios Fechados da Metropole Paulistana," in Luis Felipe Cabrales Barajas (ed.), *Latinoamerica Paises Abiertos, Ciudades Cerradas*, Guadalajara 2000, pp. 217-36.

(85) Rodgers, "Disembedding' the City," p. 123.

(86) Ruggeri, "Palm Springs."

دورة كاملة إلى "فيليب ديك" Philip K. Dick. ففي هذا "الأسر البرّاق" مثلما يضيف "جيرمي سيبروك" Jeremy Seabrook، فإن برجوازيات العالم الثالث الحضرية "لا تلبث أن تتسلخ عن مواطني بلادهم، ويصبحون رُحَّلاً، ينتمون، ويملكون الوجاهة. وهذا تصنيف للمال نوعي ما فوق أرضي؛ فهم يصبحون مواطنين للثروة، وقوميين للأمكان وهمي، ذهبي في الوقت نفسه"(٨٧). وبالعودة إلى العالم المحلي، سنجد أن فقراء الحضر موحولون بيأس في إيكولوجيا/ بيئة العشوائيات.

---

(87) Seabrook, *In Cities of the South*, p. 211.

الفصل السادس

إيكولوجيا العشوائيات

"هؤلاء الذين ذهبوا للعيش في مركز مدينة ما، قد سقطوا في صحراء".

بيب كالي Pepe Kalle

إن عشوائية بائسة، خارج بيونس أيرس، قد تحتوي على أسوأ نظام بيئي محيط، أو أسوأ *فينج شوي*(*) *feng shui* على مستوى العالم: فهي مبنية على "بحيرة سابقة، مستنقع سام، وأسمنت، ومنطقة فيضان"[1]. ولكن وقتئذ، درَجَ التعريف الجغرافي لمستوطنة واضعي اليد النموذجية، على أنها موقع ضار، ومصدر خطر، ومهدد للصحة: حيثما يوجد حي، أو *مقاطعة barrio* معلقة، أو مرفوعة على نحو مقلق غير آمن، على قوائم تعلو نهر الباسيج Pasig River المسدود بالنفايات والغائط في مانيلا، أو تلك *العشوائية bustee* الواقعة في فيجاياوادا Vijayawada، حيث "أرقام أبواب السكان مكتوبة على قطعة من الأثاث؛ لأن المنازل والأبواب أيضًا، تتعرض للغسيل والمسح؛

(*) فينج شوي: فلسفة صينية نشأت منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة مضت. وهي فن التناغم مع الفضاء المحيط وتدفقات الطاقة من خلال البيئة، والتصالح مع النفس ومع الطبيعة المحيطة بالإنسان. وبذلك يستطيع متتبّع الفينج شوي التعايش بشكل إيجابي دون توتر. الطاقة هنا هي المتولدة من الأثاث والعوامل المحيطة بالإنسان، والتي تؤثر على حياة الإنسان وصحته ومزاجه، وعلاقاته بالآخرين وكل ما يحيط به. (المترجم).

(1) Stillwaggon, *Stunted Lives, Stagnant Economies*, p. 67

بسبب الفيضان كل عام"[٢] وواضعو اليد هناك، يتـاجرون بـأمنهم البـدني وبالصحة العامة، نظير بضعة أمتار من الأرض، وببعض الأمن نظير عدم الإخلاء. إنهم المستوطنون رواد المستنقعات، وحقول الفيضان، ومنزلقـات البراكين، وجوانب التلال غير الثابتة، وجبال القمامة، ومـصبات النفايـات الكيماوية، وجوانب السكك الحديدية، والظهير الصحراوي.

في زيارته لداكا، يصف جيرمي سيبروك Jeremy Seabrook عشوائية صغيرة- "ملاذ لأشخاص تم تهجيرهم لأسباب التعريـة، أو الأعاصـير، أو الفيضانات، أو المجاعة، أو التنمية؛ ذلك السبب الأحدث لانعـدام الأمـان"- وجدها سيبروك مثل صفقة مع الشيطان Faustian bargain: قائمة فوق نتوء من الأرض محفوف بالمخاطر، بين مصنع سموم وبحيرة سـامة. وتحديـدًا بسبب شدة خطورة الموقع، وانعدام أية جاذبية فيه، فإنه "يمثل ملاذًا وحماية للأهالي من ارتفاع أسعار الأراضي في المدينة"[٣]. ومثل تلك المواقع، هـي عبارة عن كوة الفقر في إيكولوجيا/ بيئة المدينة، والفقراء فقرًا مـدقعًا مـن الناس، لا يوجد لديهم خيار آخر سوى العيش جنبًا إلى جانب الكوارث.

أضرار غير طبيعية:

عادة ما تبدأ العـشوائيات بجيولوجيـة سـيئة.. فـالأطراف المليئـة بالعشوائيات الصفيح في "جوهانسبرج"، على سبيل المثال، تتوافـق بدرجـة عالية مع حزام من التربة الدولوميت dolomitic، [أي الصخور المترسبة من كربونات الكالسيوم. م]، الخطرة غير المستقرة والملوثة، عبر أجيـال مـن التنقيب. على الأقل نصف سكان المنطقة من غير البـيض، يعيـشون فـي

---

(2) Verma, *Slumming India*, p. 69.

(3) Seabrook, *In the Cities of the South*, p 177

مستوطنات غير رسمية أو عشوائيات، في مناطق من النفايات السامة ووسط الانهيار الأرضي المزمن(٤). وبالمثل، فإن التربة الغنية بالمعادن، والمعرضة لتعرية الرياح التي تمر أسفل العشوائيات على جوانب التلال، في بيلو هوريزونتا Belo Horizonte وغيرها من المدن البرازيلية، معرضة، وعلى نحو كارثي، للانهيار وزحزحة التربة(٥). وقد كشفت عمليات مسح الظواهر الجيولوجية عام ١٩٩٠ عن أن ربع عشوائيات "ساوباولو" مقامة في مواقع متآكلة، ومعرَّضة لخطورة مهدَّدة من عوامل التعرية المختلفة. كما أن كل الأجزاء الباقية منها، مقامة إما على جوانب التلال المنزلقة، أو على ضفاف النهر القابلة للتآكل. وهناك ١٦% من واضعي اليد، كانوا واقعين تحت تهديد "خطر فقدان حياتهم و/أو ممتلكاتهم، سواء على المدى المباشر الوشيك، أو على المدى القصير"(٦). وعشوائيات ريو دي جانيرو الأكثر شهرة، مبنية على تربة غير مستقرة، فوق بروزات وقباب من الجرانيت، وعلى جوانب التلال التي كثيرًا ما تنزلق مخلفة وراءها نتائج مميتة بالفعل: ٢٠٠٠ قتيل راحوا ضحية أنقاض تدفقت في عام ١٩٦٦-٦٧، و٢٠٠ قتيل في عام ١٩٨٨، و٧٠ قتيلاً آخرين في أعياد الميلاد عام ٢٠٠١(٧). وفي الوقت نفسه، فإن الفيضان الذي تلي هطول الأمطار الغزيرة، وأودى بحياة ٥٠٠ شخص في عشوائية "ماmaيز" Mamayes، المبنية على جوانب التلال غير المستقرة

(4) Malcolm Lupton and Tony Wolfson, "Low-Income Housing, the Environment and Mining on the Witwatersrand," in Main and Williams, *Environment and Housing in Third World Cities*, pp.115,120.

(5) Claudia Viana and Terezinha Galvao, "Erosion Hazards Index for Lateritic Soils," *Natural Hazards Review* 4:2 (May 2003), pp. 82-89.

(6) Taschner "Squatter Settlements and Slums in Brazil," p. 218.

(7) Richard Pike, David Howell, and Russel Graymer, "Landslides and Cities: An Unwanted Partnership," in Grant Heiken Fakundiny and John Sutter (eds). *Earth Science in the City: A Reader*, Washington, D.C. 2003, 199.

فوق بونس Ponce، بورتو ريكو Puerto Rico. كان هو الكارثة الطبيعية الأسوأ من نوعها، فيما بعد الحرب في الولايات المتحدة.

غير أن كاركاس (تعداد سكانها عام ٢٠٠٥ بلغ مليونين و٥٠٠ ألف نسمة)، وتمثل "العاصمة النموذجية الكاملة" في عُرف علماء جيولوجيا التربة: فعشوائيات كاركاس تأوي ما يقرب من ثلثي سكان الحضر، وهي مبنية على جوانب التلال غير المستقرة، وفي أوديتها الضيقة المحاطة بسفوح صخرية شديدة الانحدار، تحيط بوادي كاركاس النشط بالزلازل. وفي الأصل، ساعدت الحياة النباتية في تثبيت انشقاق الصخور الهشة، والمتدهورة تدهورًا شديدًا في مكانها، ولكن التنظيف وما يصاحب عمليات البناء من قطْع وردم؛ أحدث قلقلة وزحزحة في جوانب تلك التلال، ذات الكثافة السكنية العالية. وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا، هي ارتفاع شديد في تخلخل وانحدار الأرض، والانهيارات الانزلاقية. وبالتالي تطورت عمليات الانهيار من نسبة كانت أقل من مرة واحدة كل عقد، قبل عام ١٩٥٠، إلى المتوسط الحالي البالغ مرتين، أو أكثر كل شهر(٨)!! ولكن تزايد عدم ثبات التربة، فشل في منع واضعي اليد من احتلال المواقع غير المستقرة على حواف التلال، وعلى منزلقات طرح النهر، أو في فوهات خرور الفيضانات.

في منتصف ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٩، ضرب شمال فنزويلا عامة، وتجمع الكتل الجبلية الأفيلا El Avila خصوصًا، عاصفة استثنائية عاتية. وقد سقط خلالها ما يبلغ متوسط أمطار عام بأكمله في بضعة أيام، على تربة مشبعة في الأصل بالمياه.. كان سقوط الأمطار في بعض مناطقها،

(8) Virginia Jimenez-Diaz, "The Incidence and Causes of Slope Failure in the Barrios of Caracas," in Main and Williams, *Environment and Housing in Third World Cities*, pp. 127-29.

ينظر إليه كحدث "يقع مرة واحدة كل ألف سنة"[٩]. أصبحت الفيضانات والأنقاض تنساب في كاركاس- وخصوصًا عبر ساحل الكاريبي، على الجانب الآخر من جبال أفيلا Avila- فقتلت ما يقدر بنحو ٣٢,٠٠٠ نسمة، وشردت ١٤٠,٠٠٠ وجعلت ٢٠٠,٠٠٠ آخرين بلا عمل. وقد دُمر المنتجع الساحلي كارباليدا Carballeda بفعل اندفاع مليون و٨٠٠ ألف طن من الأنقاض، بما فيها كتل كبيرة، أطبقت في طريقها فوق منازل بكاملها[١٠]. وقد أشار رجل دين كاثوليكي إلى أن ذلك كان انتقامًا إلهيًا ردًا على الانتخابات الأخيرة التي أسفرت عن فوز حكومة شافيز اليسارية. حين وزير الخارجية "خوسي فينسنت رانجل Jose Vincente Rangel" قائلاً: "لو كان الله صب انتقامه على القطاع الأكثر فقرًا في المجتمع، فإنه إله قاس لا يرحم"[١١].

وإذا كانت منطقة كاركاس تتعرض لزحف وانزلاق الأرض، فإن المناطق المركزية في مدينة مانيلا تتعرض لفيضانات متكررة. فموقعها في سهل شبه غريني، تحده ثلاثة أنهار ومعرّض لنزول أمطار إعصارية وهبوب الأعاصير، تعد مانيلا حوضًا طبيعيًا للفيضان. بعد ١٨٩٨ قامت السلطات الأمريكية الاستعمارية بشق القنوات، وجرّفت قنوات المد، وبنت محطات ضخ لصرف مياه العواصف، وحماية الأجزاء المركزية من المدينة. ولكن التحسينات التي أُدخلت على النظام عبر السنوات الأخيرة، كان لها مردود عكسي بفعل الكميات الهائلة من النفايات التي أُلقيت في المصارف

(9) Gerald F. Wieczorek et al., "Debris-Flow and Flooding Hazards Associated with the December 1999 Storm in Coastal Venezuela and Strategies for Mitigation," US Geological Survey, Open File Report 01-0144, Washington, D.C. 2000, p. 2.

(10) Pike, Howell, and Graymer, "Landslides and Cities," p. 200.

(11) Quoted in Richard Gott, *In the Shadow of the Liberator: Hugo Chavez and the Transformation of Venezuela*, London 2001, p. 3.

والقنوات (يفترض أن قاع نهر الباسيج Pasig River مستودع للنفايات عمقه ١٢ قدمًا)(١٢). وكان ذلك أيضًا بفعل الرسوب النـاتج عـن الإفـراط فـي استخراج المياه الجوفية، وذوبان مساقط مياه ماريكينا Marrikina، ومنتاليان Montalban؛ والأكثر من هذا وذلك، زحف السكن العشوائي في الأراضـي السبخة الذي لا يتوقف. فأزمة السكن، بمعنى آخر، غيرت مـن خـصائص وضخامة مشكلة الفيضان، حيث إن أفقر خُمس السكان معرضون لخطـورة مستمرة، وفقدان الممتلكات. ففي نوفمبر/ تشرين الثانى ١٩٩٨، على سـبيل
مستمرة، وفقدان الممتلكات، ففي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٨، على سـبيل
المثال، دمّر الفيضان منازل ما يزيد عن ٣٠٠,٠٠٠ نـسمة. وفـي واقعـة أخرى، غرقت مستوطنة واضعي اليد "تاتلون" Tatlon، تحت ارتفاع ٦ أمتار من المياه. فضلاً عن ذلك، ففي يوليو/ تموز ٢٠٠٠، تسبب إعصار شديد في انهيار "جبل الزبالة" الشهير في عشوائية باياتاس Payats في مدينة كـويزن Quezon، دافنًا ٥٠٠ عشّ وكوخ تحته، وقاتلاً ألف نسمة، على الأقل، فـي طريقه. (كانت "باياتاس" موضوعًا لأفلام تسجيلية عديدة ومميزة من المخرج الياباني هيروشي شينوميا Hiroshi Shinomiya)(١٣).

إن المثالين اللذين ضربناهما عن كاركاس ومانيلا، يصوران لنا كيف أن الفقر يعظّم من المخاطر المحليـة الجيولوجيـة والمناخيـة. فالهـشاشة الحضرية البيئية أو *الخطورة*، أحيانًا ما تحسب كنتاج لـ *المخاطر/الأضرار* (تكرار وحجم الحدث الطبيعي) مضروبًا في *الأصول* (الـسكان والمـساكن المعرضة للمخاطر) مضروبًا في *الهشاشة* (الخـصائص الفيزيقيـة للبيئـة المشيدة أو المبنية): الخطر= المخاطر x الأصول x الهشاشة. لقد ضـاعفت

(12) Berner, *Defending a Place*, p. xiv.

(13) Bankoff, "Constructing Vulnerability," pp. 224-36; *Asian Economic News*, 31 December 2001 (حول الفيلم عن كارثة باياتاس).

عملية العمران الحضري العشوائي في كل مكان– أحيانًا بالنظام الجزئي أو العشري للحجم أو أكثر– من المخاطر الطبيعية المتأصلة في البيئة الحضرية. ومن الأمثلة المرجعية في هذا السياق، كانت الأعاصير المطيرة في أغسطس/ آب ١٩٨٨ وفيضان النيل الذي أزاح وهجر ٨٠٠,٠٠٠ من السكان الفقراء في الخرطوم. ويشير العلماء إلى أنه في الوقت الذي كانت فيه علامة المياه المرتفعة، أقل مما كانت عليه في ذروتها عام ١٩٤٦؛ فإنها فعلت *عشرة أضعاف* ما فعلته سابقتها من أضرار، وهو ما يرجع بشكل كبير إلى الانتشار والتمدد المتزايد للعشوائيات الواقعة في سهول الفيضان، بدون مصارف[١٤].

ويمكن للمدن الغنية في مواقع محفوفة بالمخاطر، مثل لوس أنجلس أو طوكيو، أن تقلل من حجم الخطورة الجيولوجية أو الصخرية، عبر بعض الأعمال المهمة الهائلة، و"الهندسة الشاقة"، مثل القيام بتثبيت الزحف الأرضي، وعمل شبكات نسيجية جيولوجية، ودعامات، وصواميل صخرية، وتتبع حواف التلال شديدة الانزلاق والعناية بها، وحفر آبار صرف عميقة، وضخ المياه خارج التربة المشبعة، والتصدي لتدفقات الأنقاض، وحجزها بسدود وأحواض صغيرة، وتصريف مخرجات العواصف المطيرة إلى أنظمة واسعة من قنوات خرسانية ومجار. ومن ثم، فإن برامج التأمين القومية للفيضانات، جنبًا إلى جانب الدعم العرضي من تأمين الحرائق والزلازل، تضمن الترميم وإصلاح السكن، وإعادة البناء في الأحداث ذات الأضرار البالغة. أما في العالم الثالث، فعلى وجه النقيض، نجد العشوائيات التي تفتقد لمياه الشرب والمراحيض، من غير المرجح أن تصمد محمية بفعل الأعمال

(14) Hamish Main and Stephen Williams, "Marginal Urban Environments as Havens for Low-Income Housing," in Main and Williams, *Environment and Housing in Third World Cities*, p. 159.

العامة الباهظة، أو أن تكون مغطاة بتأمين الكوارث. ويؤكد الباحثون أن الديون الأجنبية، وما يتبعها من "تكيف هيكلي" تقود نوعًا شريرًا من "المساومات بين الإنتاج، والتنافس، والكفاءة، ونتائج بيئية عكسية فيما يتعلق بالمستوطنات المحتمل تعرضها للكوارث"(١٥). و"الهشاشة" ببساطة هي عرض للإهمال الحكومي المنظم للأمان البيئي، والذي يكون في الغالب في مواجهة الضغوط المالية الأجنبية.

ولكن تدخّل الدولة في حد ذاته، يمكن أن يمثّل خطورة مضاعفة. ففي نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١، تعرضت الأحياء الفقيرة في الجزائر: باب القيود، و"فرايس فالون" Frais Vallon، و"بو فرايزير" Beaux Fraisier، لفيضانات مدمرة، وتدفق سريع للوحل. فعلى مدار ٣٦ ساعة متواصلة، انهالت الأمطار الإعصارية على عشش الصفيح الهشة من فوق جوانب التلال، وفاضت على الأحياء السكنية المكتظة منخفضة المنسوب، وقضى ما لا يقل عن ٩٠٠ نسمة نحبهم. وأمام الاستجابة الرسمية المتوانية لهذه الكارثة، تكبد عامة الناس جهود الإنقاذ، خصوصًا الشباب منهم. وبعد ثلاثة أيام من الأحداث، عندما ظهر الرئيس عبد العزيز بوتفليقه أخيرًا، صاح السكان الغاضبون بهتافات مناهضة للحكومة. وقد قال بوتفليقه للضحايا إن "الكارثة كانت ببساطة من إرادة الله". وأردف قائلاً: "لا شيء يمكن عمله حيال ذلك"(١٦).

لقد عرف السكان المحليون، على الفور، أن هذا الرد كان محض هراء. حيث أشار مهندسون مدنيون وقتها إلى أن المساكن الموجودة على

(15) Mohamed Hamza and Roger Zetter, "Structural Adjustment, Urban Systems, and Disaster Vulnerability in Developing Countries," *Cities* 15:4 (1998), p. 291.

(16) Azzedine Layachi, "Algeria: Flooding and Muddled State-Society Relations," *The Middle East Research and Information Project (MERIP) Online*, 11 December 2001.

جوانب التلال، كانت كارثة منتظَرة الحدوث: "لقد كانت أبنية ضعيفة أمام هطول الأمطار. وعلى مستوى الجزائر، فإن هذه النوعية من الأبنية السكنية عانت من أضرار بالغة بفعل الأمطار وبسبب التدهور، وعدم ملائمة الترميم، والشيخوخة، والإهمال"[١٧]. الأكثر من هذا، أن كثيرًا من الدمار، كان نتيجة مباشرة لحرب الحكومة ضد العصابات الإسلامية– لحرمان محاربي العصابات من أماكن الاختباء ومنافذ الهروب، قامت السلطات بإذابة التلال فوق منطقة باب القيود، وسدت المصارف. "وهنا يكتب عالم الاجتماع عز الدين لعايشي "إن المصارف المسدودة تركت مياه الأمطار بلا مخارج. كذلك سمحت السلطات الفاسدة للمساكن العشوائية وغيرها من الأبنية أن تقام في قاع النهر، مما أثرى المقاولين الأفراد على حساب تحقيق الأمان العام"[١٨].

وزاد على أمواج الوحل والفيضانات، أن جاءت الزلازل لتؤكد مدى أزمة السكن الحضرية. وعلى الرغم من أن موجة الزلزال كانت قصيرة، مثل كارثة مكسيكو سيتي عام ١٩٨٥، حيث استفردت بالمباني المرتفعة، فإن التدمير الصخري عادة ما يسير على خريطة دقيقة بشعة؛ مستهدفًا المباني المنشأة من الطوب الآجر الضعيف، أو من الطين، أو المساكن الخرسانية، خصوصًا عندما تعاني من هبوط حاد، وذوبان التربة من تحتها. وتُعدّ المخاطر الصخرية هي النسخة الطيبة في "الصفقة مع الشيطان"، تلك الخاصة بالسكن العشوائي. وهنا يؤكد "جيفري بَين" Geoffrey Payne "أن التوجهات التي تتسم بالتراخي في تنفيذ لوائح التخطيط والمعايير بدقة، مكّنت فقراء الحضر في تركيا من الحصول على إمكانية وصول سهلة نسبيًا إلى الأرض والخدمات، على مدى عقود طويلة، ولكنّ وجهات مشابهة في

(17) Flood and Mudslides in Algeria, "*Geotimes* (January 2002).

(18) Layachi, "Algeria."

التراخي حيال إنفاذ لوائح وقواعد البناء، أدت إلى حصيلة من القتلى مرتفعة العدد، وإحداث تدمير هائل؛ عندما ضرب زلزال ١٩٩٩ البلاد"(١٩).

ويزعم الجغرافي المتخصص في المخاطر الطبيعية "كينيث هيويت" Kenneth Hewitt أن الزلازل دمرت أكثر من ١٠٠ مليون منزل خلال القرن العشرين، أغلبها في العشوائيات، والأحياء السكنية المزدحمة، أو في القرى الريفية الفقيرة. وتتوزّع المخاطر المرتبطة بالزلازل، بشكل غير متساو على الإطلاق في معظم المدن، كما يوضح "هيويت" الأمر، إلى حدّ أن مصطلح "هزة طبقية" قد صُك لتمييز النمط المنحاز من التدمير.

> المشكلة التي قد تمثل الدليل الأكثر بروزًا على ذلك، هي كارثة جواتيمالا، في فبراير/ شباط ١٩٧٨، والتي خسر فيها ما يقرب من مليون و ٢٠٠ ألف نسمة منازلهم. ففي مدينة جواتيمالا، جميع المنازل المدمرة تقريبًا، وعددها ٥٩ ألف منزل في العشوائيات الحضرية، كانت مبنية في أودية ضيقة، أو فوق وتحت مرتفعات أرضية زلقة وغير مستقرة، أو فوق مخلفات تربة بركانية حديثة التكوين. أما خسائر بقية المدينة، ووسط المنازل الأكثر ثراءً، فكانت خسائر طفيفة لا تذكر، حيث إنها مبنية فوق مواقع أكثر استقرارًا(٢٠).

ومع أغلبية سكان الحضر في العالم، المتركزين حاليًا على هوامش السهول النشطة تكتونيًا tectonic، أي المرتبطة بنشاط القشرة الأرضية،

---

(19) Geoffrey Payne, "Lowering the Ladder: Regulatory Frameworks for Sustainable Development," in Westendorff and Eade, *Development and Cities*, p. 259.

(20) Kenneth Hewitt, *Regions of Risk: A Geographical Introduction to Disasters*, Harlow 1997, pp.217-18.

أو القريبة منها، خصوصًا المناطق الساحلية القريبة من المحيطين الهندي والهادي، فإن ملايين السكان يعيشون في مجال خطر الزلازل والبراكين والتسونامي، وكذلك تحت رحمة الاجتياحات العاصفة والأعاصير. وإذا كان زلزال سومطرة العظيم، وما تبعه من تسونامي في ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٤ يمثلان حدثين نادرين نسبيًا، فإن توقُّع أحداث غيرها في القرن القادم؛ أمر لا مفر منه. وعشوائيات إسطنبول، على سبيل المثال، هي الهدف السهل الأخير للزلازل الزاحفة غربًا، عبر "الشريط المفتوح" لنظام خطأ التحول لشمال الأناضول. وبالمثل، فإن سلطات ليما تنبأت بأن ١٠٠ ألف بناية على الأقل- أغلبها في العشوائيات ومستوطنات وضع اليد- سوف تنهار خلال الزلزال المتوقع في وقت ما من الجيل القادم(٢١).

غير أن فقراء الحضر لا يفقدون كثيرًا من ساعات النوم مساء؛ بحكم قلقهم من الزلازل أو حتى الفيضانات؛ إنما الحريق هو سبب قلقهم الرئيسي الأكثر تكرارًا، ونذير تهديدهم الدائم. فالعشوائيات، وليست شجيرات منطقة المتوسط، أو الأوكالبتوس الإسترالي، كما ورد في بعض المراجع، هي البيئة الأولى الأساسية للحرائق على مستوى العالم. فالمزيج الذي تتشكل منه العشوائيات من مساكن قابلة للاشتعال، وكثافة شديدة، والاعتماد على استخدامات النار البدائية في الهواء الطلق؛ للتسخين والطهي، تمثل معًا وصفة ممتازة للاشتعال التلقائي. فالحادثة البسيطة مع غاز أو كيروسين الطهي، يمكن أن تصبح، وبسرعة، حريقًا هائلاً، يدمر مئات أو حتى آلاف المساكن. والحريق ينتشر سريعًا عبر العشش بقوة، وعلى نطاق شديد التوسع، وحتى لو استجابت وسائل الإطفاء، فهي غالبًا ما تكون عاجزة عن التعامل مع حارات وممرات العشوائيات الضيقة بطبيعة الحال.

---

(21) Leonard, "Lima", p. 439.

ولكن حرائق العشوائيات، غالبًا ما لا تتعدى كونها حوادثَ: فبدلاً من تحمُّل نفقات إجراءات المقاضاة، أو تكبد عناء الانتظار من أجل صدور أمر هدم رسمي، فإن أصحاب الأراضي وأصحاب بيزنس العمران كثيرًا ما يفضلون اتباع بساطة الضغط على زر الإشعال. ولمدينة مانيلا سُمعة غير طيبة في هذا السياق، خاصة فيما يتعلق بحرائق العشوائيات المريبة. حيث يوضح "جيرمي سيبروك" Seabrook، "أنه في الفترة الزمنية البسيطة ما بين شهري فبراير/ شباط وأبريل/ نيسان ١٩٩٣، وقع أكثر من ثمانية حرائق رئيسية في العشوائيات، من ضمنها هجمات بالشعلات على سموكي ماونتن Smokey Mountain، وأروما بيتش Aroma Beach، ونافوتاس Navotas. وتعد المنطقة الأكثر تعرضًا للتهديد قريبة من الموانئ، حيث يمكن أن تتوسع مسارات الحاويات، وتمتد"(٢٢). ويضيف "إرهارد برنر" Berner من جانبه قائلاً: إن (الطريقة المثلى التي يفضل أصحاب الأراضي في الفلبين تسميتها "الهدم الحار"، هي مطاردة فأر أو قطة حية، يشعل فيها النار بعد نقعها في الكيروسين- لا يفضل الكلب حيث يموت سريعًا- في أي من العشوائيات المزعجة... والحريق الذي يبدأ بهذه الطريقة من الصعب مكافحته، حيث يمكن للحيوان المسكين أن يشعل النار في كثير من العشش والأكواخ قبل أن يموت"(٢٣).

الشكل ١١

الفقر القابل للاشتعال

	المدينة	المنازل المدمرة	السكان المشردين
٢٠٠٤			
يناير/ كانون الثاني	مانيلا (توندو Tondo)	٢٥٠٠	٢٢,٠٠٠
فبراير/ شباط	نيروبي		٣٠,٠٠٠
مارس/ آذار	لاجوس		٥٠٠٠

(22) Seabrook, *In the Cities of the South*, p. 271.

(23) Berner, *Defending a Place*, p. 144.

أبريل/ نيسان	بانكوك		٥٠٠٠	٣٠,٠٠٠
نوفمبر/ تشرين الثاني	دكا		١٥٠	٠
٢٠٠٥				
يناير/ كانون الثاني	كولنا سيتي Khulna			٧٠٠٠
	نيروبي		٤١٤	١٥٠٠
فبراير/ شباط	دلهي			٣٠٠٠
	حيدر أباد		٤٠٠٠	٣٠,٠٠٠

وفي مدينة سندريلا Cinderlla في الهند، حيث تشتعل أسعار الأراضي، وكثيرًا ما يكون الفقراء في المكان الخطأ، يتم أيضًا استخدام الإشعال كوسيلة مساعدة للتجديد العمراني/ الحضري. ويكتب "هانز شينك" Hans Schenk في هذا الصدد، "إن بعض هذه الحرائق منظمة بواسطة زعماء العشوائيات الذين يستطيعون استلام (جزء من) نقود التعويض الذي تحدده الحكومة؛ وبعضها بواسطة عصابات من المنتمين إلى أحزاب سياسية؛ لتطهير الفئات 'غير المرغوب فيها' من فقراء الحضر؛ وبعضها بواسطة أصحاب أراضٍ يريدون تطهير الأرض من واضعي اليد (غير القانونيين) بطريقة سهلة، ومن ثم 'تطويرها'"(٢٤).

علوم الأمراض نسخة حضرية:

إذا تعرضت المخاطر الطبيعية للتعظيم والتضخيم عبر الفقر الحضري، يكون لدينا كيان جديد من المخاطر الصناعية صنيعة تفاعلات الفقر مع الصناعات السامة، والمرور الفوضوي، وانهيار البنية التحتية. والصيغة الفوضوية التي تتمتع بها مدن كثيرة في العالم الثالث- مثل

(24) Hans Schenk, "Living in Bangalore's Slums, in Schenk (ed.), *Living in Indian's Slums: A Case Study of Bangalore*, Delhi 2001, p. 34.

"تشكيلات ماندلبرو mandelbrots الحضرية"؛ وفقا للمُنظّر العمراني "ماثيو جاندي" Matthew Gandy– تلغي كثيرًا من فاعلية وكفاءة حياة المدن، وتغذي الأمراض الصغيرة التي دائمًا ما ترهب المراكز الحضرية الرئيسية، مثل مكسيكو سيتي، والقاهرة، ودكا، ولاجوس. (ويوضح جاندي هنا أن "لاجوس ليست موجودة في واقع الأمر كمدينة بالمعنى التقليدي: فحدودها غير واضحة، وكثير من عناصرها المعمارية المشكِّلة، تبدو وكأنها تعمل باستقلال عن بعضها البعض....")(٢٥). إن جميع المبادئ الكلاسيكية للتخطيط العمراني، بما فيها المحافظة على المساحة المفتوحة، وفصل الاستخدامات الضارة للأراضي عن أماكن السكن، نراها مقلوبة رأسًا على عقب في المدن الفقيرة. ويبدو أن ثمة نوعًا من التنظيم الإطاري الجحيمي لإحاطة الأنشطة الصناعية الخطيرة، والبنية التحتية لوسائل النقل، بكتل مكثفة من السكن العشوائي. فكافة المدن الكبرى في العالم الثالث تقريبًا (أو على الأقل في تلك المدن ذات القواعد الصناعية)، تحتوي على "مقاطعة جحيم"، من النوع الذي تكلم عنه "دانتي"، قوامه عشوائيات متدهورة غاية في التلوث، ومجاورة لخطوط أنابيب بترول، وحقول كيماوية، ومرشحات، مثال: إستابالبا Istapalpa في المكسيك، وكوباتاو Cubatao في ساوباولو، وبيلفورد روكسو Belford Roxo في ريو، وسيبوبور Cibubur في جاكرتا، والحدود الجنوبية لمدينة تونس، والحدود الجنوبية الغربية للإسكندرية، وغيرها.

وفي كتابه حول مدن الجنوب الفقيرة، يسلسل "جيرمي سيبروك" Seabrook الروزنامة المتواصلة من الكوارث، في كلونج توي Klong Toey عشوائية ميناء بانكوك، المحصورة بين مرافق وأرصفة الموانئ ومصانع

(25) Matthew Gandy, "Amorphous Urbanism: Chaos and Complexity in Metropolitan Lagos," manuscript, November 2004 (published in *New Left Review* 33 [May/June 2005]), pp. 1-2.

الكيماويات، والطرق السريعة. ففي عام ١٩٨٩، تسبب انفجار كيميائي في تسمم مئات من السكان؛ وبعد ذلك بعامين انفجر مصنع كيمائي مخلفًا ٥٥٠٠ مشرد، كثيرون منهم بالطبع سيقضون نحبهم لاحقًا؛ بسبب أمراض غريبة غامضة لحقت بهم. وفي عام ١٩٩٢ دمر حريق ٦٣ منزلاً، وحريق آخر في ١٩٩٣ دمر ٤٦٠ منزلاً (هو أيضًا العام الذي شهد انفجارًا كيميائيًا)، وغيرها مئات أخرى من المنازل في ١٩٩٤[٢٦]. وهناك آلاف من العشوائيات الأخرى، بعضها في بلدان غنية، مرت بالتاريخ السيئ نفسه، الذي شهدته عشوائية كلونج توي. فهي تعاني مما تسميه "جيتا فيرما" Gita Verma "أعراض مقلب الزبالة"، حيث: تركيز للأنشطة الصناعية السامة، مثل التصفيح المعدني، والصباغة، وفصل الأغذية، والتلوين، وتدوير البطاريات، والصهر والصب، وإصلاح السيارات، والتصنيع الكيميائي، وغيرها، مما لا يمكن للطبقة الوسطى التسامح مع وجوده أبدًا في أحيائهم الخاصة[٢٧]. والجدير بالذكر هنا أن البحوث التي أجريت على الصحة البيئية، في مثل هذه الأوضاع تعد قليلة جدًا، خصوصًا تلك التي تتناول المخاطر التي تظهر من العوامل المتآزرة للسموم المتعددة، ومن التلوث في الموقع نفسه.

إن العالم عادة ما يولي الاهتمام بتركيبات الفقر المختلطة القاتلة هذه، وبالصناعات السامة، فقط في حالة الانفجار المسبب لإصابات كثيرة. وبهذا المعنى، كان ١٩٨٤ *عام الفظائع annus horirbilis*. ففي فبراير/ شباط من ذلك العام، انفجر أمبوب للبنزين في كوباتاو "وادي التلوث "Pollution Valley" في ساوبالو، وأحرق أكثر من ٥٠٠ نسمة في إحدى المستوطنات العشوائية المجاورة، قضوا جميعًا نحبهم. وبعد مرور ثمانية أشهر، في مقاطعة سان

(26) Seabrook. *In the Cities of the South*. p. 192.

(27) Verma, *Slumming India*. p. 16.

خوانكو San Juanico في مكسيكو سيتي، انفجر حقل للغاز الطبيعي المسال، تابع لــ بمكس Pemex، مثلما تنفجر قنبلة ذرية، ، قاتلاً ما يقرب مــن ٢٠٠ شخص من السكان الفقراء (لم يعلن أبدًا إحصاء دقيق لعدد القتلى).

> مئات من الناس لن يستيقظوا إلى الأبد. لقد قُتلوا حتى قبل أن يتمكنوا من إدراك ما حدث. حرائق هائلة قفزت مــن حقــل قريب لتخزين الغاز؛ ضاربًا اللهب لمسافة ميل في الهــواء. الأجسام اختفت ببساطة في كرات النيران، وانتُزعت انتزاعًا من الأرض، بدون أثر يُقتفي. وقــد هــرول النــاس فــي الشوارع، وقد أمسكت النيران بملابس وشعور البعض منهم، وجميعهم يصرخون من هول ما حدث. لم تكن الشمس قــد أطلت بعد، ولكن ضوء اللهيب أنار المشهد كما لــو كانــت الشمس تسطع في وقت الظهيرة[٢٨].

وبعد مرور أقل من ثلاثة أسابيع، أطلق مصنع يونيون كارابايد Union Carbide في بوبال Bhopal، عاصمة إقليم ماديا براديش Madhya Pradesh، سحابته الشريرة من إيزوسيانات الميثيل methyl isocyanate. ووفقًا لدراسة أجرتها منظمة العفو الدولية عام ٢٠٠٤، فإن مــن ٧ آلاف إلــى ١٠ آلاف شخص، قد تحللوا في الحال، في حين مات ١٥ ألفًا آخرين فــي الــسنوات اللاحقة؛ جرّاء أمراض وسرطانات مرتبطة بالحادث. وكان الضحايا من أفقر الفقراء، معظمهم من المسلمين. وكان حقل تعبئة المبيدات الحشرية– "نــشاط يعد نسبيًا بسيطًا وآمنًا– قد بُنى على موقع لطالما احتله واضعو اليد. وفيمــا توسع الحقل، وتغير عبر الزمن ليتضمن إنتاجًا أكثر خطورة من المبيــدات

(28) Joel Simon, *Endangered Mexico: An Environment on the Edge*, San Francisco 1997, p. 157.

الحشرية، فإن العشوائيات تجمعت حول أطرافه. وإلى أن حانت اللحظة التي وجد فيها واضعو اليد أطفالهم يموتون في الشوارع، لم يكن لديهم أدنى فكرة عما كان يتم إنتاجه في هذا الحقل، أو ما المخاطر الشديدة التي يمكن أن تشكلها كميات هائلة من إيزوسيانات الميثيل(٢٩).

من ناحية أخرى، إن سكان العشوائيات على وعي تام، وشديد، بالأخطار التي تشكلها نظم المرور البرية، التي تسد الشوارع في معظم مدن العالم الثالث. فتمدُّد النمو العمراني الحضري، بدون ما يقابله من استثمار اجتماعي في النقل الجماعي، أو الطرق السريعة المنفصلة والمحمية؛ كلها عوامل جعلت المرور كارثة صحية عامة. فعلى الرغم من الازدحام والاحتقان الكابوسي، فإن استخدام السيارات في المدن النامية، يزداد ازديادًا بشعًا (انظر: الشكل ١٢). ففي عام ١٩٨٠ حقق العالم الثالث ١٨% فقط من نسبة امتلاك السيارات على مستوى العالم؛ وبحلول عام ٢٠٢٠، فإن حوالي نصف وسائل النقل ما بين سيارات، وشاحنات، وأتوبيسات، المستهدف إنتاجها على مستوى العالم وعددها ١,٣ بليون مركبة، جنبًا إلى جانب الموتوسيكلات بمئات الملايين والسكوترز– ستسبب جلطة لشوارع البلدان الأفقر(٣٠).

---

(29) Amnesty International, *Clouds of Injustice: The Bhopal Disaster 20 Years On*, London 2004, pp 12, 19; Gordon Walker, "Industrial Hazards, Vulnerability and Planning," in Main and Williams, *Environment and Housing in Third World Cities*, pp. 50-53.

(30) M. Pemberton, *Managing the Future- World Vehicle Factories and Strategies to 2020, Vol. 1. Changing Patterns of Demand*, 2000; and Daniel Sperling and Eileen Clausen, "The Developing World's Motorization Challenge," *Issues in Science and Technology Online* (Fall 2002), p. 2.

الشكل ١٢

إمداد العالم الثالث بالسيارات[٣١]

		مليون	
القاهرة	١٩٧٨	٠,٥	
	١٩٩١	٢,٦	
	٢٠٠٦	٧,٠	
بانكوك	١٩٨٤	٠,٤٥	سيارات خاصة
	١٩٩٢	١٠,٥	
إندونيسيا	١٩٩٥	١٢,٠	جميع أنواع السيارات
	٢٠٠١	٢١,٠	

إن انفجار تعداد سكان الأوتوموبيل، تقوده بــلا شــك قــوى انعــدام المساواة. فكما يوضح "دانيال سبيرلنج" Daniel Sperling و"إلــين كلاوســن Eileen Clausen، فإن سياسات النقل في معظم المدن، تمثل دائــرة مفرغــة يعزز فيها انحدارُ النقل العام اللجوءَ إلى الوسائل الخاصة، والعكس بالعكس:

> إن النقل العام مدعوم بشكل كبير في جميع المــدن تقريبًــا؛ بسبب انعكاساته الإيجابية الكبيرة (مثل تقليل الحاجــة إلــى طرق، وتقليل استهلاك البنزين)، ولضمان حصول الفقــراء عليها. ولكن كثيرًا من الفقراء ما زالوا لا يستطيعون تحمل الأعباء المادية لخدمات النقل. فالمدن تواجه ضغوطًا للإبقاء على الأجرة منخفضة جدًا. ولكنهم في هذه الحالة، يضحون

(31) M. El Arabi, "Urban Growth and Environment Degradation: The Case of Cairo", *Cities* 19:6 (2002), p. 294; Expressway and Rapid Transit Authorities of Bangkok, *Statistical Report*, 1992, Bangkok 1993; US Department of Energy, Energy Information Administration, "Indonesia: Environmental Issues," fact sheet (February 2004).

بكفاءة الأوتوبيس وبالراحة فيه. ويكون رد فعل ركاب الطبقة المتوسطة على ذلك، بشراء السيارات بمجرد استطاعتهم. ومع انخفاض تكلفة السكوتر والموتوسيكلات، فإن تخلي الطبقة الوسطى عن المواصلات العامة يتسارع، ومن ثم تقل إيراداتها، ويضطر القائمون عليها إلى تخفيض مستوى الخدمة التي تكون أول المعاناة، ويتبع ذلك بالتالي انخفاض عدد مرات الخدمة(٣٢).

إن هيئات التنمية الدولية، تشجع على اتباع سياسات نقل مدمرة؛ بحكم تفضيلها تمويل الطرق أكثر من السكك الحديدية، وأيضًا بتشجيعها خصخصة وسائل النقل المحلي. ففي الصين- التي كانت فيما سبق وطنَ الدراجة المتكافئة الحرة- يعطي المخططون الآن أولوية غير رشيدة، ولاعقلانية، للسيارات. لقد دمرت بكين قطاعات واسعة من الأفنية التقليدية التي كانت مأوى للفقراء، وكذلك شبكتها من الدروب الخلفية الجميلة، وذلك من أجل تأسيس طرق للسيارات. وعلى نحو متزامن تمت معاقبة راكبي الدراجات بفرض رسوم للترخيص، وفرض قيود على الطرق الرئيسية، وإنهاء دعم الدراجات التي كانت اتحادات العمل تدفعها سابقًا(٣٣).

والقتل الصريح هو نتيجة هذا التصادم بين الفقر الحضري، والاحتقان المروري. فأكثر من مليون نسمة- ثلثاهم من المشاة، وراكبي الدراجات، والمارة- يُقتلون في حوادث طرق، في العالم الثالث كل عام. وهنا يخبرنا أحد باحثي منظمة الصحة العالمية "بأن الناس الذين لن يملكوا سيارة في

---

(32) Sperling and Clausen, "The Developing World's Motorization Challenge," p. 3.

(33) Example of Beijing in Sit. *Beijing*, pp. 288-89.

حياتهم، هم الأكثر عرضة للخطر"[٣٤]. والمركبات الصغيرة والمركبات العامة، غالبًا ما تكون بدون ترخيص، وسيئة الصيانة، ومن ثم تكون أكثر خطورة من غيرها. في لاجوس، مثلاً، تُعرف المركبات محليًا (الميكروباصات) بـ"النعوش الطائرة"، و"المشارح المتحركة"[٣٥]. حتى حركة السلحفاة في المرور المختنق بمعظم المدن الفقيرة، لم تكن كافية للتقليل من معدلات فتكها بالضحايا. فعلى الرغم من أن السيارات والباصات، تزحف عبر القاهرة بمتوسط سرعة ١٠ كم في الساعة، فإن العاصمة المصرية ما زالت تحقق معدل حوادث ٨ قتلى و٦٠ مصابًا لكل سيارة في العام[٣٦]. وفي لاجوس، حيث يقضي الشخص العادي ثلاث ساعات مريعة، كل يوم، محشورًا في شبكة مسدودة، فإن سائقي السيارات الخاصة، والميني باص يهيجون كالمسعورين بالمعنى الحرفي للكلمة– الحقيقة أن كثيرًا منهم يقفزون فوق الموانع، أو يقودون على الجانب الخطأ من الطريق، إلى درجة أن وزارة المرور فرضت مؤخرًا اختبارات نفسية إجبارية على مرتكبي المخالفات[٣٧]. وفي دلهي، وخلال الفترة نفسها، اشتكت جريدة *هندوستان تايمز Hindustan Times*، من أن الركاب من الطبقة المتوسطة يتضايقون من التوقف، بعد أن يدهسوا جامعي النفايات المشردين، أو الأطفال الفقراء[٣٨].

---

(34) Study by WHO-funded Road Traffic Injuries Research Network. quoted in *Detroit Free Press*, 24 September 2002

(35) Vinand Nantulya and Michael Reich, "The Neglected Epidemic: Road Traffic Inquiries in Developing Countries," *British Journal of Medicine* 324 (11 May 2002), pp. 1139-41.

(36) El Arabi, "Urban Growth and Environmental Degradation," pp. 392-94; and Oberai, *Population Growth Employment and Poverty in Third World Mega-Cities*, p. 16 (accident rate).

(37) Glenn McKenize, "Psychiatric Tests Required for Traffic Offenders," *RedNova*, 20 June 2003, and Peil, "Urban Housing and Services in Anglophone West Africa," p. 178.

(38) *Hindustan Times*, 1 February 2004

وتقدر التكلفة الاقتصادية الإجمالية لحوادث الطرق، سواء بالقتل أو بالإصابة، وفقًا لمنظمة الصحة العالمية، ما يعادل "تقريبًا ضعف إجمالي مساعدات التنمية التي تتلقاها البلدان النامية على مستوى العالم". والحقيقة أن منظمة الصحة العالمية، تعتبر المرور واحدًا من أسوأ المخاطر الصحية التي تواجه فقراء الحضر، ومن ثم تتنبأ بأن تحتل حوادث الطرق المرتبة الثالثة في الأسباب المفضية إلى الموت، وذلك بحلول عام ٢٠١٠[٣٩]. وللأسف سوف تقود الصين الطريق في هذا الاتجاه، حيث تنتصر السيارات في معركة التحكم في الشوارع الحضرية، مع الدراجات والمشاة: فحوالي ربع مليون صيني لقوا حتفهم، أو أصيبوا إصابات بالغة في حوادث مرورية في الشهور الأولى من عام ٢٠٠٣ وحده[٤٠].

إن الإمداد العشوائي بالسيارات، بالطبع، يفاقم أيضًا من كابوس تلوث الهواء في مدن العالم الثالث. فالأعداد الهائلة من السيارات القديمة، والمركبات (الباصات) المتهالكة، والشاحنات التي أحيلت للتقاعد منذ زمن، تصيب المناطق الحضرية بالاختناق بما تصدره من عوادم، بينما المحركات ذات الشوطين[*] two-stroke engines التي تشتهر بالقذارة، وتدير الآليات الصغيرة، تنبعث منها عشرة أضعاف المادة الصلبة العالقة التي تصدرها

(39) WHO, "Road Safety Is No Accident!" (November 2003); and Road Traffic Injuries Research Network cited in *Detroit Free Press*, 24 September 2002.

(40) *People's Daily* (English), 24 June 2003.

(*) محرك احتراق داخلي يعمل بشوطين اثنين، بدلاً مما هو معتاد من الاعتماد على محرك الاحتراق الداخلي الذي يعمل بأربعة أشواط. ويقتصر شوطا ذلك المحرك على شوط الضغط وشوط الإشعال. هذا النوع من المحركات يستعمل بصفة خاصة في الدراجة النارية، ولتشغيل المنشار الآلي اليدوي. ويختلف محرك الشوطين عن المحرك ذي أربعة الأشواط بأنه يكمل دورته في شوطين اثنين للمكبس، ويمكنه أداء ذلك باستخدام بدء شوط الضغط، ونهاية شوط الإشعال في سحب الوقود؛ وبالتالي في طرد العادم. (المترجم).

السيارات الحديثة. ووفقًا لدراسة حديثة، فإن الهواء الملوث، يكون أكثر فتكًا في المدن الكبيرة المتمددة، مثل مكسيكو سيتي (٣٠٠ يوم من أدخنة الأوزون الضارة سنويًا)، وساوباولو، ودلهي، وبكين[٤١]. في الوقت نفسه، فقد تبين أن استنشاق هواء مومباي، يعادل تدخين علبتين ونصف العلبة من السجائر كل يوم، وقد حذر مركز العلوم والبيئة في دلهي Center for Science and Environment in Delhi مؤخرًا من أن المدن الهندية في طريقها للتحول إلى "غرف للغاز القاتل"[٤٢].

الزحف على الاختياطي البيئي:

إن المدن بمعناها المجرد، هي الحل للأزمة البيئية العالمية، إذ يمكن أن تترجَم الكثافة الحضرية إلى كفاءات عظيمة، في استخدام الأرض، والطاقة، والموارد، بينما المجالات العامة الديمقراطية والمؤسسات الثقافية بالمثل، توفر معايير أعلى للتمتع من ناحية الاستهلاك النوعي الفردي، ووقت الفراغ المتسلع. ولكن، وكما أقر منظرو العمران الحضري مرارًا وتكرارًا، بداية من "باتريك جيدز" Patrick geddes (الأب الحقيقي لمدرسة المناطق الحيوية bioregionalism)، فإن كلاً من الكفاءة البيئية والرخاء العام، يتطلبان المحافظة على مصفوفة خضراء من النظم البيئية السليمة، والمساحات المفتوحة، والخدمات الطبيعية: فالمدن تحتاج إلى تحالف مع الطبيعة؛ بغرض إعادة تدوير ما تخرجه من نفايات، وتحويلها إلى مدخلات يمكن استخدامها

(41) Asim Khan, "Urban Air Pollution in Megacities of the World," *Green Times* (Spring 1997): published by Penn Environmental Group. See also "Commentary: Urban Air Pollution," in *Current Science* 77:3 (10 August 1999), p. 334; "World Bank Group Meets to Clean Up Asia's Deadly Air," Associated Press, 22 July 2003.

(42) Suketu Mehta, *Maximum City: Bombay Lost and Found*, New York 2004, p. 29; Karina Constantino-David, "Unsustainable Development: The Philiping Experience," in Westendorff and Eade, *Development and Cities*, p. 163.

في الزراعة، والحدائق، وإنتاج الطاقة. والحضرنة المستدامة تتطلب المحافظة على الأراضي السبخة المحيطة، والزراعية. وللأسف، فإن مدن العالم الثالث- باستثناءات قليلة- تقوم وبصورة منتظمة بتلويث وتدمير ما تحتويه من نظم بيئية حيوية داعمة للبيئة.

إن المساحات الحضرية المفتوحة، على سبيل المثال، مدفونة تحت النفايات المبعثرة المهملة. وهو ما يخلق جنة صغيرة تمرح فيها الجرذان والحشرات مثل البعوض. وغالبًا ما يتزايد الفشل المزمن بين معدلات توليد القمامة، وآليات التخلص منها، فمتوسط جمع القمامة في دار السلام، يكاد يصل إلى ٢٥%؛ وفي كراتشي ٤٠%؛ وفي جاكرتا ٦٠%[٤٣]. وبالمثل، يشكو مدير تخطيط المدن في كابول، من أن "كابول تتحول إلى مستودع كبير للنفايات الصلبة... فكل ٢٤ ساعة، ينتج مليونا نسمة ٨٠٠ متر مكعب من النفايات الصلبة. فإذا قامت كل ٤٠ شاحنة بعمل ثلاث نقلات يوميًا، تظل غير قادرة إلا على نقل من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ متر مكعب فقط إلى خارج المدينة"[٤٤]. وأحيانًا ما يكون محتوى النفايات مهولاً؛ فقد وصفت *ديلي جرافيك* *Daily Graphic* مؤخرًا هذا الوضع في أكرا مفيدة أن "انتشار مقالب النفايات المليئة بالأكياس البلاستيكية السوداء التي تحتوي على أجساد جنينية مجهضة من رحم *الكيايي* *Kayayee* [النساء العتالات]، وفتيات في سن المراهقة. ووفقًا للمدير التنفيذي لمركز العاصمة، فإن "٧٥% من نفايات الأكياس البوليثين polythene السوداء في مراكز المدينة، تحتوي على أجنة مجهضة""[٤٥].

---

(43) Vincent Ifeanyi Ogu, "Private Sector Participation and Municipal Waste Management in Benin City," *Environment and Urbanization* 12:2 (October 2000), pp. 103, 105.

(44) *Washington Post*, 26 August 2002.

(45) *Daily Graphic* (Accra), 12 August 2000, quoted in H. Wellington, "Kelewle, Kpokpoi, Kpanlogo," in Ralph Mills-Tetty and Korantema Adi-Dako (eds), *Visions of the City: Accra in the Twenty-First Century*, Accra 2002, p. 46.

وفي الوقت نفسه، فإن الأحزمة الخضراء على أطراف المــدن، تــم تحويلها إلى أراضٍ قفر/ يباب بيئيًا. فالأمن الغذائي أصبح في موضع خطر على مستوى آسيا وأفريقيا، بفعل التدمير غير اللازم للأراضي الزراعيــة، عبر الإفراط الحضري غير الضروري، في تحويل استخداماتها. ففي الهند، يتم فقدان أكثر من ٥٠,٠٠٠ هكتار من الأراضي الثمينة المنتجة للمحاصيل كل عام لصالح العمران الحضري(٤٦). وفي ذروة "فيضان الفلاحــين" فــي الصين بين عامي ١٩٨٧ و١٩٩٢، تم تحويل ما يقرب من مليــون هكتــار سنويًا من الاستخدام الزراعي إلى العمراني(٤٧). وفي مصر، البلــد الأكثــر كثافة بالزراعة المستقرة على الأرض، وصل الزحف أو التمــدد العمرانــي بوضوح إلى نقطة أزمة: حول القاهرة تستهلك التنمية العمرانية ما يصل إلى ٣٠,٠٠٠ هكتار سنويًا، وهو "قدْر من الأراضي"، مثلمــا يــشير "فلوريــان شتاينبرج" Florian Steinberg "يعادل حجــم الأراضــي التــي استــصلحها المصريون لأغراض زراعية مع مشاريع الري الضخمة التــي بــدأت مــع تدشين السد العالي"(٤٨).

فضلاً عن ذلك، فإن الأراضي الزراعية في المناطق المتاخمة للعمران الحضري peri-urban التي تخدم التنمية، أصبحت ملوثة بالسموم الموجــودة بفعل السماد الإنساني والحيواني. فوفق المشاهدة من الجو، أصبح من المعتاد أن ترى المدن الآسيوية محاطة بهالة خضراء براقة من البستنة، أو حــدائق

(46) Shahab Fazal, Urban Expansion and Loss of Agricultural Land – a GIS-Based Study of Saharanpur City, India," *Environmental and Urbanization* 12:2 (October 2000), p. 124.

(47) See. "Loss of Agricultural Land to Urbanization" at www.infoforhealth.org/pr/m13/m13chap3_3.shtml#top; and "Farmland Fenced off as Industry Makes Inroads," *China Daily*, 18 August 2003.

(48) Florian Steinberg, "Cairo: Informal Land Development and the Challenge for the Future," in Baken and van der Linden, *Land Delivery for Low Income Groups in Third World Cities*, p. 131.

تجارية عالية الإنتاج، تمتد إلى النطاق الذي يصنعه النقل الاقتصادي للسماد البشري. غير أن الصرف الصناعي الحديث أصبح مسمومًا بمعادن ثقيلة، ومسببات أمراض خطيرة. وخارج نطاق هانوي Hanoi، حيث الفلاحون والصيادون دائمًا ما يتم انتزاعهم من أماكنهم؛ بحجة التنمية العمرانية، نجد أن النفايات الحضرية والصناعية أصبحت الآن تُستخدم بشكل روتيني كبدائل مجانية؛ للسماد الصناعي. وعندما حقق الباحثون في هذه الممارسة السيئة، اكتشفوا أن "الشر يكمن بين منتجي الخضروات والأسماك"، ففيما يتعلق "بالأغنياء في المدن"، فهم لا يعبؤون بنا، ويضحكون علينا، يستغفلوننا بتعويضات لا قيمة لها [نظير الأرض الزراعية]؛ لذا لماذا لا نتخذ شكلاً من أشكال الانتقام؟"(٤٩). وبالمثل، في كولومبو، حيث تمتد العشوائيات إلى الحقول، "ظهر شكل فريد من الزراعة يُعرف باسم *كيرا كوتو* *keera kotu*، حيث يتم استخدام النفايات الحضرية، بما في ذلك النفايات غير المناسبة صحيًا، في زراعة الخضروات بأسرع ما يمكن وأينما أمكن"(٥٠).

ومع تفاقم أزمة السكن في معظم مدن العالم، فإن العشوائيات أيضًا تغزو مباشرة الموائل البيئية الحيوية ومساقط المياه المحمية. ففي مومباي، قام سكان العشوائيات حتى الآن باختراق الحديقة القومية "سانجاي غاندي" Sanjay Gandhi National Park إلى درجة أنه أصبح من الروتيني أن يتعرض بعضهم للافتراس من النمور (عشرة أشخاص في يونيه/ حزيران ٢٠٠٤ وحدها)؛ بل إن إحدى القطط الغاضبة هاجمت أوتوبيس المدينة. وفي إسطنبول، نجد العشوائيات تزحف على مساقط المياه الحيوية لغابة أومرلي Omerli؛ وفي كيتو Quito، تحيط العشوائيات ومساكن الصفيح بمحمية

(49) Van den Berg. van Wijk, and Van Hoi, "The Transformation of Agriculture and Rural Life Downsteam of Hanoi," p. 52.

(50) Dayarante and Samarawickrama, "Empowering Communities," p. 102.

الأنتيزانا Antisana؛ وفي ساو باولو تهدد العشوائيات بحدوث مزيد من التلوث في تجمع مياه جوارابيرانجا Guarapiranga، الذي اشتهر بالفعل بسمعة سيئة بسبب مذاق مياهه السيئ، والمسئول عن ٢١% من إمداد المدينة بالمياه. والحقيقة أن ساو باولو تشهد صراعًا مريعًا، حيث إنها مضطرة إلى استخدام ١٧٠ ألف طن (أو ١٧ ألف حمولة شاحنات) من الكيماويات المعالجة للمياه كل سنة بهدف المحافظة على كمية مياه الشرب المطلوبة. ويحذر الخبراء من أن مثل هذه الإجراءات وتلك الأساليب، تعد حلاً غير مستدام:

> إن نصف عشوائيات ساو بالو، تقع على ضفاف تجمعات المياه التي تمد المدينة بالمياه. وهذا ما يعرض الصحة العامة للخطر، حيث إن واضعي اليد يلقون بالنفايات مباشرة في تجمعات المياه، أو في وسط التيار الذي يحمل المياه إلى تلك التجمعات. وقد عانت نظم التحكم في جودة مياه الشبكات التابعة للبلدية مشكلات عديدة في السنوات الأخيرة. ففضلاً عن زيادة استخدام الكلور في المياه لمنع الأمراض المعوية، فإنهم بالكاد يمكنهم السيطرة على تكاثر الطحالب، حيث إنها تنمو بكميات هائلة مع تراكم المواد العضوية(٥١).

إن المجاري في كل مكان تُسمِّم مصادر مياه الشرب. ففي كامبالا، تتسبب مصارف العشوائيات في تلويث بحيرة فيكتوريا، بينما في "مونورفيا" Monrovia- التي انتفخت إلى مليون و٣٠٠ ألف نسمة، بعد سنوات من الحرب الأهلية، ببنية تحتية مصممة فقط لخدمة أقل من ربع مليون نسمة-

---

(51) Taschner, "Squatter Settlements and Slums in Brazil," p. 193: Luis Galvao, "A Water Pollution Crisis in the Americas," *Habitat Debate* (September 2003), p. 10.

حيث نجد الغائط يلوث المشهد بأكمله: الـشواطئ، والـشوارع، والأفنيــة، والمجارى المائية(٥٢). وفي أجزاء من نيروبي أكثر فقرًا ، نجد مياه المواسير لم تعد صالحة للشرب؛ بسبب التلوث بالبراز الحيواني في المنبع(٥٣). وفــي الوقت نفسه، فإن منطقة آجوسكو Ajusco وهي المـصد البيئــي الأساســي لمكسيكو سيتي، وتعد منطقة تجديد الحيويــة، نجــدها الآن ملوثــة بدرجــة خطيرة، بالمجاري الآتية من المـستوطنات العـشوائية المحيطــة بهــا(٥٤). والحقيقة، أن الخبراء يقدرون أن ٩٠% من مجاري أمريكا اللاتينية، تصب بلا معالجة في التيارات المائية ومجرى الأنهار(٥٥). وإذا نظرنا إلى المــسألة من وجهة نظر تتعلق بالصرف الصحي، فإن المــدن الفقيــرة فــي جميــع القارات، ليست سوى مجرد مجارٍ مسدودة وطافحة.

العيش في الخراء!!

الواقع أن فائض الغائط، يمثل وجه التناقض الحضري البدائي. ففــي ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وأوائل الأربعينيات منه، حيث انتشرت أمراض الكوليرا والتيفود في لندن، والمدن الصناعية في أوروبــا، كانــت الطبقــة المتوسطة البريطانية القلقة مضطرة إلى مواجهة موضوع لم يكن من العادة أن يُطرح للنقاش على الملأ. وهنا يوضح ستيفن ماركوس Steven Marcus

(52) *The News* (Monrovia), 23 January 2004.

(53) Peter Mutevu, "project Proposal on Health and Hygiene Education to Promote Safe Handling of Drinking Water and Appropriate Use of Sanitation Facilities in Informal Settlements," brief, Nairobi (April 2001)

(54) Imparato and Ruster, *Slum Upgrading and Participation*, p. 61; *Human Settlements*, p. 20.

(55) Stillwaggon, *Stunted Lives, Stagnant Economies*, p. 97.

الأستاذ في العصر الفيكتوري، أن "الـوعي" البرجـوازي تعـرض فجـأة للانزعاج بإدراك أن ملايين الرجال الإنجليز، والنساء والأطفال كـانوا فـي حقيقة الأمر يعيشون في الخراء. ويبدو أن السؤال الفوري الذي كان يُطـرح عما إذا كانوا يغرقون فيه؟"[٥٦]. ومع الأوبئة التي ساد الاعتقاد بأنها تنشأ من "الأبخرة والسحب" البرازية النتنة المنبعثة من الأحياء العشوائية، ظهر فجـأة اهتمام نخبوي بظروف من هذا النوع، ونقهـا فريـدريك إنجلـز Friedrich Engels في مانشستر، حيث في بعض الشوارع كان "أكثر من مائتي شخص يتقاسمون كنيفًا واحدًا". وأصبح نهر إرك River Irk الذي كان ريفيًّـا ذات يوم، نهرًا أسود كالفحم، ونتنًا ومليئًا بالقذارة والزبالة". ويتفكـر مـاركوس Marcus، في تعليق من النوع الفرويدي على إنجلز، في السخرية المتمثلة في أن "أجيال من البشر، الذين أنتجت حياتهم أغنياء إنجلترا، كانوا مـضطرين للعيش في الشق السلبي من حياة الأغنياء"[٥٧].

ثمانية أجيال بعد إنجلز، وما زال الخراء يغلف حياة فقراء الحـضر، ويُمرضها (استشهادًا بأقوال ماركوس ثانية)، "وهو تشيؤ حقيقـي لظـروفهم الاجتماعية، ومكانتهم في المجتمع"[٥٨]. والحقيقة أن المرء يستطيع أن يضع مؤلف إنجلز *أحوال الطبقة العاملة فـي إنجلتـرا ١٨٤٤* *The Condition of Working-Class in England in 1844* جنبًا إلى جانب رواية حضرية أفريقية حديثة، مثل رواية "ميجا موانجي" Meja Mwangi *النزول إلى طريق النهـر* *Going Down River Road* (١٩٧٦)، متعجبًا متفكرًا من مظاهر الاستمرار الوجودية وكذلك البرازية. لقد كتب إنجلز عن مانشستر: "في إحـدى هـذه الساحات وعلى المدخل مباشرة، حيث ينتهي الممر المغطّى، يوجـد كنيـف

---

(56) Stephen Marcus, *Engels, Manchester and the Working Class*, New York 1974, p. 184.

(٥٧) المرجع السابق.

(٥٨) المرجع السابق، ص. ١٨٥.

بدون باب. الكنيف بالغ القذارة إلى درجة أن السكان لا يمكنهم الدخول أو الخروج من الساحة، إلا بمشقة، عبر كومات وبرك من البول والبراز"(٥٩). وفي موقف مشابه، تكتب موانجي Mwangi عن نيروبي في ١٩٧٤؛ "معظم الممرات المتقاطعة مع الأرض المغطاة بالكلأ الندي كانت منثورة بالبراز... لقد هبت الرياح الباردة الندية عبر هذه الممرات؛ فحملت، وبنفس الوسط مع رائحة الخراء والبول، طنيناً مفاجئاً، في تعبير نادر عن البؤس، وعدم اليقين، والاستسلام"(٦٠).

الموضوع بالطبع غير لائق هنا، ولكنه معبّر عن مشكلة أساسية، تصيب حياة المدينة، ولا يوجد مفر منها. فعلى مدى عشرة آلاف سنة، كافحت المجتمعات الحضرية ضد التراكمات المميتة لنفاياتها؛ حتى المدن الأغنى، فقط يصرفون البراز في المجاري المائية، أو يكبّونه في المحيط المجاور. والمدن الكبرى الفقيرة في الوقت الحاضر- نيروبي، لاجوس، بومباى، دكا، وغيرها- هي عبارة عن جبال نتنة من الخراء، يمكن أن ترهب حتى أكثر الفيكتوريين صلابة. (باستثناء ربما "رونديارد كيبلنج" Rudyard Kipling، خبير جهبذ، ميّز بسرور في *مدينة الليلة المرعبة* *The City of Dreadful Night* "تنانة كالكتا الكبيرة" من الروائح النفاذة لمومباي، وبيشاور، وبيناريس Benares.)(٦١)، فضلاً عن ذلك، فإن الحميمية الدائمة مع نفايات الآخرين، تعد واحدة من الأقسام الاجتماعية الأكثر عمقاً. مثل الانتشار العالمي للطفيليات في أجسام الفقراء، فإن العيش في الخراء، مثلما عرّفه الفيكتوريون، يحد بالفعل بين نوعين من الوجود الإنساني.

---

(59) Friedrich Engels, *The Condition of Working-Class id England in 1844*, Marx-Engels Collected Works. Volumes 4, Moscow 1975, p. 351.

(60) Meja Mwangi, *Going Down River*, Nairobi 1976, p. 6.

(61) Kipling, *The City of Dreadful Night*, pp. 10-11.

إن الأزمة العالمية للصرف الصحي تفوق الوصف. أصولها تتجذر في الاستعمارية، مثلها مثل كثير من المشكلات الحضرية العمرانية في العالم الثالث. فالإمبراطوريات الأوروبية عمومًا، رفضت توفير الصرف الصحي الحديث، والبنية التحتية للمياه في الأحياء الأهلية، مفضلة بدلاً من ذلك استخدام التحديد النطاقي العنصري، وكوردونات *الحجْر الصحي* *cordons sanitaires*، لفصل الثكنات والأحياء البيضاء عن أماكن الأوبئة؛ ومن ثم فقد ورثت أنظمة ما بعد الاستعمار- من أكرا إلى هانوي- عيوبًا ضخمة تتعلق بالصرف الصحي، إلى درجة أن الأنظمة التي استعدت للعلاج بطريقة عدوانية قليلة للغاية. (فمدن أمريكا اللاتينية تحتوي على مشكلات خطيرة في الصرف الصحي، ولكن شيئًا منها لا يُقارَن مع حجم وضخامة تلك المشكلات في أفريقيا أو في جنوب آسيا).

فمدينة كينشاسا الكبرى، التي يبلغ عدد سكانها ١٠ ملايين نسمة، لا تمتلك على الإطلاق نظام مجارٍ يقوم على استخدام المياه. وعبر القارة، في نيروبي، نجد عشوائية "لايني سابا" Laini Saba في كيبيرا Kibera، كانت تضم في عام ١٩٩٨ تحديدًا، عشرة مراحيض من نوع الحفرة، تعمل من أجل ٤٠ ألف نسمة، بينما في عشوائية ماثير فور إيه Mathare 4A (نيروبي. م) كان ثمة حمامان عموميان يخدمان ٢٨ ألف نسمة. ونتيجة لذلك، فإن سكان العشوائيات يعتمدون على "المراحيض الطائرة"، أو "صواريخ سكود"، مثلما يسمونها أيضًا: "فهم يضعون الفضلات في أكياس بلاستيكية، ويقذفون بها على أقرب سطح، أو في عرَض الطريق"[٦٢]. ولكن، انتشار البراز، يجلب بعض مصادر الرزق الحضرية الابتكارية: ففي نيروبي مثلاً، يواجه راكبو

---

(62) Katy Salmon, "Nairobi's 'Flying Toilets'- Tip of an Iceberg," *Terra Viva* (Johannesburg), 26 August 2002: Mutevu, "Project Proposal on Health and Hygiene Education."

السيارات في الوقت الحالي "أطفالا في عمر العاشرة يحملون بين أسنانهم أكياسًا بلاستيكية، يشنون الهجوم بقنابل البراز البشري- مستعدون لقذفها على نوافذ السيارات المفتوحة- لإجبار قائديها على دفع النقود!!"(٦٣).

والصرف الصحي في جنوبي شرق آسيا، يعد أفضل قليلاً من نظيره في أفريقيا جنوب الصحراء. ففي دكا، ومنذ عقد من الزمن، كانت هناك وصلات لمواسير المياه، تخدم ٦٧ ألف منزل ونظام مَجارٍ للتخلص من النفايات، قوامه ٨٥٠٠ وصلة فقط. وبالمثل، فإن أقل من ١٠% من منازل مانيلا المركزية متصلة بنظم للمجاري(٦٤). أما جاكرتا، وعلى الرغم من وجود ناطحات السحاب البراقة، فإنها لا تزال تعتمد على الحُفَر المفتوحة للتخلص من معظم المياه الفاسدة. وفي الهند المعاصرة- حيث هناك ما يبلغ ٧٠٠ مليون نسمة مجبرين على التبرز في العراء- ١٧ مدينة وبلدة كبيرة فقط من بين إجمالي ٣٧٠٠ بلدة تمتلك نوعًا من المعالجة البدائية لمياه المجاري، قبل التخلص النهائي منها. وكانت دراسة أجريت على ٢٢ منطقة عشوائية في الهند، قد وجدت أن ٩ منها لا تمتلك أية مرافق للمراحيض على الإطلاق؛ وفي ١٠ أخرى، كان هناك ١٩ مرحاضًا فقط لخدمة ١٠٢ ألف نسمة(٦٥). وقد صرح المخرج "برالاد كاكار" Prahlad Kakkae، مؤلف الفيلم الوثائقي عن المراحيض بعنوان *بومباي Bumbay*، في مقابلة له مع مراسل مذهول، أن في مومباي "نصف السكان لا يمتلكون مرحاضًا للتبرز، لذا فهم يتبرزون في الخارج. خمسة ملايين نسمة. فإذا تبرز كل منهم نصف كيلو، فهذا يعني مليونين ونصف المليون كيلو جرام من الخراء كل صباح"(٦٦). وبالمثل، تصرح "سوزان تشابلن" Suzan Chaplin إنه "في مسح لمدينة دلهي

(63) Andrew Harding, "Nairobi Slum Life" (series), *Guardian*, 4, 8, 10 and 15 October 2002.

(64) Berner, *Defending a Place*, p. xiv

(65) UN-HABITAT, *Debate* 8:2 (June 2002), p. 12.

(66) Quoted in Mehtra, *Maximum City*, p 127.

أُجري عام ١٩٩٠، تبيّن أن الأسر المقيمة في ١١٠٠ مستوطنة عشوائية، ويبلغ عددهم ٤٨٠ ألف أسرة، لا يمتلكون سوى ١٦٠ قاعدة تواليت، و ١١٠ مراحيض متنقلة. وأن نقص مرافق المراحيض في المناطق العشوائية، قد أجبر سكانها على استخدام المساحات المفتوحة، مثل الحدائق العامة، ومن ثم خلق توترات بينهم وبين سكان الطبقة الوسطى على حقوق التبرز"(٦٧). بل وصل الأمر في الحقيقة، وكما تخبرنا "أروونداتي روي" Arundhati Roy، إلى حد أن ثلاثة من سكان العشوائيات في دلهي عام ١٩٩٨ "أُطلقت عليهم النيران؛ لأنهم يتبرزون في أماكن عامة"(٦٨).

وفي الصين، حيث عادت العشوائيات، ومدن الصفيح الحضرية إلى الظهور مجددًا، بعد تحرير السوق، فإن كثيرًا من المهاجرين الداخليين، يعيشون بدون صرف صحي أو مياه جارية. وهنا تكتب "دوروثي سولينجر" "ثمة تقارير عن أشخاص محشورين في عشش في بكين، حيث يوجد مرحاض واحد يخدم أكثر من ستة آلاف نسمة؛ وعن عشوائية في شانزين Shenzhen تضم خمسين مأوى، عاش فيها مئاتٌ بدون مياه جارية؛ ...[أيضًا] كشف مسحٌ أُجرى عام ١٩٩٥ في شنغهاي، عن أن ١١% فقط من حوالى ٤٥٠٠ أسرة مهاجرة يمتلكون مرحاضًا"(٦٩).

---

(67) Susan Chaplin, "Cities, Sewers and Poverty: India's Politics of Sanitation," *Environment and Urbanization* 11:1 (April 1999), p. 152.

مثل هذه الصراعات على "الحق فى التبرز" تعد استمرارًا للصراع المزمن فى المدن الاستعمارية. وهاهو جوبتو Gooptu، على سبيل المثال، يستشهد فى عام ١٩٣٢ بحالة واضعى اليد فى كانبور Kanpur الذين وبعد أن أحبط مجلس البلدية مساعيهم للحصول على مياه الشرب، وخطوط الصرف الصحى، قاموا بغزو الحقل المجاور للبيوت المكونة من طابق واحد، واستخدموه (احتجاجًا) كما لو كان مرحاضهم المشترك. وقد تم استدعاء البوليس على الفور، وتبع ذلك وقوع أعمال شغب، انظر:

(Gooptu, *The Politics of the Urban Poor in Early Twentieth-Century India*, p. 87.)

(68) Arundhati Roy, "The Cost of Living," *Frontline* 17:3 (5 – 8 February 2000).

(69) Solinger, *Contesting Citizenship in China*, p. 121.

إن الاضطرار جبرًا لممارسة الوظائف الجسدية في الأماكن العامة المفتوحة، يعد بلا شك إهانة لأي شخص. ولكن، وقبل كل شيء، هذه مسألة نسوية لا محالة. فالنساء من فقيرات الحضر، واقعات تحت إرهاب الوضع المستحيل Catch-22، والذي يتمثل في توقع المحافظة على معايير صارمة من الكياسة، في وقت تفتقد فيه المرأة الوصول إلى أية وسائل خاصة من الممارسات الصحية. وهنا تكتب الصحفية "عائشة كريشناكومار" Asha Krishnakumar، عن أن "غياب المراحيض، مسألة مدمرة للنساء. فهي تؤثر تأثيرًا بالغًا على الكرامة، والصحة، والأمان، والشعور بالخصوصية، وبشكل غير مباشر على مستوى محو الأمية والإنتاج أيضًا. فالنساء والفتيات كي يتبرزن، عليهن الانتظار طويلاً، إلى أن يهبط ظلام الليل. وهو ما يعرضهن لتحرشات بل وتعديات جنسية"(٧٠).

وفي عشوائيات بنجالور– مدينة التكنولوجيا العالية في دعاية "الهند تتلألأ"– نجد النساء الفقيرات العاجزات عن تحمل أعباء المراحيض المحلية، مضطرات للانتظار إلى أن يهبط المساء للاغتسال، أو الدخول إلى بيت الراحة. وهنا يكتب الباحث لويس شنك ساندبرجن Leos Schenk Sandbergen:

> الرجال يستطيعون التبول في أي وقت وأي مكان، بينما النساء لا يمكنك سوى مشاهدتهن يلبين نداء الطبيعة قبيل شروق الشمس وبعد غروبها. ولتجنب المخاطر، فإن النساء عليهن الذهاب في مجموعات في الخامسة صباحًا... وغالبًا لأراضي مستنقعات، حيث يمكن للثعابين أن تختبئ، أو إلى حيث مقالب نفايات مهجورة مليئة بالجرذان وغيرها من

(70) Asha Krishnakumar, "A Sanitation Emergency," *Focus* 20:24 (22 November- 5 December 2003).

الزواحف. وغالبًا ما تقول النساء إنهن لا يأكلن خلال النهار كي لا يضطررن للذهاب إلى حقل مفتوح في المساء(٧١).

وبالمثل، فإن النساء في مومباي مجبرات على الفك عن أنفسهن، "بين الثانية والخامسة من فجر كل صباح؛ لأن هذا هو الوقت الوحيد الذي يمكنهن فيه الحصول على الخصوصية". والمراحيض العامة، كما يوضح الكاتب "سوكيتو ماهتا" Suketu Mehta، نادرًا ما تكون محلاً للنساء؛ لأن الحفر أصبحت مسدودة منذ شهور أو سنوات"(٧٢).

إن حل أزمة الصرف الصحي– على الأقل كما يدركها أساتذة اقتصاد بعينهم، الجالسون على الكراسي المريحة في شيكاغو وبوسطن– أصبح متمثلاً في تحويل التبرز الحضري إلى تجارة عالمية. والحقيقة أن أحد الإنجازات العظيمة للنيوليبرالية التي ترعاها واشنطن، هي تحويل المراحيض العامة إلى نقاط للنقود لتسديد الديون الأجنبية– والمراحيض المدفوعة، تمثل صناعة للنمو على مستوى عشوائيات العالم الثالث. ففي غانا تم إدخال رسوم مستخدم المرحاض العام على يد الحكومة العسكرية في ١٩٨١؛ وفي أواخر تسعينيات القرن المنصرم، كانت المراحيض مخصخصة، والآن توصف كـ"منجم ذهب" للربح"(٧٣). وفي كوماسي، على سبيل المثال، حيث فاز أعضاء المجلس الغاني Ghanaian Assembly بالتعاقدات الربحية، مرحاض خاص لكل أسرة، مرة واحدة يوميًا، يتكلف حوالى ١٠% من الدخل الأساسي(٧٤). وبالمثل، في العشوائيات الكينية، مثل ماثير Mathare يتكلف

(71) Leos Schenk-Sandbergen, "Women, Water and Sanitation in the Slums of Bangalore: A Case Study of Action Research, in Schenk, *Living in India's Slums*, p. 198.

(72) Mehta, *Maximum City*, p. 128.

(73) Deborah Pellow, And a Toilet for Everyone!," in Mills-Tetley and Adi-Dako, *Visions of the City*, p. 140.

(74) Nick Devas and David Korboe, "City Governance and Poverty: The Case of Kumasi," *Environment and Urbanization* 12:1 (April 2000), pp 128-30.

الأمر ٦ سنتات أمريكية لكل زيارة للمرحاض المخصخص: وهذا ثمن باهظ جدًا لمعظم الفقراء، ممن يفضلون التبرز في العراء، وينفقون أموالهم على المياه والطعام(٧٥). وهذا أيضًا هو الحال في عشوائيات كمبالا، مثل سويتو Soweto أو كاموكيا Kamwokya، حيث دخول المراحيض العامة، تتكلف خمسمائة شلن كيني في المرة الواحدة(٧٦).

قتلة الأطفال:

في "سيتي سوليه Cité-Soleil" يقول "لافلي جوسافات" Lovly Josaphat، الذي عاش في أكبر عشوائية في بورتو برنس Port-au-Prince: "لقد عانيت كثيرًا"..

> عندما كانت تمطر، فإن الجزء الذي كنت أعيش فيه من المدينة، تغمره مياه الفيضان لتصل إلى منزلي. دائمًا ما كانت هناك مياه على الأرض، ومياه خضراء برائحة كريهة، ولم تكن هناك حمامات. البعوض كان يفتك بنا. أصيب طفلي ذو الأعوام الأربعة بالتهاب رئوي، وملاريا، بل وتيفود الآن... لقد نصحني الطبيب أن أعطيه ماء مغليًا، ولا أعطيه طعامًا به دهون، وألا أدعه يمشي في المياه. ولكن المياه في كل مكان؛ فهو لا يستطيع وضع قدمه خارج المنزل، بدون أن يخوض في المياه. الطبيب قال لي: إن لم ترعه، سوف تفقده!(٧٧).

(75) Salmon, "Nairobi's 'Flying Toilets.'"

(76) Halima Abdallah, Kampala's Soweto," *The Monitor* (Kampala), 19-25 November 2003.

(77) Beverly Bell, *Walking on Fire: Haitian Women's Stories of Survival and Resistance*, Ithaca 2001, p. 45.

المياه الخضراء ذات الرائحة في كل مكان. "كل يوم، حول العالم"، حسب خبيرة الصحة العامة "إلين ستيلواجون" Eileen Stillwaggon "تقتل الأمراض ذات الصلة بعدم توفير المياه، والتخلص من النفايات، والقمامة ٣٠ ألف نسمة، وتشكل ٧٥% من الأمراض التي تؤثر تأثيرًا بالغًا في البشرية"(٧٨). والحقيقة أن أمراض القناة الهضمية- بما في ذلك الإسهال، والالتهاب المعوي، والتهاب القولون، والتيفود، وحمى التيفوس- تنشأ كلها من سوء الصرف الصحي للفقراء، ومن تلوث مياه الشرب التي تعد أسبابًا رئيسية للموت على مستوى العالم، وتودي بشكل رئيسي بحياة الرضّع والأطفال(٧٩). فالمجاري المكشوفة، والمياه الملوثة، منتشرة، وتمتلئ بالطفيليات المعوية، مثل الديدان الشريطية، والأسطوانية(*)، والخطافية، وغيرها من تلك التي تصيب عشرات الملايين من الأطفال في المدن الفقيرة. أما الكوليرا، طاعون المدينة الفيكتورية، فيواصل أيضًا انتعاشه وسط تلويث موارد المياه الحضرية بخلاص الأجنّة، خاصة في المدن الأفريقية، مثل "أنتاناناريفو" Antananarivo، و"مابوتو" Maputo، ولوساكا، حيث تقدر منظمة اليونيسيف أن ما يصل إلى ٨٠% من ضحايا الأمراض التي يمكن

---

(78) Stillwaggon, *Stunted Lives, Stagnant Economics*, p. 95.

(79) See Pellow, "And a Toilet for Everyone!," Nikhil Thaper and Ian Sanderson, "Diarrhoea in Children: an Interface Between Developing and Developed Countries," *The Lancet* 363 (21 February 2004), pp. 641-50; and Mills-Tettey and Adi-Dako. *Visions of the City*, p. 138.

(*) تضم شعبة الديدان الأسطوانية أو الممسودات Nematode العديد من أنواع الديدان، مثل ديدان الإسكارس والإنكليستوما، وتتميز الديدان بشكلها الأسطواني (الخيطي) وتماثلها الجانبي، ورغم عدم وجود سليوم حقيقي بها، إلا أن أجسامها تحتوي ما يعرف بالسليوم الكاذب الذي ينشأ من اتصال الفجوات الكبيرة لخلايا خاصة، تقع بين جدار الجسم وجدار الأمعاء، وقد أتاح ذلك الفرصة لاكتمال بعض الأجهزة الهضمية، كما أصبحت الأجهزة بشكل عام أقل تكدسا وأكثر تعقيدا مما كانت عليه الديدان المفلطحة. (المترجم).

الوقاية منها (باستثناء الأيدز)، تنشأ عن مشكلات الصرف الصحي للفقـراء. أما الإسهال المرتبط بالأيدز، فيمثل كارثة تزيد الطين بلة[٨٠].

إن التلويث وأساسه انتشار تلوث مياه الشرب والغذاء بالمجاري، والنفايات، يلحق الهزيمة بالجهود المضنية لسكان العشوائيات لممارسة العادات الصحية الحمائية. ففي عشوائية كيبيرا الواسعة بنيروبي، قامت "راسنا وارا" Rasna Warah من برنامج الأمم المتحدة للموئل UN-HABITAT بدراسة الحياة اليومية لبائعة خضروات، تدعى "مبريتا كاتيلا" Mberita Katela، تمشي مسافة ربع ميل كل صباح؛ لشراء المياه. وهي تستخدم مرحاضًا عامًا خارج منزلها مباشرة. وهو مشترك مع ١٠٠ من جيرانها، ومنزلها يفوح بالنتانة نظرًا لطفح المجاري. وهي دائمًا ما تكون قلقة من تلوث مياه الطهي، أو الغسيل الذي تستخدمه- فقد فتكت الكوليرا، وغيرها من الأمراض المرتبطة بالغائط، بسكان عشوائية "كيبيرا" في السنوات الأخيرة[٨١]. وبالمثل في كالكتا Calcutta، لا يوجد الكثير مما يمكن للأمهات فعله حيال الكنيف، أو المرحاض العام المقيت، المضطرات لاستخدامه. تلك الأكواخ الصغيرة من الطوب تحتوى على مقاعد من الفخار، لم تنظّف أبدًا وفق جدول زمني منتظم، وهو ما يضمن "أن تكون فوضى النتانة حول كنيف العشوائية، تصب مباشرة في بِرك وخزانات المياه التي ينظف الناس أنفسهم فيها، ويغسلون منها ملابسهم وأوعية الطهي"[٨٢].

---

(80) UN International Regional Information Networks, press release, 19 February 2003.

(81) Rasna Warah, "Nairobi's Slums: Where Life for Women is Nasty, Brutish and Short." UN-HABITAT, *Debate* 8:3 (2002).

(82) Chaplin, "Cities Sewers, and Poverty," p. 151.

الأمثلة كثيرة على قلة حيلة الفقراء في مواجهة أزمة الصرف الصحي. فسكان مكسيكو سيتي، على سبيل المثال، يستنشقون الخراء: غبـار البـراز يهب من بحيرة تكسكوكو Lake Texcoco أثناء الفصل الحار الجاف، مسببًا التيفود والالتهاب الكبدي للسكان. وفي "نيـو فيلـدز" New Fields، حـول "رانجون" Rangoon، حيث نظام الحكم العسكري قام وبوحشية بنقل مئـات الآلاف من السكان إلى خارج المدينة، يصف "مونيك سـكيدمور" Monique Skidmore الأسر التي تعيش في الحجْر الصحي المعادل للعيش في جحـيم الوحل في حرب الخنادق خلال الحرب العالمية الأولى، قائلاً: إنهم يطهـون ويتبرزون في الوحل مباشرة، أمام ملاءات بلاستيكية صغيرة ينامون تحتها. ومن ثم؛ فليس من المفاجأة أن تتعرض "منطقة نيو فيلدز" لفتـك الكـوليرا، والدوسنتاريا، وحمى الضنك/ الدنج(*) dengue، والملاريا(٨٣). وفي العشوائية العملاقة "مدينة الصدر" في بغداد، تنتشر أوبئة الالتهاب الكبـدى والتيفـود،

(*) حمى الضنك أو "حمى الدنج" أو "الدنك": أمراض حمّية حادة، توجد في المناطق المدارية، حيث تعتبر من الأمراض المدارية المهملة، ويسببها أربعة أنماط مَصلية متقاربة من جنس الفيروس المصفر (flavivirus) من عائلة الفيروسات الخيطية، وتعرف أيضا بحمى العظم المكسور. يشمل انتشارها الجغرافي شمالي أستراليا، وشمالي الأرجنتين، وسنغافورة بأكملها، وماليزيا، وتايوان، وتايلاند، وفيتنام، وإندونيسيا، وهندوراس، وكوستاريكا، والفيليبين، وباكستان، والهند، وسيريلانكا، وبنجلاديش، والمكسيك، وسورينام، وجمهورية الدومنيكان، والبرازيل، وغويانا، وفنزويلا، وباربيدوس، وترنيداد وساموا. على خلاف الملاريا؛ فإن حمّى الضنك سائدة في المناطق الحضرية كما فى المناطق الريفية على حد سواء. وتختلف الأنماط المصلية عن بعضها البعض بما فيه الكفاية لمنع وجود حماية شاملة مشتركة، أو حدوث وباء (فوق استيطاني)، ينتج عن عدة أنماط مصلية. حمى الضنك تنتقل إلى البشر بشكل أساسي عبر بعوضة أبيدس إجيبتاي (Aedes aegypti)، ولكنها نادرًا ما تنتقل عن طريق بعوضة أبيدس ألبوبيكتس (albopictus Aedes)، اللتين تتغذيان خلال ساعات النهار. تقول منظمة الصحة العالمية: إن حوالي بليونين ونصف البليون شخص، يشكلون خمسي سكان العالم؛ معرضون لخطر الإصابة بحمى الضنك. وتقدّر المنظمة أنه قد يكون هناك خمسون مليون حالة من حمى الضنك في العالم كل سنة. حمى الضنك الآن مرض متوطن في أكثر من مائة بلد. (المترجم).

(83) Skidmore, *Karoke Fascism*, p. 156.

بشكل يخرج عن السيطرة. فالقصف الأمريكى كان كفيلاً بتدمير البنية التحتية للمياه وشبكة المجارى التي كانت بالفعل تنوء بأحمال فوق طاقتها. ونتيجة لذلك، فإن المجارى الخام، أصبحت تتسرب إلى موارد مياه الشرب. فبعد سنتين من الغزو الأمريكى، ظل النظام معطلاً، وكان يمكن للعين المجردة أن تميز خيوطًا من البراز البشرى في مياه الصنبور. وفي حرارة الصيف التي تصل إلى ١١٥ درجة (فهرنهيت)، لا تتوافر أنواع أخرى من المياه في متناول قدرة الفقراء الشرائية(٨٤).

إن حروب الصرف الصحي، تأتي وتذهب عبر السنين. فعقد الثمانينيات من القرن الماضى، كان عقد الأمم المتحدة لمياه الشرب الدولية والصرف الصحي، غير أن أنكينج شاى Anqing Shi، أحد الباحثين التابعين للبنك الدولى، يؤكد على أنه "في نهاية عقد الثمانينيات، لم يتحسن الصرف الصحي تحسنًا كبيرًا"(٨٥). والحقيقة أن منظمة الصحة العالمية، تسلّم بأنه "سيظل هناك حوالى ٥ ملايين من الموتى [يمكن وقايتهم] بين الأطفال الأقل عمريًا من خمس سنوات، بحلول عام ٢٠٢٥... وأغلبهم سيكونوا مصابين بأمراض مُعدية، سيلعب فيها الإسهال دورًا بارزًا"(٨٦). ويضيف تقرير لمنظمة الصحة العالمية صدر عام ١٩٩٦، أنه "في أى وقت من الأوقات، سيعانى ما يقرب من نصف سكان الجنوب الحضر، من مرض أو أكثر، من الأمراض الرئيسية المرتبطة بالخدمات غير الملائمة لتوفير المياه والصرف الصحي"(٨٧). وعلى الرغم من أن المياه النظيفة هي العلاج الأرخص

(84) *Los Angles Times*, 4 August 2004.

(85) Shi, "How Access to Urban Potable Water and Sewerage Connections Affects Child Mortality," p. 2.

(86) Thaper and Sanderson, "Diarrhoea in Children," p. 650.

(87) 1996 WHO report paraphrased by David Satterthwaute, "The Links Between Poverty and the Environment in Urban Areas of Africa, Asia, and Latin America," *The ANNALS of the American of Political and Social Science* 590 (1993), p. 80.

والوحيد، الأكثر أهمية في العالم، فإن توفيرها على المستوى العام، مثله مثل المراحيض المجانية، غالبًا ما يتناقض مع المصالح الخاصة القوية.

إن مبيعات المياه تعد صناعة مربحة في المدن الفقيرة. وتعد نيروبي، كالعادة، مثالاً نموذجيًا على ذلك، حيث يعيد المقاولون الموالون سياسيًا بيعَ مياه البلدية (التي تعد تكلفتها ضئيلة جدًا بالنسبة للأسر الغنية، بما يكفي لتحمل أعباء صنبور في المنزل)، في العشوائيات بأسعار باهظة. وحسبما شكا العمدة "جو أكتتش" Joe Aketch مؤخرًا، "تبين إحدى الدراسات أن سكان عشوائية كيبيرا kibera يدفعون ما يصل إلى خمس مرات ضعف ما يدفعه المواطن الأمريكي العادي، مقابل لتر مياه واحد. وإنه لمن العار أن الأغنياء في نيروبي، يمكنهم استخدام ثرواتهم لتحويل الخدمات المخصصة للفقراء، إلى مصلحتهم الخاصة"[(٨٨)]. وبعض سكان نيروبي غير القادرين على، أو غير المستعدين لشراء المياه من الباعة بأسعار باهظة يلجؤون إلى اتخاذ إجراءات يائسة، من بينها، حسبما يكتب اثنان من الباحثين المحليين، "استخدام مياه المجاري، وتجاهل الاستحمام والغسيل، واستخدام مياه الأنبوب الذي يُخرق في سطح الأرض، ومياه الأمطار، وسرقة المياه من المواسير المكسورة"[(٨٩)].

(88) *International Technology Development Group (ITDG) East Africa Newsletter* (August 2002).

(89) Mary Amuyunzu-Nyamongo and Negussie Taffa, "The Triad of Poverty, Environment and Child Health in Nairobi Informal Settlements," *Journal of Health and Population in Developing Countries*, 8 January 2004, p. 7.

الشكل ١٣

المياه: الفقراء يدفعون أكثر[٩٠]

المياه المباعة مقابل مياه المواسير

(مقدار زيادة الأسعار بالنسبة المئوية)

	%
فيصل آباد	٦٨٠٠
بوندون Bundun	٥٠٠٠
مانيلا	٤٢٠٠
مومباي	٤٠٠٠
بنوم بنه	١٨٠٠
هانوي	١٣٠٠
كاراتشي	٦٠٠
دكا	٥٠٠

وفي لواندا يعد الصرف الصحي أسوأ حتى مما ذكرنـــاه؛ لأن أفقــر الأسر هناك ببساطة، مجبرة على إنفاق ١٥% من دخلها، على المياه التـــي تضخها الشركات الخاصة من نهر بنجو Bengo River، القريــب والملــوث بمياه المجاري[٩١]. "إن المياه نادرة في كينشاسا" التي تقع على ضفاف ثـــاني أكبر أنهار العالم!! "كما لو كانت بلدًا في الصحراء الكبرى". وعلى الــرغم من أن مياه الشرب في المواسير، تعد رخيصة نسبيًا، حسب تقرير الجغرافية "أنجيلين مواكان" Angeline Mwacan، والأنثروبولوجي "ثيــودور تريفــون"

(90) Figures from UN Economic and Social Commission for Asia and the Pacific, 1997.

(91) Hodges, *Angola*, p 30

Theodore Trefon، فإن الصنابير عادة ما تكون جافة؛ لذا يجب على الفقراء قطع كيلوات من الأمتار لسحب المياه من الأنهار الملوثة، والفحم باهظ الثمن نظرًا لتبديده في غلي المياه. والنتيجة أن ٣٠% من الزيارات الطبية، تكــون بسبب أمراض تتعلق بالمياه، مثل الكوليرا، والتيفود، والشجيلا shigella[٩٢]. في الوقت نفسه، كانت بلديات دار السلام واقعة تحت ضغوط البنك الــدولي؛ لتحويل مرافق المياه إلى مؤسسة بايووتر البريطانيــة Biwater– والنتيجــة، حسب هيئات المعونة، ارتفاعٌ حاد في الأسعار على الــرغم مــن الزيــادة الطفيفة في الخدمة. وقد كان على الأسر الفقيرة أن تتحول مــضطرة، إلــى استخدام مصادر المياه غير الآمنة. وفي تقرير لـــ *الجارديان*، فإنه "عند بئر خاص في تاباتا Tabata يباع الجركن سعة ٢٠ لترًا بأكثر من ٨ جنيهــات، وهو مبلغ كبير في مدينة يعيش كثير من الناس فيها على أقل من ٥ جنيهات في اليوم. أما الأسر الفقيرة فقرًا مدقعًا، بما يجعلها غير قادرة على شراء هذه المياه، فتلجأ إلى حفر آبار سطحية". في حين ينال مسئولو الحكومة المحليــة المديح من واشنطن على دعمهم للخصخصة[٩٣].

العبء المزدوج:

إن الفروق الصحية الأكثر حدة، لم تعد بين البلدات الصغيرة والريف، بل بين الطبقات المتوسطة الحضرية، وفقراء الحضر. فمعدل المــوت بــين الأطفال، تحت سن الخامسة (١٥١ طفلاً من كل ١٠٠٠) فــي عــشوائيات نيروبي، تعد ضعفين أو ثلاثة أضعاف في المدينة ككل، وأعلى بنصف القدر

(92) Angeline Mwacan and Theodore Trefon, "The Tap Is on Strike," in Trefon (ed.), *Reinventing Order in the Congo: How People Respond to State Failure in Kinshasa*, Kampala 2004, pp. 33, 39, 42.

(93) Jeevan Vasagar, "Pipes Run in Tanzania," *Guardian* (27 September 2004).

في المناطق الريفية الفقيرة[٩٤]. وبالمثل في كيتو Quito، فإن معدل موت الأطفال الرضّع أعلى ٣٠ مرة في العشوائيات، عنه في الأحياء الأغنى. بينما في كيب تاون، يعد السل أكثر انتشارًا وسط السود الفقراء بنسبة أعلى ٥٠ مرة من معدل انتشاره وسط البيض الموسرين[٩٥]. وفي مومباي، كما لو كانت مدينة للمُسنين، تظل بيتًا للرفات، حيث معدل الموت في العشوائيات يصل إلى ٥٠% أعلى من معدله في المقاطعات الريفية المجاورة. فضلاً عن أن نسبة عالية، قوامها ٤٠% من إجمالي الموتى، ترجع إلى العدوى والأمراض الطفيلية الناشئة عن تلوث المياه والصرف الصحي المتهالك[٩٦]. وفي دكا وشيتاجونج Chittagong، حسب الإحصائيين الطبيين، فإن "حوالي ثلث الناس في المجتمعات العشوائية، من المنتظر وقوعهم صريعي المرض في أى وقت"- وهو المعادل للوباء البلدي، المنتشر في ربوع البلاد في أي سياق حضري آخر[٩٧].

ويؤكد الباحثون في مجال الصحة أن ساكني العشوائيات، يحملون عبئًا مزدوجًا من المرض. وهنا يفيدنا فريق بحثي أن "فقراء الحضر يمثلون الحد الفاصل بين سوء التنمية والتصنيع، وأن أنماط مرضهم تعكس مشكلات الجانبين. فهم من سوء التنمية، يحملون عبئًا ثقيلاً من الأمراض المعدية، وسوء التغذية، ومن التصنيع يعانون مجموعة، أو الطيف القياسي، من

(94) Herr and Karl, "*Estimating Global Slum Dwellers*, p. 14.

(95) Carolyn Stephens, "Healthy Cities or Unhealthy Islands? The Health and Social Implications of Urban Inequality," *Environment and Urbanization* 8·2 (October 1996), pp. 16, 22.

(96) Jacuemin, *Urban Development and New Towns in the Third World*, pp. 90-91.

(97) Abul Barkat, Mati Ur Rahman, and Manik Bose, "Family Planning Choice Behavior in Urban Slums of Bangladesh: An Econometric Approach," *Asia-Pacific Population Journal* 12:1 (March 1997) offprint, p. 1.

الأمراض المزمنة والاجتماعية"[٩٨]. ويضيف محرر لانست *Lancet* "ريتشارد هورتون" Richard Horton أنه "جنبًا إلى جانب التصنيع، جاءت أوبئة لأمراض عادة ما كانت مقتصرة فيما سبق على المناطق الريفية، مثل الديدان الشريطية والأسطوانية والبلهارسيا، وداء المثقبيات trypanosomiasis الذي يصيب كثيرًا من الفقاريات بأمراض عديدة، مثل داء النوم الأفريقي، وحمى الدنج"[٩٩]. والآن، فإن أمراض السكر، والسرطان، والقلب، تحقق أعلى خسائر في صفوف فقراء الحضر[١٠٠]. فضلاً عن ذلك، فإن هذا العبء المزدوج المضاعف، عادة ما يكون على أشده، وفقًا لباحثي الأمم المتحدة، في "المدن الأصغر والأقل رخاءً في البلدان منخفضة الدخل، أو في المناطق منخفضة الدخل داخل البلدان متوسطة الدخل"؛ فالمدن المهيمنة سياسيًا، كما يبدو، تجد من السهولة نسبيًا أن تصدر بعضًا من مشكلاتها البيئية والمتعلقة بالصرف الصحي إلى أسفل، وذلك باستخدام المناطق أو الأقاليم للنفايات والتلوث[١٠١].

إن إعادة هيكلة الاقتصاديات الحضرية للعالم الثالث، وفق السياسات النيوليبرالية التي أخذت مجراها منذ سبعينيات القرن الفائت، كانت لها آثار

---

(98) Edmindo Werna, Ilona Blue, and Trudy Harpham, "The Changing Agenda for Urban Health," in Cohen et al., *Preparing for the Urban Future*, p. 201.

(99) Richard Horton, *Health Wars: On the Global Front Lines of Modern Medicine*, New York 2003, p. 79.

(١٠٠) حيث إن ١١ مليونًا من أصل ١٧ مليونًا، يموتون من الجلطات والأزمات القلبية على مستوى العالم، يكونون من سكان البلدان النامية. انظر:

D. Yach *et al.*, "Global Chronic Diseases," *Science* (21 January 2005), p. 317, as well as exchange of letters (15 July 2005), p. 380.

(101) David Satterthwaite, "Environmental Transformation in Cities as They Get Larger, Wealthier and Better Managed," *The Geographical Journal* 163:2 (July 1997), p. 217.

مدمرة على توفير الرعاية الصحية العامة، خصوصًا للنساء والأطفال. وحسبما تشير شبكة المرأة العالمية لحقوق الإنجاب، فإن برامج التكيف الهيكلي– تلك البروتوكولات التي بواسطتها سلمت البلدانُ المَدينةُ اقتصادَها إلى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي– "عادة ما تتطلب استقطاعات من الإنفاقات العامة، استقطاعات تشمل الصحة (وليس الجيش)"[102]. وفي أمريكا اللاتينية والكاريبي، قللت سياسة التقشف التي فرضتها برامج إعادة الهيكلة، خلال ثمانينيات القرن الماضي من الاستثمار العام في الصحة ومياه الشرب، وهو ما أطاح بمزايا بقاء الرضع على قيد الحياة، والتي كان الفقراء من سكان الحضر يتمتعون بها سابقًا. وفي المكسيك، وبعد تبني جولة ثانية من برامج التكيف الهيكلي عام ١٩٨٦، انخفضت نسبة المواليد التي تتم في حضور هيئة طبية، من ٩٤% عام ١٩٨٣ إلى ٤٥% عام ١٩٨٨، بينما ارتفعت حصيلة الموت المرتبط بحمّى النفاس من ٨٢ امرأة وسط كل ١٠٠,٠٠٠ عام ١٩٨٠ إلى ١٥٠ امرأة عام ١٩٨٨[103].

في غانا، لم يؤدِّ "التكيف" إلى انخفاض نسبته ٨٠% في الإنفاق على الصحة والتعليم بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٣ فحسب، بل تسبب أيضًا في هجرة نصف أطباء البلد. وبالمثل، في الفلبين أوائل ثمانينيات القرن العشرين، هبطت الإنفاقات الصحية للفرد إلى النصف[104]. وفي نيجريا الغنية بالنفط، ولكن الواقعة بأكملها تحت برامج التكيف الهيكلي، يموت الآن خُمس أطفال البلد قبل بلوغ الخامسة من عمرهم[105]. ويلقي الاقتصادي

(102) Women's Global Network for Reproductive Rights, *A Decade After Cairo: Women's Health in a Free Market Economy*, Corner House Briefing 30, Sturminister Newton 2004, p. 8.

(103) Shi, "How Access to Urban Portable Water and Sewerage Connections Affects Child Mortality," pp. 4-5.

(104) Frances Stewart, *Adjustment and Poverty: Options and Choices*. London 1995. pp. 196, 203, 205.

(105) World Bank statistic quoted in *Financial Times*, 10 September 2004.

"ميشيل تشوسودوفسكي" Michel Chossudovsky باللائمة على الاندلاع الشهير للطاعون في سوارت Surat عام ١٩٩٤ جراء "تدهور الصرف الصحي في المناطق الحضرية، وكذلك البنية التحتية للصحة، والتي صاحبت تقليص الموازنات الوطنية والبلدية، في ظل برنامج التكيف الهيكلي برعاية صندوق النقد الدولي/ البنك الدولي عام ١٩٩١"[١٠٦].

الأمثلة عديدة، ويمكن تقديم كثير منها: فالطاعة العمياء في كل أنحاء العالم للدائنين الدوليين، أملت على الحكومات الوطنية استقطاعات حادة في الرعاية الطبية، وتسببت في هجرة الأطباء والممرضات، ونهاية دعم الغذاء، وتحويل الإنتاج الزراعي من الإنتاج المعيشي إلى محاصيل التصدير. وكما يؤكد "فانتو شيرو" Fantu Cheru خبير الأمم المتحدة في الديون، فإن الضريبة القسرية التي يسددها العالم الثالث للعالم الأول أصبحت بالضبط هي الفرق بين الحياة والموت بالنسبة إلى ملايين الفقراء.

> أكثر من ٣٦ مليون نسمة في العالم اليوم مصابون بمرض نقص المناعة المكتسبة/ الأيدز، حوالي ٩٥% منهم يعيشون في الشطر الجنوبي من الكرة الأرضية. وعلى وجه الخصوص، تعد أفريقيا جنوب الصحراء موطناً لأكثر من ٢٥ مليون نسمة يعانون من الأيدز... كل يوم في أفريقيا يموت أكثر من ٥٠٠٠ نسمة من الأيدز. ويقدر الخبراء أن المجتمع العالمي، يحتاج إلى استثمار من ٧ إلى ١٠ بلايين دولار أمريكي كل عام لمكافحة مرض الأيدز، وكذلك الأمراض الأخرى مثل السل، والملاريا. ولكن، في مواجهة هذه الأزمة البشرية، فإن البلدان الأفريقية، تواصل دفع

---

(106) Quoted in *A Decade After Cairo*, p. 12.

١٣,٠٥ بليون دولار في صورة مدفوعات خدمات الـــديون، إلى الدول والمؤسسات الدائنة. وهو مبلـــغ يتجـــاوز بكثيـــر صندوق الأيدز الذي اقترحته الأمم المتحدة. هـــذا التحويـــل الكبير للموارد، من البلدان الأفريقية الفقيـــرة إلـــى البلـــدان الشمالية الغنية؛ يعد واحدًا من العوامل التي سببت تـــدهورًا حادًا في الرعاية الصحية والتعليم، في بلدان أصـــبحت الآن في أسوأ حالات التأثر بالأوبئة(١٠٧).

وفي موجة أحدث، قام البنك الدولي بتدبيج خطاب رطانة نسوية، حول الحقوق الإنجابية للنساء، والمساواة بين الجنـــسين فـــي الرعايـــة الطبيـــة، وبضغوط لا تكل (باسم "الإصلاح") على متلقي المعونة لدفعهم نحو الانفتاح على التنافس العالمي بين مقدّمي الرعاية الصحية في العالم الأول، وشركات الصيدلة. ويوضح تقرير البنك الدولي عام ١٩٩٣ *الاستثمار فـــي الـــصحة Investing in Health* النموذج الجديد للرعاية الصحية القائمة على الـــسوق: "إنفاق عام محدود على جملة الخدمات المحددة تحديدًا ضيقًا؛ رسوم تفـــرض على مستخدمي الخـــدمات العامـــة؛ مـــع خصخـــصة الرعايـــة الـــصحية ومواردها"(١٠٨). والمثال البارز على هذا المنحى الجديد، كانت زيمبـــابوي، حيث أدت إضافة رسوم مستخدمي مرافق الصحة العامة، في أوائل تسعينيات القرن الماضي، إلى مضاعفة نسبة موت المواليد(١٠٩).

---

(107) Fantu Cheru, Debt, Adjustment and the Politics of Effective Response to HIV/AIDS in Africa," *Third World Quarterly*, 23-2 (2002), p. 300.

(108) المرجع السابق، ص. ٩.

(109) Deborah Potts and Chris Mutambirwa, "Basics Are Now a Luxury: Perceptions of Structural Adjustment's Impact on Rural and Urban Areas in Zimbabwe, *Environment and Urbanization* 10:1 (April 1998), p. 75.

غير أن أزمة الصحة الحضرية في العالم الثالث، نادرًا ما تكون نتيجة خطأ الدائنين الأجانب وحدهم. فمع انتقال النخب الحضرية إلـــى التجمعــات السكنية المغلقة والمسيجة، في الضواحي المترفة، فإنهم يصبحون أقل قلقًا من تهديد الأمراض في العشوائيات، وأكثر قلقًا حيال أمن الأسرة ومـــد الطـــرق السريعة. وفي الهند، على سبيل المثال، تـــرى "ســـوزان تـــشابلن" Susan Chaplin إصلاح الصرف الصحي، وقد انهار على يد المسئولين الفاســدين، والطبقة المتوسطة غير المكترثة:

> لا تزال الظروف البيئية في المدن الهندية تواصل تدهورها؛ بسبب نشاط الطبقة المتوسطة المشارك في استبعاد قطاعات كبيرة من السكان، من الوصول إلى الخـــدمات الحـــضرية الأساسية. ونتيجة هذا الاحتكار لموارد الدولة ومنافعها، أنه في الوقت الذي يزداد فيه الوعي بالمشكلات البيئيـــة وســـط الطبقة المتوسطة، فإنهم اليوم أصبحوا أكثر همًّـــا بمظـــاهر الإزعاج التي يعانون منها على الطرق المزدحمة، وما ينتج عن ذلك من تلوث الهواء، أكثر من همهم بمخاطر الأمراض الوبائية والمتوطنة(١١٠).

ولكن، أمام أوبئة من نوع الأيدز، تلك التـــي "تهـــز الأرض وتقلـــب السماء"(١١١)؛ فإن الفصل الحضري بين الفقراء والقـــادرين، لا يـــوفر فـــي الحقيقة سوى وهم الحماية البيولوجية. والواقع، أن العشوائيات الكبرى اليوم تعد وبشكل غير مسبوق حضّانات لأمراض جديدة، وأخرى عاودت الظهور بعد اختفاء، بل ويمكنها الآن السفر عبر العالم بـــسرعة الطـــائرة. ومثلمـــا

---

(110) Chaplin, "Cities, Sewers and Poverty," p. 156.

(111) Meja Mwangi. *The Last Plague*. Nairobi 2000, p. 4.

طرحت في كتاب حديث لي مدى الخطر المحدق لأنفلونزا الطيور (الــوحش على أبوابنا The Monster at Our Door، ٢٠٠٥)، فإن العولمة الاقتــصادية بدون أن يصاحبها استثمار في البنية التحتية للرعاية الصحية، هي "وصــفة" مضمونة ومؤكدة للكارثة[١١٢].

(112) Mike Davis, *The Monster at Our Door: The Global Threat of Avian Flu*, New York 2005.

الفصل السابع

تكييف العالم الثالث هيكليا (ضعضعته)(*)

"بعد ضحكتهم الغريبة، سرعان ما غيروا الموضـــوع؛
ليتحدثوا عن أمور أخرى.. كيف عاد الناس إلى وطنهم
أحياء، بعد برامج التكيف الهيكلي؟".

فيدليس بالجون(١) **Fidelis Balogun**

ولكن على الرغم من أن حياة العشوائيات مميتة وغير آمنة، إلا أن لها مستقبلاً باهرًا.. فالريف لن يظل محتويًا لأغلبية فقراء العـــالم ســوى لمــدة قصيرة، بل إن هذا التمييز الذي كان سائدًا بين مستوى الريـــف والحــضر، سينتقل إلى عشوائيات الحضر قبل حلول عام ٢٠٣٥. على الأقــل ســيكون نصف الانفجار السكاني الحضري القادم في العالم الثالث، لحساب المجتمعات العشوائية(٢). بليونان من سكان العشوائيات بحلــول عــام ٢٠٣٠ أو ٢٠٤٠ يمثلون وحشًا مخيفًا؛ مستقبلاً غير قابل للاستيعاب. ولكن الفقــر الحــضري يتقاطع بين سكان العشوائيات، بل ويتجاوزها هي نفـسها. ويحــذّر بــاحثو مشروع "المرصد الحضري للأمم المتحدة" UN Urban Observatory من أنه

(*) العنوان الأصلي هو: SAPing the Third World، حيث استخدم المؤلف صيغة التفعيل من الاختصار SAP أي Structural Adjustment Programs برامج التكيف الهيكلي، وكلمة saping بالمناسبة والصدفة تعني أيضًا ضعضعة أو تقويض الأساس أو الإيهان. (المترجم).

(1) Fidelis Odun Balgun, *Adjusted Lives: Stories of Structural Adjustments*, Trenton (NJ) 1995, p. 75.

(2) Martin Ravallion, *On the Urbanization of Poverty*, World Bank paper, 2001.

بحلول عام ٢٠٢٠، "فإن الفقر الحضري في العالم الثالث، يمكن أن يبلغ من ٤٠ إلى ٥٠% من إجمالي سكان المدن"(٣).

وكما رأينا، فإن تطور الفقر الحضري، كان عبارة عن عملية تاريخية غير خطية.. فقد أكدت عواصف الفقر والانفجار المفاجئ في بناء العشوائيات طبيعة النمو البطيء لمدن الصفيح والعشوائيات حتى تخوم المدينة. وفي مجموعته القصصية التي أخذت عنوان *حياة مكيفة* *Adjusted Lives*، يصف الكاتب النيجيري "فيدليس بالوجن" Fidelis Balogun برنامج التكيف الهيكلي المتعهد به صندوق النقد الدولي، في أواسط ثمانينيات القرن المنصرم، بوصفه المعادل لكارثة طبيعية هائلة، تدمر – وللأبد – روح لاجوس و"تعيد استعباد" النيجيريين الحضر.

> المنطق الغريب لهذا البرنامج الاقتصادي، بدا وكأنه يستهدف استعادة الحياة للاقتصاد المحتضر، فكل عصارة، كان يجب أن تنتزع أولاً بأول وفق برامج التكيف الهيكلي؛ تتسرب من بين يدي أغلبية المواطنين المحرومين أصلاً من المزايا. وسرعان ما اختفت الطبقة المتوسطة، وأصبحت أكوام الزبالة، الخاصة بالقلة المتزايدة ثراءً، هي مائدة الطعام للسكان المتضاعفين عددًا من الفقراء فقرًا مدقعًا. وكان نزيف العقل إلى البلدان العربية الغنية بالنفط والعالم الغربي، قد أصبح فيضانًا أيضًا(٤).

---

(3) Eduardo Lopez Moreno, *Slums of the World: The Face of Urban Poverty in the New Millenium?* Nairobi 2003, p. 12.

(4) Balogun, *Adjusted Lives*, p. 80.

إن الشكاوى التي يعبر عنها "بالوجن" فيما يتعلق بـ"الخصخصة الكاملة، والتسبب في مزيد من الجوع يومًا بعد يوم"، وكذلك تعديده لتوابع برامج التكيف الهيكلي الخبيثة، هي دائمًا شكاوى مألوفة، لا بالنسبة لمن بقوا أحياء بعد ثلاثين برنامجًا آخرين من برامج التكيف الهيكلي الأفريقية، بل أيضًا بالنسبة لمئات الملايين من الآسيويين، ومواطني أمريكا اللاتينية. ففي سنوات الثمانينيات- عندما استخدم صندوق النقد الدول والبنك الدولي رافعة الديون، لإعادة هيكلة الاقتصاديات في معظم أرجاء العالم الثالث- تمثل السنوات التي أصبحت فيها العشوائيات مستقبلاً معتمًا وقاسيًا، لا بالنسبة للفقراء والمهاجرين الريفيين فحسب، بل أيضًا لملايين من سكان الأحياء الحضرية التقليدية؛ ممن تمت إزاحتهم أو إفقارهم بالعنف الناتج عن "التكيف".

الانفجار العظيم للفقر الحضري:

في العام ١٩٧٤-٧٥، حوّل صندوق النقد الدولي، وتبعه في ذلك البنك الدولي، بؤرة تركيزه من البلدان الصناعية المتقدمة نحو جولة في العالم الثالث، تحت تأثير أسعار النفط المشتعلة. وبزيادة عملية الإقراض خطوة بخطوة، أطبق صندوق النقد الدولي ترِوسه على مجال "الشروط المسبقة" القسرية، وكذلك "التكيفات الهيكلية" التي فرضتها تلك الشروط على الأمم العميلة. وكما تؤكد الاقتصادية "فرانسيس ستيوارت" Frances Stewart في دراستها المهمة؛ أن "التطورات الحيوية التي أوجبت التكيف، لم تكن مدارة من قِبل هذه المؤسسات؛ فالعوامل الموجِبة الرئيسية، تمثّلت في هبوط أسعار السلع وخدمات الديون الباهظة"، ولكن البرنامج العام وكل السياسات المحلية، كانت لعبة عادلة؛ من أجل تخفيض النفقات[٥]. وفي أغسطس/ آب ١٩٨٢،

---

(5) Stewart, *Adjustment and Poverty*, p. 213.

عندما هددت المكسيك بإعلان فشلها في مدفوعات الديون، كان صندوق النقد والبنك الدوليان، وفي تزامن مع أكبر البنوك التجارية، قد أصبحوا آليات علنية للثورة الرأسمالية الدولية التي روجت لها وزكّتها أنظمة ريجان، وتاتشر، وهلموت كول. وكانت خطة بيكر Baker Plan ١٩٨٥ (نسبة إلى وزير المالية "جيمس بيكر"، ولكنها مصاغة من قبل نائبه "ريتشارد دارمان" Richard Darman) كانت تتطلب وبوضوح أن يتخلى أكبر خمسة عشر دائنًا من دائني العالم الثالث، عن خطط التنمية المسئولة عنها الدولة، مقابل تسهيلات بقروض جديدة، واستمرار العضوية في الاقتصاد العالمي. وقد دفعت تلك الخطة أيضًا البنك الدولي قدمًا إلى الأمام، بوصفه المدير على المدى الطويل لدرجات برامج التكييف الهيكلي، التي كانت تشكل العالم الجريء الجديد، لما يسمى "إجماع واشنطن Washington Consensus".

وبالطبع في عالم كهذا دائمًا ما تكون الأولوية والأسبقية فيه لحقوق البنوك الدولية والدائنين الأجانب، على حاجات فقراء الحضر والريف في البقاء على قيد الحياة. عالم من "الطبيعي" فيه أن ينفق بلد فقير، مثل أوغندا، على تسديد الديون عن كل فرد سنويًا ١٢ مرة ضعف ما ينفقه على الرعاية الصحية في عز أزمة الأيدز(٦). وكما يؤكد تقرير *التحديات التي تطرحها العشوائيات Challenges of Slums*، فإن برامج التكييف الهيكلي، كانت "وعن قصد مناهضة للحضر في طبيعتها"، ومصمّمة خصيصًا لقلب أي "انحياز للحضر"، كان موجودًا قبل ذلك، في سياسات الرفاهية، أو الهيكل المالي، أو الاستثمار الحكومي. وفي كل مكان من العالم، قام صندوق النقد والبنك الدوليان- العاملان كوكيل للأراضي، أو المأمور القضائي للبنوك الكبرى، مدعومين بإدارتي ريجان وجورج بوش- قاما بعرض الكأس المسمومة

(6) Mallaby. *The World's Banker*, p. 110.

نفسها على البلدان الفقيرة، كأس الإبخاس، والخصخصة، وإزالة القيود على الاستيراد، ورفع الدعم عن الغذاء، وتغطية الكلفة الإجبارية في الصحة والتعليم، وإسقاط القطاع العام بلا رحمة. (في رسالة شهيرة من وزير الخزانة "جورج شولتس" George Schultz موجهة إلى مسئولي هيئة المعونة الأمريكية، أمرهم قائلاً: "في معظم الحالات، ينبغي لشركات القطاع العام أن يتم خصخصتها")(٧). وفي الوقت نفسه، دمرت برامج التكيف الهيكلي صغار الفلاحين في الريف بإلغاء الدعم، ودفعتهم إلى الغرق أو العوم في أسواق السلع العالمية التي هيمنت عليها شركات التجارة الزراعية المدعومة بشدة في العالم الأول.

وأصبح الدَّين- مثلما يذكّرنا "وليام تاب" William Tabb في تأريخه الحديث لحكم الاقتصاد العالمي- هو النقطة التي تتحول عندها سلطة الأمم في العالم الثالث، إلى مؤسسات بريتون وودز Bretton Woods التي تسيطر عليها الولايات المتحدة، وغيرها من البلدان الرأسمالية الأساسية. ووفقًا لوليام تاب، فإن فريق العاملين المحترفين في البنك الدولي، يمثلون المعادل ما بعد الحداثي للخدمة المدنية الاستعمارية، و"مثل الإداريين الاستعماريين، فهم لا يبدو أبدًا أنهم سيُبعَدون؛ إلا ليحل محلهم فريق استشاري جديد، لديه النظرة والسلطات نفسها على الاقتصاد والمجتمع المحليين"(٨).

وعلى الرغم من أن جامعي الديون، ينادون بإدراجهم في أعمال التنمية الاقتصادية، إلا أنهم نادرًا ما يسمحون للأمم الفقيرة باللعب وفق القواعد نفسها، التي استخدمتها الدول الغنية لتعزيز النمو في أواخر القرن التاسع

(7) Quoted in Tony Killick, "Twenty-five Years in Development: The Rise and Impending Decline of Market Solutions," *Development Policy Review* 4 (1986), p. 101.

(8) William Tabb, *Economic Governance in the Age of Globalization*, New York 2004, p. 193.

عشر، أوائل القرن العشرين. فسياسة التكيف الهيكلي، حسبما يشير الاقتصادي ها-جون تشانج Ha-Joon Chang في مقال حيوي، قامت- وبطريقة يملؤها النفاق- "برفس سُلَّم" التعريفات الحِمائية، وبرامج الدعم التي استخدمتها دول OECD تاريخيًا، في صعودها من الاقتصاديات القائمة على الزراعة إلى تلك القائمة على السلع والخدمات الحضرية ذات القيمة الشرائية العالية(٩). وفي نظرته إلى النتائج الكئيبة لبرامج التكيف الهيكلي في زيمبابوي، والسياسات النيوليبرالية التي تفرض نفسها في جنوب أفريقيا؛ يتساءل "ستيفان أندرسون" Stefan Andreasson عمّ إذا كان العالم الثالث يمكنه الأمل في أي شيء، أكثر من مجرد "الديمقراطية الافتراضية"، ما دامت كانت سياساته الاقتصادية الكبرى مفروضة من واشنطن: "تأتي الديمقراطية الافتراضية على حساب الديمقراطية الشاملة التشاركية، وعلى حساب أية إمكانية لإلحاق شرط توفير الرفاهة العامة، التي قضت مشاريع الديمقراطية الاشتراكية في أماكن أخرى بوضعه"(١٠).

ويشير تقرير ***التحديات التي تطرحها العشوائيات***، إلى النقطة نفسها، عندما يبرهن على أن "السبب الوحيد الرئيسي في زيادة معدلات الفقر، وانعدام المساواة خلال الثمانينيات والتسعينيات، كان تهديد الدولة". وبالإضافة إلى التخفيضات المباشرة التي تفرضها برامج التكيف الهيكلي في إنفاقات القطاع العام والملكية، فإن مؤلفي التقرير المذكور، يشددون على الانخفاض الحاد في مقدرة الدولة الناتج عن "الإعانات" التي تعرف بوصفها نقلاً لسلطة

(9) Ha-Joon Chang, "Kicking Away the Ladder: Infant Industry Promotion in Historical Perspective," *Oxford Development* Studies 31:1 (2003), p. 21.

(10) Stefan Andreasson, "Economic Reforms and 'Virtual Democracy' in South Africa," *Journal of Contemporary African Studies* 21:3 (September 2003), p. 385.

الدولة إلى مستويات أدنى من الحكومة، خاصة المنظمات غير الحكومية، التي ترتبط مباشرة بهيئات المعونة الدولية.

> حسناً، إنها متاحة جدًا أمام عمليات هيمنة عالمية. المنظور الدولي المسيطر [أي منظور واشنطن] يصبح النموذج الحقيقي الفعلي للتنمية؛ لذا فإن العالم بأكمله سرعان ما يصبح موحدًا في التوجه الواسع، لما هو مدعوم من جانب المانحين والمنظمات الدولية[11].

ولقد كانت الضربة الأكثر قسوة موجهة إلى أفريقيا الحضر وأمريكا اللاتينية، بذلك الانهيار المصطنع الذي قام بهندسته صندوق النقد الدولي والبيت الأبيض.. والذي خلاله شهد الواقع في كثير من البلدان، أن الأثر الاقتصادي لبرامج التكيف الهيكلي خلال الثمانينيات، كان في سباق مع جفاف ومجاعة مطولة، وارتفاعٍ في أسعار النفط، واشتعالٍ في معدلات الفائدة، وتخفيضٍ في أسعار السلع، كان أشد وأطول مدى من الانهيار الكبير Great Depression. وكانت مدن العالم الثالث على وجه الخصوص، واقعة في فخ دائرة مفرغة من الهجرة المتزايدة، وانخفاض العمالة الرسمية، وتخفيض الأجور، وانهيار الأرباح. وكما استعرضنا، فقد روّج صندوق النقد والبنك الدوليان لفرض الضرائب التنازلية regressive taxation، من خلال الرسوم المفروضة على مستخدمي الخدمات العامة من الفقراء، ولكنهما لم يفعلا ما عليهما من جهد مقابل تقليل الإنفاقات العسكرية، أو لفرض ضرائب على دخل أو عقارات الأغنياء. ونتيجة لذلك، فإن البنية التحتية والصحة العامة، في كل مكان من العالم، خسرتا السباق مع الزيادة السكانية. ففي كينشاسا،

(11) *Challenge*. p. 48.

على حد وصف "ثيودور تريفون" Theodore Trefon: "فإن السكان يـشيرون الآن إلى الخدمات العامة الأساسية بوصفها 'ذكريات'"(١٢).

وبمراجعة "كارول راكودي" Carole Rakodi، فإن كـشف الرصـيد الخاص بالتكيف الهيكلي في أفريقيا، يشمل "هروب رأس المال، وانهيار البنية التحتية، وزيادة هامشية أو منعدمة في دخل التصدير، مع استقطاعات شديدة في الخدمات العامة الحضرية، وارتفاع شديد في الأسعار، وانحدار حاد فـي الأجور الفعلية"(١٣). وعبر قارة أفريقيا بأكملها، تعلم الناس أن يقولوا: "عندي أزمة"، بنفس بساطة الطريقة التي يقول بها المرء: "عندي برد"(١٤). ففي دار السلام، على سبيل المثال، قد انخفضت الإنفاقات علـى الخـدمات العامـة الموجهة لكل فرد بنسبة ١٠% سنويًا، خلال الثمانينيات. وهو ما يمثل انهيارًا فعليًا في الوضع المحلي(١٥). وفي الخرطوم، أنتجت عملية تحرير الاقتصاد، وبرامج التكيف الهيكلي، وفقًا لباحثين محليين هنـاك، ١,١ مليـون "فقيـرا جديدا"، أغلبهم من الصفوف التي تم التخلص منها في القطاع العام(١٦). وفي أبيدجان، وهي إحدى المدن الاستوائية القليلة التي تتمتع بقطاع إنتاج مهـم، وخدمات حضرية حديثة، أدى الإذعان الحكومي لنظام التكيف الهيكلي، على الفور إلى تفكيك الصناعة، وانهيار صناعة البناء، وفقر حضري في سـاحل

---

(12) Theodore Trefon, "Introduction· Reinventing Order," in Trefon, *Reinventing Order in the Congo*, p.1.

(13) Rakodi, "Global Forces, Urban Change, and Urban Management in Africa," in Rakodi, *Urban Challenge*, pp. 50, 60-61.

(14) Achille Mbembe and Janet Roitman, "Figures of the Subject in Times of Crisis," in Enwezor et a:., *Under Siege*, p. 112.

(15) Michael Mattingly, "The Role of the Government of Urban Areas in the Creation of Urban Poverty," in Sue Jones and Nici Nelson (eds), *Urban Poverty in Africa: From Understanding to Alleviation*, London 1999, p. 21.

(16) Adil Mustafa Ah,ed and Atta El-Hassan El-Batthani, "Poverty in Khartoum," *Environment and Urbanization* 7:2 (Octobei 1995), p. 205.

العاج- التي من المفترض أنها تمثل اقتصاد "النمور" في غرب أفريقيا- وهو الوضع الذي تفاقم بحلول عام ١٩٨٧-١٩٨٨[١٧]. وفي نيجيريا عهد "بالوجن" Balogun، نجد فقرًا شديدًا، آخذًا في الازدياد في أوساط الحضر في مدينتي لاجوس، وإبدان Ibadan، وغيرهما من المدن، حيث انتشر الفقر كالسرطان؛ مرتفعًا من نسبة ٢٨% عام ١٩٨٨ إلى ٦٦% عام ١٩٩٦.

وفي تقرير للبنك الدولي، فإن "إجمال الدخل القومي للفرد يعد في الوقت الحالي حوالي ٢٦٠ دولارًا، أي أقل من المستوى وقت الاستقلال منذ ٤٠ سنة خلت، وأقل من ٣٧٠ دولارًا مع المستوى الذي تحقق عام ١٩٨٥"[١٨]. وفي مجمل الوضع، وكما تشير الجغرافية "ديبورا بوتس" Deborah Potts، فقد هبطت الأجور هبوطًا حادًا في المدن الأفريقية، إلى درجة أن الباحثين لا يستطيعون تمييز كيف يمكن للفقراء أن يبقوا على قيد الحياة: وهذا ما يسمى "لغز الأجور"[١٩].

في أمريكا اللاتينية، بداية بالانقلاب النيوليبرالي على يد الجنرال بينوشيه Pinochet عام ١٩٧٣، كان التكيف الهيكلي مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالديكتاتورية العسكرية، وقمع الحياة العامة. وأحد النتائج الصاعقة لهذه الثورة المضادة في شطر الكرة الأرضية، كان الحضرنة السريعة للفقر. ففي عام ١٩٧٠، كانت نظريات الثورة الجيفارية *Guevarist foco الخاصة* بالتمردات الريفية، ما زالت متوافقة مع طبيعة الواقع على مستوى القارة، حيث معدل الفقر في الريف (٧٥ مليون فقير)، أصبح شيئًا ثانويًا، مقارنة بمعدلات فقر المدن (٤٤ مليون فقير). ولكن، بنهاية عقد الثمانينيات، كانت

(17) Sethuraman, "Urban Poverty and the Informal Sector", p. 3.

(18) World Bank, *Nigeria: Country Brief.*

(19) Potts, "Urban Lives," p. 459.

الأغلبية الواسعة من الفقراء (١١٥ مليونًا) يعيشون في المستوطنات، والعشوائيات الحضرية، وهم أكثر عددًا ممن يعيشون في المزارع والقرى الريفية (٨٠ مليونًا)[٢٠].

ووفقًا لبحث قدمته منظمة العمل الدولية ILO، فإن الفقر الحضري في أمريكا اللاتينية، قد ارتفع بنسبة غير عادية، قوامها ٥٠%. وذلك في النصف الأول من العقد، من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٨٦ فقط[٢١]. وقد هبط متوسط أجور العاملين بنسبة ٤٠% في فنزويلا، و٣٠% في الأرجنتين، و٢١% في البرازيل وكوستاريكا[٢٢]. وفي المكسيك، تضاعفت أعداد العمالة غير الرسمية، في الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٧، بينما هبط حجم الإنفاقات الاجتماعية إلى نصف المستوى الذي كان عليه عام ١٩٨٠[٢٣]. وفي بيرو، انتهى عقد الثمانينيات بـ"انهيار هائل"، بسبب برامج التكيف الهيكلي، إلى درجة تخفيض العمالة الرسمية من ٦٠ % إلى ١١% من حجم القوة العاملة الحضرية في ثلاث سنوات، وفتح باب عشوائيات ليما أمام الثورة السرية لـ"سندرو لومينوسو" Sendero Luminoso[٢٤].

في تلك الأثناء (الثمانينيات)، كانت قطاعات واسعة من الطبقة المتوسطة المتعلمة، التي اعتادت العيش في أماكن العمل، وعلى الإجازات الأوروبية، وجدت نفسها فجأة منضمة إلى صفوف الفقراء الجدد. في بعض

(20) UN, *World Urbanization Prospects*, p. 12.

(21) Potts, "Urban Lives," p. 459.

(22) Alberto Minujin, "Squeezed: The Middle Class in Latin America," *Environment and Urbanization* 7:2 (October 1995), p. 155.

(23) Agustin Escobar and Mercedes Gonzalez de la Rocha, "Crisis, Restructuring and Urban Poverty in Mexico," *Environment and Urbanization* 7:1 (April 1995), pp. 63-64.

(24) Henry Dietz, *Urban Poverty, Political Participation, and the State: Lima, 1970-1990*. Pittsburgh 1998, pp. 58, 56.

هذه الحالات، كان التحرك لأسفل في الغالب مفاجئاً، كما هو الحال في أفريقيا: فنسبة السكان الحضر الذين يعيشون في الفقر، ازدادت ٥% خلال عام واحد (١٩٨٠- ١٩٨١)، وذلك في شيلي والبرازيل على سبيل المثال(٢٥). ولكن التكيفات الهيكلية، والتعديلات نفسها التي حطمت الفقراء والطبقة المتوسطة، المعتمدة على القطاع العام؛ وفّرت فرصًا ربحية للمخصخصين، والمورّدين الأجانب، و*تجار المخدرات*، والرتب العسكرية الرفيعة، والبطانة السياسية. وقد بلغت بنية الاستهلاك السافر مستويات خيالية في أمريكا اللاتينية وأفريقيا خلال الثمانينيات، حيث واصل *الأغنياء الجدد* سفههم في الإنفاق في ميامي وباريس، بينما مواطنوهم في مدن الصفيح، يتضورون جوعًا.

وقد سجلت مؤشرات انعدام التكافؤ والمساواة ارتفاعات قياسية أيضًا في الثمانينيات. ففي بيونس أيرس نجد أن نصيب الفئات الأغنى من الدخل القومي، ارتفع من ١٠ أضعاف نصيب الفئات الأفقر في عام ١٩٨٤، إلى ٢٣ ضعفاً زائدًا عنهم في عام ١٩٨٩. وفي ريو دي جانيرو، صعد التفاوت وانعدام المساواة بين فئات المجتمع- مُقاسًا بمعاملات جيني(*) GINI coefficients الكلاسيكية- من ٠,٥٨ في عام ١٩٨١ إلى ٠,٦٧ في عام ١٩٨٩(٢٦). والواقع، أنه على مستوى أمريكا اللاتينية، فقد عمّق عقد

---

(25) A. Oberai, *Population Growth, Employment and Poverty in Third World Mega-Cities*, p. 85.

(*) معامل جيني: من المقاييس المهمة والأكثر شيوعا في قياس عدالة توزيع الدخل، تعتمد فكرته على منحنى لورنز، ويمتاز معامل جيني بأنه يعطي قياسا رقميا لعدالة التوزيع، يكون معامل جيني مساويا للواحد عندما ينطبق منحنى لورنز على الخط الأفقي والخط العمودي، وتكون المساحة بين خط التساوي ومنحنى لورنز تساوي ٠,٥ وتكون عندها قيمة معامل جيني مساوية للواحد الصحيح، وفي هذه الحالة يكون توزيع الدخل في أسوأ أحواله، أي أنه كلما كانت قيمة معامل جيني صغيرة، كانت عدالة توزيع الدخل أفضل. (المترجم).

(26) Luis Ainstein, "Buenos Aires: A Case of Deepening Social Polarization," in Gilbert, *The Mega-City in Latin America*, p. 139.

الثمانينيات الهوة والفجوات الاجتماعية، ورفع ذرا التصنيف الاجتماعي العالمي الأكثر حدة. ووفقًا لتقرير البنك الدولي الصادر عام ٢٠٠٣، فإن معاملات GINI تسجل في أمريكا اللاتينية ١٠ نقاط أعلى عن آسيا؛ و١٧,٥ نقطة أعلى عن دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD؛ و٢٠,٤ نقطة أعلى عن أوروبا الشرقية. حتى البلد الأكثر مساواة في أمريكا اللاتينية، وهي أورجواي، أصبح لديها توزيع للدخل أكثر تفاوتًا من أية دولة أوروبية(٢٧).

التكيف من أسفل:

في الثمانينيات، وفي كل مكان بالعالم الثالث، أجبرت الصدمات الاقتصادية الأفرادَ على إعادة الالتفاف حول موارد مجمّعة من الأُسر، وخصوصًا فيما يتعلق بالمهارات التي ما زالت باقية، والذكاء الأصيل عند النساء. فمع اختفاء فرص العمل من وجه العمالة الرسمية من الذكور، كانت الأمهات والأخوات، والزوجات مجبرات بطبيعة الحال على تحمل أكبر من نصف عبء التكيف الهيكلي الحضري.

وهنا يكتب أحد الأساتذة في الهند، أنه "في الوقت الذي كان العبء المُلقى على بقية أفراد الأسرة كبيرًا جدًا، فإن العبء المُلقى على النساء ظل أكبر منه بكثير"(٢٨). وكما تؤكد الجغرافية "سيلفيا تشانت Sylvia Chant"، فإن نساء الحضر الفقيرات في ظل برامج التكيف الهيكلي، كن مضطرات إلى العمل بمزيد من الشقاء؛ سواء داخل المنزل أو خارجه، لتعويض

---

(27) World Bank, *Inequality in Latin America and the Caribbean: Breaking with History?* New York 2003, np.

(28) U. Kalpagam, "Coping with Urban Poverty in India," *Bulletin of Concerned Asian Scholars* 17 1 (1985), p 18.

الاستقطاعات الحكومية الحاصلة في الإنفاق على الخدمات الاجتماعية، وعلى دخل الرجال. خصوصًا أن تلك الاستقطاعات قد تزامنت كالعادة مع زيادة الرسوم الجديدة المفروضة على متلقي الخدمات، وهي الرسوم التي قلصت إمكانية حصول المرأة على التعليم، والرعاية الصحية(٢٩). وقد كن هن متوقعات أن يتكيفن بطريقة أو بأخرى، مع مثل هذه الأوضاع. والحقيقة أن بعض الباحثين يحاجون بأن برامج التكيف الهيكلي، تستغل على نحو شرير، الاعتقاد السائد بأن قوة العمل النسائية أكثر مرونة بلا شك، في وجه الحاجات الأسرية الضرورية للبقاء(٣٠). وهذا هو المتغير السري، المذنب في أغلب معادلات التكيف الاقتصادي: نساء فقيرات وأطفالهن، من المتوقع أن يرفعن على عاتقهن حمل ديون العالم الثالث، هن وأطفالهن.

ففي الصين ومدن جنوب شرق آسيا الصناعية، ربطت النساء الشابات أنفسهن بعبودية خطوط التجميع الصناعي، وقذارة المصانع. ووفقًا لأحد الأبحاث الحديثة، فإن النساء يشكلن ما يصل إلى ٩٠% من جملة نحو ٢٧ مليون عامل وعاملة في مناطق التجارة الحرة"(٣١). ففي أفريقيا، وفي معظم بلدان أمريكا اللاتينية (باستثناء مدن شمال المكسيك)، هذا الخيار ليس متاحًا للنساء، وبدلاً منه، فإن حركة التصنيع وحرق الوظائف الخاصة بالذكور، في القطاع الرسمي، والتي غالبًا ما يترتب عليها هجرة الرجال، كلها عوامل تجبر النساء على ارتجال، واختراع، مصادر رزق جديدة؛ سواء كعاملات بالقطعة، وبائعات مشروبات أو خمور، وبائعات جائلات، وبائعات أوراق

---

(29) Sylvia Chant, "Urban Livelihoods, Employment and Gender," in Robert Gwynne and Cristobal Kay (eds), *Latin America Transformed: Globalization and Modernity*, London 2004, p. 214.

(30) Caroline Moser with Linda Peake, "Seeing the Invisible: Women Gender and Urban Development," in Richard Stren (ed.), *Urban Research in Developing Countries- Volume 4: Thematic Issues*, Toronto 1996, p. 309

(31) Women's Global Network for Reproductive Rights, *A Decade After Cairo*, p. 12. ·

ياناصيب، وحلاّقات، وعاملات خياطـة، وعـاملات نظافـة، وغـسّالات، وجامعات قمامة، وجليسات أطفال، وعاهرات.. ففي المنطقة التي تقلّ فيهـا دائمًا مشاركة قوة العمل النسائية الحضرية، عن مثيلاتها في قارات أخـرى، نجد اندفاع نساء أمريكا اللاتينية، نحو الأنشطة غير الرسمية مـن الدرجـة الثالثة، كان على أشده، وبدرجة دراماتيكية، خلال ثمانينيات القرن الماضي.

وفي دراستها المفصلة حول "التكيف مـن أسـفل adjustment from below"، تصف عالمة الأنثروبولوجيا الاجتماعية "كارولين موزر" Caroline Moser أثرَ برامج التكيف الهيكلي الثمانية المتلاحقة، ما بين عـامي ١٩٨٢ و١٩٨٨، على منطقة عشوائية سابقة، متحركة لأعلى، مُقامة علـى الحافـة المستنقعية لمنطقة "جواياكيل" Guayaquil؛ فترى أنه على الـرغم مـن أن معدلات البطالة المفتوحة تضاعفت في الإكوادور، فإن الأثر الرئيسي لأزمة الثمانينيات، بدا واضحًا فيما نتج عنه مـن انفجـار فـي البطالـة المقنّعـة underemployment، والتي قُدّرت آنذاك بنصف القوة العاملة، في كل مـن جواياكيل وكيوتو. في عشوائية "إنديو جواياز" Indio Guayas، على سـبيل المثال، فالأزواج الذين كانوا– قبل برامج التكيف– يتمتعون بعمـل لـبعض الوقت، أو كامل الوقت، وجدوا أنفسهم معطلين، لأكثر مـن نـصف عـام. وبالتالي اضطرت الأسر للدفع بمزيد من أفرادها إلى سوق العمـل، سـواء كانوا نساء أو أطفالاً. وقد ازدادت معدلات خروج النساء إلى العمل من ٤٠ إلى ٥٢%، بعد تدشين برامج التكيف الهيكلي. ولكن مع انحدار الطلب على العمالة في المصانع، أُجبرت النساء على التنافس مع بعضهن البعض علـى اقتناص فرص العمل كشغالات في البيوت، أو بائعات جائلات. وعلى الرغم من هذه التعبئة الكلية لجميع موارد الأسرة البشرية، فإن ظـروف العـيش، خصوصًا فيما يتعلق منها بتغذية الأطفال، نجدها قد انحدرت انحدارًا شديدًا. وقد كشف "موزر" عن أن ما يصل إلى ٨٠% من أطفال المناطق العشوائية–

في إنديو جواياز – كانوا يعانون من بعض أعراض سوء التغذية. ذلك لأن الرعاية الصحية، بعد خصخصتها بصورة واسعة، صارت أكثر كلفة، ومن ثم لم تعد في متناول يدِ أسر منطقة إنديو جواياز، التي كانت فيما سبق منطقة متفائلة(٣٢).

كانت خبرة منطقة "جواياكيل"، قد انعكست صورتها في "جوادالاخارا Guadalajara، عاصمة ولاية خاليسكو Jalisco المكسيكية أثناء العواقب النيوليبرالية لأزمة الديون عام ١٩٨٢. فالمدينة التي اعتادت تقليديًا أن تكون عاصمة المكسيك بمصانعها الصغيرة المنتشرة، والورش الحِرفية المملوكة للأسر، وضعها الهبوط الشديد في الأجور وانهيار الإنفاق الاجتماعي، في بداية عام ١٩٨٢، خصوصًا بعد اتفاق الجات عام ١٩٨٦، أمام تنافس أجنبي لا يرحم، ولا قبلَ لها به. لذلك فإن البؤرة الصناعية الصغيرة المتخصصة، في جوادالاخارا، من الورش الصغيرة التي تنتج السلع الاستهلاكية لعامة الناس لم تستطع الصمود والبقاء أمام سيل واردات شرق آسيا. وكانت النتيجة– حسب البحث الذي أجراه كل من "أوغسطين إسكوبار" Augustin Escobar، و"مرسيدس جونزاليز" Mercedes Gonzalea– زيادة كبيرة في أعداد العمالة غير الرسمية (على الأقل ٨٠% بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٧)، بالتزامن مع الهجرة إلى كاليفورنيا وتكساس. والأهم من ذلك، ما قامت به الحكومة من إعادة هيكلة للوظائف الرسمية، "حيث أصبحت العمالة غير الثابتة أو المؤقتة، هي المعيار. فلم تعد الوظائف آمنة، وأصبح العمل لبعض الوقت، أو غير المتفرَغ له، أكثر شيوعًا. وتحول الانتداب إلى مؤسسات صغيرة إلى سلوك عام. وبالطبع يتم تكليف العمال والمستخدمين بواجبات

---

(32) Caroline Moser, "Adjustment from Below: Low-Income Women, Time, and the Triple Role in Guayaquil, Ecuador," in Sarah Radcliffe and Sallie Westwood (eds), *"Viva": Women Popular Protest in Latin America*, London 1993, pp. 178-85.

وأعمال أكثر، لو أرادوا الاستمرار في العمل". وكانت استجابة الأسر المحلية لهذه الأوضاع، مماثلة لما كان عليه الحال في جواياكيل، وهو إرسال مزيد من الإناث إلى سوق الخدمة المنزلية، وإخراج الأطفال من المدارس، ليذهبوا بحثًا عن أي عمل. وفي حقيقة الأمر، فإن هذه الإستراتيجيات قصيرة الأجل لمجرد البقاء على قيد الحياة، كما حذر "إسكوبار" و"جونزاليز"، من شأنها في النهاية شلّ القدرة الاقتصادية العامة، عن التحرك على المدى الطويل. "فالظروف الاقتصادية المتدهورة، تحد بطبيعة الحال من مقدرة أسر الطبقة العاملة الحضرية، على تنفيذ إستراتيجيات القدرة على الحركة اجتماعيًا على المدى الطويل، حيث تجبرهم على تعبئة مواردهم الداخلية، والاستفادة باهظة التكاليف من قوة عملهم، في سبيل توفير أساسيات البقاء على قيد الحياة"(٣٣).

وكما هو الحال في أفريقيا وآسيا، فإن الأسر الحضرية في أمريكا اللاتينية أيضًا، "كيّفت أوضاعها وفق التكيف"، وذلك بإعادة أفرادها المعتمَدين إلى الريف، حيث المعيشة هناك أرخص. وفي ذلك يكتب "سدريك بو" Cedric Pugh أنه "في كوستاريكا، قام الرجال والنساء بتقسيم الأسر، فالنساء والأطفال غالبًا ما يكونون مكرهين ومضطرين للهجرة إلى المناطق الأفقر، حيث يمكن تدبير سكن اقتصادي. وأحيانًا ما يضاف إلى هذا العبء على كاهل النساء، توابع الانفصال والطلاق طويلة المدى؛ بسبب تدنّي مستويات العيش، والطلب على السكن، وسط الأسر المنقسمة"(٣٤).

وفي واقع الأمر، كانت الخبرة الأفريقية الحضرية- في هذا السياق- أكثر رعبًا مما تم ذكره، حيث كان النساء والأطفال مجبرين على التحايل للهروب من هولوكوست الأيدز (الذي يرجع جزئيًا إلى بغاء النساء الفقيرات

(33) Escobar and Gonzalez, "Crisis, Restructuring and Urban Poverty in Mexico," pp. 63-73.

(34) Pugh, "The Role of the World Bank in Housing," p. 55.

بدافع الفقر). والأكثر بشاعة من ذلك، المجاعات التي تحدث على نحو متكرر، بسبب الجفاف والحرب الأهلية، وأخيرًا بسبب "التكيف الهيكلي". ففي هراري رفع برنامج التكيف الهيكلي تكلفة العيش إلى ٤٥% خلال عام ١٩٩١ وحده، وانتهى الحال بدخول نحو ١٠٠ ألف نسمة المستشفيات، يعانون من آثار سوء التغذية. ووفقًا لتناول كل من "نازنين كانجي" Nazneen Kanji، و"كريستيان روجرسون" Christian Rogerson في دراسات منفصلة، فإن المنافسة التي لا ترحم، أصبحت هي المعيار السائد في اقتصاد السوق غير الرسمية، خصوصًا في مواجهة العاملات من نساء السوق والباعة الجائلين. حيث تكافح المرأة لتوفير الطعام لذويها: "إذا تحدثنا عمومًا، فإن الدخول الناشئة عن مثل هذه المشاريع، والأعمال الصغيرة، وهي في أغلبها منتَجة بسواعد المرأة، عادة ما تفشل حتى في ضمان مستويات الدخل الأدنى، وتقوم على استثمار رأسمال ضئيل، وفي ظل عدم وجود تدريب على المهارات، ومحدودية فرص التوسع في تجارة قيّمة مجدية"(٣٥). وفي الوقت نفسه، فقد تضاعَف معدل وفيات المواليد، وانتشر الأيدز، وسوء تغذية الأطفال، وأعادت الأمهات البائسات في هراري أطفالهن إلى الريف، أو أعدن تجميع الأفراد الذين استقلوا عن الأسرة سابقًا، في أسر ممتدة؛ لمجرد توفير ثمن الإيجار وفاتورة الكهرباء(٣٦). كما أن عشرات الآلاف من الأطفال الأكبر سنًا، أُجبروا على التسرب من المدرسة؛ بغرض العمل أو البحث عن رزق، مع أمل ضئيل في أية عودة إلى التعليم مرة أخرى. وفي كثير من

---

(35) Rogerson, "Globalization or Informalization?," p. 347.

(36) Nazneen Kanji, "Gender, Poverty and Structural Adjustment in Harare, Zimbabwe," *Environment and Urbanization* 7:1 (April 1995), pp. 39, 48-50; Drakakis-Smith, *Third World Cities*, p. 148 (malnutrition). Also see Deborah Potts and Chris Mutambirwa, "Basics Are Now a Luxury," pp. 73-75.

الأحيان كانت الغلبة للضغوط المتعددة، وانهيار التضامن الأسري نفسه أمام التحديات. ووفقًا لمجموعة من الباحثين، "فإن الأسرة التي كانت ذات يوم وحدة دعمها وأدامها تضامُن أعضائها، أصبحت الآن وحدة يتنافس أعضاؤها من أجل البقاء"[(٣٧)].

ولكن سكان العشوائيات في أواخر السبعينيات وطوال الثمانينيات- والنساء عمومًا في المقدمة- بدلاً من أن يتفرجوا على أسرهم وهي مدمرة، نجدهم استعادوا عافيتهم، وأعادوا تشكيل "شغب الخبز"؛ ذلك الاحتجاج الكلاسيكي لفقراء الحضر. فعشوائيات أفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وجنوب آسيا، لم تتدرج أبدًا، بيسر ولطف، في ذلك الليل اللطيف لصندوق النقد الدولي. بل هم بدلاً من ذلك انفجروا. ففي دراستهما الرائدة لمقاومة عامة الناس للتكيف الهيكلي (بعنوان: *الأسواق الحرة وانتفاضات الغذاء* *Free Markets and Food Riots*، ٢٠٠٤)، صوّر "جون والتون" John Walton، و"ديفيد سيدون" David Seddon ١٤٦ "انتفاضة ضد صندوق النقد الدولي" حدثت في ٣٩ بلدًا من البلدان المَدينة، وذلك في الفترة من ١٩٧٦ إلى ١٩٩٢[(٣٨)]. وأيًا كانت عناصر "الوجه الإنساني"- أو ما يسمى بـ"الأبعاد الإنسانية للتكيف"- يمكن عزوها إلى برامج التكيف الهيكلي في أوائل التسعينيات، فقد أُعيد تعديلها على نحو واسع، وتحديثها استجابة لهذا الاندلاع الاستثنائي للاحتجاج العالمي:

> إن الأبعاد الدولية للتقشف، يمكن تمييزها رمزيًا في التعديات على شركات السفر، والسيارات الأجنبية، والفنادق الفخمة،

(37) B. Rwezaura et al., quoted in Miriam Grant, "Difficult Debut: Social Economic Identities of Urban Youth in Bulawayo, Zimbabwe," *Canadian Journal of African Studies* 37:2/3 (2003), pp. 416-17.

(38) John Walton and David Seddon, *Free Markets and Food Riots: The Politics of Structural Adjustment*, Oxford 1994, pp. 39-45.

ومكاتب الهيئات الدولية. وقد اتخذت الاحتجاجات أشكالاً مختلفة، فغالبًا ما كانت تظهر كاحتجاجات تقليدية من أجل الغذاء (المغرب، والبرازيل، وهايتي). وفي أحيان أخرى كمظاهرات احتجاج سلمية، تحولت إلى مظاهرات عنيفة (السودان، وتركيا، وشيلي)، أو إضرابات عامة (بيرو، وبوليفيا، والهند).. ولكن هذه الاحتجاجات كثيرًا ما كانت تبدأ بتكتيك يتحول إلى تكتيك آخر: مظاهرات تتحول إلى أعمال شغب، وعنف عفوي يتحول مجراه إلى تنظيم سياسي.

و"انتفاضة الغذاء" كوسيلة للاحتجاج الشعبي تعد أمرًا شائعًا، ربما عالميًا. وشيوعها ملمح من ملامح مجتمعات السوق، ودليل على التطور السياسي الصناعي، أقل من كونه إستراتيجية للتمكين الذي يؤكد فيه الفقراء والفئات المحرومة على مطالبهم وحقوقهم في العدالة الاجتماعية. وفي النظام الحديث للدول، والاندماج الاقتصادي الدولي، فإن نقطة انفجار الاحتجاج الشعبي، انتقلت مع معظم سكان العالم إلى المدن، حيث تجرى عمليات التراكم العالمي، والتنمية الوطنية، وتتقاطع العدالة الشعبية كلها في هذه النقطة[٣٩].

وكانت الموجة الأولى من الاحتجاجات المناهضة لصندوق البنك الدولي، قد وصلت ذروتها ما بين ١٩٨٣ و١٩٨٥، لتتبَعها موجة ثانية بعد عام ١٩٨٩. ففي كاركاس، في فبراير/ شباط ١٩٨٩، تسببت الزيادة في أسعار الوقود وأجرة النقل، التي أملاها صندوق النقد الدولي، ولقيت استهجانًا شعبيًا واسع النطاق، تسببت في إطلاق شرارة الشغب على أيدي مستخدمي الأتوبيس من المواطنين، وطلاب الجامعة الراديكاليين. وسرعان ما حولت

(٣٩) المرجع السابق، ص. ٤٣.

هراوات البوليس المواجهة إلى شبه ثورة. وأثناء هذه الموجة من الاحتجاج التي استمرت أسبوعًا، وسميت *"كاراكازو" Caracazo*؛ نزل عشرات الآلاف من الفقراء من مناطقهم العشوائية، على التلال لنهب مراكز التسوق، وبناء المتاريس.. وقد قُتل في هذه الأحداث ٤٠٠ نَفْسٍ على الأقل. وبعد شهر من تلك الأحداث، اندلعت أحداث مماثلة في "لاجوس"، بعد احتجاجات طلابية ضد صندوق النقد الدولي: مات على أثرها ٥٠ مواطنًا في ثلاثة أيام من النهب، وحرب الشوارع، في مدينة تقاسم فيها معظم الفقراء الغضب المستشيط من "الملك"، سجّلها "كريس أباني" Chris Abani في رواية *أرض النعيم Graceland*:

> أغلبية شعبنا أمناء، أناس يعملون بجد. ولكنهم واقعون تحت رحمة هؤلاء العسكريين أولاد القحبة، وأولئك اللصوص التابعين لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، والولايات المتحدة.... والآن، نحن، أنت وأنا.. وكل هؤلاء الفقراء، مدينون للبنك الدولي بعشرة ملايين دولار مقابل لا شيء. إنهم جميعًا لصوص، وإنني لأحتقرهم؛- شعبنا.. وموظفي البنك الدولي![٤٠].

عِقد اليوتوبيا!

وفقًا لكل من النظرية الكلاسيكية الجديدة، أو النيوكلاسيكية، ومشاريع البنك الدولي، فإنه كان ينبغي لعقد التسعينيات أن يصحح الأخطاء التي شهدها عقد الثمانينيات، ويسمح لمدن العالم الثالث بإعادة الأرضية المسروقة من تحت أقدامها، ويسد فجوات التفاوت العديدة التي خلّفتها برامج التكيف

(40) Abani, *Graceland*, p. 280.

الهيكلي وراءها.. لا لشيء، إلا لأن ألم التكيف– وفقًا للنظرية– ينبغي أن يتبعه مسكّن العولمة. والحقيقة أن التسعينيات، حسبما يشير تقرير *التحديات التي تطرحها العشوائيات*، كان العقد الأول الذي تمت فيه التنمية الحضرية في إطار ما وضعته حرية السوق النيوكلاسيكية من مقاييس خيالية، طوباوية.

> خلال عقد التسعينيات، استمرت التجارة في التوسع بمعدل غير مسبوق.. مناطق لم تكن مأهولة افتتحت، وإنفاقات عسكرية انخفضت.... جميع مدخلات الإنتاج الأساسية أصبحت أرخص، وهبطت معدلات الفائدة سريعًا، جنبًا إلى جانب أسعار السلع الأساسية. تدفق رأس المال تم إطلاقه، على نحو متزايد، من قبل الضوابط الوطنية، واستطاع الانتقال سريعًا إلى المناطق الأكثر إنتاجًا. وفي ظل ظروف اقتصادية كانت تعد مثالية، وفقًا للمذهب الاقتصادي النيوليبرالي المهيمن، ربما كان للمرء أن يتخيل ذلك العقد هو عقد الرخاء والعدل الاجتماعي بلا منافس[٤١].

ولكن حسب *تقرير* الأمم المتحدة *للتنمية البشرية* لعام ٢٠٠٤، "شهد عدد غير مسبوق من البلدان انحدارًا في التنمية، وتقهقرًا خلال التسعينيات. ففي ٤٦ دولة أصبح الناس أكثر فقرًا اليوم، عما كانوا عليه في عام ١٩٩٠. وفي ٢٥ دولة أصبح مزيد من الناس جوعى اليوم، مقارنة بعقد مضى"[٤٢]. وعلى مستوى العالم الثالث بأكمله، نجد موجة جديدة من برامج التكيف الهيكلي، والبرامج النيوليبرالية التي فرضت نفسها، أسرعت بهدم عمالة

---

(41) *Challenge*, p. 34.

(42) United Nations Development Programme, *Human Development Report 2004*, New York 2004, p. 132.

الدولة، والتصنيع المحلي، وكذلك تقويض الزراعة الموجهة للاستهلاك المحلي. وقد عانت مراكز المدن الصناعية في أمريكا اللاتينية- مكسيكو ستي، وساو باولو، وبيلو هوريزونتي Belo Horizonte، وبيونس أيرس- من خسائر هائلة في وظائف التصنيع. ففي ساو باولو، هبط نصيب التصنيع في تشغيل العمالة من ٤٠% عام ١٩٨٠ إلى ١٥% عام ٢٠٠٤(٤٣). كما أن خدمة الديون (التي التهمت في بلد مثل جامايكا، ما يزيد عن ٦٠% من حجم الموازنة العامة أواخر التسعينيات)؛ امتصت تكاليف الموارد المخصصة للبرامج الاجتماعية، والمساعدة في الإسكان: إنه "التخلي الاجتماعي" عن فقراء الحضر، وفق كلمات "دون روبوثام" Don Robotham(٤٤).

البنك الدولي، من جانبه، أثنى على الدور المتنحي للدولة المحلية، وذلك في ***السياسات الحضرية والتنمية الاقتصادية: أجندة لعقد التسعينيات*** *Urban Policy and Economic Development: Agenda for the 1990s* (١٩٩١)، وهي وثيقة تعيد صياغة مفهوم القطاع العام، بوصفه "مقوّما/ ممكنا" بسيطا للسوق. وهنا توضح الجغرافية "سيسيليا زانيتا" Cecilia Zanetta في مراجعة لبرامج البنك الدولي الحضرية في المكسيك والأرجنتين، أنه "وبتركيز محوري على تغيير قيمة آليات السوق، فإن السياسات الحضرية أصبحت معرّفة بوصفها سياسات تستهدف إزالة العقبات التي حدّت من، وقيدت، إنتاجية الفاعلين الاقتصاديين الحضر، سواء الرسميين منهم أو غير الرسميين، وذلك لتعظيم إسهامهم في الاقتصاد الوطني"(٤٥). وبالنسبة "للإنتاج الحضري، فالحقيقة هي أن هذا النوع من

---

(43) Henry Chu, "Jobless in Sao Paulo," *Los Angeles Times*, 30 May 2004.

(44) Don Robotham, "How Kingston Was Wounded," in Jane Schneider and Ida Susser (eds), *Wounded Cities: Destruction and Reconstruction in a Globalized World*, Oxford 2003, pp. 111-24.

(45) Zanetta, *The Influence of the World Bank on National Housing Policies*, p. 25.

الفيتشية/ أي التركيز على الأشياء الملحقة، دون الموضوع الحقيقي، قد أدى إلى ضغوط هائلة من أجل خصخصة المرافق، والخدمات الحضرية، بغض النظر عن آثارها على العمالة أو التوزيع المتكافئ للدخل. وبقدر ما كان البنك الدولي معنيًا ومهمومًا، بقدر انعدام الفرصة لاستعادة عمالة القطاع العام الأرضية التي فقدتها خلال عِقد التسعينيات.

أما الرواج الذي شهدته الصادرات آنذاك، فغالبًا ما أفاد طبقة صغيرة. وقد كانت أنجولا، وهي منتِج رئيسي للنفط والماس، إحدى الحالات القصوى الواضحة في هذا الصدد. ففي لواندا على سبيل المثال، كانت نسبة كبيرة عام ١٩٩٣، قوامها ٨٤% من السكان بلا عمل، أو في بطالة مقنعة. وكان التفاوت بين أعلى الفئات دخلاً وأقلها، قد اتسع من معامل ١٠ إلى معامل ٣٧ بين عامي ١٩٩٥ و١٩٩٨، أي في ثلاثة أعوام فقط!!"[٤٦]. وفي المكسيك ازدادت نسبة السكان الذين يعيشون في فقر حاد، من ١٦% عام ١٩٩٢ إلى ٢٨% عام ١٩٩٩، وذلك على الرغم من "قصص النجاح" التي شهدت مبالغة كبيرة حول *صناعات المنشأ* *maquiladoras*، واتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية NAFTA[٤٧]. وبالمثل، حدث في كولومبيا، فقد انحدرت الأجور الحضرية، فيما تضاعفت مساحة أرض الكوكا ثلاث مرات في عهد "سيزار جافيريا" (المنتخب عام ١٩٩١). وكانت "كارتيلات"، أو جماعات المصالح المتاجرة في المخدرات، وفقًا لتقرير منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OCED، "من بين أكثر المحبذين على الدوام لسياسات النيوليبرالية"[٤٨]. كما أن التفاوت، وانعدام المساواة، على مستوى العالم،

(46) Paul Jenkins, Paul Robson, and Allan Cain, "Luanda," *Cities* 19:2 (2002), p. 144.

(47) Zanetta, *The Influence of the World Bank on National Housing Policies*, p. 64.

(48) Forrest Hylton, "An Evil Hour: Uribe's Colombia in Historical Perspective," *New Left Review* 23 (September-October 2003), p. 84.

مقاسًا باقتصاديات البنك الدولي عبر سكان العالم أجمع، بلغ مستوى غير معقول من كونه مُعاملاً جينيًا، إلى وضع أصبح معه أفقر ثلثي العالم يتلقون صفرَ دخل، والثلث الأعلى منهم يتلقى أفراده كل شيء(٤٩).

فضلاً عن ذلك، يمكن رسم خريطة للإعصار الاقتصادي العالمي في نهاية عقد التسعينيات، بدقة مخيفة تشير إلى المدن والمناطق التي مرت بالزيادات الأكثر حدة في التفاوت. فعلى مستوى الشرق الأوسط، وجنوب آسيا المُسلم، جاءت الهوة المتسعة بين أغنياء وفقراء الحضر؛ لتؤكد حجج الإسلاميين، بل وحتى السلفيين الأكثر راديكالية، حول فساد النظم المحلية الحاكمة غير القابل للإصلاح. وكان الهجوم الأخير على البقايا "الاشتراكية" لدولة جبهة التحرير الوطنية FLN في الجزائر، قد بدأ في ١٩٩٥ مع خصخصة ٢٣٠ شركة، وطرد ١٣٠ ألف عامل تابعين للدولة؛ وقفز الفقر قفزًا من ١٥% عام ١٩٨٨ إلى ٢٣% عام ١٩٩٥(٥٠).

وبالمثل، حدث في طهران أن ارتدّت الثورة الإسلامية إلى الخلف، متراجعة عن سياساتها الأصلية المدعّمة للفقراء، حيث صعد الفقر بحدة من ٢٦ إلى ٣١% بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٥(٥١). وفي مصر، على الرغم من السنوات الخمس من النمو الاقتصادي، فإن بيانات البنك الدولي لعام ١٩٩٩ لم تظهر أي انخفاض في معدلات فقر الأُسر (المحدد بمستوى دخل ٦١٠ دولارات، أو أقل، سنويًا)، ولكنها سجلت انخفاضًا في معدلات استهلاك

---

(49) ShaohuaChen and Martin Ravallion, "How Did the World's poorest Fare in the 1990s?" World Bank working paper, Washington, D.C., 2000, p. 18.

(50) Laabas Belkacem, "Poverty Dynamics in Algeria," Arab Planning institute, working paper, Kuwait (June 2001), pp. 3, 9.

(51) Djavad Salehi-Isfahani, "Mobility and the Dynamics of Poverty in Iran: What Can We Learn from the 1992-95 Panel Data?," World Bank working paper (November 2003), p. 17.

الفرد(٥٢). وبالمثل، واجهت باكستان أزمة مزدوجة من التنافسية الصناعية المنحدرة، حيث تعرضت صادرات النسيج الباكستاني للخطر من جانب الصين، وانحدرت الإنتاجية الزراعية؛ بسبب سوء الاستثمار المزمن في الري. ونتيجة لذلك، انهارت أجور العمالة المؤقتة وغير الرسمية، واشتعل الفقر بمعدلٍ وصفه ***تقرير التنمية البشرية*** "بغير المسبوق في تاريخ باكستان"، وازدادت حدة التفاوت في الدخل الحضري، مقاسًا بمعامل جيني، من ٣١,٧% عام ١٩٩٢ إلى ٣٦% في عام ١٩٩٨(٥٣).

ولكن الحدث الأكبر في عقد التسعينيات، كان في تحول كثير من بلدان "العالم الثاني" سابقًا- اشتراكية الدولة الأوروبية والآسيوية- إلى عالم ثالث جديد. فمع بداية التسعينيات، قفز عدد أولئك الذين اعتُبِروا يعيشون في فقر مدقع، في "بلدان المرحلة الانتقالية"- مثلما تدعوها الأمم المتحدة- من ١٤ مليونًا إلى ١٦٨ مليونًا: وهو ما يعد في الغالب إفقارًا جماعيًا فوريًا، لم يسبق له مثيل في التاريخ(٥٤). وبالطبع، فإن الفقر ظهر في الاتحاد السوفيتي السابق، وبصورة غير معهودة من قبل.. ولكن معدّله، حسب باحثي البنك الدولي، تراوح ما بين ٦ إلى ١٠% دون أن يتجاوزها(٥٥) والآن، حسب "أليكسي كراشنينوكوف"Alexey Krasheninnokov، في تقريره لبرنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية UN-HABITAT، فإن ٦٠% من الأسر الروسية تعيش في فقر، وباقي السكان "يمكن تصنيفهم كطبقة متوسطة، مع بعض التمدد النسبي". (والروس من "الطبقة المتوسطة" على سبيل المثال،

---

(52) Soliman. *A Possible Way Out*, p. 9.

(53) Akmal Hussain, *Pakistan National Human Development Report 2003: Poverty, Growth and Governance*, Karachi 2003, pp. 1, 5, 7, 15, 23.

(54) *Challenge*, p. 2.

(55) Braithwaite, Grootaert, and Milanovic, *Poverty and Social Assistance in Transition Countries*, p. 47.

ينفقون ٤٠% من دخلهم على الطعام، مقارنة بمستوى الدخل في المتوسط العالمي، لأقل من الثلث)[٥٦].

وعلى الرغم من أن "الفقر الانتقالي" التقليدي، مستتر عن الرؤية في المناطق المهجورة، والمتدهورة، من ريف الاتحاد السوفيتي سابقًا، فإن المدن الروسية تُظهر درجات قصوى جديدة من الثروة، بين عشية وضحاها، يضاهيها في السرعة بؤس مفاجئ. في سان بطرسبرج، على سبيل المثال، صعد التفاوت في الدخل بين الفئتين الأغنى والأفقر، من ٤,١ % في عام ١٩٨٩ إلى ١٣,٢% في عام ١٩٩٦[٥٧]. وفي الوقت الحالي، قد تحتوي موسكو من أصحاب البلايين على عدد يفوق ما تحتويه نيويورك، ولكنها أيضًا لديها أكثر من مليون واضع يد، كثيرون منهم مهاجرون غير شرعيين، من أوكرانيا (٢٠٠,٠٠٠)، ومن الصين (١٥٠,٠٠٠)، وفيتنام، ومولدوفيا. هؤلاء الناس يعيشون في ظروف بدائية، في مبانٍ مهجورة، ونُزُل مهدمة، وثكنات عسكرية سابقة. وهنا، فإن شركات ورش الخياطة التي غالبًا ما تلقى التحبيذ في الغرب، بوصفها طليعة الرأسمالية، "تفضل تشغيل [هؤلاء] الخارجين عن القانون، لتدفع لهم رواتب هزيلة، وتأوي من ١٠ إلى ١٥ فردًا في شقق مكونة من غرفة واحدة"، بينما لا تدفع ضرائب تشغيل على الإطلاق[٥٨]. ويقدّر الباحثون الروس أن الاقتصاد غير الرسمي، أو ما يُسمى "اقتصاد الظل"، في روسيا، قد يعادل ٤٠% من إجمالي ربح الاقتصاد الرسمي[٥٩].

---

(56) Alexey Krasheninnokov, "Moscow," UN-HABITAT case Study, London 2003, p. 9-10.

(57) Tatyana Protasenko, "Dynamics of the Standard of Living During Five Years of Economic Reform," *International Journal of Urban and Regional Research* 21:3 (1997), p. 449.

(58) Krasheninnokov, "Moscow," p. 10.

(59) Protasenko, "Dynamics of Standard of Living During Five Years of Economic Reform," p. 449.

في الاتحاد السوفيتي القديم، كان السكن الحضري رشيدًا معقولاً، بل مجانيًا- من ٢ إلى ٣% من دخل السكن، كان ينفق عادة على دفع الإيجار وفواتير المرافق. وفي الوقت نفسه، اعتمد على بنية تحتية اجتماعية فريدة، من التدفئة على مستوى الحي، ومترو الأنفاق، والثقافة، والترفيه القائم في محل العمل. ولكن، منذ أواخر التسعينيات، قبلت حكومة فلاديمير بوتن شروط صندوق النقد الدولي؛ لرفع المدفوعات على مقابل السكن والتدفئة إلى مستوى السوق، على الرغم من انخفاض الدخل(٦٠). وتزامنًا مع ذلك، فقد كان ثمة إهمال كبير وسوء استثمار، بل والتخلي عن بنية تحتية لأحياء حيوية، وخدمات اجتماعية قائمة على المصانع. ونتيجة لذلك، فإن العمارات السكنية القديمة- أحياء بأكملها، وأحيانًا مدن كاملة- ارتكست بها الأحوال إلى ظروف العشوائيات. وكثيرًا ما نشهد مناطق الطبقة العاملة السكنية، تميزها المواسير المكسورة، والمجاري الطافحة، والإنارة المعطلة. والأخطر من هذا وذاك، لا توجد بها تدفئة في الشتاء. نتيجة لذلك؛ يعاني ملايين الروس من فقراء الحضر ظروف الصقيع، والجوع، والعزلة القطيعة، وغيرها من أجواء معيشية، تذكرهم بحصار لينينجراد أثناء الحرب العالمية الثانية.

إن الفقر الانتقالي التقليدي، على النمط الروسي، موجود أيضًا في أوروبا الشرقية الحضرية. نجده أكثر بروزًا في بلغاريا، وألبانيا. ففي مدينة صوفيا التي تم سحقها بالتحول عن الصناعة، وإغلاق المصانع، انفجر الفقر، وازداد التفاوت في عام ١٩٩٥-١٩٩٦، خصوصًا وسط الغجر Roma والأقليات التركية، والنساء المسنات، والأسر كبيرة العدد؛ فـ٤٣% من البلغاريين يعيشون تحت خط الفقر، وربما تحتوي صوفيا على أكبر عدد

---

(60) المرجع السابق.

لسكان عشوائيات في أوروبا. وفيها أيضًا "كمبوديا" في "فاكولتيتا Fakulteta" أكثر العشوائيات بؤسًا في أوروبا، حيث ٣٥ ألفًا من الغجر (٩٠% منهم معطّلون عن العمل) يعيشون في ظروف الجيتو التي تذكرنا ببؤس الداليت في الهند[٦١]. ولكن أفقر مدينة في أوروبا على الإطلاق، هي "إلباسان" (سكانها ١١٠ آلاف نسمة)، وهي مركز ألبانيا الصناعي الثقيل سابقًا، وتعيش تلك البلدة الآن بفضل تحويلات كثير من مهاجريها في إيطاليا واليابان. وفي الوقت نفسه، نجد تيرانا محاطة بعشوائيات ناشئة ما قبل حضرية، مع بعض الفقراء ممن يضعون أيديهم على ثكنات المدافع، الموجودة في كل مكان، تلك التي بنَتها ديكتاتورية "هوكسا Hoxha" المصابة بالبارانويا[٦٢].

قصص نجاح!

قصتا أعظم نجاح للعولمة في عقد التسعينيات، **الأولى**: في استمرار دفعة الوظائف ونمو الدخل، في أوساط المدن الساحلية بالصين. و**الثانية**: ظهور *"الهند تتلألأ"*. وهو مشروع مكوّن من أماكن مغلقة عالية التكنولوجيا، وحدائق المكاتب. وفي الحالتين، لم تكن التنمية وهمًا؛ فغابة الأوناش، والرافعات التي تطاول السماء، حول شنغهاي، وفي الأسواق، ومراكز التسوق الجديدة، ومحال ستاربكس Starbucks في بانجالور Bangalore، كلها تشهد للدينامية الاقتصادية في واقع الأمر.. لكن هذه المعجزات السوقية، تم شراؤها بتكاليف عالية، في ظل تفاوت اقتصادي متزايد محليًا.

(61) World bank, "Bulgaria: Poverty During the Transition," quoted in Social Rights Bulgaria, 29 June 2003, www.socialrights.org.

(62) World Bank, "Albania: Growing Out of Poverty," working paper, 20 May 1997, p. 41.

لقد صعد مؤشر توزيع الدخل والثروة في مدن الصين، من كونه التوزيع الأكثر مساواة وعدلاً في آسيا، في سبعينيات القرن الماضي، إلى أن أصبح واحدًا من أكثر تفاوتات توزيع الدخل بخسًا في العالم. وفي الحقيقة، وكما يشير كل من "أزيزور خان" Azizur Khan، و"كارل ريسكن" Carl Riskin في دراسة مؤثرة، فـ"إن زيادة التفاوت الحضري، كانت نسبيًا أكبر من الزيادة في التفاوت على مستوى الريف"(٦٣). وتلازمًا مع ظهور *الأغنياء الجدد*، نجد فقراء الحضر الجدد: فمن ناحية، هناك العمال التقليديون، ممن تم تسريحهم بعد خراب الصناعة، ومن ناحية أخرى، العمالة غير المسجلة ممن هاجروا من الريف. فالناس في المدينة الصينية، ما عادوا "يأكلون من نفس الصحن"، كما كان ذلك حادثًا في العهد الماوي، المتقشف نعم، ولكنه الآمن في الوقت نفسه.

في سبتمبر/ أيلول ١٩٩٧، أخبر الرئيس يانج زمين Jang Zemin مؤتمر الحزب الشيوعي الحاكم، بأن "العمال ينبغي أن يغيروا أفكارهم حول العمالة والتشغيل". ففي مجتمع السوق، كما حاجّ، لم يعد الضمان الاجتماعي من المهد إلى اللحد أمرًا ممكنًا على أرض الواقع(٦٤). وهو ما كان يعني عمليًا تخفيض، أو حتى فقدان شبكة أمان اجتماعي لعشرات الملايين من العمال الصناعيين، ومستخدمي الدولة، الذين تمت إعادة هيكلتهم ليكونوا خارج وظائفهم في السنوات الأخيرة.

---

(63) Azizur Rahman Khan and Carl Riskin, *Inequality and Poverty in China in the Age of Globalization*, Oxford 2001, p. 36.

على حد تأكيد المؤلفين، فإن إحصاءات الدخل الحضري الصيني، لا تشمل النسبة الكبيرة من السكان العائمين من المهاجرين الريفيين، وهو ما يخلق انحيازًا باتجاه عدم تقدير التفاوتات.

(64) Pamela Yatsko, *New Shanghai: The Rocky Rebirth of China's Legendary City*, Singapore 2003, p. 113.

في الفترة ما بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠١ في الصين، انخفض عدد الشركات الصناعية المملوكة للدولة، بنسبة ٤٠%، وتحول عدد مهول من العمال، قوامه ٣٦ مليون عامل، إلى عمالة فائضة. ورسميًا لم يعلن إلا عن وجود ارتفاع طفيف في نسبة البطالة، ولكن هذا لم يكن سوى نتيجة خفة يد إحصائية،؛ لأن عمال الدولة الذين تم تسريحهم، تم وضعهم رسميًّا في فئة خاصة، اسمها "خارج الوظيفة"، لا تعتبرهم ضمن فاقدي الوظيفة؛ نظرًا لكونهم ما زالوا يتمتعون ببعض منافع الضمان الاجتماعي، من خلال وحدات العمل الخاصة بهم. أما على أرض الواقع، فإن النسبة المقدرة للبطالة ما بين ٨ و١٣ %. وهناك نسبة استثنائية مرتفعة من العمالة الفائضة في صفوف النساء؛ لأن الحكومة، وحسب ما ذكره الصحفي "باميلا ياتسكو" Pamela Yatsko رئيس مكتب *المراجعة الاقتصادية للشرق الأقصى* *Far Eastern Economic Review*، "قدرت أن النساء اللائي تم تسريحهن، سيكن أقل تهديدًا للأمن من الرجال المتعطلين". فالعاملات في مجال الصناعة- اللاتي كن لحّامات، ومشغّلات الخراطة، وبنّاءات السفن- أصبحن مجبرات الآن على تصيد وظائف القطاع الخدمي منخفض الأجر، كشغّالات، أو نادلات، أو مربيات، وبائعات جائلات[٦٥].

ولكن أبطال التاريخ سابقًا، في عهد ماو Mao، غالبًا ما يحتفظون لأنفسهم بمزايا المكانة الحضرية الرسمية، وبشكل من أشكال ضمان الحيازة عادةً. ولكن "فيضان الفلاحين" لا يتمتع بحقوق اجتماعية، إلا في القرى المفقَرة التي فروا منها. فهناك ما يقدر بنحو ثلاثة ملايين من العمال المهاجرين في شنغهاي، على سبيل المثال، يفتقدون حاليًا التأمين الصحي، أو الرفاهة الاجتماعية، أو لأية مزايا من أي نوع. وقد أصبح المهاجرون أيضًا

---

(٦٥) المرجع السابق، ص، ص. ١١٣-١٥.

كباش فداء للتناقضات والأزمات، التي يقع فيها اقتصاد السوق الحضري الجديد. فقد وازن بعض المراقبين بين التمييز الطبقي ضد المهاجرين الريفيين، في الصين الحضرية المعاصرة، ونظيره الممارَس ضد "السود في جنوب أفريقيا قبل التسعينيات، أو ضد السود والآسيويين في الولايات المتحدة، على مدار النصف الأول من القرن العشرين"(٦٦). والحقيقة أن الكاتبة "الصحفية" ياتسكو، رأت أن المشاهد المتكررة في شنغهاي، أواخر التسعينيات، كانت تذكرنا وبصورة مزعجة، بالمدينة الشريرة في ثلاثينيات القرن الماضي.. حيث كتبت:

> مدينة شنغهاي، مثل غيرها من مدن الصين، لا تسمح للمهاجرين إلا بالقيام بأعمال وضيعة المكانة. مانعة إياهم بذلك من الحصول على وظائف أفضل، بل وتطردهم منها إذا لم يثبتوا أنهم مستخدَمين حقًا. والمهاجرون لا يختلطون كثيرًا بأهالي شنغهاي الذين ينظرون إلى أبناء عمومتهم الريفيين نظرة احتقار، ويكونون أول مَن يلقي اللوم عليهم فور وقوع أية جريمة في المدينة. وأغلبية العمال المهاجرين إلى شنغهاي، هم من الرجال الذين يجدون عملاً في مواقع البناء الموجودة في كل مكان من المدينة. فهم ينامون ليلاً على نوبات في ثكنات بالموقع، أو يستأجرون مكانًا رخيصًا للإقامة الجماعية في الضواحي الطرفية للمدينة، أو يختلسون قطعة من الرصيف، حال عدم تمكنهم من العثور على عمل. أما المهاجرات النساء، فيعملن أحيانًا شغّالات لدى أسر شنغهاي، أو في محلات حلاقة قديمة متهالكة، في الأنحاء

(66) Solinger, *Contesting in Urban China*, p. 5.

السيئة من المدينة، حيث يتولين غسيل الشعر، مقابل ١٠ يوان Yuan (١,٢٠ دولار) على الرأس الواحدة، وفي بعض الحالات، يقدمن خدمات جنسية مقابل مبلغ أكبر من هذا قليلاً. أما المتشردات منهن، ذوات الوجوه المبقعة، مع أمهاتهن أو بدونهن، فعادة ما يتسولن من أجل الفكة أو القروش، خارج الفنادق الشعبية، خصوصًا تلك التي يرتادها الأجانب(٦٧).

إن المسئولين الصينيين، ولديهم مبرراتهم، يمتدحون مؤشرات التقدم الاقتصادي الوطني، خاصة نسبة الزيادة السنوية المذهلة التي تصل إلى ١٠% في إجمال الناتج القومي منذ عام ١٩٨٠. ولكنهم أقل إقبالاً وحضورًا، فيما يتعلق بمشاكل الفقر والحرمان. وباعتراف رسمي، فإن المؤشرات الاجتماعية الصينية، ليست موثوقة بدرجة عالية. ففي عام ٢٠٠٢، حذر بيت الخبرة الحكومي الرائد، *مركز أبحاث التنمية لمجلس الدولة* Development Research Center of the State Council، من أن "الفقر الحضري قد أسيء تقديره على نحو بالغ". وقد اقترح المركز رفع الرقم الرسمي المعلن من ١٤ مليونًا و٧٠٠ ألف، إلى ٣٧ مليونًا و١٠٠ ألف، على الأقل. وذلك على الرغم من إقرار المركز نفسه بأن هذه المراجعة لا تزال مخففة؛ لأنها أغفلت تضمين عشرات الملايين من العمال المسرَّحين، أو ١٠٠ مليون من "العمالة العائمة" الذين ما زال يتم اعتبارهم فلاحين(٦٨).

---

(67) Yatsko, *New Shanghai*, pp. 120-21.

(68) *People's Daily* (English version), 30 October 2002. Athar Hussain, "Urban Poverty in China: Measurement, Patterns and Policies," ILO working paper, Geneva 2003.

أما الفقر الحضري في الهند، فإنه معترف به على نحو أكثر أمانة وصدقًا، مقارنة بالصين، ويتم النقاش بصدده علنًا. لكن العلماء المحليين ونشطاء العدالة الاجتماعية، ممن يحاولون تركيز الانتباه على الجانب التحتي للنمو الاقتصادي الحديث، كانوا مضطرين أيضًا للسباحة ضد تيار الخطاب الرسمي الاحتفالي الحالي. فكما يعرف أي قارئ لصحافة البيزنس، أو التجارة، فإن إعادة الهيكلية النيوليبرالية المتشددة للاقتصاد الهندي، بعد عام ١٩٩١، أحدثت رواجًا، وأعطت دفعة عالية للتكنولوجيا، وارتفاعًا في البورصة. وقد تمثلت مراكزها النشطة في حفنة من مدن السندريلا Cinderella، وهي: بانجالور، وبيون Pune، وحيدرأباد، وشيناي Chennai. لقد صعد إجمال الناتج القومي إلى ٦% خلال التسعينيات، بينما يتضاعف حجم التحويل الرأسمالي لبورصة مومباي تقريبًا كل عام، وكان من بين النتائج، وجود مليون فرد من أصحاب الملايين الجدد، كثيرون منهم مهندسون هنود، وعلماء كمبيوتر، عادوا مؤهلين من سونيفال Sunnyvale وريدموند Redmond. ولكن النمو المصاحب للفقر، كان هو الأقل ذيوعًا رسميًا: فقد جنت الهند ٥٦ مليونَ فقير معدم، خلال فترة "الرواج" هذه. والحقيقة أن بداية عقد التسعينيات، حسب تأكيد "جيرمي سيبروك" Jeremy Seabrook ربما يكون هو "أسوأ أوقات فقراء الهند منذ الاستقلال"، حيث سحبت الدولة يدها عن الخدمات في مجال غذاء الحبوب، فقفزت الأسعار إلى ٥٨% بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٤[٦٩].

لقد اختل ميزان النمو على نحو مذهل في الهند، حيث صبّت الاستثمارات الهائلة في قطاع تكنولوجيا المعلومات، تاركة الزراعة ومجالاتها نهبًا للركود، والبنية التحتية للتحلل. وبدلاً من فرض ضرائب على

(69) Seabrook, *In the Cities of the South*, p. 63.

أصحاب الملايين الجدد، قامت حكومة حزب الشعب جاناتا Janata، النيوليبرالية، بتمويل نفسها بخصخصة هائلة لصناعة الدولة، التي يرجع إليها الفضل فيما تقوم به الآن عملاقة الطاقة الأمريكية إنرون Enron من عمليات بيع الكهرباء، بالقرب من مومباي، بثلاثة أضعاف سعرها في المرافق العامة. لقد شاب السياسات النيوليبرالية، كمثيلاتها في الصين فوضى مدمرة في الريف الهندي المهمل، حيث يفتقد ثلاثة أرباع الأسر إمكانية الحصول على الصرف الصحي، ومياه شرب غير ملوثة، والفقراء يهتفون من أجل الكهرباء، والطرق، والمياه.. وعلى حد وصف "برافول بيدواي" Praful Bidwai في *آشن تايمز Asian Times* عام ٢٠٠٠، فإن:

> معدلات موت الأطفال حديثي الولادة، ترتفع حتى في ولايات مثل كيرالا Kerala، وماهاراشاترا Maharashtra، التي تحتوي على مؤشرات اجتماعية جيدة نسبيًا.... فالحكومة تستقطع من الإنفاق على التنمية الريفية، بما في ذلك البرامج الزراعية، والتشغيل الريفي، وخطط مكافحة الفقر، وكذلك من الصحة، وتوفير مياه الشرب، والتعليم، والصرف الصحي. وقد وصل متوسط نمو الدخل في المناطق الريفية، حيث يعيش ٧٠% من الهنود، إلى ٣,١% في الثمانينيات. وقد انحدر بشدة إلى ١,٨%. وانخفضت الأجور الفعلية للعمال الريفيين العام الماضي لأكثر من ٢%[٧٠].

وفي الوقت الذي انغمست فيه الطبقات المتوسطة الحضرية، في ملذات جديدة بنكهة كاليفورنيا، من منازل مُسيّجَة في مناطق خاصة، ونوادٍ صحية، فإن فقراء الحضر المهزومين، صاروا يقتلون بعضهم البعض في جماعات.

---

(70) Praful Bidwai, "India's Bubble Economy Booms as Poverty Grows," *Asia Times*, 17 March 2000

ففي "أندرا براديش" Andhra Pradesh وحدها- وحسب ما كتبه الصحفي "إدوارد لوس" Edward Luce في يوليو/ تموز ٢٠٠٤- "فإن ٥٠٠ من فلاحي هذه القرية، انتحروا ذلك العام وحده، وفي أغلب الحالات تم ذلك بتناول مبيد حشري، كانوا يشترونه بالديون الدولية التي لم يستطيعوا الوفاء بتسديدها"(٧١). وبالتالي فإن تزايد حالة اليأس والقنوط في الريف أدى بدوره إلى التخلص من أعداد كبيرة من الفلاحين الفقراء، والعمال الذين لم يصبح أمامهم أي بديل سوى الهجرة إلى الضواحي العشوائية للبلدات التي تشهد رواجًا في التكنولوجيا العالية، مثل بانجالور.

وبوصفها المقر الرئيسي لصناعات برامج وخدمات الكمبيوتر، وأيضًا لتصنيع المقاتلات العسكرية، فإن "بنجالور" (ذات الـ ٦ ملايين نسمة) تفخر بنفسها؛ لاحتوائها على مراكز تسوق على نمط كاليفورنيا، وملاعب للجولف، ومطاعم *وصفات الطهي الجديدة* *nouvelle cuisine*، وفنادق الخمس نجوم، ودور السينما للأفلام باللغة الإنجليزية. وعشرات من مجمعات التكنولوجيا، تستعرض شعارات أوراكل Oracle، وإنتل Intel، ودل Dell، وماكروميديا Macromedia، فيما تخرّج الجامعات، والمعاهد الفنية المحلية ٤٠ ألف عامل ماهر ومهندس، كل عام. وتعلن "بنجالور" عن نفسها بوصفها "مدينة حدائق غنية"، وضواحيها الجنوبية في الحقيقة هي منطقة شانجري-لا Shangri-la من طبقة متوسطة. وفي الوقت نفسه، فإن برامج التجديد الحضرية المستبدة، أدت إلى حرمان السكان من المركز؛ ناقلة إياهم إلى الأطراف، حيث يعيشون جنبًا إلى جانب المهاجرين من فقراء الريف. فهناك ما يقدر بمليوني فقير، كثيرون منهم أعضاء منبوذون من قِبل طبقات "مصنفة" اجتماعيًّا، يضعون أياديهم في نحو ١٠٠٠ عشوائية من العشوائيات القذرة، وفي الغالب على

(71) *Financial Times*, 24/25 July 204.

أراضٍ مملوكة للدولة. وقد ازدادت العشوائيات بمعدل أسرع مـــرتين مـــن ازدياد السكان عمومًا. وقد شخّص البـــاحثون أطـــراف بنجـــالور بوصـــفها "الأرض المقلّب لأولئك السكان الحضر، المطلوب عملهـــم فـــي الاقتـــصاد الحضري، ولكن حضورهم المرئي، ينبغي أن يتقلص بقدر الإمكان"(٧٢).

إن نصف سكان بنجالور يفتقدون لمياه الصنابير، أكثـــر بكثيـــر مـــن افتقادهم للكابينتشينو، كما أن عـــدد جـــامعي القمامـــة، وأطفـــال الـــشوارع (٩٠,٠٠٠) هناك، أكثر من حرّيفي الكمبيوتر (٦٠,٠٠٠). وفـــي أرخبيـــل مكوّن من عشر مناطق عشوائية، وجد الباحثون ١٩ مرحاضًا فقط لخدمـــة ١٠٢,٠٠٠ ساكن(٧٣).. ويلاحظ "سولومون بنجامين" استشاري الأمم المتحدة والبنك الدولي، المقيم في بنجالور، أن "الأطفال قد عانوا بشدة من الإســـهال والأوبئة الدودية، وأن جزءًا كبيرًا منهم وقع فريـــسة ســـوء التغذيـــة، وأن معدلات الموت بين الرضّع في العشوائيات هناك، كانت أعلى بكثيـــر مـــن متوسطها الرسمي العام". فضلاً عن ذلك، فإنه بحلـــول الألفيـــة، حـــدث أن فرقعت فقّاعة الهند وبنجالور النيوليبرالية؛ إذ على الرغم من استمرار برامج الكمبيوتر في النمو، "فإن فرص مستقبل التشغيل في جميع القطاعات تقريبًا، خاصة القطاع العام، قد تقلصت بسرعة، أو تواجه مستقبلاً غيـــر مـــستقر. فمكاتب الجرانيت، والحديد، والزجاج الملون في بنجالور، وينتمي معظمهـــا

---

(72) Hans Schenk and Michael Dewitt, "The Fringe Habitat of Bangalore," in *Living in India's Slums*, p. 131.

(73) Schenk, "Living in Bangalore's Slums" and "Bangalore: An Outline," in *Living in India's Slums*, pp. 23, 30-32, 44, 46; H. Ramachandran and G. S. Sastry, "An Inventory and Typology of Slums in Bangalore," in ibid., p. 54; Benjamin, "Governance, Economic Settings and Poverty in Bangalore," p. 39; www.agapeindia .com/street_children.htm for ragpickers and waifs.

إلى شركات برامج الكمبيوتر، تمثّل تعارضًا فجًا مع حالة المصانع المتدهورة من حيث الصيانة، وتواجه بـدورها قـرارات إزالـة، وظـروف ائتمـان صارمة"(٧٤). وكان "ريوفولي" Ruefully، وهو استشاري اقتصادي غربـي بارز، مضطرًا إلى الإقرار بأن [رواج] التكنولوجيا الرفيعة في بنجالور، ما هو إلا قطرة في دلو في بحر من الفقر"(٧٥).

---

(74) Benjamin, "Governance, Economic Settings and Poverty in Bangalore," pp. 36-39.

(75) William Lewis quoted in Bernard Wysocki, "Symbol Over Substance," *Wall Street Journal*, 25 September 2000.

الفصل الثامن

فائض البشرية!

"بروليتاريٌ بلا مصانع، أو ورش، أو عمل، وبدون رؤساء، أتخبط في فوضى وظائف غريبة، غارقٌ في بحر الرغبة بالبقاء حيًّا، أعيش حياة أشبه بطريق في الرمضاء".

باتريك شاموازيه[1] Patrick Chamoiseau

إن حيثيات نشوء العولمة النيوليبرالية، في طورها الوحشي منذ ١٩٧٨، تشبه تمامًا تلك العمليات الكارثية، التي تمت خلال حقبة الإمبريالية الفيكتورية المتأخرة (١٨٧٠-١٩٠٠)، وشكّلت "عالمًا ثالثًا" في المقام الأول. إذ مع نهاية القرن التاسع عشر، تسبب دمج النظم الفلاحية المعيشية العظيمة- في آسيا وأفريقيا- في السوق العالمية قسريًّا، تسبب في موت الملايين جراء المجاعة، وانتزاع عشرات الملايين من حيازاتهم التقليدية. وكانت النتيجة النهائية لهذا الدمج (في أمريكا اللاتينية أيضًا)؛ حدوث عملية أشبه "بتحويل الناس إلى بروليتاريا" ريفية، وخلق طبقة عالمية واسعة من أشباه الفلاحين المفقَرين، وعمال المزارع المفتقدين للضمان الوجودي للمعيشة. ونتيجة ذلك، أصبح القرن العشرون عصرًا لا للثورات

(1) Patrick Chamoiseau, *Texaco*, New York 1997, p. 314.

الحضرية، مثلما تصورت الماركسية الكلاسيكية، بل للانتفاضـــات الريفيـــة التاريخية، وحروب التحرر الوطني القائمة على الفلاحين[٢].

ومثلما يخلص مؤلفو تقرير *التحديات التي تطرحها العـــشوائيات* *The Challenge of Slums*، فإن سياسات وبرامج التكيف الهيكلي، كما سيظهر لنا، قد قامت مؤخرًا، وبالدرجة نفسها، بإعادة تشكيل جوهر المستقبل الإنـــساني، "فالمدن بدلاً من أن تكون بؤرة للنمو والرخاء، أصبحت مقلبًا لفائض السكان العاملين في صناعات وتجارة خدمية غير رســـمية، تفتقـــر إلـــى المهـــارة والحماية، وفي الوقت نفسه منخفضة الأجـــر". ويـــشير المؤلفـــون أيـــضًا، وبصراحة مطلقة، إلى أن "ظهور [هذا] القطاع اللارسمي، يعـــد... نتيجـــة مباشرة للتحرر Liberalization". وبعض الاجتماعيين البرازيليين يسمون هذه العملية "*التحويل الـــسلبي إلـــى البروليتاريـــا*" *passive proletarianization*، والذي تضمّن "تفكيك أشكال الإنتاج التقليدية، التي لا تُترجم لـــدى الغالبيـــة العظمى من المنتجين المباشرين، إلى وظيفة براتـــب فـــي ســـوق العمـــل الرسمي"[٣].

هذه الطبقة العاملة غير الرسمية، بدون اعتراف قانوني أو حقوق، لها أسلاف تاريخيون مهمون. ففي التاريخ الأوروبي الحديث، كانت "نـــابولي"، وبدرجة تفوق حتى "دبلن" أو "إيست إند" East End في لندن، هي النمـــوذج المعياري لاقتصاد حضري لا رسمي. ففي هذه المدينة "الأكثر إصدامًا فـــي القرن التاسع عشر"، مثلما يدعوها "فرانك ســـنودن" Frank Snowden فـــي

(2) See my *Late Victorian Holocaust. El Nino Famines and the Making of the Third World*. London 2001, especially pp 206-09

(3) *Challenge*, pp. 40, 46: Thomas Mitschein, Henrique Miranda, and Manceli Paraense, *Urbanizacao Selvagem e Proletarizacao Passiva na Amazonia- O Caso de Belem*, Belem 1989 (quoted in Browder and Godfrey, *Rainforest Cities*, p 132)

دراسته اللامعة، "كانت ثمة وفرة فائضة ومزمنة من العمالة، استطاعت البقاء بفضل معجزات الارتجال الاقتصادي، والتقسيم الباطني الدائم لمنافذ وسبل العيش البسيطة. وكانت الندرة الهيكلية للوظائف الرسمية- حيث تقدّر البطالة الدائمة بنحو ٤٠%- قد تحولت إلى آفاق من التنافس غير الرسمي لها الغلبة. وكان مشهد الشارع في نابولي *المتمردة Risorgimiento* متنوع الألوان، ولكنه كان مثل إرهاص مأساوي لنموذج ليما أو كينشاسا المعاصرة. وقد كتب "سنودن" واصفًا ذلك:

لقد كان من مظاهر الاقتصاد المحلي المتدهور، أن تجد عشرات الآلاف من الناس، يعيشون على بيع ملابسهم، وسط قذارة حواري وأزقة المدينة.. وكان هؤلاء المقاولون المرتجِلون، هم من بثوا في نابولي نشاطها المحموم كسوق تجارية عظيمة. ولم يكن هؤلاء الرجال والنساء من العمال، بل "كانوا رأسماليين بملابس بالية"، لديهم تنوع متسع من الأدوار التي حيرت كل الجهود الساعية لإحصائها. وقد اصطلحت السلطات المحلية آنذاك، على تسميتهم "الصناعيين الصغار micro-industrialists". أما نخبة شوارع "نابولي"، فكانوا من بائعي الصحف، الذين يمارسون بطبيعة الحال تجارة واحدة على مدار العام، ويتمتعون بعائد مالي مستقر. أما بقيّة الشلة، فكانوا "تجارًا غجرًا"، رُحَّلاً حقيقيين في السوق، انتقلوا من نشاط إلى آخر، كلما سنحت لهم الفرصة. وكان هناك بائعو الخضروات، وأبو فروة/ الكستناء، وأربطة الأحذية، وموزعو البيتزا، وأم الخلول، والملابس المستعملة، وبائعو المياه المعدنية، والفيشار والحلوى. وبعض الرجال

ممن أكملوا أنشطتهم بالعمل كمراسيل، وموزعي منشورات تجارية، أو جامعي القمامة ممن يقومون بتفريغ حاويات القمامة، أو يزيلون النفايات المنزلية نظير بضعة قروش أسبوعيًا. بينما عمل آخرون كمنتحبين محترفين يتبعون عربات دفن الموتى من المواطنين المهمين في الطريق إلى المقابر، في بلدة "بوجيوريال" Poggioreale. فقد كان حضور الفقراء المعدمين الجنازة، يضفي طابعًا محددًا على التأبين، ويمنح الطبقات الرفيعة مزيدًا من التأكيد على شعبيتها، وشعورها بالقوة(٤).

واليوم، ثمة مئات، بل آلاف من النابوليين ما زالوا هكذا. ففي السبعينيات، وللتأكيد، استطاع "مانويل كاستيلز" Manuel Castells وغيره من النقاد الراديكاليين، أن يقدموا نقدًا مقنعًا لـ"أسطورة التهميش" التي ربطت بين السكن العشوائي واللارسمية الاقتصادية، بالإشارة إلى الأعداد الضخمة من العمال الصناعيين والموظفين العموميين، الذين أُجبروا على العيش في سكن دون المستوى، في مدن مثل كاركاس وسنتياجو(٥). فضلاً عن ذلك، ففي أمريكا اللاتينية على الأقل، كان تيار سوق العمل الحضري المتسيد خلال العصر السابق من التصنيع البديل للاستيراد، هو *التخفيض* النسبي في العمالة غير الرسمية- من ٢٩% عام ١٩٤٠ إلى ٢١% عام ١٩٧٠ على مستوى المنطقة ككل(٦).

---

(4) Snowden. *Naples in the Time of Cholera*. Cambridge 1995. pp. 35-36.

(5) Castells. *The City and the Grassroots*. pp. 181-83

(6) Orlandina de Oliveira and Bryan Roberts. "The Many Roles of the Informal Sector in Development: Evidence from Urban Labor Markets Research. 1940-1989," in Cathy Rakowski (de.). *Contrapunto: The Sector Debate in Latin America*. Albany 1994, p 56.

ولكن، ومنذ عام ١٩٨٠، عـادت اللارسـمية الاقتـصادية بانتقـام، وأصبحت معادلة التهميش الحضري والمهني، غير قابلة للدحض، وسـائدة: فالعمال اللارسميون، بحسب الأمم المتحدة، يشكلون حوالي خمسي الـسكان النشطاء اقتصاديًا في العالم النامي[٧]. وفي هذا السياق، يضيف بنك التنميـة للأمريكتين Inter-American Development Bank، أنه في أمريكا اللاتينيـة وحدها، يشغّل الاقتصاد اللارسمي في الوقت الحالي ٥٧% من قوة العمـل، ويوفر أربعا من بين كل خمس "وظائف" جديـدة[٨]. (الواقـع أن الوظـائف الوحيدة التي خُلقت في المكسيك، فيما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٤، كانت في القطاع اللارسمي). وتزعم مصادر أخرى أن أكثر من نصف الإندونيـسيين الحضر، ومن ٦٠ إلى ٧٥% من مواطني أمريكا الوسـطى، و٦٥% مـن سكان دكا والخرطوم، و٧٥% من مواطني كاراتشي، يعيشون على القطـاع اللارسمي[٩].

أما المدن الأصغر، مثل هوانكايو Huancayo، في بيرو، أو الله أبـاد، وجايبور Jaipur في الهند، فهي أكثر ميلاً إلى الاصطباغ باللارسمية، حيـث يقبع أكثر من ثلاثة أرباع قوتها العاملة، في أراضي الظل للاقتـصاد غيـر المدرّج في الكتب[١٠]. وبالمثل نجد في الصين ملايين المهاجرين الـريفيين، يتعلقون في الحياة الحضرية بأكثر السبل الشائكة (عـادة غيـر القانونيـة). وحسب "أبروديشيو لاقيان" Aprodicio Laquian، فـإن "معظـم الوظـائف

(7) *Challenge*, pp. 40, 46.

(8) Cited in *The Economist*, 21 March 1998, p. 37.

(9) *Challenge*, p. 103; Rondinelli and Kasarda, "Job Creation Needs in Third World Cities," *Third World Cities*, Hasan, "Introduction, in Khan, *Orangi Pilot Project*, p. xl (cities Karachi Master Plan of 1989); Ubaidur Rob, M. Kabir, and M. Mutahara, "Urbanization in Bangladesh," in Gayl Ness and Prem Talwer (eds), *Asian Urbanization in the New Millennium*, Singapore 2005, p. 36.

(10) Rondinelli and Kasarda, p. 107.

الموجودة في بلدات ومدن صغيرة، تكون في القطاع اللارسمي: أكشاك، أو عربات طعام، أو مطاعم، أو قاعات التجميل، أو محلات الحلاقة، أو صالونات الخياطة، أو التجارة الصغيرة. وبطبيعة الحال، فيما يميل هذا النوع من وظائف القطاع اللارسمي لأن يكون كثيف العمل، وربما يستهلك أعضاء كثرًا، فإن ثمة أسئلة دائمًا تتعلق بمدى كفاءته الاقتصادية، وقدرته الإنتاجية"(١١).

وفي معظم مدن أفريقيا جنوب الصحراء، كفّت الوظائف الرسمية عن الوجود على أرض الواقع. وثمة دراسة لمنظمة العمل الدولية ILO، حول أسواق العمل الحضري في زيمبابوي، في ظل التكيف الهيكلي "الركودي التضخمي stagflationary" في أوائل التسعينيات، توصلت إلى أن القطاع الرسمي، كان يخلق فقط ١٠ آلاف وظيفة سنويًا، أمام ما يزيد سنويًا عن ٣٠ ألفًا في قوة العمل الحضرية(١٢). وفي وضع مشابه، ثمة دراسة لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD، عن غرب أفريقيا، تتنبأ بأن قطاع العمل الرسمي المتقلص، لن يشغّل- بحلول عام ٢٠٢٠- سوى أقل من ربع القوة العاملة التي بحاجة إلى العمل فعليًا(١٣). وهذا استنتاج يتوافق عمليًا مع تنبؤات أخرى كئيبة للأمم المتحدة، تفيد بأن التشغيل اللارسمي سوف يستوعب بطريقة أو بأخرى ٩٠% من العمال الجدد في أفريقيا على مدار العقد القادم(١٤).

---

(11) Laquian, "The Effects of National Urban Strategies and Regional Development Policy on Patterns of Urban Growth in China," p. 66.

(12) Guy Mhone, "The Impact of Structural Adjustment on the Urban Informal Sector in Zimbabwe," "Issues in Development" discussion paper #2, Geneva n.d., p. 19.

(13) Cour and Snerch, *Preparing for the Future*, p. 64.

(14) *Challenge*, p. 104.

أساطير اللارسمية:

إن الطبقة العاملة العالمية اللارسمية، مجتمعةً (بالتقاطع مع سكان العشوائيات، لكن دون التطابق معهم)، يشكلون حوالي بليون نسمة. مما يجعلهم الطبقة الاجتماعية الأسرع نموًا، وأكثر الطبقات عددًا على وجه الأرض، بصورة غير مسبوقة. فمنذ أن صاغ الأنثروبولوجي "كيث هارت" Keith Hart أثناء عمله في أكرا، مفهوم "القطاع اللارسمي" للمرة الأولى عام ١٩٧٣، دخل تراث اجتماعي ضخم، في صراع مع المشكلات النظرية والإمبريقية المخيفة، المتضمَّنة في دراسة إستراتيجية البقاء على قيد الحياة، لدى فقراء الحضر الجدد. وعلى الرغم من أن قطاعات لارسمية واسعة، وُجدت بلا شك في المدن الفيكتورية، وأيضًا في شنغهاي التي كان الصينيون يعملون في الشركات الأجنبية فيها، وكذلك الهند الحضرية المستعمَرة ("واقع غالب ومستمر"، حسبما يكتب "ناديني جوبتو"Nandini Gooptu)، فإن هذا الدور الاقتصادي الكبير للارسمية، يعد دورًا ثوريًا[١٥].

ثمة اتفاق أساسي وسط الباحثين على أن أزمة الثمانينيات- التي نما خلالها معدل تشغيل القطاع اللارسمي، من الضعف إلى خمسة أضعاف معدل تشغيل القطاع الرسمي- قد قلبت رأسًا على عقب مواقف الباحثين البنيوية النسبية، حيث أوضحت الأزمة أن العيش، أو البقاء على قيد الحياة لارسميًا، أصبح هو النمط الأساسي الجديد لمصادر العيش، في أغلب مدن العالم الثالث. حتى في الصين الحضرية المتحولة سريعًا إلى التصنيع، "أصبح ثمة انتشار للأنشطة اللارسمية الأساسية، أو الأولية، توفر وسائل العيش لفقراء الحضر"[١٦]. وليس أكثر تأكيدًا على صحة ما سبق، من أن

---

(15) Gooptu, *The Politics of the Urban Poor in Early Twentieth-Century India*, p. 2.

(16) Khan and Riskin, *Inequality and Poverty in China in the of Globalization*, p. 40.

جزءًا من البروليتاريا اللارسمية، يعتبر قوة عمل سرية للاقتصاد الرسـمي. وقد عرضت دراسات عديدة كيف أن شبكات التعاقد من الباطن، مثل وول-مارت Wal-Mart، وغيرها من الشركات العملاقة، تتغلغل في عمق بـؤس *المستوطنات العشوائية والأكواخ*. وبالمثل أيضًا، ربما يكون هناك نوع مـن التقسيم المتواصل بين عالم التشغيل الرسمي المستمر في التحول إلى حالـة مؤقتة وعَرضية بين أعماق القطاع اللارسمي. ولكن تبقى في نهاية المطاف، حقيقة أن أغلبية فقراء العاملين من ساكني العشوائيات، هـم فـي الحقيقـة مشردون بلا مأوى في عرف الاقتصاد الدولي المعاصر. وبالتالي؛ فقد أصبح الباحثون مجبرين على التصارع مع "نموذج تادارو Tadaro" التفاؤلي الـذي يتبنّاه الآن منظّرو التحديث، وسبق أن تبنّاه تحالفُ الأيديولوجيين التقـدميين في ستينيات القرن الماضي. وهو النموذج الذي يعد القطاع الرسمي وفقًا له، مجرد مدرسة للمهارات الحضرية، يتخرج فيها معظم المهاجرين الـريفيين إلى وظائف القطاع الرسمي(١٧). وبدلاً من الانتقال لأعلى، يبدو أنه لا يوجد في القطاع اللارسمي سوى سلم باتجاه واحد لأسفل، يمكن أن يهـبط عليـه عمال القطاع الرسمي الفائضون عـن الحاجـة، والموظفـون العموميـون المركونون في طريقهم إلى الاقتصاد الأسود.

وعلى الرغم مما سبق، فقد أصبحت هناك مقاومة كبيرة؛ تهدف إلـى الخلاص من هذه الأوضاع، يمكن منها استخلاص محصلة مباشرة، مؤداهـا أن نمو اللارسمية هو انفجار؛ جاء نتيجة للبطالة "النشطة". وهو ما يـصفه "أوبراي" Oberai التابع لمنظمة العمل الدولية ILO كـ"بديل لسوء التوظيف

---

(17) انظر الصياغة الكلاسيكية:

M. Todaro, "A Model of Labor Migration and Urban Unemployment in Less Developed Countries," *American Economic Review* 59:1 (1969), pp. 138-45.

والبطالة المقنّعة، بسبب الزيادة في البطالة الصريحة"[١٨]. والحقيقة أن رُسل أيديولوجية المساعدة الذاتية، وبرامج المنظمات غير الحكومية، يمتعضون وتمتقع وجوههم، عندما يخلُص كبار الباحثين من أمثال "جان بيرمان" Jan Breman (الذي قضى ٤٠ سنة في دراسة الفقر في الهند وإندونيسيا)، إلى أن الانتقال إلى أعلى في الاقتصاد اللارسمي، يعد بدرجة كبيرة "أسطورة مستلهمَة من التفكير المتمني"[١٩]. في المقابل، سعت دراسات كثيرة لا تحصى– في الغالب برعاية البنك الدولي، وغيره من أعمدة ما يسمى "إجماع واشنطن"– إلى الركون إلى الاعتقاد بأن القطاع اللارسمي، على مستوى الممكن والمستقبل، هو *إمداد غيبي dues ex machine* للعالم الثالث الحضري.

ويشتهر "إرناندو دي سوتو" Hernando de Soto بالطبع دوليًا، بحجته القائلة بأن هذا الجمع الضخم من العمال المهمشين، والفلاحين سابقًا، يمثلون خلية نحل نشطة من الرأسماليين– الأصليين proto-capitalists الذين يتوقون إلى حقوق الملكية الرسمية، والفضاء التنافسي الحر غير النظامي: "ربما كان لماركس أن يُصدم، عندما يجد أن أكثر الكتل المتوافقة من الناس في البلدان النامية، لا تتألف من بروليتاريا شرعية مقموعة، بل من صغار *المقاولين* ممن هم فوق القانون"[٢٠]. وهنا يعد نموذج "دي سوتو" للتنمية القائمة بذاتها، كما عرضنا آنفًا، نموذجًا مشهورًا على نحو خاص؛ بحكم بساطة وصَنْعَته: لتخرج الدولة (واتحادات عمال القطاع الرسمي) من الطريق، وأضف قروضًا صغيرة لصغار المقاولين، وأحقية الأراضي لواضعي اليد، ثم لتدع

(18) Oberai, *Population Growth, Employment and Poverty in Third-World Mega-Cities*, p. 64.

(19) Jan Breman, *The Labouring Poor: Patterns of Exploitation, Subordination, and Exclusion*, New Delhi, p. 174.

(20) Quoted in Donald Krueckeberg, "The Lessons of John Locke or Hernando de Soto: What if Your Dreams Come True?," *Housing Policy Debate* 15:1 (2004), p. 2.

الأسواق تأخذ مسارها لإنتاج التركيبة التحويلية الجوهرية من الفقر إلى رأس المال. (التفاؤل المفعم بإلهام "دي سوتو"، وفي أكثر أشكاله سخفًا، أدى ببعض البيروقراطيين من مساعدي التنمية إلى أن يعيدوا تعريف العشوائيات، بوصفها "نظم إدارة حضرية إستراتيجية منخفضة الدخل")(٢١). ولكن هذه الرؤية شبه الطوباوية للقطاع اللارسمي، تتجلى وتتطور من خلال مجموعة معششة من الأكاذيب الإبستمولوجية.

أولاً: لقد أخفق الشعبويون النيوليبراليون، في الالتفات إلى أهمية التحذير الذي أطلقه الأنثروبولوجي "وليام هاوس" William House، عام ١٩٧٨، في دراسات الحالة التي قام بها لعشوائيات نيروبي، حول الحاجة إلى تمييز ما هو تراكم صغير micro-accumulation، عما هو دون مستوى الكفاف sub-subsistence: "فهذا التقسيم البسيط؛ إلى قطاع رسمي وقطاع غير رسمي، الذي يفعله الاقتصاد الحضري بالبلدان الأقل تقدمًا، يعد تقسيمًا غير ملائم. ذلك لأن القطاع اللارسمي وحده يمكن تصنيفه إلى قطاعين فرعيين، على الأقل: قطاع وسطي يتجلى كذخيرة للمقاولين الديناميكيين، ومجتمع الفقراء، ويحتوي على هيئة من العمال المقيمين كبيرة العدد، بالإضافة إلى من هم مستخدمون على نحو سيئ، أو في غير أماكنهم"(٢٢).

ومؤخرًا، قام كل من "أليخاندرو بورتس" Alejandro Portes، و"كيلي هوفمان" Kelly Hoffman، بتقييم الأثر الكلي لبرامج التكيف الهيكلي، والتحول إلى النيوليبرالية، على الهياكل الطبقية الحضرية في أمريكا

(21) Michael Mutter, UK Department for International Development, quoted in *Environmental and Urbanization* 15:1 (April 2003), p. 12.

(22) See William House, "Nairobi's Informal Sector: Dynamic Entrepreneurs or Surplus Labor?" *Economic and Cultural Change* 32 (January 1984), pp. 298-99; also "Priorities for Urban Labour Market Research in Anglophone Africa," *The Journal of Developing Areas* 27 (October 1992)

اللاتينية، منذ سبعينيات القرن الماضي. وفي سياق تقييمهم هذا، ميزوا بعناية بين *برجوازية صغيرة لارسمية*: وهي مجموع مالكي المشاريع الصغيرة الذين يوظفون أقل من خمسة عمال، مضافًا إلى المهنيين والفنيين العاملين لحسابهم"، وبين *البروليتاريا اللارسمية*: وهو مجموع العاملين لحسابهم الخاص، منقوصًا منه المهنيون والفنيون، وخدم المنازل، والعمال بأجر وبدون أجر في مشاريع صغيرة". وفي الحقيقة، قد وجد الباحثان ارتباطًا قويًا في كل بلد، ما بين توسع القطاع اللارسمي، وبين تقلص معدّل التشغيل في القطاع العام، وفي صفوف البروليتاريا الرسمية. وتفسير هذا الارتباط، يكمن في أن "صغار المقاولين" البطوليين عند "دي سوتو"، هم عادة من المهنيين المُزاحين من القطاع العام، أو من العمال المهرة المُسرَّحين. وقد نما هؤلاء، منذ ثمانينيات القرن الماضي، من ٥% إلى أكثر من ١٠% من جملة السكان الحضر النشطين اقتصاديًا، وهو النمو الذي يمثل تيارًا يعكس **روح المقاولة القسرية** [وفق تشديد الباحثيْن]، تلك الروح التي تم فرضها على الموظفين برواتب سابقًا، بفعل الانحدار الحاصل في معدل تشغيل القطاع العام"[٢٣].

ثانيًا: إن المستخدمين/ الموظفين، بأجر أو بدون، في القطاع اللارسمي ظلوا في الغالب خفيين في دراسات سوق العمل بالعالم الثالث، مثلهم في ذلك مثل مستأجري مدن الصفيح الغائبين عن معظم البحوث التي أجريت عن السكن[٢٤]. وعلى الرغم من ثبات نمط التشغيل الذاتي البطولي، فإن معظم المشاركين في الاقتصاد اللارسمي، يعملون مباشرة أو بشكل غير مباشر من أجل شخص آخر (عبر تسليم السلع، أو إيجار عربات الجر، أو الدراجات التاكسي، على سبيل المثال).

---

(23) Alejandro Portes and Kelly Hoffman, "Latin American Class Structures: Their Composition and Change during the Neoliberal Era." *Latin American Research Review* 38:1 (2003). p. 55.

(24) Oberai, *Population Growth, Employment and Poverty in Third-World Mega-Cities*. p. 109.

ثالثًا: إن "التشغيل/ العمالة اللارسمية"، وفق تعريفها الـــدقيق، مثلمـــا يذكّرنا "جان بريمان" Jan Breman، هي: غياب العقود الرسمية؛ والحقـــوق، واللوائح، وقوة التفاوض. فالاستغلال الخفيف (المسموح به دائمًا) هو جوهر التشغيل اللارسمي، وثمة تفاوت متزايد *داخل* القطاع اللارسمي نفسه، وبينه وبين القطاع الرسمي، في درجات الاستغلال بالمعنى السابق(٢٥). لذلك، فإن ما يسميها "دو سوتو" بـــ"الثورة الخفية" لرأس المال اللارسمي، تمثل حقيقية واقعية، فيما يتعلق بشبكات الاستغلال الخفية الكثيرة. وهنا يتكئ كـــلٌ مـــن "بريمان" Breman و"آرفيند داس" Arvind Das على "ســـورات" Surat فـــي وصفهما للرأسمالية الصغيرة "التي لا تكل"، إذ يعلقان:

> إنه فضلاً عن سمة الاستغلال السافر للعمال، فإن ما يميـــز القطاع اللارسمي أيضًا، هو التكنولوجيا الخشنة، والاستثمار الرأسمالي المنخفض، والطبيعة اليدوية الغالبة على الإنتـــاج داخله. وفي الوقت نفسه، فإن القطاع اللارسمي يتميز أيضًا بمعدلات مرتفعة من الربح، وتراكم هائل لرأس المال، يـــتم بمساعدة من حقيقة واقعية، مؤداها أن القطاع اللارســـمي... غير مسجل، فلتنسَ أمرَ الضرائب. وأكثر الصور تجـــسيدًا لهذا القطاع، هو منظر المالك "المتصرف بلطـــف" لمحـــل قمامة، جالسًا في ملابسه الحديدية القويـــة فـــوقَ دراجتـــه البخارية البراقة، وسط أكوام النفايات التي قام جامعو القمامة بتصنيفها بشق الأنفس؛ ليتربّح هو منهـــا.. حقيقـــةً: زبالـــة للاغتناء!(٢٦).

---

(25) Breman, *The Labouring Poor*, pp. 4, 9, 154, 196.

(26) Jan Breman and Arvind Das, *Down and Out: Labouring Under Global Capitalism*, New Delhi 2000, p. 56.

رابعًا: وتعد بمثابة النقطة التجميعية للنقطتين السابقتين- إذ تؤكد اللارسمية سوء المعاملة البالغ للنساء والأطفال. مرة أخرى، يقول "بريمان"، في دراسته للماجستير عن الفقراء العاملين في الهند، الذين يبوحون بأسرار مذهلة: "بعيدًا عن الأعين، عادة ما تكون الكواهل الأضعف والأصغر سنًا، هي التي تتحمل أثقل أعباء التحول إلى اللارسمية. وصورة الفقر المشترك لا تحقق العدل بالنسبة للتفاوت الذي ينعكس معه هذا الشكل من الوجود الاقتصادي، داخل مجال الأسرة أيضًا"(٢٧).

خامسًا: في تناقض مع طبيعة التفكير المتمني للمذاهب الوهمية القائمة بذاتها دون سند وجيه، فإن القطاع اللارسمي- حسبما لاحظ "فريدريك توماس" Frederic Thomas في كالكتا- لا يولّد الوظائف عن طريق بلورة تقسيمات جديدة للعمل، بل من خلال تفتيته للعمل القائم أصلاً، ومن ثم تقسيم الدخل من الباطن:

> ... ثلاثة أو أربعة أشخاص يقتسمون مهمة، يمكن إتمامها بكفاءة على يد شخص واحد فقط، فنساء السوق يجلسن لساعات أمام أكوام قليلة من الفاكهة، أو الخضروات، والحلاقون، وماسحو الأحذية يفترشون الرصيف طوال اليوم؛ لخدمة حفنة من الزبائن، والصِّبية الصغار يزرعون إشارات المرور جيئة وذهابًا لبيع المناديل، ومسح زجاج السيارات، وبيع المجلات أو السجائر، وعمال البناء ينتظرون كل صباح، غالبًا بلا جدوى، على أمل نيل فرصة عمل واحدة(٢٨).

---

(27) Bieman, *The Labouring Poor*, p. 231

(28) Thomas, *Calcutta Poor*, p. 114.

إن فوائض العمالة المتحولة إلى "مقاولين" لا رسميين، غالبًا ما تكون كبيرة للغاية. فثمة مسح تم عام ١٩٩٢ في دار السلام، أظهر أن أغلبية صغار التجار في المدينة، ويزيدون عن ٢٠٠ ألف، لم يكونوا من *بائعات الطعام* Mama Lishe المشهورات من ذوات التقاليد العرقية المتميزة، بل هم ببساطة من الشباب المتعطل. وأشار الباحثون إلى أن: "التجارة الصغيرة اللارسمية، عمومًا، هي التشغيل الذي يمثل الملاذ الأخير لمعظم سكان المدينة، الذين يمرون بوضع هش اقتصاديًا"(٢٩). فضلاً عن أن المشاريع الصغيرة اللارسمية منها والرسمية، في حرب مستمرة مع بعضها البعض على المساحة الاقتصادية: الباعة في الشوارع ضد أصحاب المحلات الصغيرة، وأصحاب وسائل المواصلات اللارسمية؛ من ميكروباص وتوك توك وغيره، ضد النقل العام، إلى غير ذلك(٣٠).. وكما يقول "بريان روبرتس" Bryan Roberts حول أمريكا اللاتينية في بداية القرن الحادي والعشرين، "إن 'القطاع اللارسمي' ينمو، ولكنّ مستوى الدخل فيه ينخفض"(٣١).

لقد اشتدت المنافسة في القطاعات الحضرية اللارسمية، إلى درجة تذكّرنا بتشبيه "داروين" حول الكفاح البيئي في الطبيعة الاستوائية: "عشرة آلاف من الأسافين الحادة [أي الإستراتيجيات الحضرية للبقاء] مُجمعة معًا، في تلاصق، وموجّهة إلى الداخل بفعل هبّات لا تتوقف. أحيانًا، يُضرَب إسفين منها، ثم يُضرَب آخر بقوة أكبر". فلا تُمنَح المساحة للداخلين الجدد، سوى بعد ضمان تقليل إمكانات الربح الخاصة بكل فرد، و/أو بتكثيف حجم العمل، على الرغم من انخفاض العائدات الهامشية. وهذا الجهد المبذول في "إمداد الجميع ببعض الفرصة، في النظام ككل، على الرغم من ندرتها"، إنما

---

(29) William Kombe. "Institutionalising the Concept of Environmental Planning and Management," in Westendorff and Eade, *Development and Cities*, p. 8.

(30) Sethurman, "Urban Poverty and the Informal Sector," p. 8.

(31) Bryan Roberts. "From Marginality to Social Exclusion: From Laissez Faire to Pervasive Engagement." *Latin American Research Review* 39:1 (February 2004), p. 196.

يسير بفعل النوع نفسه من التكدس الشديد، و"التصرف القوطي المرعب gothic" مع الفرص الضعيفة السانحة، التي يميزها "كليفورد جيرتز Clifford Geertz؛ مستعيرًا التعبير من تاريخ الفن، بوصفها "الالتفاف المتشابك على الذات involution" على نحو مشهور في الاقتصاد الزراعي لجافا Java المستعمرة. حيث إن *الالتفاف المتشابك على الذات في بعده الحضري urban involution* هو الوصف الملائم لتطور هياكل التشغيل في معظم مدن العالم الثالث(٣٢).

وللعلم، فإن الميل نحو *الالتفاف المتشابك على الذات في بعده الحضري*، كان موجودًا إبان القرن التاسع عشر. فالثورات الصناعية الحضرية الأوروبية، كانت عاجزة عن استيعاب الطلب الكلي للعمالة الريفية المهجّرة، خصوصًا بعد أن تعرضت الأرض الزراعية- على مستوى القارة- إلى التنافس المدمر القادم من البراري في أمريكا الشمالية، والحقول الأرجنتينية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر. ولكن الهجرات الجماعية للمجتمعات الاستيطانية من الأمريكان والأستراليين، وكذلك من سيبيريا، وفّرت صمامَ أمانٍ ديناميكيًّا؛ منع ظهور دبلن العملاقة ونابولي الفائقة، وأيضًا أوقف انتشار نوعٍ من الفوضى تحت الطّبقية التي تجذرت في أكثر أجزاء جنوب أوروبا بؤسًا.

سادسًا: لأنهم يتنافسون في مثل هذه الظروف البائسة، ربما من غير المفاجئ أن يتحول الفقراء- مفعمين بالأمل- إلى "اقتصاد ثالث" من الكفاف

---

(32) Clifford Geertz, *Agricultural Involution: The Processes of Ecological Change in Indonesia*, Berkeley 1963, pp. 80-82. يستخدم ماكجي T. McGhee التعبير المجازي الالتفاف الداخلي الحضري "urban involution"، في كتابه:

Beachheads and Enclaves" The Urban Debate and the Urbanization Process in Southeast Asia since 1945," in Y. M. Yeung and C. P. Lo (eds), *Changing South-East Asian Cities: Reading on Urbanization*, London 1976.

الحضري، بما في ذلك المراهنات، والمنظومات الهرمية؛ أي الانتفاع عبر توسيع قاعدة المنتفعين، واللوتارية/ الياناصيب، وغيرها من وسائل امتلاك الثروة بأشكال شبه سحرية. وعلى سبيل المثال، ففي دراستهما لاقتصاد الأسرة، داخل عشوائية "كلونج ثيوي" Klong Thoey في ميناء بانكوك، اكتشف "هانز- ديتر إيفرز" Hans-Dieter Evers، و"روديجر كورف" Rudiger Korff، أن نسبة ٢٠% من دخل هذا الحي العشوائي، كان يعاد توزيعها من خلال المراهنات، والألعاب[٣٣]. فضلاً عن ذلك، فإنه وعلى مستوى العالم الثالث ككل، فإن الورَع الديني يدور حول مساعي التأثير على الثروة، أو تحيُّن فرصة الحظ السعيد.

سابعًا: في ظل مثل هذه الظروف، ليس من قبيل المفاجأة أن تكون مبادرات مثل القروض الصغيرة، وجمعيات التسليف/ الادخار، في الوقت الذي تساعد فيه المشاريع اللارسمية التي تعمل على الاتّجار في الماء، لم يكن لها سوى أثر ضئيل على تقليص نسبة الفقر، حتى في "دكا" نفسها، وهي موطن بنك جرامين Grameen Bank ذي الشهرة العالمية[٣٤]. والحقيقة أن الإيمان المتصلب بـ"رفع المشاريع الصغيرة" على حد وصف "جيم جوزيف" Jaime Joseph، وهو منظِّم مجتمعي محنك في "ليما"، أصبح نوعًا من العقيدة الحضرية السائدة، وسط المنظمات غير الحكومية حسنة النية:" لقد أصبح هناك تأكيد شديد على المشاريع الصغيرة، ومتنامية الصغر، بوصفها الحل السحري لتوفير التنمية الاقتصادية لفقراء الحضر. ومن خلال عملنا على مدار السنوات العشرين الماضية، مع الأعمال التجارية الصغيرة، التي تتضاعف في المدن العملاقة، تبيّن لنا أن معظم هذه التجارات، هي ببساطة

(33) Evers and Korff, *Sdoutheast Asian Urbanization*, p. 143.

(34) Serajul Hoque, Micro-credit and the Reduction of Poverty in Bangladesh," *Journal of Contemporary Asia* 34:1 (2004), pp 21, 27.

تكتيكات للبقاء، في ظل انعدام فرص التراكم على الإطلاق، أو ندرتها في أحسن الأحوال"[٣٥].

ثامنًا: إن التنافس المتزايد داخل القطاع اللارسمي، يستنزف رأس المال الاجتماعي، ويفكك شبكات المساعدة الذاتية، وكافة أشكال التضامن الضرورية لبقاء الفقراء شديدي الفقر على قيد الحياة- ومرة أخرى، خصوصًا النساء والأطفال. وتصف "يوليتا إتين" Yolette Etienne، العاملة في إحدى المنظمات غير الحكومية في "هاييتي"، المنطقَ الغائي للفردية النيوليبرالية في سياق الإفقار المطلق، فتقول:

> الآن أصبح كل شيء للبيع. فالمرأة اعتادت أن تتلقاك بترحاب، وتقدم لك القهوة، وتتقاسم معك كل ما تملكه في منزلها. كان في استطاعتي أن أذهب لأحضر صحنًا من الطعام من منزل جاري، ويمكن لأية طفلة أن تحصل على جوزة الهند من منزل أمها الروحية، وحَبتي مانجو من عند عمتها. غير أن هذه الأمثلة، وغيرها من أفعال التضامن، آخذة في الزوال مع ازدياد معدلات الفقر. الآن عندما تصل إلى مكان ما، فإن المرأة إما أن تعرض عليك بيع فنجان من القهوة، أو أنها لا تمتلك قهوة على الإطلاق. تقاليد العطاء المتبادل التي سمحت لنا بمساعدة بعضنا البعض، والعيش- كل هذا ضاع[٣٦].

---

(35) Jaime Joseph. "Sustainable Development and Democracy in Megacities," in Westendorff and Eade, *Development and Cities*, p 115.

(36) Quoted in Bell, *Walking on Fire*, p 120.

وبالمثل، في المكسيك، نجد "مرسيدس دي لا روشا" Mercedes de la Rocha "تحذر من أن الفقر المستمر على مدى عقدين من الزمن، تسبب في تركيع الفقراء بقوة". وفي هذا السياق نفسه، تواصل "سيلفيا تشانت" Sylvia Chant، قائلة: "بينما مثّلت تعبئة الأسر المعيشية، والعائلة، والتضامن المجتمعي، خدمة كبيرة كموارد حيوية في الماضي، فإن هناك حدًّا لعدد مرات تبادل المعروف التي يمكن للناس أن ينتظروها من بعضهم البعض، وإلى أي مدى تكون هذه التبادلات فعالة، في مواجهة العوائق الهيكلية الضخمة على طريق حُسن العيش. خصوصًا، أن ثمة قلقًا من أن الأعباء غير المتناسبة التي وقعت على عاتق المرأة، والتي جعلتها تبذل كل جهد في كل عضلة، ولم يعد فيها ما يمكن أخذه أكثر من ذلك[٣٧].

تاسعًا: وأخيرًا، في ظل هذه الظروف الشديدة من التنافس، فإن المقرر النيوليبرالي (كما تم وضعه في *تقرير التنمية العالمية* للبنك الدولي عام ١٩٩٥) الذي من شأنه أن يجعل العمل أكثر مرونة، يعد ببساطة أمرًا كارثيًّا[٣٨]. وهنا، فإن شعارات "دي سوتو" تمهد الطرق لجحيم "هوبز". فهؤلاء المنخرطون في منافسة القطاع اللارسمي- في ظل ظروف عرْض العمالة اللامحدود- عادة ما يقفون عاجزين أمام حرب شاملة للجميع ضد الجميع؛ والصراع. وفي المقابل عادة ما يتحول إلى عنف عرقي ديني، أو عنصري. فالآباء الروحانيون، أو أصحاب الأراضي في القطاع اللارسمي (المخفيون في معظم الأدبيات)، يستخدمون القسر بذكاء، بل والعنف المزمن لتنظيم التنافس وحماية استثماراتهم. وكما يؤكد "فيليب أميس" Philip Amis: "ثمة عوائق تحول دون الدخول في رأس المال، والسياسة. وهو ما يخلق

(37) Paraphrased in Sylvia Chant, "Urban Livelihood, Employment and Gender," in Gwynne and Kay, pp. 212-14.

(38) Breman, *The Labouring Poor*, pp. 5, 201

بدوره ميلاً نحو الاحتكار في المجالات الناجحة داخل القطاع اللارسمي، تلك المجالات التي يصعب الدخول فيها"(٣٩).

سياسيًا يعد القطاع اللارسمي- في غياب حقوق العمل الجبري- عالمًا شبه إقطاعي، قائمًا على التخليصات المالية، والرشاوى، والولاءات القَبَلية، والاستبعاد العرقي. فالمساحة الحضرية لا يمكن أبدًا أن تكون خالية. فدائمًا هناك مكان على الرصيف، أو تأجير عربات الجر، أو عمل يوم في موقع بناء، أو توصية منزلية لصاحب عمل جديد: كل هذا يتطلب رعاية، أو عضوية في شبكة ما مغلقة، وغالبًا ما تكون ميليشية عرقية، أو عصابة. فالصناعات الرسمية التقليدية، مثل النسيج في الهند، أو النفط في الشرق الأوسط؛ جنحت إلى تقوية التضامن العرقي، عبر الاتحادات والأحزاب السياسية الراديكالية، كما أن صعود القطاع اللارسمي غير المحمي سار كثيرًا يدًا بيد مع التفريق العرقي الديني المغالى فيه، وكذلك العنف الطائفي(٤٠).

---

(39) Philip Amis, "making Sense of Urban Poverty," *Environmental and Urbanization* 7:1 (April 1995), p. 151.

(٤٠) ولكنني، أعتقد أن "مانويل كاستيل" Manuel Castells و"أليخاندرو بورتس" Alejandro Portes، ذهبا بعيدًا في عام ١٩٨٩ بما يسهل الإيحاء بأن البروليتاريا "تخبو" في مواجهة "التنوع المتزايد لأوضاع العَمل، وما يترتب عليه من تغير في الظروف الاجتماعية".

(Castells and Portes, "World Underneath: The Origins, Dynamics and Effects of the Informal Economy," in Portes, Castells, and Lauren Benton (eds), *The Informal Economy: Studies in Advanced and Less Developed Countries*, Baltimore 1989, p. 31.)

والحقيقة أن العمال اللارسميين، يميلون إلى التكدس بأعداد ضخمة في فرص رئيسية قليلة، حيث التنظيم الفعال "والوعي الطبقي" قد يصبحان ممكنين إذا وُجِدت حقوق ولوائح العمل الحقيقية. ومن ثم، فإن نقص المواطنة الاقتصادية، وليس التنوع في مصادر العيش *الحقيقي*، هو ما يجعل العمل اللارسمي في عُرضة شديدة للخضوع لنظام العمولة، أو الزبون، والتشظي العرقي. ومن ثم، فإنني أردد صدى "جان بريمان" Jan Breman، عندما يقول إن القضية الرئيسية في القطاع اللارسمى هي صياغة الحقوق والحماية للعامل، لا للملكية (ص. ٢٠١).

متحف للاستغلال:

إذن، فيما لو كان القطاع اللارسمي، ليس هو العالم الجديد الشجاع، كما تصوره المتحمسون له من الليبراليين، فإنه في الأغلب متحف حي للاستغلال الإنساني. إذ ما من شيء في كتالوج البؤس الفيكتوري، كما رواه "ديكنز" Dickens، أو "زولا" Zola، أو "جوركي" Gorky، ليس موجودًا في مكان ما بمدينة العالم الثالث اليوم. وإني بذلك لا أومئ إلى الباقين على الأشكال الكئيبة المتردية من البقاء على قيد الحياة، والارتكاس الوجودي فحسب، بل أومئ خصوصًا إلى أشكال الاستغلال البدائية التي مُنحت حياة جديدة بفعل العولمة ما بعد الحديثة- وعمالة الأطفال تعد مثالاً بارزًا في هذا الصدد.

وعلى الرغم من ندرة مناقشة موضوع الأطفال من قِبل أيديولوجيي الرأسمالية القائمة بذاتها، إلا أن ثمة عمالة فوق القانون موجودة، وهي غالبًا ما تكون في صالح مصدّرين عالميين، كما تشكل في الوقت نفسه قطاعًا مهمًا من الاقتصاديات الحضرية التي تغلب عليها اللارسمية. فاتفاقية حقوق الطفل- التي صدّقت عليها كل البلدان، ما عدا الولايات المتحدة والصومال- تحظر سوء المعاملة الأكثر قسوة، ولكن وكما اكتشفت مؤسسة مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch، واليونيسيف، فمن النادر أن نجد هذه الاتفاقية نافذة ومفعلة في المدن الأكثر فقرًا، أو عبر التقسيم العنصري، والاضطهاد الطبقي الاجتماعي. فالمدى الكامل الحقيقي لعمالة الطفل المعاصر، تكون مخفية بالطبع عن الأنظار، ومتحدية لأية إجراءات أو قياسات مستقيمة؛ ومع ذلك فإن المعروف منها صادم.

وعلى سبيل المثال، ثمة دراسة حديثة لأطفال العشوائيات في "دكا"، كشفت عن أن "ما يقرب من نصف الصِّبية والفتيات من عمر ١٠ إلى ١٤

سنة، كانوا يؤدون أعمالاً مولِّدة للدخل". وأن "٧% فقط من الفتيات والصّبية من عمر ٥ إلى ١٦ هم مَن يذهبون إلى المدرسة". وتحتوي "دكا" على أكبر عدد من عمالة الأطفال في آسيا (حوالي ٧٥٠ ألفًا)، وتوفر العائدات المكتسبة من ورائهم، نصف دخل الأسر الفقيرة التي تعولها نساء، وحوالي ثلثه في الأسر التي يعولها رجال[٤١]. وعلى الرغم من الرواج الذي شهدته "مومباي"، في نسبة الذهاب إلى مرحلة التعليم الثانوي، فإن "أريون أبادوراي" Arjun Appadurai ترى أن "اقتصادها من المطاعم وخدمات الطعام العملاقة [يكون] في الغالب معتمدًا اعتمادًا كليًا على جيش كبير العدد من عمالة الأطفال"[٤٢]. وفي القاهرة، وغيرها من المدن المصرية، يشكل الأطفال دون الثانية عشرة ربما ٧% من القوة العاملة. وهو ما يشمل آلافًا من أطفال الشوارع، ممن يجمعون أعقاب السجائر، أو يعيدون بيعها (حيث تدخين علبة يوميًا يكلف الفقير نصف راتبه الشهري)[٤٣].

ولكن عاصمة العالم في الأطفال المستعبدين والمستغَلين، ربما تكون المدينة الهندوسية المقدسة "فرناسي" Varanasi (مليون و١٠٠ ألف نسمة) في ولاية "أتار براديش" Uttar Pradesh، وتشتهر بصناعة النسيج وبمعابدها والشخصيات المقدسة، وتنسج سجادها وتطرّز *الساري* *saris* (الزي النسائي الهندي) بواسطة العمالة المستعبَدة التي تتألف من أكثر من ٢٠٠ ألف طفل، جميعهم دون سن الرابعة عشرة[٤٤]. في مقابل القروض الصغيرة ومدفوعات

(41) Jane Pryer, *Poverty and Vulnerability in Dhaka Slums: The Urban Livelihood Study*, Aldershot 2003, p. 176; Victoria de la Villa and Matthew S. Westfall (eds), *Urban Indicators for Managing Cities. Cities Data Book*, Manila 2001 (عدد عمالة الأطفال).

(42) Arjun Appadurai, "Deep Democracy: Urban Governmentality and the Horizon of Politics," *Environment and Urbanization* 13:2 (October 2001), p. 27.

(43) Nedoroscik, *The City of the Dead*, p. 64.

(44) Zama Coursen-Neff, *Small Change: Bonded Child Labour in India's Silk Industry* (Human Rights Watch Report 15:2, January 2003), p. 30

نقدية، يقوم "الداليت" وفقراء المسلمين الريفيين، وبما لا يصدقه عقل، ببيع أطفالهم أو أسرهم بكاملها، لمتعهدي النسيج الجشعين. ووفقًا لليونيسيف؛ فإن آلافًا من الأطفال الذين يعملون في صناعة السجاد، إما "مخطوفون أو مخدوعون، أو متورطون في وعود حُررت بأيادي آبائهم؛ نظير الحصول على مبالغ زهيدة من المال".

> أغلبهم يبقون في الأسْر، ويتعرضون للتعذيب، ويُجبَرون على العمل طوال عشرين ساعة يوميًا بدون راحة. فالأطفال الصغار يُجبَرون على الجلوس على أصابعهم مُنحنين منذ مطلع الفجر حتى الغروب. وهو ما يوقف نموهم، وبقسوة، خلال سنوات التكون. وقد واجه نشطاء اجتماعيون صعوبة العمل في المنطقة، بسبب سيطرة مالكي صناعات السجاد على المنطقة؛ وهي سيطرة قوية أشبه بالمافيا(٤٥).

وبالنسبة لصناعة أزياء *الساري* الحريرية في مدينة "فرناسي"، وفق تحقيق أجرته منظمة مراقبة حقوق الإنسان HRW، فإن الوضع ليس أفضل من غيره: "الأطفال يعملون لمدة ١٢ ساعة أو أكثر، يوميًا، ستة أيام ونصف، أو سبعة أيام أسبوعيًا، تحت ظروف من إساءة المعاملة البدنية، واللفظية. وهم يبدءون صغارًا في سن الخامسة، ويربحون من لا شيء على الإطلاق إلى حوالي ٤٠٠ روبية (٨,٣٣ دولارات) شهريًا". هناك في إحدى الورش، اكتشف الباحثون صبيًا عمره تسع سنوات مقيدًا بسلاسل في النول؛ في كل مكان أبصروا صبية تغطي أجسادهم ندوبٌ من أثر الحروق، جراء العمل الخطر في يرقات دودة الحرير التي يتم غليها، وأيضًا فتيات صغيرات

(45) UNICEF, *The State of the World's Children 1997*, Oxford 1998, p. 35.

تدهورت قدرتهن على الإبصار، جراء الساعات الطويلة التي يقضينها في التطريز، تحت إضاءة ضعيفة(٤٦).

وهناك مركز آخر لعمالة الأطفال سيئ السمعة، في "فيروزأباد" Firozabad عاصمة الزجاج في الهند: (عدد السكان ٣٥٠ ألفًا).. وأيضًا في ولاية "أتار براديش" Uttar Pradesh. ومن قبيل السخرية المُرة، أن الأساور الزجاجية التي تحبها النساء المتزوجات، يتم صنعها بواسطة ٥٠ ألف طفل، يعملون في حوالى ٤٠٠ مصنع من المصانع المُميتة:

> الأطفال يعملون في جميع أنواع العمل، مثل حمل تراب الزجاج المنصهر، على حرف قضيبين من الحديد، ولا يبعد ما يحملونه من لهيب، سوى قدمين فقط عن أجسادهم، ويقومون بسحب الزجاج المنصهر من الأفران التي تصل درجة حرارتها ما بين ١٥٠٠ و١٨٠٠ درجة مئوية، ويكاد ذراعهم يلامس الفرن نظرًا لصغر أحجامهم، ثم يقومون بعد ذلك بالتبريد والتسخين لجعل المادة لدنة وطيعة، حيث ينتهي العمل عند لهب كيروسين صغير، في غرفة بفتحة تهوية صغيرة، إن وجدت من الأصل؛ لأن الهواء يمكن أن يطفئ اللهب. وأرضية المصنع بالكامل مفروشة بكسر الزجاج، حيث يجري فوقها الأطفال جيئة وذهابًا، حاملين الزجاج الملتهب، بلا أحذية تحمي أقدامهم. أسلاك الكهرباء العارية، يمكن رؤيتها متدلية في كل مكان؛ لأن أصحاب المصنع لا يمكنهم إزعاج أنفسهم بتركيب سلك داخلي معزول(٤٧).

(46) Coursen-Neff, *Small Change*, pp. 8. 30.

(47) *State f World 's Children*, p. 37.

ولكن، على مستوى العالم، تمثل الخدمة المنزلية القطاع الأكبر من عمالة الأطفال الحضرية بلا شك. فقطاع كبير من أفراد الطبقة المتوسطة الحضرية في العالم الثالث، يستغلون الأطفال الفقراء والمراهقين استغلالاً مباشرًا. وعلى سبيل المثال، "فقد بيّن مسح أُجرى على الأسر متوسطة الدخل في كولومبو، أن واحدة من بين كل ثلاثة أسر، لديها عامل منزلي، هو طفل تحت سن الرابعة عشرة"– والنسبة هي نفسها في "جاكرتا". وفي "بورتو برنس" Port-au-Prince، وأيضًا في "سان سلفادور" San Salvador و"جواتيمالا"، ليس من النادر أن تجد خدمَ منازلٍ في سن السابعة، أو الثامنة يعملون تسعين ساعة أسبوعيًا، ولهم يوم واحد راحة كل شهر. والوضع بالمثل، في "كوالالامبور" وغيرها من المدن الماليزية، حيث عادة ما يكون خدم المنازل من الفتيات الإندونيسيات الصغيرات، ويكون معيار العمل هو ١٦ ساعة يوميًا طوال أيام الأسبوع بدون راحة محددة(٤٨).

وبينما تستمر معاملة أطفال الحضر الفقراء كعبيد، أو عمالة بعقود عمل، يستمر وضع بعض من آبائهم أشبه بحيوانات الجر. فلطالما كانت عربات الجر التي تستخدم لركوب الزبائن، وصمة عار شهيرة في تدهور العمالة في آسيا. وكانت هذه العربة قد اخترعت في اليابان في ستينيات القرن التاسع عشر، وقد جعلت "الحيوانات البشرية" تحل محل البغال، والأحصنة، في سحب العربات الكارو وغيرها، كوسيلة رئيسية للنقل في المدن الكبرى من شرق وجنوب آسيا.

وقد ظلت عربات الركوب التي يجرها الإنسان باقية، إلا في اليابان، حتى مع منافسة السيارات وبعد الحرب العالمية الأولى بسبب كونها وسيلة

---

(48) Ibid., p. 30; Human Rights Watch, "Child Domestics: The World's Invisible Workers," June 10, 2004, p. 3.

مريحة ومنخفضة التكاليف، ودور اجتماعي لإظهار منزلة وهوية البرجوازية الصغيرة. (لقد كتب الروائي "تشي ينج" Xi Ying، عن "بكين" في عشرينيات القرن الماضي، أن "الناس يميلون إلى التفكير وفقًا لمنطق: لو أنك لا تمتلك حتى عربة جر خاصة، فمن عساك أن تكون؟")[49]. وكان جر عربة الركوب/ الركشه *rickshaw*، يعد هو الشكل الأكثر قسوة للعمالة الحضرية، وفي "شنغهاي" على الأقل، أصيب الجرارون (من يسعفهم الحظ لكسب ما يعادل عشرة سنتات يوميًا) بنوبات قلبية، أو درن في بضع سنوات[50].

وبطبيعة الحال، فقد وجهت الثورات شجبها لـ"الركشه"، ووعدت مئات الآلاف من عبيد الركشه بيوم التحرير. ولكن، طال ما تأجل هذا اليوم، ولا يزال مؤجلاً في بعض الأجزاء من آسيا. والحقيقة أن وسائل النقل غير الرسمية التي تدار بقوة بشرية، بما فيها "الركشه" من الطراز القديم، والدّراجة التاكسي (اختُرعت في عام ١٩٤٠)، لا تزال تَستخدم وتستَغِل اليوم عددًا من الرجال الفقراء، يفوق ما كانت تستخدمه عام ١٩٣٠. وقد قدّرت منظمة العمل الدولية ILO أن هناك أكثر من ثلاثة ملايين من جرّاري الركشه في شوارع آسيا[51]. وفي دكا "مدينة الرب الخاصنة"، ذكر "جرمي سيبروك" Jeremy Seabrook، أكبر خبراء مخططي الحضر، أن قطاع الركشه، بسبب كونه "يدار تلقائيًا"، فإنه يعد "ثاني أكبر قطاع موفر للعمالة في المدينة، وهو يأتي في المرتبة الثانية، لا لشيء سوى أن ملايين أو عددًا نحو ذلك، يتم استخدامهم في صناعة الملابس". فجرّارو الركشه الذين يمكن اعتبارهم نماذج العالم الثالث من "لانس أرمسترونج" Lance Armstrong،

(49) David Strand, *Ricshaw Beijing: City People and Politics in the 1920s*, Berkeley 1989, p. 28. See also James Warren, *Rickshaw Coolie: A People's History of Singapore, 1880-1940*, Singapore 2003.

(50) Stella Dong, *Shanghai: The Rise and Fall of a Decadent City*, New York 2000, pp. 162-63.

(51) Sethuraman, "Urban Poverty and the Informal Sector," p. 7.

ولكن ممن لم يتغنّ بهم التاريخ، ولم يأخذوا حقهم من الاهتمام- يكسبون حوالي دولار واحد يوميًا، نظير قيادة الركشه لمتوسط ٦٠ كيلومترًا، في مرور وتلوث "دكا" الأشبه بالكابوس(٥٢). وبوصفها آخر ملاذ للعمالة الذكورية في مدينة الفقر المتزايد، فإن هناك منافسة عنيفة عليها بين من لديهم ترخيص، ومن يعملون فيها بدون ترخيص، حيث يعيش مَن هم بدون ترخيص في خوف من البوليس الذي دائمًا ما يصادر منهم الركشه، ويحرقها(٥٣).

والوضع بالمثل في "كالكتا"، حيث وصف "جان بريمان" وبدقة جر الركشه بوصفه "اقتسام المحصول"، حيث ٥٠ ألفًا من المهاجرين البهارى Bihari يمثلون العمود الفقري لهذه الصناعة. معظمهم يعيشون بعيدًا عن أسرهم، وأحيانًا لعقود طويلة، متجمعين معًا في أكواخ، أو إسطبلات، معتمدين على مجموعات صغيرة مترابطة لتنظيم العمل. ويؤكد بريمان هنا على أنهم "ليسوا مقاولين صغارًا، يديرون عملهم على نحو مستقل [تلك أسطورة]، أي يشقون طريقهم بانهماك لأعلى عبر التراكم، بل هم بروليتاريا مستقلة، يعيشون في موقف الضعف". والتعويض الرمزى الذي ينالونه، هو أنهم ليسوا الأسوأ: وهذا التمييز يشير إلى *"الثيلاز"* *thelas*: وهُم وضعاء ثقيلو الوزن جدًا، ويجب أن يجرهم رجل بمعاونة أسرته كاملة(٥٤).

وجزء الاقتصاد اللارسمي الأكثر تغولاً، ربما حتى من دعارة الأطفال، هو الطلب العالمي المجتاح على الأعضاء البشرية. وهو سوق ظهرت في الثمانينيات، وافتتح بجراحة نقل الكُلى. ففي الهند أصبحت الأطراف المفقَرة من مدينة "شيناي" Chennai (مدراس Madras) معروفة

(52) Scabrook, *In the Cities of the South*, pp. 35-37.

(53) See the article in *Housing by People in Asia* 15 (published by Asian Coalition for Housing

(54) Breman, *The Labouring Poor*, pp. 149-54.

عالميًا باحتوائها على "مزارع الكُلـــى"، وفقًـــا لتحقيـــق أجرتـــه *فـــرانتلاين* *Frontline* "على مدى ثمانية أعوام بين ١٩٨٧ و١٩٩٥، كانـــت المنطقـــة العشوائية في بهاراتي ناجار Bharathi Nagar في فيليفاكـــام Villivakkam، وهي ضاحية في شيناى، بمثابة ميناء مركزى لتجارة الكلى في تاميل نـــادو Tamil Nado. وفي قمة رواجها الذي اشتعل جزئيًّـــا علـــى يـــد الأجانـــب الطائرين إلى جنوب الهند من أجل الكلى، كانت هذه المنطقة العشوائية تسمى "كلى ناجار" Kidney Nagar، أو قرية الكلـــى، أو كلـــى– باكـــام Kidney-bakkam". وكان أغلب سكان عشوائيات المنطقة من اللاجئـــين المُـــزاحين، والذين يكافحون من أجل البقاء، مثل جرّارى الركشه، أو عمّال المياومة. وقد قدّر الصحفيون أن أكثر من ٥٠٠ شخص، أو شخص واحد في كل أسرة، قد باعوا كليتهم إلى مراكز محلية لنقل الأعضاء، أو للتصدير إلى ماليزيا، وأن أغلبية المتبرعين كانوا من النساء، بينهن "كثيرات من النساء المهجورات... المجبَرات على بيع كليتهن للحصول على المـــال الـــلازم لـــدعم أنفـــسهن وأطفالهن"[٥٥].

عشوائيات القاهرة أيضًا أصبحت فـــي الحـــسبان، خـــلال الـــسنوات الأخيرة، كمكان لنقل الأعضاء. "معظم الزبائن في هذه العمليات"، كما توضح "جيفري ندوريسك" Jeffrey Nedoroscik "من عرب الخليج الأثرياء. حيـــث ثمة بلدان أخرى في الشرق الأوسط، لديها مراكز لنقل الأعضاء، قليل منهـــا يحتوي أعدادًا هائلة من الفقراء المستعدين لبيع أعضائهم.. وفي الماضـــي، كانت المعامل ترسل القائمين بالتجنيد والاصطياد إلى عـــشوائيات القـــاهرة، ومناطقها الفقيرة، مثل القرافة، لعمل قائمة بالمتبرعين المحتملين"[٥٦].

---

(55) مجتمعات فقيرة أخرى، مثل البلدتين التوأمين بالبالايم Pallipalayam، وكومارابالايم Kumarapalayam، كانت أيضًا منخرطة في تجارة الكلى في تاميل نادو Tamil Nadu. وكثير من المتبرعين كانوا من مشغلى الأنوال المميكنة الساعين للتغلب على التسريح والمنافسة الخارجية. "مجتمعات بكلية واحدة" (تحقيق) في: ("One-Kidney Communities" (Investigation), *Frontline* 14:25 (13-26 December 1997).

(56) Nedoroscik, *The City of the Dead*, p. 70.

صغار السحرة في "كينشاسا":

إلى أي مدى يمكن مط أو مد الخامة المرنة، لعملية التحول إلى اللارسمية، بما يمكن أن يتوافر معه مأوى ومصدر رزق لفقراء الحضر الجدد؟ ثمة مدينة عظيمة، طردت من الاقتصاد العالمي رسميًا من قبل القائمين عليه في واشنطن، تناضل من أجل حد الكفاف وفقط الكفاف، وسط أشباح أحلامها التي تعرضت للخيانة.. إنها "كينشاسا" عاصمة بلد غني طبيعيًا وفقير اصطناعيًا، حيث عبر الرئيس "موبوتو" Mobutu نفسه ذات مرة عن ذلك، قائلاً: "كل شيء للبيع، وكل شيء يمكن شراؤه". ومن بين المدن العملاقة في العالم، تعد "دكا" وحدها الفقيرة إلى هذه الدرجة، بينما كينشاسا تتجاوز جميع المدن في اعتمادها اليائس على الإستراتيجيات اللارسمية للبقاء. وحسبما لاحظ أحد الأنثروبولوجيين ببعض الفزع، فإن هذا الوضع يمثل "معجزة وكابوسا" في الوقت نفسه لمدينة واسعة، حيث الاقتصاد الرسمي والمؤسسات الدولية بعيدًا عن الجهاز القمعي، قد انهارت تمامًا[٥٧].

إن "كينشاسا" مدينة توصف عمومًا من قبل سكانها، بأنها "جثة *cadavre*، دمار *épavee*، أو *كينشاسا كومة النفايات* *Kin-la-poubelle*"[٥٨]. وهنا يكتب الأنثروبولوجي "رينيه ديفيش" Rene Devisch "أن تقديرات اليوم تقول إن أقل من ٥% من مواطني كينشاسا يحصلون على رواتب منتظمة"[٥٩]. والسكان إنما يبقون على قيد الحياة بسبب حقولهم الخضراء

(57) Rne Devisch. "Frenzy. Violence, and Ethical Renewal in Kinshasa." *Public Culture* 7·3 (1995) p. 603.

(58) Thiery Mayamba Nlandu. "Kinshasa: Beyond Dichotomies," conference paper. Conference on Urban Poverty, *African News Bulletin-Bulletin d'Information Africaine Supplement*, issue 347 (1998), p. 2.

(59) Rene Devish, "Parody in Matricentered Christian Healing Communes of the Sacred Spirit in Kinshasa," *Contours* 1:2 (Fall 2003), p. 7.

المنتشرة في كل مكان، وبفضل ذكائهم وفطنتهم أيضًا، يشترون ويبيعون، يهرّبون ويساومون". وقد أصبحت "المادة ١٥" (من قانون العقوبات المعاقبة على السرقة) هي ميثاق المدينة، ولكن يبقى الشعار المدني غير الرسمي هو "*يمكنني التغلب رغم كل شيء* *se débrouiller*"(٦٠). وفي الواقع، ومع قلب واجهة ومركز الرسمية واللارسمية، فإن "كينشاسا" في الغالب تعيد ابتكار تصنيفات الاقتصاد السياسي، والتحليل الحضري. وهنا يتساءل الأنثروبولوجي "فيليب دي بويك" Filip De Boeck، الذي يدرس حالة الأطفال في "الكونغو":

> ماذا يعني أن تكون مدينة تضم ٦ ملايين نسمة، يكاد لا يوجد بها أي مرور سيارات، أو نقل جماعي لسبب أنه، ولفترات متكررة، لا يوجد فيها قطرة وقود واحدة لأسابيع كاملة أو حتى لأشهر؟ وما سبب استمرار الاتفاق الاجتماعى على الإشارة إلى البنكنوت بوصفه "نقودًا"، في حين أن الفرد يواجه يوميًا بحقيقة أنه مجرد قطعة ورق لا قيمة لها؟... وما فائدة التمييز بين المجتمعات الرسمية وغير الرسمية، أو الموازية، في حين أن ما هو لا رسمي أصبح الشائع والسائد، بينما ما هو رسمي اختفي في الغالب!؟(٦١).

الكونغوليون يتحايلون على دمار مدينتهم، بشعور لا يمكن كبته من المُزاح، ولكن السخرية الممزوجة بالنقد دائمًا ما تظهر قبل كآبة الوضع والمشهد الاجتماعي: متوسط الدخل انخفض إلى ما دون ١٠٠ دولار سنويًا؛

---

(60) Wrong, *In the Footsteps of Mr. Kurtz*, p. 152.

(61) Filip De Boeck, "Kinshasa: Tales of the 'Invisible City' and the Second World," in Enwezor et al., *Under Siege*, p 258.

وثلثا السكان يعانون سوء التغذية؛ والطبقة المتوسطة انقرضت؛ وواحد من بين كل خمسة بالغين مصاب بفيروس نقص المناعة المكتسب/الأيدز(٦٢). وثلاثة أرباع السكان بالمثل، غير قادرين على تحمل الرعاية الصحية الرسمية؛ ومن ثم عليهم اللجوء إلى الشفاء الإيماني المسيحي، في إطار حركة الخمسينية Pentecostal* أو السحر الأهلي(٦٣). وكما سنعرض الآن، فإن أطفال الكونغوليين الفقراء يتحولون إلى سَحرة بالضرورة.

فمدينة "كينشاسا"، مثلها مثل بقية "الكونغو – زائير"، تضعضعت، وتدهورت أحوالها؛ بفعل عاصفة قوية من حكم اللصوص، والتوجهات الجغرافية لسياسات الحرب الباردة، والتكيف الهيكلي، والحرب الأهلية المزمنة. وكانت ديكتاتورية موبوتو Mobutu، التي نهبت الكونغو نهبًا منظمًا على مدى ٣٢ عامًا، بمثابة وحش فرانكنشتاين الذي خلقته، وأدامت وجوده واشنطن، ومعها صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، وكواي دأورساي Quai d'Orsay، أو وزارة الخارجية الفرنسية في دورٍ داعمٍ. وقد قام البنك الدولي– الذي يُلكز عند الحاجة من قبل وزارة الخارجية– بتشجيع موبوتو، على استخدام ضمانات صناعات دولته المعدنية؛ لاقتراض أموال ضخمة من بنوك أجنبية. وهو على علم تام بأن معظم القروض كانت ذاهبة مباشرة إلى

(62) Ja,es Astill, "Congo Casts out its Child Witches," *Observer*, 11 May 2003.

(*) حركة دينية بروتستانتية، ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وتتميز هذه الحركة بالإيمان بأن جميع المسيحيين بحاجة لأن يعيشوا اختبارا فريدا؛ كي يكونوا مسيحيين فعلاً. ويسمى هذا الاختبار بمعمودية الروح القدس. وهذا الاختبار يجب أن يكون مطابقًا لما عاشه رسل المسيح الاثنا عشر، بحسب ما ورد في الكتاب المقدس، عندما حل عليهم الروح القدس في اليوم الخمسين لصعود المسيح للسماء (يوم العنصرة). وكان حلول الروح عليهم جليا من خلال عدة علامات، أبرزها: التكلم بألسنة مختلفة، والتنبؤ، وشفاء المرضى. (المترجم).

(63) Lynne Cripe et al., "Abandonment and Separation of Children in the Democratic Republic of the Congo," US Agency for International Development evaluation report conducted by the Displaced Children and Orphans Fund and Leahy War Victims Contract (April 2002), pp 5-7.

حسابات خاصة في البنك السويسري. ثم اتخذ صندوق النقد الدولي خطواته، بداية مع أول برنامج للتكيف الهيكلي هنـــاك، للتأكـــد مـــن تـــسديد عامـــة الكونغوليين الديون بالفائدة!! الشروط الأولى (التي فرضها فريق لـــصندوق النقد الدولي في بنك زائير Banque du Zaire وهيئـــة فرنـــسية فـــي وزارة المالية)، دمرت الخدمة المدنية: ربع مليون من المستخدمين العموميين- الفئة المهنية الرسمية الأكبر في الاقتصاد- تم تسريحهم بدون استحقاقات. ومـــن بقي منهم تحولوا إلى سلوكيات الاختلاس والرشوة ("المادة ١٥") على مقياس كبير، بتصديق عام من موبوتو.

وبعد عشر سنوات، ومع تآكل، ونهب البنية التحتية للكونغـــو، التـــي كانت ذات يوم مفخرة للبلد، فرض صندوق النقد الدولي برنامج تكيف هيكلي جديدًا. وتصف "تشيكالا بيايا" Tshikala Biaya كيف أن اتفاقية ١٩٨٤ "قـــد سعت إلى منح القوة القانونية للقطاع اللارسمي، وتحويله إلى بقرة حلـــوب؛ ليحل محل دولة الرفاهة التي كان صندوق النقد والبنك الدوليين قد دمراهـــا للتو". وقد قام نادي باريس Club of Paris بجدولة ديـــون موبوتـــو، مقابـــل إحداث مزيد من التقليص في القطاع العام، ومزيد من الانفتاح في الـــسوق، وخصخصة شركات الدولة، وإزالة القيود على العملة، وزيادة تصدير الماس. وقد أغرقت الواردات الأجنبية زائير، وأغلقت الصناعات الوطنية، وتم فقدان ١٠٠ ألف وظيفة أخرى في كينشاسا. وقد استطاع التضخم الشديد أن يـــدمر النظام النقدي، وأي مظهر من مظاهر الترشيد الاقتصادي(٦٤).

(64) Tshikala Biaya, "SAP: A Catalyst for the Underdevelopment and Privatization of Public Administration in Democratic Republic of Congo, 1997-2000," DPMN *Bulletin* 7:3 (December 2000).

وكتب "رينيه ديفيش" Rene Devisch أن "المال ظهر وكأنه سر وكيان خيالي، حيث لم تعد له أية علاقة سواء بالعمل أو الإنتاج. فأصبح الناس يسعون إلى ملاذ في اقتصاد الحظ"(٦٥). والحقيقة أن مواطني كينشاسا، كانوا يقعون في حبائل رهان محموم يائس: سباق خيل فرنسي، "لوتارية" تنظمها شركات كبرى لتصنيع البيرة، وألعاب أغطية الزجاجات، من شركات المشروبات الغازية والخفيفة، ولكن الأكثر قدَرية في هذا الرهان، كانت خطط كسب المال الهرمية، التي تعمل على زيادة أعداد المنتفعين القاعدية لإفادة رأس الهرم، والتي تدار سرًا بواسطة الجيش. (ثمة خطط هرمية شبيهة "شبه سحرية"، كانت تجتاح ألبانيا بنفس النتائج المدمِّرة في ١٩٩٦-٩٧، حيث ابتلعت ودمرت نصف الناتج القومي لدولة مفقرة)(٦٦). وقد ربح المستثمرون الأوائل راديوهات أو أجهزة من جنوب أفريقيا، مما حدا بالآخرين كلهم إلى دخول الرهان، إلى درجة أنهم كانوا يبدعون الخطة، ولكنهم يقفزون من القارب قبل أن يتحطم- ولكن لم ينج من الكارثة المحققة سوى عدد قليل منهم. فكما يوضح ديفيش Devisch، فإنه "مع مثل هذا القسم الكبير من سكان كينشاسا المنخرطين في هذه المنظومات المالية، فإن آثار الانهيار على الاقتصاد، وخصوصًا القطاع اللارسمي، كانت كارثية. الإحباط الأكثر مرارة للناس أدى إلى وجود عقلية خيالية، ولكنها شريرة، تعتمد على السحر"(٦٧).

---

(65) Devisch, "Frenzy, Violence, and Bthical Renewal in Kinshasa," p. 604.

(66) See analysis by World Bank researchers: Carlos Elbirt, "Albania under the Shadow of the Pyramids," and Uptal Bhattacharya, "On the Possibility of Ponzi Scheme in transition Economies," in *Transition Newsletter* (newsletter published by the World Bank Group) (January-February 2000), (www.worldbank.org/transition-newsletter/janfeb600/pgs24-26.htm).

(67) Devish, "Frenzy, Violence, and Ethical Renewal in Kinshasa," p 604.

وكان من ضمن العواقب المباشرة للكارثة، وسط التضخم المستمر، اندلاع التمرد الشعبي الحضري في سبتمبر/ أيلول ١٩٩١، عندما انضم سكان العشوائيات- بمشاركة الجيش- في نهب هائل للمصانع، والمحال التجارية، ومحال الملابس. ويصف ديفيش "الانطلاق الأقصى المنتشي، والمصمم، وانطلاق حالة الفوضى والانحلال، أمام طاقة العنف الخامل والمتحول إلى داخل نفوس الناس، تحت ضغوط التضخم الهائل، وإفلاس سوق العمل"[٦٨]. وتلت ذلك كوارث أخرى. ففي يناير/ كانون الثاني ١٩٩٣ تعرضت كينشاسا للنهب مرة ثانية، ولكن هذه المرة من الجنود وحدهم. فانهار النظام المصرفي، واختفت الإدارة العامة بشكل أو بآخر، ولجأت المشاريع إلى استخدام المقايضة، واكتشف صغار الموظفين العموميين أن رواتبهم كانت لا تساوي وقتذاك، سوى ثمن قيمتها عام ١٩٨٨ بما تعنيه الكلمة. ووفقًا لما ذكره "دي بويك" De Boeck، فإن "انسحاب صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٣ من البلاد، أثبت حقيقة مؤداها أن الكونغو لم تعد مشاركة في الاقتصاد العالمي"[٦٩]. ومع دمار الاقتصاد الوطني، والتحفظ على ثروة الكونغو في أقبية بنوك سويسرا، تمت الإطاحة بالرئيس موبوتو أخيرًا عام ١٩٩٧؛ ولكن "التحرير" لم يؤدِّ إلا إلى تدخلات أجنبية، وحرب أهلية لا تنتهي راح ضحيتها، وفق تقديرات هيئة المعونة الأمريكية، أكثر من ثلاثة ملايين نسمة (معظمهم من المجاعة والأمراض)، وذلك حتى عام ٢٠٠٤[٧٠]. وكانت أعمال السلب والتخريب

---

(٦٨) المرجع السابق، ص. ٦٠٦.

(69) De Boeck, "Kinshasa," p. 258.

(٧٠) التقدير الفعلي هو ٣,٨ ملايين نسمة لأنتوني جامبينو Anthony Gambino، المدير المتقاعد لهيئة المعونة الأمريكية في بعثتها للكونغو.

Mvemba Dizolele, "Eye on Africa: SOS Congo," UPI, 71 De Boeck, "Kinshasa," p. 266.

على يد جيوش النهب في شرق الكونغو- فيما يشبه مشاهد من حرب الثلاثين عامًا في أوروبا- أعطت الدفعة إلى ذهاب أمواج جديدة من اللاجئين إلى عشوائيات كينشاسا المكتظة في الأساس.

وأمام موت المدينة الرسمية ومؤسساتها، سعى مواطنو كينشاسا- الأمهاتُ والجداتُ قبل الجميع- إلى البقاء عبر "تحويل كينشاسا إلى حالة القرية"، حيث أسسوا زراعة الكفاف، واستعادوا أشكالاً تقليدية من المساعدة الذاتية الريفية. كان يتم زراعة كل متر مربع خالٍ بنبات الكاسافا cassava، بما في ذلك الميادين وعلى الطرق السريعة والرئيسية، بينما ذهبت النساء ممن هن بلا قطع أراضٍ، في طلب العلف والجذور، والتنقيب في الهشيم[٧١]. ومع الانهيارات المتتالية لعالم العمل، ومن ثم العالم الخيالي القائم على المقامرة، تحوّل الناس إلى الاعتماد على السحر القروي والعقائد النبوية/ العرافة. لقد سعوا إلى الخلاص من "مرض البيض" مرض المال القاتل[٧٢]. وفي أماكن المصانع المهجورة، والمحال المغلقة، قامت كنائس صغيرة ومجموعات من المصلين، بإنشاء محلات تحت لافتات بدائية، ولكنها مطلية بألوان زاهية. ففي المناطق العشوائية الضخمة، مثل "ماسينا" Masina (المعروفة محليًا باسم "جمهورية الصين" بسبب كثافتها)، انتشرت عقيدة "الخمسينية" Pentecostalism بسرعة هائلة؛ فبنهاية عام ٢٠٠٠ كانت المعلومات تقول: إن هناك ٢١٧٧ طائفة دينية تم تشكيلها حديثًا في كينشاسا، كثيرون منهم تعارفوا في جلسات الصلاة الليلية"[٧٣].

---

(71) De Boeck, "Kinshasa," p. 266.

(72) Devisch, "Frenzy, Violence, and Ethical Renewal in Kinshasa," p. 625.

(73) Abdou Maliq Simone, p. 24.

وحسبما أكد ديفيش وآخرون، فإن ظاهرة العقيدة الخمسينية، تعد متشعبة ومعقدة، إذ تضم طيفًا من الأشكال الأهلية الأصـــلية والمـــستوردة. فـــبعض الكنائس، على سبيل المثال، تأسست على يد أشخاص كاثوليـــك عـــاديين، أي ليسوا رجال دين، أو من طلاب سابقين في الجامعات أو المعاهد العليا، ممـــن يفتقدون الوسائل المالية أو التعليم الكافي للالتحاق بمدرسة الكهانة. ومن ثـــم، فإنهم بدلاً من ذلك، خلقوا لأنفسهم رُخَصًا ربحيـــة مـــن وراء نمـــط الـــوعظ الأمريكي، الذي يقوم على الشفاء بالإيمان، وسُنة الرخاء(٧٤). وفي كنيسة مثل "مبيف يا نلونجو" Mpeve Ya Nlongo، هناك جماعات أخرى للشفاء تقودهـــا نساء، حيث تستخدم الرؤى والأحلام النبوءية للوصول إلى الـــروح القُـــدُس، والسلف القبَلي؛ تحسبًا للعالم الآخر الذي سيمحو الفقر، وانعدام المساواة. وهذه "الجماعات المتمركزة على الأم"، كما يرى ديفيش Devisch: "تتحـــدث عـــن الحاجة إلى امتلاك مراكز معنوية وأخلاقية؛ مـــن أجـــل مـــستقبل المدينـــة، والاهتمام بالقيم، والشعور بالملاذ، والجو المنزلي"(٧٥). وعلى وعلى أية حال، فإن إحياء الحركة الدينية الخمسينية في كينشاسا، جاء متـــسقًا ومتلاقيًـــا مـــع التجديد الروحي لدى عامة الناس– تبديد آثار الحداثة الكارثية– وفـــي ســـياق تاريخي، حيث أصبحت السياسة منزوعة المصداقية تمامًا.

ولكن مواهب الكينشاسيين في التنظيم الذاتي، وروح *الثقة بقدرتهم على التغلب على كل شيء* *se débrouiller*، لها حدود مادية واقعية، ولها أيـــضًا جانبها المظلم. فعلى الرغم من الجهود البطولية، خصوصًا من قبل النـــساء،

---

(74) Sedcias Kaklue interviewed in "Democratic Republic of the Congo: Torture and Death of an Eight-Year-Old Child," Federation Internationale de L'Acat (Action fes Christiens pur L'Abolition de la Torture) (FIATCAT), (October 2003).

(75) Rene Devisch, précis of talk ("'Pillaging Jesus:' The Response of Healing Churches of Central Africa to Globalization"), *Forum for Liberation Theology, Annual Report 1997-98.*

فإن البنية الاجتماعية التقليدية، تتعرض لحالة تآكل مستمر. فأمــام الإفقــار الشديد، يفسر الأنثروبولوجيون حالة تفكك ثقافة تبــادل الهِبَــات والهــدايا، والعلاقات التبادلية، بأن نظام المجتمع الزائيري غير قادر على تحمل أعباء أسعار الزواج، أو كسب العيش. والشباب، على سبيل المثال، يهجرون النساء الحوامل، ومن ثم يصبح الآباء هم الحاضر الغائب AWOL(٧٦). وفي الوقت نفسه، فإن هولوكوست الأيدز، يخلف وراءه أعدادًا هائلة من الأيتام والأطفال حاملي الفيروس HIV. وثمة ضغوط شديدة على الأسر الحضرية الفقيــرة- هؤلاء المنفصلون عن شبكات مساندة ودعم صــلات القرابــة الريفيــة، أو بالعكس، الواقعون تحت أعباء مضاعفة بفعل ما تمليــه علــيهم متطلبــات التضامن العائلي- للتخلص من أكثر أعضائها المعتمِدين. وحسبما يشير أحد باحثي مؤسسة "إنقاذ الطفولة" Save the Children على نحو قاتم: "فإن قدرات الأسر والمجتمعات الكونغولية على تــأمين الرعايــة والحمايــة الأساســية لأطفالهم، يبدو أنها تتداعى"(٧٧).

فضلاً عن ذلك، فقد تصادفت أزمة الأســرة الكونغوليــة، مــع رواج الحركة الدينية الخمسينية من جانب، وظهور خوف نهضوي من السحر، من جانب آخر. فكثير من مواطني كينــشاسا، وحــسب ملاحظــات "ديفــيش"، يفسرون قدَرهم ومصيرهم في إطار الكارثة الحضرية الأكبر، بوصفه "نوعا من اللعنة أو *الأعمال السحرية* *ensorcellement*"(٧٨). ونتيجــة لــذلك، فــإن الإيمان الخبيث والحَرْفي بــ"هاري بوتر" قد أحكم قبضته على كينشاسا، مما أدى إلى الإدانة الهستيرية الجماعية لآلاف من "السحرة" الأطفــال، انتهــت

---

(76) Review of lecture by Filip De Boeck, "Children the Occult and the Street in Kinshasa," *News from Africa* (February 2003).

(77) Mahimbo Mode quoted in Astill, "Congo Casts Out its 'Child Witches'."

(78) Devisch, "Frenzy, Violence, and Ethical Renewal in Kinshasa," p. 608.

بطردهم إلى الشوارع، بل وحتى قتلهم أحيانًا. والأطفال، ممن هم أكبر قليلاً من الرضع، تم اتهامهم بكل شر وسوء حل بالبلاد، بل وساد الاعتقاد في عشوائية ندجيلي Ndjili على الأقل، بأنهم يطيرون ليلاً في أسراب على عصي المقشات. ويؤكد عمال الإغاثة على حداثة هذه الظاهرة، قائلين: قبل عام ١٩٩٠، يكاد ألا يكون ثمة حديث عن السحرة الأطفال في كينشاسا. والأطفال المتهمون حاليًا بالسحر، هم في نفس وضع متهميهم: فقد أصبحوا عبئًا غير منتج على الآباء الذين ما عادوا قادرين على إطعامهم. والأطفال الذين يقال عنهم: إنهم 'سحرة'، هم غالبًا من أسر شديدة الفقر"(٧٩).

لقد صارت الكنائس المتمتعة بكاريزما دينية، متورطة وبعمق، في الترويج للمخاوف من الأطفال المسحورين، وإضفاء الشرعية عليها. وفي الحقيقة، إن أصحاب حركة الخمسينية، يصورون عقيدتهم بوصفها درعَ الله ضد السحر. وقد تفاقمت هذه الهستيريا في أوساط الشباب والأطفال (ممن طوّروا مخاوف مَرضية شديدة من القطط، والسحالي، والليالي الطويلة لانهيار السلطة)؛ بفعل التداول واسع الانتشار لأفلام الفيديو المسيحية المبهرة، التي تصور اعترافات "الأطفال السحرة"، وما يليها من إخراج الأرواح. وهو ما تتضمن طقوسه أحيانًا التجويع، واستخدام الماء المغلي(٨٠). وينحي باحثو هيئة المعونة الأمريكية USAID باللائمة، مباشرة، على "الوعاظ من صنع أنفسهم" ممن "يؤسسون منابرهم، ويوزعون نبوءاتهم على من يبحثون عن أي إصلاح سهل لكآبتهم وسوء طالعهم".

---

(79) DRC: Torture and Death of an Eight-Year-Old Child," October 2003.

(80) See "Christian Fundamentalism Groups Spreading over Africa," German campaign of Friends of People Close to Nature, 17 June 2004 (www.fpcn-global.org).

عندما تفشل النبوءات، قد يُنحي الوعاظ باللائمة على أسباب خرافية، تعود لها حالة البؤس المستمر، مثل السحر الذي غالبًا ما يلقَى على عاتق الأطفال بوصفهم مصدره؛ لأنهم الأسهل في إلقاء اللوم عليهم، والأقل قدرة على الدفاع عن أنفسهم. والأسرة التي تسعى إلى مشورة الواعظ، قد يقال لها، مثلاً، إن طفلها المعاق يسبب بؤسهم المستمر، مما يجعل عجز الطفل أو الطفلة، مؤشرًا واضحًا على أنه أو أنها ساحرة(٨١).

من ناحية أخرى، يزعم "دي بويك" De Boeck أن الطوائف تمنح حالة الديمومة لنظام أخلاقي لارسمي وسط انهيار عام، وأن "زعماء الكنيسة لا ينتجون هم أنفسهم هذه الاتهامات، بل هم مجرد من يؤكدونها، ومن ثم يضفون الشرعية عليها". وينظم الرعاة اعترافات عامة، وحالة التخليص من الأرواح: "حيث يوضع الأطفال وسط دائرة للصلاة، غالبًا ما تضم نساء ممن يسقطن عادة في حالة تكلم الألسنة glossolalia، وهي علامة على الروح القدس". ولكن معظم الأسر غالبًا ما ترفض الرجوع بالأطفال معها إلى البيوت، بمجرد اتهامهم بالسحر، ومن ثم يجبر الأطفال على العيش مطرودين في الشارع. وها هي طفلة تتحدث إلى "بويك": "أنا فاني Vany، عمري ثلاث سنوات، كنت مريضة. بدأت رجلاي في التورم. ثم بدءوا يقولون: إنني ساحرة. فعلاً. الواعظ أكد لهم ذلك"(٨٢).

---

(81) Cripe et al., "Abandonment and Separation f Children in the Democratic Republic of Congo," p. 16.

(٨٢) انظر المقتطفات من كتاب:

Filip De Boeck. "Geographies of Exclusion: Churches and Child-Witches in Kinshasa." *BEople* 6 (March0August 2003)

الأطفال السحرة، مثل الفتيات الملبوسات، أو اللاتي كن يعانين الهوس في "القرن السابع عشر في مدينة شاليم Salem، تبدو هلوسة بالاتهامات ضدهم أو ضدهن، والقبول بدورهن كباش الفداء على إفقار أسرهن والضياع الحضري الحاصل. وقد أخبر أحد الصبية المصوّرة "فينسن بيكمان" Vincen Beeckman:

> لقد أكلت ٨٠٠ رَجل. لقد جعلتهم يصطدمون في حوادث، في طائرات أو سيارات. لقد ذهبت حتى إلى بلجيكا، والفضل في ذلك يرجع إلى حورية البحر التي أخذتني كل هذه المسافة، إلى ميناء أنتوريب Antwerp. وقد سافرت أحيانًا بعصا المقشة، وأحيانًا أخرى، على قشرة ثمرة الأفوكادو. مساءً أكون في سن الثلاثين، ولدى مئة من الأطفال. أبي فقد وظيفته كمهندس بسببي- ثم قتلتُه مع الحورية. قتلت أيضًا أخي وأختي. دفنتهما حيّيْن. وقتلتُ أيضًا كل أطفال أمي، وهم في رحمها(٨٣).

ونظرًا لعدم وجود نظام لرفاهة الأطفال في "كينشاسا"، يعتقد بيكمان Beeckman أن الاستبعاد الأسري للأطفال المتهمين بأنهم سحرة، لا يمثل مجرد تبرير للتخلي، بل أيضًا "فرصة لوضعهم في جماعة دينية، حيث سيتلقون نوعًا ما من التعليم والطعام يقتاتون عليه، أو إدخالهم ضمن برنامج أحد المراكز التي تديرها منظمة غير حكومية دولية". غير أن معظم السحرة الأطفال، خصوصًا المرضى منهم وحاملي فيروس HIV، ينتهي بهم الحال ببساطة في الشوارع، حيث يصبحون جزءًا من جيش حضري تبلغ قوته على

---

(83) Vincen Beeckman, "Growing Up on the Streets of Kinshasa," *The Courier ACP EU* (September-October 2001), pp 63-64.

الأقل ٣٠ ألفًا "من الفارين، وضحايا إساءة المعاملة، والمهجّرين لأسباب الحرب، والجنود الأطفال الذين تم هجرهم، والأيتام، وغير المتزوجين"(٨٤).

السحرة الأطفال في كينشاسا، مثلهم مثل العشوائيات المصدرة لأعضاء البشر في الهند ومصر، يبدو أنها تأخذنا إلى النقطة الوجودية صفر، والتي لا يوجد وراءها سوى معسكرات الموت، والمجاعة، ورعب السيد "كورتز"(*) Kurtzian horror .. ولكن، وكما تساءل "تيري مايامبا نلاندو" Thierry Mayamba Nlandu أحد مواطني "كينشاسا" الموثوق بهم، في تأمل حزين، ولكن على طريقة "ويتمان" Whitmanesque ("العشوائيات، أيضًا، تغني كينشاسا...")： "كيف تعيش هذه الملايين هذه الحياة المتفككة البائسة في كينشاسا؟". ويجيب بأن "كينشاسا مدينة ميتة. ليست مدينة أموات". القطاع اللارسمي ليس حلاً غيبيًا، بل هو محض أرضٍ يبابٍ بلا روح". ولكنه أيضًا "اقتصاد للمقاومة" يخلع الشرف على الفقراء، "حيث بدونه يؤدي منطق السوق إلى يأس شامل"(٨٥). ومواطنو "كينشاسا"، مثل سكان العشوائية المارتينية Martinican التي تسمّى "تكساكو Texaco"، في رواية "باتريك شموازيه" Patrick Chamoiseau الشهيرة التي تحمل نفس الاسم، يتعلقون بالمدينة "بفعل وجود آلاف التصدعات الحية بها"، ويرفضون بعناد إفلاتها(٨٦).

---

(84) Beeckman, "Growing Up on the Streets of Kinshasa," p. 64.

(*) كورتز: شخصية خيالية محورية في رواية لـ"جوزيف كونراد" Joseph Conrad بعنوان "*قلب الظلام*" *Heart of Darkness*. وكورتز في تلك الرواية تاجر عاج في أفريقيا، وقائد محطة تجارية، ويحتكر منصبه بوصفه شبه إله وسط الأفارقة الأصليين. (المترجم).

(85) Thierry Mayamba Nlandu, "Kinshasa: Beyond chaos," in Enwezor et al., p. 186.

(86) Chamoiseau, *Texaco*, p. 316.

خاتمة

في شارع فيتنام

"الوعد المعهود.. أنه يمكن لشيء جديد وجميل أن يولد من القمامة، والريش المبعثر، والرماد، وحطام الأجساد".

جون بيرجر[1] John Berger

إذن.. لقد حان بالفعل وقت "عملية فرز الإنسانية"، حسب أولوية الفائدة، ووفق منظور الرأسمالية المتأخرة late-capitalist triage of humanity. فكما حذر "جان بريمان" Jan Breman في كتابه عن الهند، قائلاً: "إننا نصل إلى نقطة اللاعودة، عندما يصبح جيش الاحتياط- المنتظر اندماجه في العمل- موصومًا ككتلة فائضة دائمًا عن الحاجة، بوصفه عبئًا زائدًا لا يمكن احتواؤه الآن أو في المستقبل، في عملية الاقتصاد وفي المجتمع على حد سواء. ومن ثم فإن عملية التحول metamorphoses أو الدمج هذه، تمثل على الأقل، في رأيي، الأزمة الحقيقية للرأسمالية العالمية"[2]. والبديل عنها، كما تشير المخابرات المركزية الأمريكية CIA عام ٢٠٠٠، وبتجهُّم: "أنه في أواخر تسعينيات القرن المنصرم، كان بليون عامل يمثلون ثلث القوة العاملة العالمية، أغلبهم من مناطق الجنوب، قد أصبحوا إما متعطلين عن العمل، أو موظفين في غير أماكنهم كبطالة مقنّعة"[3]. وبعيدًا عن عقيدة الحمولة عند

---

(1) John Berger, "Rumor," preface to Tekin, *Berji* Kristin, p. 8.

(2) Breman. *The Labouring Poor*. p. 13.

(3) Central Intelligence Agency, *The World Factbook*. Washington, D.C. 2002, p. 80.

"دي سوتو" de Sotan والخاصة باللارسمية المرنة اللامحدودة، لا يوجد سيناريو رسمي لإعادة دمج هذه الكتلة الهائلة من العمالة الفائضة في تيار الاقتصاد العالمي.

وهنا يأتي التناقض الدراماتيكي مع عقد الستينيات: فمنذ أربعين سنة خلت، ولّدت الحرب الباردة بين كتلتيها العظميين رؤى متنافسة للتخلص من الفقر العالمي، وإعادة تسكين سكان العشوائيات. فمع الأقمار الاصطناعية "سبوتنك" Sputniks، والصواريخ الباليستية عابرة القارات ICBM، كان الاتحاد السوفيتي لا يزال نموذجًا مقنعًا للتحول الصناعي السريع الفوري، عبر نهج الصناعات الثقيلة والخطط الخمسية. وعلى الصعيد الآخر، شخّصت إدارة كيندي- رسميًا- ثورات العالم الثالث بوصفها "أمراض الحداثة"، وفضلاً عن الباريهات الخضراء/ القوات الخاصة Green Berets، وقاذفات B-52، أقرّت إصلاحات زراعية، وبرامج إسكان طموحة. ولتحصين الكولومبيين ضد الانفلات أو التمرد الحضري، على سبيل المثال، قام ائتلاف التقدم Alliance for Progress، بدعم مشاريع إسكان ضخمة مثل مشروع سيداد كينيدي Ciudad Kennedy (٨٠ ألف نسمة) في بوجوتا Bogota وفيلا سوكورو Villa Socorro (١٢ ألف نسمة) في مدلين Medellin. وقد تم الإعلان عن أليانزا Allianza بوصفه خطة مارشال لنصف الكرة الغربي، من شأنها أن ترفع مستوى المعيشة على مستوى الأمريكتين، إلى مستوى نظيرهما في جنوب أوروبا، إن لم ترفعها إلى مستويات الجرنجو/ أمريكان الولايات المتحدة gringo. وفي تلك الأثناء، وكما عرضنا سابقًا، فإن الزعماء القوميين المتحلّين بالكاريزما، مثال عبد الناصر، ونكروما، ونهرو، وسوكارنو، روّجوا لرؤاهم الخاصة في الثورة والتقدم.

ولكن الأرض الموعودة في عقد الستينيات، لم تعد تظهر بعد ذلك على الخرائط النيوليبرالية الخاصة بالمستقبل. وكانت حملة الأمم المتحدة للأهداف الإنمائية للألفية Millennium Development Goals (MDGs)، هي الزفـــرة الأخيرة في رئة المثالية التنموية (وهي الحملة التي عبّر عنها كاريكاتوريّـــا، بشكل ساخر بعض الأفارقة العاملين في الإغاثة، بتغيير كلمة "الألفية" إلـــى "الدنيا"، أو "الحد الأدنى"، فأصبحت "الأهداف الإنمائية الـــدنيا" Minimalist Development Goals)، وكانت تهدف إلى تخفيض نسبة من يعيشون في فقر مدقع إلى النصف، بحلول عام ٢٠١٥، وكذلك التخفـــيض الـــشديد لمعـــدل الوفيات بين الأطفال حديثي الولادة، والأمهات، في العام الثالث. وعلى الرغم من التعبيرات الاستعراضية لتضامن الدول الغنية، من قبيل "لنجعـــل الفقـــر تاريخاً" Make Poverty History، و"عش أحداث الثمانية" Live 8، التي تـــم تداولها أثناء قمة مجموعة الثمانية في جلينجيلز/ أسكتلندا Gleneagles فـــي شهر يوليو/ تموز ٢٠٠٥، ففي الأغلب لم ولن تتحقق الأهـــداف الإنمائيـــة للألفية، في المستقبل المنظور. وفي تقريرهم حول التنمية البـــشرية ٢٠٠٤ Human Development Report، حذر باحثو الأمم المتحدة من أنـــه، وفـــق المعدلات الحالية من "التقدم"، فإن أفريقيا جنوب الصحراء، لن تـــصل إلـــى الأهداف الإنمائية حتى دخول القرن الثاني والعشرين. وقد كـــرر الـــشركاء الرئيسيون في سوء التنمية في أفريقيا، يمثلهم صندوق النقد والبنك الدوليين، كرروا هذا التقدير المتشائم نفسه، فـــي **تقريـــر الرصـــد العـــالمي** Global Monitoring Report الذي أصدراه في شهر أبريل/ نيسان ٢٠٠٥[٤].

---

(4) *Human Development Report 2004*, pp. 132-33: Tanya Nolan, "Urgent Action Needed to Meet Millennium Goals," *ABC Online*, 13 April 205.

ومع "السور العظيم"- بالمعنى الحرفي- من القسر الواسع للتكنولوجيا العالية، التي تحجب الهجرة بأعداد كبيرة إلى البلدان الغنية، تظل العشوائيات وحدها حلاً مرخصًا تمامًا لمشكلة تخزين الفائض البشري للبلد. فسكان العشوائيات، وفقًا لبرنامج "الموئل" في الأمم المتحدة UN-HABITAT، يزيدون حاليًا بمعدل ٢٥ مليون نسمة سنويًا(٥). فضلاً عن ذلك، وكما أكدنا في فصل سابق، فإن جبهة الأمان الممثّلة في أراضي وضع اليد، تختفي من كل مكان. ومن ثم، فإن الوافدين الجدد إلى الهامش الحضري، يواجهون ظروفًا وجودية، لا يمكن وصفها إلا كـ"هامشية داخل الهامشية"، أو كما في عبارة أكثر حرارة، جاءت على لسان أحد سكان العشوائيات في بغداد، يعاني اليأس، وصَفَها بوضع "أشبه بالموت"(٦). والحقيقة أن الفقر على أطراف الحضر peri-urban poverty ــ ذلك العالم الإنساني الكئيب، المنقطع بدرجة كبيرة عن التضامن المعيشي الذي يمتاز به الريف، والمنفصل كذلك عن الحياة الثقافية والسياسية للمدينة التقليدية- يعد الوجه الراديكالي الجديد للتفاوت، وانعدام المساواة. والحافة الحضرية ما هي إلا منطقة للنفي، أي "بابل جديدة". فقد ورد، على سبيل المثال، أن بعضًا من الإرهابيين الجدد- ولدوا وتربوا في عشوائيات الدار البيضاء الطرفية- هاجموا فنادق فخمة، ومطاعم أجنبية في شهر مايو/ أيار ٢٠٠٣، وأنهم لم يسبق لهم النزول إلى المدينة قط من قبل، وأنهم دهشوا وتعجبوا من فخامة وسحر المدينة(٧).

(5) UN-HABITAT, "Sounding the Alarm on Forced Evictions," press release, 20th Session of the Governing Council, Nairobi, 4-8 April 2005.

(6) Quoted in James Glanz, "Iraq's Dislocated Minorities Struggle in Urban Enclaves," *New York Times*, 3 April 2005.

(7) See accounts at www.maroc-hebdo.press.ma and www.bladi.net.

ولكن لو أن العمران الحضري اللارسمي أصبح شارعًا مسدودًا، أفلن يثور الفقراء؟ أليست العشوائيات الكبرى- مثلما عبر "دزرائيلي" Disraeli عن قلقه في ١٨٧١، أو مثلما انزعج كنيدي عام ١٩٦١- مجرد براكين تنتظر الانفجار؟ أو ألاّ تولّد المنافسة الداروينية التي لا ترحم مع زيادة أعداد الفقراء المتنافسين على كسرات الخبز نفسها اللارسمية- مع عنف مجتمعي مدمر للذات في المقابل، كما هو حاصل الآن في "الالتفاف على الذات في بعده الحضري في أعلى مراحله"؟ وإلى أي مدى يمكن لبروليتاري لارسمي أن يمتلك ذلك الطلّسم الأكثر قوة بين الطلاسم الماركسية، ألا وهو "الفاعلية التاريخية"؟

إنها أسئلة معقدة عديدة، يجب توضيحها وكشفها، عبر دراسات حالة ملموسة ومقارِنة، قبل أن يتم الإجابة عنها بأي معنى عام. ("على الأقل، إنها مقاربة تبنيتها أنا و"فورست هيلتون" Forrest Hylton في الكتاب الذي نكتبه حول "حكومات الفقراء").. إن التأملات والتناولات ما بعد الماركسية، المهمة والدالة مثل مقاربة "نيجري وهاردت" Negri and Hardt، حول سياسة جديدة "للاتجاهات المتعددة" في "المساحات الجذرية rhizomatic spaces" للعولمة، تظل مقاربات تحت الأرض، في منظور أي علم اجتماع سياسي واقعي. حتى في مدينة واحدة، فإن سكان العشوائيات يمكنهم تأييد تنوع متسع ومتزايد، من الاستجابات للإهمال والحرمان الهيكلي. يتراوح هذا التنوع من الكنائس الكاريزمية، والعقائد النبوعية العرافية إلى المليشيات العرقية، وعصابات الشارع، والمنظمات غير الحكومية النيوليبرالية، والحركات الاجتماعية الثورية. وعلى الرغم من عدم وجود موضوع موحد، أو تيار واحدي، في العشوائية العالمية، فهناك أعمال كثيرة جدًا من المقاومة. والحقيقة، أن مستقبل التضامن الإنساني يعتمد على مدى رفض فقراء الحضر الشديد العدائي لقبول التهميش القاتل في إطار الرأسمالية العالمية.

وهذا الرفض قد يتخذ أشكالاً ارتكاسية، وكـذلك طليعيـة: الإطاحـة بالحداثة، وكذلك بمساعي تغطية وعودها المقموعة. ولا ينبغي أن يكون من المفاجأة أن بعض الشباب الفقراء على ضواحي إسطنبول، أو القـاهرة، أو الدار البيضاء، أو باريس، يتبنون عدمية الجهاد السلفي الدينيـة، ويفرحـون بتدمير أي رمز غريب من رموز الحداثة الأكثر خيُلاء. أو تلـك الملايـين الأخرى، من المتحولين إلى اقتصاديات الكفاف الحضرية، التي تدار على يد عصابات الشوارع، ومهربي المخدرات، والمليشيات، والمنظمات الـسياسية الطائفية. وفي هذا السياق، فإن الخطابات الفكرية التي تضفي "حالة الشيطنة" على "الحروب" الدولية المختلفة ضد الإرهاب، والمخدرات، والجريمة، تعـد تفرقة عنصرية متماسكة؛ فهي تبني جـدراناً معرفيـة حـول العـشوائيات والأكواخ وعشش الصفيح، تئد أي جدال أمين يمكن أن يـتم حـول العنـف اليومي الذي يخلفه الإقصاء الاقتصادي.

وكما كان الحال في العصور الفيكتورية، فإن تجريم فقـراء الحـضر الفئوي التمييزي، ما هو إلا نبوءة محققة لذاتها، مضمونة لتشكيل مستقبل من الحرب التي لا تنتهي في الشوارع. وفيما تُختنق الطبقات المتوسـطة فـي العالم الثالث نفسها، وعلى نحو متزايد، في حـدائقها الحـضرية الخاصـة، و"القرى الآمنة" المكهربة، فإنها تفقد البـصيرة الأخلاقيـة والثقافيـة، فـي الأراضي الحضرية السيئة التي خلفوها وراءهم.

فضلاً عن ذلك، يبدو أن مخيلة الحكام تخبو وتصاب بـالهزال، أمـام التطبيقات الواضحة لعالم مكون من مدن بلا وظائف. والحقيقة أن التفـاؤل النيوليبرالي، يؤكده قدر من التشاؤم المالتوسـي Malthusian (نـسبة إلـى مالتوس وإسهاماته حول كارثة الانفجار السكاني.م)، ربمـا يكـون أفـضل تصوير له في كتابه الضخم المتنبئ بالقيامة (نهايـات الأرض والفوضـوية

القادمة The Ends of the Earth and The Coming Anarchy)، للكاتب "روبرت كابلان" Robert D. Kaplan. ولكن معظم المفكرين المتبحّرين العالميين في بيوت الخبرة السياسية، ومؤسسات العلاقات الدولية الأمريكية والأوروبية الكبرى، يعتقدون أن عليهم الآن أن يلفوا عقولهم حول التطبيقات الجيوسياسية لكتاب "كوكب العشوائيات". وكان الأكثر نجاحًا في ذلك- ربما لكونهم غير مجبرين على توفيق عقيدة نيوليبرالية مع واقع نيوليبرالي- هم الإستراتيجيون والمخططون الفنيون في أكاديمية القوات الجوية، ومركز RAND Arroyo التابع للجيش، ومعمل الحرب التابع للمارينز Marines' Quantico Warfighting Laboratory (فرجينيا). والواقع أنه في غياب نماذج أخرى، فإن وزارة الدفاع الأمريكية/ البنتاجون قد طوّرت منظورها التمييزي الخاص بها، حيال الفقر الحضري العالمي.

لقد كانت كارثة مقديشو عام ١٩٩٣، عندما أوقعت ميليشيات العشوائيات ٦٠ مصابًا بين حراس الجيش Army Rangers النخبويين، مما أجبر المنظّرين العسكريين على إعادة التفكير فيما هو معروف في البنتاجون، باسم MOUT:" أي العمليات العسكرية على الأرض الحضرية". وفي نهاية الأمر حكمت هيئة دفاع وطنية في شهر ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٧ على الجيش بأنه غير مستعد لخوض صراع مطول في الشوارع الضيقة التي تكاد تكون غير قابلة للمرور فيها، والأشبه بالمتاهات، تلك الموجودة دائمًا في مدن العالم الثالث. إن جميع الخدمات العسكرية، بتنسيق من مجموعة العمل التدريبية للعمليات الحضرية المشتركة Joint Urban Operations Training Working Group، شنت برامج طارئة للتمكن من خوض حرب شوارع، تحت الظروف العشوائية الواقعية. وقد أعلنت جريدة "كلية حرب الجيوش "Army War College" أن مستقبل الحرب يكمن في الشوارع، والمجاري،

والمباني المرتفعة، وعلى امتداد المنازل التي تشكل مدنًا معزولة في العالم... وتاريخنا العسكري الحديث مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأسماء مدن أمثال "تـوزلا" Tuzla، و"مقديشو"، و"لوس أنجلس"[!]، و"بيروت"، و"بنمـا"، و"هيـو" Hue، و"سايجون" Saigon، و"سانتو دومينجو".. ولكن هذه المواجهات لم تكن سوى تمهيد أو برولوج، افتتاحية في انتظار الدراما الحقيقية"(٨).

وبهدف المساعدة في تطوير إطار عمل مفـاهيمي أكبـر لمجموعـة العمليات العسكرية على الأرض الحضرية (MOUT)، تحـوّل المخططـون العسكريون فـي التـسعينيات إلـى مدرسـة "دكتـور سـترينجلوف" Dr. Strangelove القديمة، في مؤسسة راند RAND الكائنة في سـانتا مونيكـا. و"راند" هذا بيت خبرة لا يهدف إلى الربح، أسسته القـوات الجويـة عـام ١٩٤٨، وقد اشتهر بالألعـاب الحربيـة أرماجـادون Armageddon فـي الخمسينيات من القرن الماضي، وأيضًا بالمساعدة في وضـع إسـتراتيجيات الحرب الفيتنامية في الستينيات. ومؤسسة "راند" تلعب مـدنًا هـذه الأيـام؛ فباحثوها يفكرون في إحصاءات الجريمة الحضرية، والصحة العامة داخـل المدينة، وخصخصة التعليم العام. كما أنهم يديرون مركز أريـون Army's Arroyo Center، الذي قام بنشر مكتبة صغيرة من الدراسات حول السياقات الاجتماعية، والآليات التكتيكية للحرب الحضرية.

ومن أهم مشاريع راند، مشروع انطلق في أوائل التسعينيات، وكـان عبارة عن دراسة رئيسية، حول "كيف ستؤثر التغيرات الديموغرافية علـى الصراع في المستقبل". وكان الخط القاعدي، وفق ما وجدته رانـد، هـو أن حضرنة العالم قد أنتجت "حضرنة التمرد"– وهو عنوان تقريرهم. وهنا تحذر راند من أن "المتمردين يتبعون تابعيهم نحو المـدن، ويأسـسون 'منـاطق

---

(8) Major Ralph Peters, "Our Soldiers, Their Cities," *Parameters* (Spring 1996), pp. 43-50.

محررة" في العشوائيات الحضرية. وأنه لا مذهب الولايات المتحدة، ولا التدريب، ولا معداتها، مصممة للتعامل مع التمرد الحضري". ويركز باحثو راند على نموذج السلفادور El Salvador خلال ثمانينيات القرن الماضي، حيث الجيش المحلي لم يكن قادرًا على وقف محاربي حركة جبهة التحرير الوطني "فاراباوندو مارتي" Farabundo Marti National Liberation Front من فتح جبهة حضرية، على الرغم من الدعم الهائل المقدَّم من واشنطن. وفي الحقيقة أنه مع إدارة الجبهة عمليات التمرد بفاعلية داخل المدن، في أوائل حركة التمرد، فالمثير للتساؤل والشك هو مدى ما أنجزته الولايات المتحدة للمساعدة في الحفاظ حتى على حالة الثبات بين الحكومة والمتمردين"[٩]. ويشير الباحثون بوضوح إلى أن العشوائيات الضخمة أصبحت هي الحلقة الأضعف في النظام العالمي الجديد.

وفي وقت أحدث، قدم أحد منظِّري القوات الجوية الرواد، نقاطًا مشابهة في جريدة "القوة الجوية" Aerospace Power Journal: حيث يكتب كابتن "تروي توماس" Captin Troy Thomas في عدد الجريدة الصادر في ربيع ٢٠٠٢، "إن الحضرنة السريعة في البلدان النامية، تسفر عن بيئة لساحة قتال، تزداد غموضًا وبعدًا عن الإلمام، بقدر ما تزداد في انعدام التخطيط". وهنا يضع توماس المراكز الحضرية الحديثة الهيراركية، التي يمكن تعطيل بنيتها التحتية المركزية بسهولة، بالضربات الجوية (بلغراد) أو الهجمات الإرهابية (مانهاتن)، في مقارنة مع الأطراف العشوائية بالعالم الثالث، والمنظَّمة عبر "نظم فرعية لارسمية ولامركزية"، حيث لا توجد خطط في الوقت الذي "لا يمكن فيه تمييز مَواطِن القوة في النظام".

---

(9) Jennifer Morrison Taw and Bruce Hoffman, *The Urbanization of Insurgency: The Potential Challenge to U.S. Army Operations*, Santa Monica 1994 (on-line summary at www.eand.org/pubs/monogra[h_reports/2005/MR398.SUM.pdf).

وباستخدام "بحر القذارة الحضرية" المحيط بكاراتشي كمثـال رئـيس، يصور توماس التحدي الذي تمثله "الحرب غير النظامية"، داخـل المنـاطق والأراضي "غير العقدية، غير الهيراركيـة"، ضـد ميليـشيات "متمركـزة عشائريًا"، يدفعها "اليأس والغضب". وهو أيضًا يستشهد بالأطراف العشوائية لكابول، ولاجوس، ودوشانب Dushanbe (طاجكستان)، وكينشاسا، بوصـفها ساحات قتال كابوسية محتملة، أضاف إليها كتاب عسكريون آخرون مـرارًا وتكرارًا "بورتو برنس" Port-au-Prince. ويوصـي تومـاس، مثلـه مثـل مخططي MOUT، بالاستعانة بالتكنولوجيا المتقدمة مع التـدريب الـواقعي، ويفضّل في "مدننا الخاصة المتدهورة"، حيث "المـشاريع الـسكنية الهائلـة أصبحت غير مأهولة بالسكان، والمصانع غير مستعملة. ومـن ثـم، فإنهـا ستكون مواقع شبه مثالية لتدريبات الحرب في المدن"(١٠).

إذن، مَن بالتحديد هم الأعداء الذين سيقوم الجنود الآليون، المـدربون في عشوائيات ديترويت وأمريكا اللاتينية بإيقاعهم في متاهـة مـدن العـالم الثالث؟ بعض الخبراء يهزون أكتافهم ببساطة، ويجيبون "أيًا كانوا"!! وفـي مقالة مؤثرة حول "السياسة الجغرافية، والصراع الحـضري المـسلح، فـي أمريكا اللاتينية"، كتبها في أواسط التسعينيات، جيفري ديمارست Geoffrey Demarest، وهو باحث رائد في "فـورت ليفنـورث" Fort Leavenworth، اقترح فيها مجموعة غريبة من "الفـاعلين المعـادين للدولـة" يتـضمنون "الفوضويين المضطربين نفـسيًا"، والمجـرمين، والانتهـازيين الأشـرار، والمجانين، والثوريين، والزعماء العماليين، والوطنيين العرقيين، والمضاربين في العقارات. ولكنه في النهاية استقر علـى "منزوعـي الملكيـة" عمومًـا،

---

(10) Captin troy Thomas, "Slumlords: Aerospace Power in Urban Fights," *Aerospace Power Journal* (Spring 2002), pp. 1-15 (online edition).

و"النقابيين الجنائيين"، على وجه الخصوص. وفضلاً عن دفاعه في المقالة عن استخدام أدوات البحث المستعارة من فن العمارة والتخطيط الحضري للمساعدة في التنبؤ بالمتمرد المستقبلي، أضاف "ديمارست" أن "قوات الأمن ينبغي أن تواجه الظاهرة الاجتماعية للسكان المقصيين". وكان معنيًا على وجه الخصوص بـ"علم نفس الطفل المهجور"، حيث يعتقد الكاتب- هو وكثير من المدافعين عما يسمى بنظرية "الانتفاخ الشبابي بالجريمة"- أن أطفال العشوائيات هم الأسلحة السرية للقوى المعادية للدولة(١١).

إجمالاً، إن أفضل العقول في وزارة الدفاع الأمريكية/ "البنتاجون"، قد تجرءوا على خوض المغامرة في الطريق الذي ينساب منطقيًا من التخلي عن الإصلاح الحضري، حيث معظم مَن في الأمم المتحدة، أو البنك الدولي، أو وزارة الخارجية يخشون الذهاب. فهو، وكما كان في الماضي، "شارع يخلو من المرح"، والحقيقة أن المحاربين المراهقين المتعطلين عن العمل في "جيش المهدي" في مدينة الصدر ببغداد- إحدى أكبر العشوائيات على مستوى العالم- يسخرون من المحتلين الأمريكان، واعدين إياهم بأن طريقهم الرئيسي هو "شارع فيتنام".. ولكن مخططي الحرب لا يحنثون بوعدهم؛ فمع النقاوة باردة الدم، يؤكدون الآن أن "المدن البرية الفاشلة" في العالم الثالث- خصوصًا ضواحيها العشوائية- سوف تكون ساحة القتال المتميزة للقرن الحادي والعشرين. ولقد أُعيد تشكيل عقيدة وفكر البنتاجون، وفقًا لدعم حرب

---

(11) Geoffrey Demarest, "Geopolitics and Urban Armed Conflict in Latin America," *Small and Insurgencies* 6.1 (Spring 1995), n.p. (internet text).

وعن صعود "الديمغرافية الغربية" وتجريم الشباب، انظر الورقة المهمة من تأليف "آن هندريكسون"

Anne Hendrixson. *Angry Young Men, Veiled Young Women: Constructing a New Population Threat*, Corner House Briefing 34, Sturminster Newton 2004.

عالمية منخفضة الكثافة، ذات مدة غير محدودة، ضد القطاعات الإجرامية من فقراء الحضر. وهذا هو "صدام الحضارات" الحقيقي.

إن عقيدة MOUT– وفقًا لـ"ستيفن جراهام" Stephen Graham، الذي كتب باستفاضة عن جغرافية الحرب الحضرية– هي المرحلة الأعلى في مدرسة الاستشراق، وتتويج طويل لتاريخ من الدفاع عن الغرب، من خلال الدفاع بهلوسة عن الآخر الشرقي. ووفقًا لـ"ستيفن جراهام" أيضًا Stephen Graham، فإن هذه الأيديولوجية التقسيمية التي تصاعدت حاليًا إلى "استبداد أخلاقي" من قبل إدارة بوش؛ "تعمل عبر فصل 'العالم المتحضر'– مدن 'أرض الوطن' التي يجب 'الدفاع عنها'– عن 'قوى الظلام'، و'محور الشر'، و'عشش الإرهابيين' في المدن الإسلامية التي يسود الزعم بأنها تأوي 'الأشرار' وتهدد الصحة، والرخاء، وديمقراطية العالم 'الحر' بأكمله"(١٢).

وهذا الجدل الضلالي عن الأماكن الحضرية الآمنة، مقابل الأماكن الحضرية الشيطانية، يُملي بدوره وجود ثنائية شريرة ومستمرة في الوقت نفسه: ليلة بعد ليلة، نرى مقاتلات الهيليكوبتر التي تشبه الدبابير، تتبع الأعداء الموصومين في الشوارع الضيقة للأحياء العشوائية، وتمطرهم بنيران الجحيم، سواء في العشش والأكواخ، أو في السيارات التي تفر مذعورة.. وفي المقابل تردُّ العشوائيات– كل صباح– بمفجّرين انتحاريين، وتفجيرات محبوكة. فإذا كان في مقدور الإمبراطورية إرسال تكنولوجيات قمع أوروليه Orwellian، فإن منبوذيها– من جانبهم– لديهم آلهة الفوضى(١٣).

---

(12) Stephen Graham, "Cities and the 'War on Terror'." forthcoming in *Theory, Culture and Society*, draft, 2005, p. 4.

(13) See Mike Davis, "The Urbanization of Empire: Megacities and the Laws of Chaos." *Social Text* 81 (Winter 2004).

شكر وامتنان:

بينما كنت في مكتبة الجامعة، كان "فورست هيلتون" Forrest Hylton، خلف المتاريس في الأنديز Andes. وكانت تعليقاته العبقرية والحاسمة على هذا النص، وبشكل أعم، معرفته القديرة بالحضرنة في أمريكا اللاتينية، ثمينة ومقدَّرة. فأنا وهو نعمل على إكمال إصدار فيرسو Verso لهذا الكتاب الذي سيكتشف تاريخ ومستقبل المقاومة القائمة في العشوائيات للرأسمالية العالمية. وكتبه القادمة حول كولومبيا وبوليفيا، تعد نماذج بارعة للدراسة الأكاديمية الملتزمة، ذات الرؤية.

"طارق علي" و"سوزان واتكينز" Susan Watkins يستحقان شكرًا خاصًّا على إقناعي بتحويل "كوكب العشوائيات" (مراجعة "اليسار الجديد" ٢٦ مارس/ آذار- أبريل/ نيسان ٢٠٠٤) إلى كتاب. أما "بيري أندرسون" Perry Anderson، كما هو دائمًا، فقد أمدني بالصداقة والنصيحة من أعلى مستوى. وقد جمعتني "أنانيا روي" Ananya Roy في قسم التخطيط ببيركلي UC Berkeley لمناقشة مقالة NLR، وإني لممتن جدًا على الحفاوة والتعليقات المثيرة. وفي دار فيرسو Verso كانت "جين هيندل" Jane Hindle الرائعة محررتي الأصلية؛ ومؤخرًا، استمتعت بالعمل مع "جيلز أوبرين Giles O'Bryen و"توم بن" Tom Penn. وعلى الرغم من أنني لم ألتقِ يومًا مع أي منهما، فإن إعجابي بـ"جان بريمان" Jan Breman في كتابه The Labouring Poor in India, Oxford 2003، و"جيرمي سيبروك" Jeremy Seabrook في كتابه In the City of the South, Verso 1996، لا بد وأن يكون واضحًا جدًا، من تكرار الاستشهاد بهما في كتبهما الرائعة.

ويجعلي ابني "جاك" Kack بطل ثلاثيـــة "مغـــامرة علميـــة -science adventure" حديثة، فقد حان الوقت لإهداء كتاب إلى أخته الكبيـــرة رويـــزن Roisin. فكل يوم تجعلنى فخورًا بمئة طريقة مختلفة. (لا تقلقوا، يا أعزائـــي الصغار، كاسّاندرا موكتزوما Cassandra Moctezuma، وجـــيمس كونـــولي James Connoly، وقتكم آتٍ قريبًا).

يعيش مايك ديفيز في سان ديجو. وهو مؤلف كتب عربة بوذا Buda's Wagon، وسجناء الحلـــم الأمريكـــي Prisoners of the American Dream، ومدينة الكوارتز City of Quartz، وإيكولوجيـــا الخـــوف Ecology of Fear، والحضرنة السحرية Magical Urbanism، والإبادات الفيكتوريـــة المتـــأخرة Late Victorian Holocausts، والمدن الميتة Dead Cities.

مزيد من الثناء على كتاب كوكب العشوائيات:

"لا يمكن أن يكون ثمة شك حول مدى الإنجاز المتضمَن في كتاب كوكب العشوائيات... فهو يجبرنا وبغضبٍ؛ على مواجهة الواقع التعس لخبرة العشوائيات، والقيود المفروضة على السياسات المرتبطة بالعشوائيات في كثير من البلدان النامية".

The Times

الحقائق المذهلة تصعقنا مثل ضربات المطرقة على السندان... فقد أنتج ديفيز كتابًا يأخذ بالألباب، يجبر القارئ على الانغماس أكثر وأكثر في أرض الواقع؛ بحكم ما يسوقه من حقيقة صادمة وإحصاء وراء الآخر".

Financial Times

"إنه ريموند تشاندلر Raymond Chandler في الجغرافيا الحضرية... ففي كتابه كوكب العشوائيات يختار ديفيز أسلوب السينما الكارثية العالمية، كما صورّها وأخرجها مؤرخو الفقر في العصر الفيكتوري: "إنجلز" Engles، و"بووث" Booth، و"ديكنز" Dickens. إن حجم القذارة المعاصرة المكتشفة فيما يقوم به من مسح رائع، يفوق ما اكتشفه أسلافه بكثير، بل ويجعلهم أقزامًا... إنها لتراجيديا مبهرة".

Independent

"كتاب مليء بالتحليل الصارم القاسي، والحقائق التي توقِف القلب. فهو استكشاف رائع للطريقة التي تم بها طرد الفقراء من سكان المدينة، إلى أراضي الظل ما دون الحضرية القذرة، والمتمثلة في الأحياء العشوائية الجماعية الضخمة التي يشهدها عالمنا اليوم... ومن ثم، فإن كتاب ديفيز هذا يمثل قراءة مهمة وحيوية، لا غنى عنها".

Big Issue

"إن توصيفات ديفيز للظروف التي يتحملها سكان العشوائيات، توفر ما يكفي من أسباب لقراءة هذا الكتاب. فتحليله مليء بالقصص الأخاذة، والمأخوذة من على خط جبهة العولمة".

New Statesman

"جنبًا إلى جانب ما يوفره ديفيز من دراسات حالة، تصف ما يعنيه العيش في أحياء عشوائية، مثل فيفيلا Fevela، أو باستي Baste، أو جيسيكوندو gecekondu، أو بيدونيفل bidoniville، فإنه أيضًا يقدم لنا بورتريهًا عالميًا دقيقًا وصحيحًا... وفيما ركز المتخصصون الحضريون على قضايا المساحة واستخدام الأراضي، في مناقشتهم للأحياء العشوائية، وما ركز عليه المتخصصون في التنمية على ما يرتبط بهذه العشوائيات من قضايا الاقتصاد "اللارسمي"، فإن كتاب كوكب العشوائيات يأسر انتباهنا بوصفه تركيبة تاريخية أوسع من نوعيّ هذه القضايا كليهما".

New Left Review

المؤلف في سطور:

مايك ديفيز Mike Davis

- ولد مايك ديفيز Mike Davis عام ١٩٤٦، في فونتانا، بولاية كاليفورنيا، وهو من أبرز المعلقين الاجتماعيين، فضلاً عن كونه منظّرا في مجال العمران الحضري، ومؤرخا، وناشطا سياسيا. ويشتهر ديفيز أكثر ما يشتهر ببحوثه وتحقيقاته في السلطة والطبقة الاجتماعية في موطنه جنوب كاليفورنيا.
- وهو أستاذ متميز في قسم الكتابة الإبداعية بجامعة كاليفورنيا، ومحرر جريدة مجلة اليسار الجديد New Left Review.
- قام بتدريس النظرية الحضرية في جامعة كاليفورنيا معهد الهندسة المعمارية.
- يعرف ديفيز نفسه بأنه اشتراكي أممي وناشط ماركسي في مجال البيئة.

من أهم كتب ديفيز أيضًا:

- الوحش على أبوابنا: التهديد العالمي لأنفلونزا الطيور.

The Monster at Our Door: The Global Threat of Avian Flu (2005)

- لا أحد خارجِ عن القانون: مكافحة العنصرية وعنف الدولة في الولايات المتحدة.

No One Is Illegal: Fighting Racism and State Violence on the U.S.-Mexico Border, with Justin Akers Chacon (2006)

- عربة بودا، تاريخ مختصر للعربات المفخخة.

Buda's Wagon: A Brief History of the Car Bomb (2007)

- في مدح البرابرة: مقالات ضد الإمبراطورية.

In Praise of Barbarians: Essays against Empire (2007)

- جنات شريرة: عالم أحلام النيوليبرالية.

Evil Paradises: Dreamworlds of Neoliberalism, edited with Daniel Bertrand Monk (2007)

المترجم في سطور:

ربيع أحمد مرسي وهبه

- ولد في القاهرة، عام ١٩٧٠، تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٩٣،
- عمل أخصائيا نفسيا في أحد المراكز العلمية المتخصصة في مجال القياس النفسي وتحليل المعلومات.
- عمل مترجمًا حرًا لفترة طويلة، ترجم خلالها كثيرًا من الأبحاث والدراسات في مجال علم النفس والاجتماع والسياسة والفلسفة والعلوم.
- حصل على دبلومة العلوم السياسية في المجتمع المدني وحقوق الإنسان من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، بجامعة القاهرة عام ٢٠٠٠.

ترجم للمشروع/المركز القومي للترجمة:

- التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني، تأليف ستيفن ديلو، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، الطبعة الثانية ٢٠١٠.
- الحركات الاجتماعية ١٧٦٨- ٢٠٠٤، تأليف تشارلز تيلي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥.
- جيلُنا، تأليف: زبيدة جعفر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

- المرجع في علم النفس السياسي، تأليف دافيد سيرز، وآخرون، (مع مجموعة من المترجمين) ٢٠٠٩.
- التمكين، سياسة التنمية البديلة، تأليف جون فريدمان، ٢٠١٠.
- السلطة والرخاء، تأليف مانكور أولسون، ٢٠١٠.
- أقنعة جنسية، الفن والانحطاط من نفرتيتي إلى إميلي ديكنسون، تأليف كاميلي باليا، ٢٠١١.

ترجم لدار الساقي، بيروت:

- السلطان الخطير، الشرق الأوسط والسياسة الخارجية الأمريكية، تأليف: نعوم تشومسكي وجلبير أشقر، الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

ترجم لمؤسسة "ترانزناشونال إنستيتيوت" TNI، هولندا:

- استعادة الملكية العامة للمياه، نضال الشعوب من أجل الحق في المياه، الطبعة الأولى ٢٠٠٨.

ترجم لمؤسسة المورد الثقافي:

- إدارة الفن، تأليف جيب هاجورث، الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

يعمل حاليًا مسئول برنامج الشرق الأوسط/ شمال إفريقيا، في "شبكة حقوق الأرض والسكن"، التحالف الدولي للموئل Habitat International Coalition.

البريد الإلكتروني: rabie_w@yahoo.com

التصحيــح اللغوى : رجب عبد الوهاب
الإشــراف الفنــى : حســـــن كـــامل

وفقًا للأمم المتحدة، فإن أكثر من بليون شخص يعيشون الآن في عشوائيات مدن العالم الجنوبي، ويكشف هذا الكتاب المهم النقاب عن مستقبل عالم حضري مضطرب متفجر، ينطوي على أقصى درجات انعدام المساواة، فمن المتاريس الممتدة في "ليما" إلى تلال القمامة في "مانيلا" أصبحت "الحضرنة" معزولة عن عملية التطور الصناعي، بل عن النمو الاقتصادي.

يصور الكتاب حجمًا هائلاً من البشرية، يعيشون في مدن صفيح وعشوائيات منفيين تمامًا من الاقتصاد العالمي الرسمي. ويبرهن على أن صعود هذه البروليتاريا اللارسمية يمثل تطورًا مفاجئًا لم يتم التنبؤ به على الإطلاق، ويتساءل: هل العشوائيات الكبرى حول العالم تمثل براكين تنتظر الانفجار؟

تصميم الغلاف: نسرين كشك